

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الذِّكْرُ

إِلَى كُلِّ مَشُوفٍ صَوَّبَ الْخَوْفَ . مَا سُرِفَ تَنْفَسُ
الصَّبْحِ لَيْسَ عَلَى لَهْدَى ..

إِلَى كُلِّ بَصِيرٍ أُرِيْبَ نِزْفَ الرِّجَالِ بِالْخَوْفِ وَلَوْ
خَالَفَهُ جَمِيعُ الْوَرَى ..

إِلَى كُلِّ مَعْجَبٍ بِمَنَا لَهَجِ الْغَرِيبِ فِي النَّفْسِ لِتَحْقِيقِ
لِيَعْلَمَ أَنَّنَا وَصَدْرُ الْمَعْرِفَةِ ..

إِلَى كُلِّ مَنْ عَامَنَى أَوْ نَصَحَنَى أَوْ أَعَانَنَى
أَوْ أَبْرَدَ عَلَيَّ صَدْرَهُ فَأُرَاعِ الْجَوْعَى ..

بِهَوْنِ مُحَمَّدٍ

لوقت شامیه
بیوقت

الافتتاحية
 ~~~~~

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ  
 أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا . مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مَضَلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا  
 هَادِيَ لَهُ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده  
 ورسوله .

قال الله تعالى : ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ )

( التوبة : ١١٩ )

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا  
 بِجَهَالَةٍ ، فَتُصِحِّحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ) . ( الحجرات : ٦ )

( إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله ، وأولئك هم الكاذبون ) .

( النحل : ١٠٥ )

وقال صلى الله عليه وسلم : " إِنْ أَفْرَى الْفِرَى مِنْ قَوْلِنِي مَا لَمْ أَقُلْ <sup>(١)</sup> .

" مَنْ حَدَّثَ عَنِّي حَدِيثًا ، وَهُوَ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ <sup>(٢)</sup> .

" نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَتْ مَقَالَتِي فَوَعَاها ، وَحَفَظَهَا وَبَلَّغَهَا ، فَرَبَّ حَامِلٍ  
 فَفَقِهَ إِلَيَّ مِنْ هُوَ أَفْقَهَ مِنْهُ . . . <sup>(٣)</sup> .

وقال سعيد بن المسيب : <sup>(٤)</sup> " وقعت الفتنة الأولى - يعنى مقتل عثمان -

فلم تبق من أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية ، فلم تبق من أصحاب  
 الحديبية أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثالثة ، فلم ترتفع وفي الناس طباخ " .

( ١ ) أخرجه الشافعي في الرسالة - واللفظه - ( ص ٣٩٥ ) ، وأحمد في

المسند ( ٤ : ١٠٧ ) ، والبخارى نحوه بآتم منه رقم ( ٣٥٠٩ ) .

( ٢ ) مسلم رقم ( ٤ ) في مقدمة صحيحه ، والترمذى رقم ( ٢٦٦٢ ) . وقال  
 حسن صحيح .

( ٣ ) أخرجه الترمذى رقم ( ٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨ ) وقال : هذا حديث حسن  
 صحيح .

( ٤ ) أخرجه البخارى تعليقا . الفتح ( ٧ : ٣٢٣ ) ، وتغليق التعليق  
 ( ٤ : ١٠٥ ) ، وانظر شرح الحديث في الفتح ( ٧ : ٣٢٥ ) .

وقال<sup>(٥)</sup> محمد بن سيرين : " لم يكونوا يسألون عن الاسناد ، فلما وقعت  
الفتنة ، قالوا : سَمَّوا لنا رجالكم ، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ منهم ، وينظر  
إلى أهل البدع فلا يؤخذ منهم " .

وقال<sup>(٦)</sup> : " هذا الحديث دين ، فانظروا عن تأخذون دينكم " .

وقال عبد الله بن المبارك : " الاسناد من الدين ، ولولا الاسناد لقال

من شاء ما شاء " .

وقال<sup>(٧)</sup> سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : " لا يحدث عن رسول

الله إلا الثقات " .

---

( ٥ ) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه ( ١ : ١٥ ) .

( ٦ ) أخرجه مسلم في المقدمة ( ١ : ١٤ ) ، والشمايل للترمذي ( ص ٢٢١ ) .

( ٧ ) مسلم في المقدمة ( ص ١٥ ) . وأخرج الآثار السابقة جميعا ابن حبان

في مقدمة المجروحين .

وَقِيلَ لَكَ شِكْرًا  
بِئْسَ

## ومضات شكر وثناء

~~~~~

لقد كان من تمام نعم الله تعالى على خلقه ، إرشادهم إلى ما فيه خلاصهم في حياتهم ومعادهم . وقد اقتضت حكمته أن يعمر هذا الكون وأن يستخلف فيه الانسان ، بعد توجيهه إلى طريق سعاده . وكان مقام إرشاد الله تعالى خلقه إليه التعاون والتناصر على ما فيه خيرهم في دينهم ودنياهم .

قال تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) (المائدة : ٢)

وحيث إن من أسباب دوام التعاون والتناصر ، ذكر الفضل لأهله وشكر المنعم على إنعامه فقد رغب الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بشكره وعدم كفرانه ، ليكون ذلك طريقاً إلى شكر أصحاب الحقوق . فقال جليل وعلا : (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) (ابراهيم : ٧) وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " تنبيهاً إلى : " أن من كان من طبعه وعادته كفرانُ نعمة الناس ، وترك شكرهم ؛ كان من عادته كفرُ نعمة الله وترك شكره " .

وقد مررت في أثناء كتابة هذه الرسالة بأيام محنة قاسية ، من مرض وحزن ، وفاقة فقيض الله تعالى إلي من أعانني ، وأخذ بيدي ، حتى تم فضل الله علي بإنجاز هذه الرسالة .

وإن أول من أتوجه إليه بثنائي من خلق الله تعالى ، أمنا جامعة أم القرى المباركة ، التي فجرت بين أيدينا ينابيع العلم ، وأوقفتنا على حياضه العذبة ، فنهل كل منا بما قدر عليه وقدر له . فلا زالت عامرة بالخير والبركة والعلم النافع ، سائرة في طريق الرقي والسمو والكمال . وإلى إداريتي جامعة المباركة وأفرشكري ، وعاطر ثنائي ، فما منهم إلا من له في عنقني

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً رقم (١٩٥٥) ، وقال : هذا حديث حسن صحيح . والحديث صحيح بشواهده المتكاثرة وانظر جامع الأصول (ص ٥٥٨ - ٥٦١) .

منة وكلهم قد قدّم إلى ما يشكر عليه .

ولا يسعني إلا أن أخض إدارة كلية الشريعة ، وعمداءها الأفاضل الذين عاصرتهم ووكلاءها الكرام على جهودهم ، وتقديرهم لظروفي الصحية والعلمية ، فلم أسمع ولم يبلغني تأفف من أحد منهم على تأخرى في إنجسماز رسالتي العلمية ، التي كان لسعة موضوعها ، وظروفي الخاصة بالغ الأثر في ذلك . فجزاهم الله جميعاً خيراً الجزاء .

وقد كان لأستاذي الفاضل النبيل سعادة الدكتور أحمد محمد نور سيف اليد البيضاء في عوني ، ومتابعتي ، وتشجيعي على مواصلة البحث والدراسة ، حتى أثمر غرسه وأينع . وسأظل أشكر له عناية وصبره وتحملاته مراجعاتي الكثيرة على الهاتف وفي بيته طيلة أربع سنوات خلت . وإن ما أفدته من سامي خلقه ، وجم أدبه لهو أغلى عندي مما حباني إياه من غزير علمه ونديق تحريره .

أما أستاذي المكرّم صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أديب الصالح ، فقد كان نعم الوالد والمرشد . وقد تفضّل بقراءة فصول كثيرة من هذه الرسالة ، وقدم إليّ ملحوظات علمية ومنهجية غالية ، لهي عندي - على رفعتها - مصلية عن سوابق بره وتوجيهه ونصحه وتشجيعه ، وتفقدته المستمر في أثناء مرضي ، وشتي ظروفي الخاصة .

وإلى الأخوة الأطباء والجراحين والعاملين في أقسام الجراحة بمشافي الرياض المركزي والدّمام المركزي ، ومشفى الأورام في الكويت عظيم شكري وامتناني ، وعرفاني بما بذلوه من جهود في إتقان العمليات الجراحية التي أجريتها . وفي مقدمة هؤلاء الأفاضل الجراح البارّ الدكتور هانسي المنياوي رئيس قسم الجراحة العصبية في مشفى الدمام المركزي ، ورئيس أطبائه ، فقد كان لنجاح عملية (الانزلاق الغضروفي) التي أجراها لي في صلي - بتوفيق الله إياه وتسديده - أعظم العون في متابعة رسالتي وإنجازها . ومثل هذا العمل الكبير في حجمه ، يحتاج إلى جهود متضافرة وتعاون صادق ، حتى يؤتي أكله . وقد قام بعض الاخوة بمساعدتي في إعداد إعداد فهرس أبجدية لبعض كتب الرجال ، وقام بعض بمساعدتي في إعداد

الْفَسْحُ لِلدُّوَلِ
بِسْمِ اللَّهِ

الإمام ابن حبان ودراسة
آثاره العالمية

المقدمة

في لجة هذا الخضم المتلاطم من التيه والضياغ، وفي تجرد هاتيك
البيداء القاحلة العريان . وفي زحمة تصارع الأهواء المدلهمة الشسرود
تتطاول النفس ولهي . تتلمظ جرعة عذبة تخفف من عنفوان الأجاج ، أو تطفىء
غلة الظم الفاجع، أو تهدي إلى سواء السبيل . . .

إن المجتمع الانساني اليوم تتنازعه معسكرات ثلاثة غارقة في وحل
الهوى ، وهائمه في جفاف الفكر والضمير، وتنساق البقية الباقية منها متعادية
متحاربة ، من وراء اختلافات فكرية وعقدية وسلوكية ، خالية من معاني
الخير والبركة والعطاء والنماء، غير مشدودة بحبل ما ، إلى أعالي السماء .

ترى . . أين يقف المسلم اليوم ؟ ومتى يتحرك ، وفي أي اتجاه يسير ؟
ترى . . هل أصاب المسلمين ما أصاب غيرهم من الأمم ، ضياعاً
واتباع الشهوات ، وأثرة اللذات ؟

وهل نخر فيهم سوس الجفاف الفكري والشعوري ، فصاروا هياكل
جامدة ، ليست فيها حياة الايمان ، ولا روح الاسلام ، ولا ندى القرآن ؟
وهل اصطلح المسلمون على الخصام ، والعداوة ، والحقد ، والحسد
والاتهام ؟

أم أين المسلمون اليوم ؟ وكيف يتوجهون ، وإلى أين ؟
في أثناء هذه التساؤلات الكثيرة وغيرها ، يقرع المسامع نداء عاتب
شفيق : " لا تقوم الساعة ، حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر
وذراعاً بذراعاً " .

فقيل : يارسول الله ، كفارس والروم ؟ فقال : " ومن الناس إلا أولئك"^(١)
ويردف : " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً شبراً ، وذراعاً ذراعاً ، حتى
لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم " قلنا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال
" فمن"^(٢)

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم

" لتتبعن سنن من كان قبلكم " رقم (٧٣١٩) ، وغيره .

(٢) ماسبق ، الموضع نفسه رقم (٧٣٢٠) .

أجل . . لقد حذا المسلمون حذو فارس والروم في مد نيّتهم ونظمهم وإداراتهم، وجبروتهم، وتكالبهم على حطام الدنيا، وشاركوهم، أو استنوا بهم في أفراحهم وأتراحهم وسائر مظاهرهم . فإذا كان هذا، فلا بد من أن يرافقه الأثرة والتعاطف والتشاح، تحقيقاً للتنبؤ الحزين : " ذب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء، هي الحالقة، لا أقول : تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين ^(٣) .

وقد تحقق ما حذّر منه الحبيب الشفيق، ولم نغد من تحذيره الأكيد : " إياكم وسوء ذات البين، فاتها الحالقة . . ^(٤) .

ترى : هل وصلنا إلى سوء ذات البين ؟ أم غرقنا في مستنقعها — وسكرنا في مناتنها، حتى اقترب منا الوعيد الرهيب :
" يذهب الصالحون، الأول، فالأول، ويبقى حفالة كحفالة الشعير لا يباليهم الله بالة !! ^(٥) .

أجل أقول : اقترب، ولا أقول : تحقق، لأن في المسلمين بقايا خسير نرجو أن تفيض، وقبس من نور الله نأمل أن يستنار به، وذخيرة من تراث النبوة نسعى أن يهتدى بهديها، وتحتذى في المسير . حتى يأتي أمر الله تعالى . قال حذيفة بن اليمان ^(٦) رضى الله عنه :

" كان الناس يسألون النبي عن الخير، وأسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت : يارسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : " نعم " قلت : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : " نعم، وفيه دخن " . قلت : وما دخنه ؟ قال

(٣) أخرجه أحمد في مسنده رقم (١٤١٢، ١٤٣٠، ١٤٣٢)، والترمذى (٢٥١٠) في صفة القيامة، وذكر الخلاف حول انقطاعه واتصاله . وفي أسناده ضعف، لعله يتقوى بشواهد، ومنها الذى يليه .

(٤) أخرجه الترمذى في صفة القيامة رقم (٢٥٠٨) وقال : صحيح غريب من هذا الوجه . وفسر الحديث بالعداوة والبغضاء .

(٥) أخرجه البخارى في الرقاق باب ذهاب الصالحين رقم (٦٤٣٤) . وقال البخارى : يقال : حفالة وحتالة يعنى : بمعنى . والحتالة : هى الردى من كل شيء . وحتالة الناس سقطهم . انظر الفتح (١١ : ٢٥٢) .

(٦) أخرجه البخارى في الفتن رقم (٧٠٨٤)، وانظر كلام الحافظ فى الفتح (١٣ : ٣٥) فما بعد . وأخرجه مسلم فى الامارة رقم (١٨٤٧)، وغيرهما .

" قوم يهدون بغير هدى ، تعرف منهم وتنكر " . قلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : " نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها ، قذفوه فيها " . قلت : يا رسول الله ، صفهم لنا ، قال : " هم من جلدتنا ، ويتكلمون بألسنتنا " . قلت : فما تأمرني إن أدركني ذلك ؟ قال : " تظن جماعة المسلمین وإمامهم " قلت : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : " فاعتزل تلك الفرق كلها ، ولو أن تعض بأصل شجرة ، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " .

فترجو أن يكون المسلمون اليوم في طريقهم إلى تحقيق الخير المشوب بشيء من الكدر مادام الخير صافياً غير مقدور ، لأمثالنا .

ومما يدل على أننا في طريقنا إلى ذلك الخير ، ولم نتجاوزه إلى عصر الحياة مع الدعاة على أبواب جهنم قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً عاضاً ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون ملكاً جبرياً ، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة " (٧) .

فنحن نعيش اليوم في العالم الإسلامي كله حياة الملك الجبري وسيرفعه الله متى شاء أن يرفعها ، ثم تكون الخلافة على منهاج النبوة .

فما منهاج النبوة ، وما مصادره معرفته ؟

أما منهاج النبوة ، فهو طريق النبي صلى الله عليه وسلم في الوصول إلى تحقيق حكم الله في الأرض ، مُسَدِّداً من الله تبارك وتعالى بالوحي والتأييد . وإبراز هذا المنهج وتحديد أطره ، وبيان محاسنه ، ورسم هيكله ، إنما يقوم السياسيون الشرعيون به .

(٧) أخرجه أحمد في المسند (٤ : ٢٧٤) وقال الهيثمي في المجمع (٥ : ١٨٩) : رواه أحمد والبخاري بإتم منه ، والطبراني ببعضه في الأوسط ، ورجاله ثقات . وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم

وأما عملنا نحن - أهل الحديث - فهو في دراسة مصادر هذا المنهج وسببها وتصنيفها حسب مراحل الحياة الإسلامية المقبلة .

والقيام بتمييزها إلى نصوص محتج بها ، ونصوص غير محتج بها .
وقد قام علماء الجرح والتعديل بدراسة أحوال رواة الأحاديث وتتبع سيرهم وتصنيفهم في سلم الجرح والتعديل .

كما قاموا بدراسة النصوص المروية ، وأبرزوا عللها ، وبينوا القادح من غير القادح من هذه العطل ، فكانت النصوص عندهم على ثلاثة أقسام :

(١) نوع اتفق أهل العلم بالحديث على صحته ، وهذا على ضربين :

(أ) أحدهما : أن يكون مروياً من أوجه كثيرة .

(ب) والضرب الثاني : أن يكون مروياً من جهة الآحاد .

(٢) وأما النوع الثاني من الأخبار، فهي أحاديث اتفق أهل العلم بالحديث

على ضعف مخرجها ، وهذا النوع على ضربين :

(أ) ضرب رواه من كان معروفاً بوضع الحديث ، والكذب فيه .

فهذا الضرب لا يكون مستعملاً في شيء من أمور الدين ، إلا على وجه

التلويح .

(ب) وضرب لا يكون راويه متهماً بالوضع، غير أنه عرف بسوء الحفظ، وكثرة

الغلط في رواياته ، أو يكون مجهولاً لم يثبت من عدالته ، وشرائط قبول خبره

ما يوجب القبول .

فهذا الضرب من الأحاديث لا يكون مستعملاً في الأحكام ، كما لا تكون

شهادة من هذه صفته مقبولة عند الحكام . وقد يستعمل في الدعوات والترغيب

والترهيب ، والتفسير والمغازي فيما لا يتعلق به حكم . .

(٣) وأما النوع الثالث من الأحاديث ، فهو حديث قد اختلف أهل العلم

بالحديث في ثبوته ، فمنهم من يضعفه بجرح ظهر له من بعض رواياته

خفي ذلك على غيره ، أو لم يقف من حاله على ما يوجب قبول خبره

وقد وقف عليه غيره ، أو المعنى الذي يجرحه به لا يراه غيره جرحاً

أو وقف على انقطاعه ، أو انقطاع بعض ألفاظه ، أو ادراج بعض رواياته

قول رواه في متنه ، أو دخول إسناد حديث في حديث ، خفي ذلك على

غيره .

فهذا الذى يجب على أهل العلم بالحديث بعد هم أن ينظروا فى اختلافهم ، ويجتهدوا فى معرفة معانيهم فى القبول والرد ، ثم يختاروا من أقوالهم أصحها^(٨) .

وقد قام كثير من علماء الأمة بدراسة أسباب جرح المحدثين ، ضمن مصنفاتهم فى علوم الحديث ، أو فى أثناء كلامهم على الرواة فى كتب الرجال والعلل ، أو فى تعقيباتهم على الأحاديث التى يروونها ، كما نته كثير منهم إلى ما يصلح أن يكون سبباً جارحاً يسقط به الراوى ، أو علة قاذحة يرد بها الحديث .

بيد أنه لم يقم أحد من المتقدمين بدراسة مناهج أئمة النقد ، وتفسير مصطلحاتهم وموازنتها بأقوال غيرهم من أبناء صنعتهم . كما لم يقم أحد بحصر ألفاظ^(٩) النقد ، ودراسة مدلولاتها عند أئمة النقد ، أو عند واحد منهم .

وقد خطا هذا العلم خطوات وثيدة فى عصرنا الحاضر ، والتفت العلماء إلى توجيه طلبة العلم الراغبين بالتخصص فى هذا العلم ، إلى أمثال هذه الدراسات النقدية الجادة فكتب أحد طلبة العلم عن نشأة النقد وتطوره حتى عهد التدوين ، وكتب آخر عن أسباب اختلاف المحدثين فى قبول الأحاديث وردها ، وكتب ثالث عن حصر ألفاظ الجرح والتعديل فى كتاب تهذيب التهذيب ، وكتب غيرهم فى منهج الامام أبى حاتم الرازى فى النقد ونحو هذه الأبحاث العلمية التى تهدف إلى فهم هذا العلم وتقريبه وتيسيره ومحاولة الافادة منه فى حياتنا العلمية ، الحاضرة والمقبلة .

وقد تتبعت كل هذه الأبحاث العلمية وغيرها ، فوجدت أصحابها فى أكثر مباحثهم لم يتحرروا من هيبة المتقدم ، ورهبة مخالفته ، ولما كنت أجسد فيها مباحث إحصائية جادة ، بُنيت عليها دراسات علمية ناقصة خلصت إلى نتيجة علمية متحررة - على ما فى هذه الأبحاث وأمثالها -

(٨) المدخل الى دلائل النبوة للامام البيهقى (١ : ٣٢ - ٣٨) ملخصاً مع المحافظة على عبارته .

(٩) كما نته إلى ذلك الامام السخاوى فى فتح المغيـث ، وأشار إلى أن الحافظ كان يلهج فى ذلك فما تيسر له .

من خير ونفع وبركسة .

وقد كان أكثر ما يسترعي انتباهي في دراساتي الحديثية أمران :
 (١) الأول : اختلاف العلماء المتأخرين في شخصية ابن حبان ومنهجه
 في الجرح والتعديل ، واضطرابهم في فهم منهجه في الأنواع
 والتقسيم ، ثم طعن بعضهم في رجال كتابه (الثقات) حين يريد
 تضعيف حديث يراه هو ضعيفا لا يوافق معتقده ومذهبه .
 أو يحتج بتوثيقه إذا كان الحديث على ما يشتهى هو مذهباً ومعتقداً ؟
 فكنت أحار من هذا التناقض ، والتضارب بين أقوال الرجل الواحد
 في الكتاب الواحد . .

(٢) والثاني : اختلاف العلماء في مدلول مصطلحات الامام الترمذى فى
 كتابه الجامع ، على نحو من عشرة أقوال ، وعدم تصريح ، أو تلميح واحد
 منهم بأنه قام باحصائية علمية لهذه المصطلحات ثم توفّر على دراستها
 دراسة علمية ناقدة متحررة على ضوء شجرة رواية الترمذى ، وتخرجته
 لهم ، وتوافق أحكامه أو اختلافها بين حديث وآخر ، وبيان ذلك
 بالأدلة الواضحة التى تُقيم الحجة وتُلزم بالتسليم ، ثم نتابع استخدام
 هذه المصطلحات التى لم تستخدم بعد صاحبها إلا لماماً ، وكيف ؟
 وقد اخترت فى هذه المرحلة العلمية التخصصية الأولى (الماجستير)
 دراسة (الامام ابن حبان ومنهجه فى الجرح والتعديل) . وأرجو أن أوفّق
 إلى دراسة (الامام الترمذى ومصطلحاته فى كتابه الجامع) فى بحث علمى
 آخر ، وما ذلك على الله بعزيز .

وقد قسمت رسالتى هذه إلى قسمين رئيسين :

(أ) القسم الأول : الامام ابن حبان ودراسة آثاره العلمية ، وقد حوى
 ثلاثة أبواب من هذه الرسالة :

(١) الباب الأول منها عصر الامام ابن حبان من النواحي السياسية
 والاجتماعية والاقتصادية ، والحربية والعلمية والعقدية والسلوكية
 باعتباره عصر الصراع الأكبر بين الفرق التى تنتسب إلى الاسلام
 وتخضع للخلافة العباسية أو تقارعها .

(٢) وتناول الباب الثانى : حياة الامام ابن حبان الشخصية ، والعلمية والمذهبية ، والسياسية ، والخلقية ، ومناقشة الاتهامات التى وُجِّهت إليه .

(٣) وتناول الباب الثالث : دراسة مصنفاته التى وقفت على أسمائها أو اطلعت عليها مطبوعة كانت أو مخطوطة ، وإعطاء صورة واضحة عن كل واحد منها .

(ب) والقسم الثانى : منهج الامام ابن حبان فى الجرح والتعديل . وقد اشتمل على خمسة أبواب من هذه الرسالة :

(٤) كان الباب الأول منها - وهو الرابع فى تسلسل أبواب الرسالة - عن تاريخ علم الجرح والتعديل وأبرز أعلامه حتى نهاية القرن الرابع الهجرى .

(٥) وكان الباب الخامس عن مصادر النقد وخطواته عند ابن حبان .

(٦) وأما الباب السادس فتناول دراسة مقارنة عن العدالة بين المحدثين وابن حبان .

(٧) وتناول الباب السابع : دراسة مقارنة عن الضبط بين المحدثين وابن حبان .

(٨) وتناول الباب الثامن : ألفاظ النقد ودراستها عند ابن حبان .

وكانت خاتمة البحث عددا من النتائج الهامة التى توصلت إليها من معاناتى فى هذا البحث ، وبعض المقترحات التى أوجهها إلى أساتذتى العلماء ، وإخواني طلبة العلم .

ولما كان مثل هذا العمل العلمى ، لا يستوى على سوقه ، ولا يؤتى ثماره ، مالم يرافق الأمور النظرية تطبيقات عملية تؤكد حقيقتها ، أو تصحح عبارتها ، أو تنفي وجودها فقد قمت بالأعمال التكميلية الواجبة الآتية :

(١) أعددت شجرة لرجال ابن حبان فى كتاب (موارد الظمان) حتى أقوم بدراسة من يلزم دراسة حديثة من الرواة عنده ، وحتى أقارن بين رجاله ورجال الشيخين ، ودرجاتهم فى سلم النقد .

وقد كنت أرغب باعداد شجرة رجال ابن حبان فى صحيحه كاملاً بيد أننى جهدت ، ولم أستطع الحصول على نسخة كاملة من (ترتيب صحيح ابن حبان) ولما تيسر ذلك ، كان قد فات الأوان .

(٢) أعددت معاجم للرواة الذين جرحهم الحافظ ابن حجر من رجال الصحيحين. وخرجت أحاديث رواية مصطلح (مقبول) و (مجهول) (مجهول الحال) و (مستور) من الصحيحين ، لأن معظم رواية هذه المصطلحات ممن ليس له إلا راو واحد . وقد كان عدد رواية هذه المصطلحات الأربعة خمسة عشر راوياً ومائة راو .

كان الشيخان قد اتفقا على إخراج حديث ثمانية ممن قال فيهم الحافظ (مقبول) وانفرد البخاري بتخريج أحاديث لتسعة وعشرين راوياً ، وانفرد مسلم بالتخريج لسبعة وخمسين راوياً من هـذا المصطلح ، بينما خرج ابن حبان عن تسعة وأربعين مقبولاً ومائة مقبول .

واتفق الشيخان على إخراج حديث مجهول واحد ، بينما انفرد البخاري بالتخريج لثلاثة مجاهيل وانفرد مسلم بالتخريج عن أربعة منهم .

واتفقا على إخراج راو واحد مستور ، وانفرد البخاري بالتخريج عن ثلاثة منهم وانفرد مسلم بواحد . ولا حاجة بنا إلى استعجال ما يتعلق بابن حبان ، فكل ما يأتي في موضعه .

(٣) قمت بإعداد سبعة ملاحق علمية بنيت عليها هذه الدراسة النقدية

١ - الملحق الأول :

خصصته لرواة مرتبة الاحتجاج ، فجمعت الرواة الذين وصفهم ابن حبان بوصف من أوصاف التوثيق التي يُحتج بمن وصف بها .

٢ - الملحق الثاني :

وخصصته لرواة مرتبة الاعتبار ، فقد جمعت الرواة التي طعنهم ابن حبان طعوناً لا تسقط عد التهم الحديثية ، وإنما تحطهم عن درجة الاحتجاج إلى درجة النظر والاختبار ، أو درجة الاعتبار ، ويسميتهم ابن حبان بالمقبولين . وقد تجد بين هؤلاء رواة متروكين ، وعذري في عدم تمييزهم عن المقبولين ، هو أن ابن حبان قد أطلق على هؤلاء وأولئك اللفظة

النقدية ذاتها ، وحين الدراسة الفردية لكلِّ راوٍ ، كنت أحد درجاته فسي سلم القبول أو الترك - إن تيسر لي ذلك - وأنبه على هذا في أثناء دراسة الألفاظ النقدية في الباب الثامن .

٣ - الملحق الثالث :

وخصته لرواة مرتبة الترك ، وقد جمعت فيه الرواة الذين حكم ابن حبان باستحقاقهم الترك - وإن كان بعضهم - لم يصل إلى هذه المرتبة عند غيره من النقاد ، أو في نفس الأمر .

وقد ضمت هذه الملاحق الثلاثة كل الرواة الذين تكلم عليهم ابن حبان بجرح أو تعديل في كتابيه (الثقات والمجروحين) وزادوا على ثلاثة آلاف رجل وخمسمائة رجل . وقد تجد الراوي الواحد يتكرر ذكره تحت عدة إحصاءات نقدية ، وهذا لم يفتنا معرفته ، ولكننا رضينا بالتكرار لتستوفي الدراسة كل لفظ نقدي أطلقه ابن حبان ، مهما تنوعت طريقة إطلاقه إياه .

وقد زادت الألفاظ النقد عند ابن حبان على مائتي لفظ ، بعضها ينفرد بمدلول خاص ، والبعض يجمعه وغيره معنى مشترك ، وقد بينت ذلك كله في موضعه من الباب الثامن .

٤ - الملحق الرابع :

خصته للرواة الذين ترجمهم ابن حبان في كتابيه الثقات والمجروحين وقد قمت بتفسير هذه الظاهرة ، ونهت إلى أن كثيرا من الرواة الذين يقول الحافظ فيهم : ذكره ابن حبان في الثقات ، وذكره في المجروحين ، لا يسلم للحافظ قوله ، أو على الأقل : كان عليه أن يكمل العبارة فيقول مثلا : ذكره في المجروحين وقال كذا . وذكره في الثقات وقال : ضعيف . ويكون ابن حبان قد ذكره في أثناء ترجمة واحد من الثقات ، قد ضعفه بعض الحفاظ لرواية هذا الضعيف عنه ، أو روايته هو عن هذا الضعيف ونحو هذا .

٥ - الملحق الخامس :

خصته للرواة الذين خرج لهم الشيخان ، أو أحدهما وجرحهم ابن حبان في كتابه (المجروحين) .

٦ - الملحق السادس :

وخصته لشيخ ابن حبان الذين زاد عددهم على خمسمائة شيخ في
سائر كتبه الموجودة .

٧ - الملحق السابع :

وجعلته للبلدان التي رحل اليها ابن حبان وتلقى فيها عن مشايخه
هذا العلم ، وكانت أكثر من مائة بلد مُصَرَّح بها ما بين إسفيجاب والاسكندرية .
ثم جعلت فهرساً لمصادر البحث ومراجعته ، وفهرساً عاماً للموضوعات .
وبعد :

فإنتى لأدعي في عملي هذا الكمال ، ولا مايقاربه ، وحسبي أنسني
بذلت قصارى جهدي ، وقصوى طاقتي ، فإن كنت قد أصبت وقاربت ، فمَحْضُ
فضلِ الله عليّ وتوفيقه ، وإن كانت الأخرى - لا قدر الله - فمن نفسي الخاطئة
ومن الشيطان الرجيم .

ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الظالمين
وصلّى الله وسلّم وبارك على عبده ونبيّه مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، وعلى آله وحزبه
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . . .

كتبه / عدا ب بن محمود الحمش

مكة المكرمة في ١/٦/١٤٠٦هـ

الباب الأول

عصر الإمام ابن حبان

محتويات الباب الأول

الفصل الأول : الحياة السياسيّة في عصر ابن حَبَّان .

وفيه أربعة مباحث :

- (١) المبحث الأول : الخلفاء الذين عاصروهم ابن حَبَّان .
- (٢) المبحث الثاني : أصحاب النفوذ في الدولة .
- (٣) المبحث الثالث : الدول المستقلّة في ظلّ الخلافة العباسيّة .
- (٤) المبحث الرابع : الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية .

الفصل الثاني : الثورات والفتن الداخليّة في عصر ابن حَبَّان .

وفيه أربعة مباحث :

- (١) المبحث الأول : ثورة الزنج .
- (٢) المبحث الثاني : ثورة القرامطة .
- (٣) المبحث الثالث : ثورات الخوارج .
- (٤) المبحث الرابع : ثورات العلويين .

الفصل الثالث : الحروب الخارجية في عصر ابن حَبَّان .

وفيه مبحثان :

- (١) المبحث الأول : الحروب في-الجبهة الشرقيّة .
- (٢) المبحث الثاني : الحروب ضد الرومان .

الفصل الرابع : الحياة الاجتماعيّة في عصر ابن حَبَّان .

وفيه مبحثان :

- (١) المبحث الأول : طبقات المجتمع .
- (٢) المبحث الثاني : أخلاق المجتمع وعاداته .

الفصل الخامس : الحياة الفكرية والعقدية في عصر ابن حبان .

فيه : تمهيد .

- (١) المبحث الأول : الاشاعة .
- (٢) المبحث الثاني : الحنابلة .
- (٣) المبحث الثالث : مذهب ثالث في الصفات .
- (٤) المبحث الرابع : الزهد والتصوف .

الفصل السادس : الحياة العلمية في عصر ابن حبان .

- (١) المبحث الأول : أسباب نشاط الحركة العلمية .
- (٢) المبحث الثاني : تعدد الأنشطة العلمية وتنوعها .
- (٣) المبحث الثالث : العلوم الشرعية .

الفصل السابع : بيئة الإمام ابن حبان في بَست .

- (١) المبحث الأول : التاريخ السياسي لمدينة بَست .
- (٢) المبحث الثاني : جغرافية مدينة بَست وعمارتها .
- (٣) المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في (بَست) .
- (٤) المبحث الرابع : الحياة العلمية في مدينة (بَست) .

الفصل الأولالحياة السياسية في عصر ابن حبان

تمهيد :

إذا قَدَرْنَا ولادة الإمام ابن حبان في نهايات العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى (٢٧٠ - ٢٧٩ هـ) فيكون ابن حبان قد ولد في نهاية خلافة المعتضد على الله ، الذى تولى الخلافة سنة ست وخمسين ومائتين وتوفي سنة تسع وسبعين ومائتين ، أو في أوائل خلافة المعتضد بالله .

وتوفي ابن حبان في زمن الخليفة المطيع . قال رحمه الله : (١) المطيع ابن المقتدر: الفضل بن جعفر بن محمد بن أحمد بن طلحة بن جعفر هوياق لا أدري ما الله صانع به ، إلا أنه خليفة ، يموت أو يقتل لامحالة ، لأن له أسوة بمن فقدهم ، والله أعلم . وعلى هذا فإن ابن حبان قد عاصر تسعة من خلفاء بني العباس ، معظمهم قتل قتلاً ، أو مات مسموماً ، أو مسموماً أو بالسجن .

وقد عاصر ابن حبان نفوذ الأتراك (٢٣٢ - ٣٢٤ هـ) كما عاصر وعانى من نفوذ البويهيين الشيعة إلى نهاية حياته . ويحسن أن نعرض الحالة السياسية في مباحث متعددة ، ليسهل اختصار أحداث جسام وسنين متطاولة في صفحات عديدة .

(١) الثقات لابن حبان (٢ : ٣٣٢ - ٣٣٦) ، وقارن بتاريخ الخلفاء للسيوطى (ص ٤٠٥) .

المبحث الأول : الخلفاء الذين عاصروهم ابن حبان

أول الخلفاء الذين يحتفل أن تكون ولادة ابن حبان في نهاية عصره المعتمد على الله أحمد بن المتوكلي^(١) (٢٢٩-٢٧٩هـ) . وقد بُويع بالخلافة سنة ست وخمسين واستمر فيها إلى وفاته ، ولم يكن المعتمد رجلاً سياسياً وكان أخوه الموفق طلحة^(٢) رجل الدولة الحقيقي ، وقد كانت له أياد بيضاء على الدولة في خلافة أخيه ، فقد حارب الزنج ، والصفار ، والروم والخوارج إلى أن توفي سنة ثمان وسبعين ومائتين .

وتولى الخلافة بعد المعتمد ، ابن أخيه المعتضد بن الموفق^(٣) أحمد بن طلحة بن جعفر (٢٤٢-٢٨٩هـ) في سنة تسع وسبعين ومائتين وكان ملكاً مهيباً شجاعاً ، يُقدّم على الأسد وحده . قال : والله ما سفكت دماً حراماً منذ وليت الخلافة ، وله قصص تدل على فراسته ، وذكاة عجيب أشار إلى بعضه الذهبي وقد حارب الزنج ، وقتل الأسد بسيفه ، وما ذكره على لسانه لظة أكثراته به . وقد ساد العدل في زمنه وانتشر الأمن ، وأسقط المكوس ، وقبّل من الظلم . وكان يحبّ علياً وآل بيته . وحارب القرامطة وغيرهم من المارقين إلى أن توفي .

وجاء بعده ابنه المكتفي بالله^(٤) : علي بن أحمد بن طلحة (٢٦٤-٢٩٥هـ) وبُويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة تسع وثمانين ومائتين

(١) انظر أخباره في الثقات (٢: ٣٣٢-٣٣٣) ، تاريخ الرسل والملوك للطبري (٩: ٤٧٤) ، تاريخ مدينة السلام (بغداد) (٤: ٦٠) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢: ٥٤٠) ، تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٣٦٣-٣٦٨) .

(٢) انظر بعض أخباره في النبلاء (١٢: ٥٤٠-٥٥٢) والمراجع السابقة .

(٣) الثقات (٢: ٣٣٣) ، الطبري (١٠: ٢٠-٢٢) ، ومواضع ، تاريخ بغداد (٤: ٤٠٣) ، النبلاء (١٣: ٤٦٣) ، البداية والنهاية لابن كثير (١١: ٦٦) ، تاريخ الخلفاء (ص ٣٦٨) .

(٤) الثقات (٢: ٣٣٣-٣٣٤) ، بغداد (١١: ٣١٦) ، المنتظم (٦: ٣١) ، النبلاء (١٣: ٤٧٩) ، البداية والنهاية (١١: ٩٤) ،

وظل يحارب الروم والقرامطة إلى أن توفي ، وكان وسيماً يضرب بحسنه المثل في زمانه .

وجاء بعده المقتدر: جعفر^(١) بن أحمد بن طلحة (٢٨٢-٣٢٠ هـ) ،
 وُبيع بالخلافة سنة خمس وتسعين . وللمؤرخين أنظار متعددة في عهده .
 قال الذهبي : (بويغ بعد أخيه المكتفي في سنة خمس وتسعين
 ومائتين ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة وما ولي أحد قبله أصغر منه ، وانخرم نظام
 الإمامة في أيامه ، وصغر منصب الخلافة . وقد خلع في أوائل دولته ، وباعوا
 ابن المعتز ، ثم لم يتم له ذلك ، وقتل ابن المعتز وجماعة ، ثم إنه خلع ثانية
 في سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، وبسفل خطه بعزل نفسه ، وباعوا أخاه
 القاهر ، ثم بعد ثلاث أعيد المقتدر ، ثم في المرة الثالثة قتل) .

ووصفه الذهبي وغيره باللعب ، والشغف بالجواري ، وعدم الالتفات إلى
 أمور الدولة ، وساد في عصره أهل الشغب ، ووصل القرامطة إلى الكوفة ، وكان
 متلاًفاً محق مالا يعد ولا يحصى من الأموال .

بينما قال ابن حبان عن زمن المقتدر بعد قتل ابن المعتز : (استوى
 أمر المقتدر ، وهدأت أمور الناس ، وصار الناس كأنهم نيام لا يحسبون بفتنة
 وعمت والدته (شغب) الحرميين وبيت المقدس ، وكانت تنفق عليهما وطلبي
 الشغور في كل سنة أموالاً خطيرة ، وارتفع أهل العلم في كل بلد من الدنيا .
 ورأيت بغداد في تلك الايام أطيب ما كانت ، وأجلها ، وأعمرها ، ثم
 أثناء أمور المقتدر عليه سنة ست عشرة وثلاثمائة ، واتفق الناس على خلعه
 فخلعوه ، وأعدوا أخاه القاهر مكانه ، بعد أن خلع المقتدر نفسه ، فبقي
 القاهر ثلاثة أيام كذلك ، ثم خلع نفسه ، وباع الناس المقتدر ثانياً ، وعمس
 المقتدر إلى آخر سنة عشرين وثلاثمائة ، ثم اضطرب الجيش ، وهيجهم مؤسس
 الخادم على المقتدر ، فركب المقتدر بنفسه ليسكن القوم ، وعليه برودة رسول
 الله صلى الله عليه وسلم . فبينما هو واقف ومعه الخلق من الجنود
 إذ جاءه رجل بربري لا يعرف من هو ، فتوهموا أنه يريد أن يسلم عليه ، فلمَّا

(١) الثقات (٢: ٣٣٤) ، النبلاء (١٥: ٤٣) ، بغداد (٧: ٢١٣) .

دنا منه رماه بحريته ، وذلك يوم الثلاثاء^(١) ، لثلاث بقين من شوال سنة عشرين
وثلاثمائة . ا . هـ .

وَوَلِيَّ بَعْدَهُ أَخُوهُ الْقَاهِرُ بِاللَّهِ^(١) مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ جَعْفَرِ
(٢٨٦ - ٣٣٩ هـ) وَيُؤَيِّجُ بِالْخِلَافَةِ وَقَتَ مَصْرَعِ أَخِيهِ الْمُقْتَدِرِ ، وَيَقِي فِي الْخِلَافَةِ
سَنَةً وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ كُحِلَ - سَمِلَتْ عَيْنَاهُ - وَيَقِي إِلَى أَنْ مَاتَ .

قالوا : كان أهوج سفاكاً للدماء ، كثير التَّوَنُ ، قبيح السيرة ، مدمن
خمر ، ولم يكن متعمكاً من الأمور وكان أول شيء فعله بعد ولايته أن صادر
حاشية أخيه وعدّيبهم - مع أن أخاه عفا عنه - وضرب أم المقتدر بيده ، وهي
عظيمة ، ثم ماتت وهي معلقة بحبل ، وبالغ في الإساءة ، فنفرت منه الطوب ثم
اتفق جماعة الأتراك على خلعهم فأمسكوه وخلعوه ، وكحلوه بمسار لسوء سيرته
وسفك الدماء . ولا أدري أكانت وصاية الأتراك هذه حباً بالعدول
والسماحة ، أم ماذا ؟

وجاء بعده الراضي بالله^(٢) (٢٩٧ - ٣٢٩) قال ابن حبان : (هو
الراضي بن المقتدر بن المعتضد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن
المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . . .) ويؤيِّج
بالخلافة بعد عمه القاهر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، إلى حين وفاته .

قال الخطيب : (للراضي فضائل كثيرة ، وختم الخلفاء في أمور عدّة
منها : أنه آخر خليفة له شعر مدون ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش
والأموال ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس
الجلساء ، ووصل إليه الندماء) . ا . هـ . ملخصاً . واسم الراضي : محمد بن
جعفر بن أحمد .

وجاء بعد الراضي أخوه المتقي لله^(٣) إبراهيم بن جعفر بن أحمد

-
- (١) الثقات (٢: ٣٣٥) ، بغداد (١: ٣٣٩) ، المنتظم (٦: ٢٤١) النبلاء
(١٥: ٩٨) ، البداية والنهاية (١١: ١٧٠) ، تاريخ الخلفاء (ص ٣٨٦) .
(٢) الثقات (٢: ٢٣٦) ، بغداد (٢: ١٤٢) ، النبلاء (١٥: ١٠٣) ،
تاريخ الخلفاء (ص ٣٩) .
(٣) الثقات (٢: ٣٣٦) ، تاريخ الخلفاء لابن ماجه (ص ٥٩) ، بغداد
(٦: ٥١) ، المنتظم (٦: ٣١٦) ، النبلاء (١٥: ١٠٤) ، تاريخ
الخلفاء للسيوطي (ص ٣٩٤) .

(٢٩٧-٣٥٧هـ) فبُوع بالخلافة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وخلع في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة . وعاش بعد خلعه أربعاً وعشرين سنة وكانوا قد سملوه، حين خلعه . قال الخطيب : أخبرنا علي بن أبي عيسى البصري حدثنا أبي قال قال لي أبو الحسين بن عيَّاش : (اجتمعت في أيام المتقي إسحاقيات كثيرة . فانسحقت خلافة بني العباس في أيامه وانهدمت قبة المنصور الخضراء، التي كان فخرهم بها، فقلت له : ما كانت الإسحاقيات ؟ قال : كان يكنى أبا إسحاق، وكان وزيره القراريطي يكنى أبا إسحاق، وكان قاضيه ابن إسحاق الخرقى، وكان محتسبه أبو إسحاق بن بطحاء، وكان صاحب شرطته أبو إسحاق بن أحمد بن أمير خراسان، وكانت داره القديعة في دار إسحاق بن إبراهيم المصيصي، وكانت الدار نفسها دار إسحاق بن كنداج . . . قال أبو الحسين : كان مع هذا يتأله، وفيه صلاح، وكثرة صيام وصلاة، وكان لا يشرب التَّبِيدَ وقيل : إنه لم يشربه قط، وكان فيه كفاً عن كثير مما كان من تقدمه يرتكبه، وكان فيه وفاً وقناعة) .

وكان الخليفة الثامن المستكفي بالله^(١) عبد الله بن علي بن أحمد بن الموفق (٢٩٢-٣٣٨هـ) بُوع بالخلافة بعد خلع المتقي لله سنة ثلاث وثلاثين وخلع سنة أربع وثلاثين، وحُبس بعد ذلك ولم يزل محبوساً إلى أن توفى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد سملوا عينيه .

وبعد استقل بملك العراق معز الدولة بن بويه، وضعفت الخلافة جداً، وظهر الرفض والاعتزال .

واستخلف بعده المطيع لله^(٢) الفضل بن جعفر بن أحمد (٣٠١-٣٦٤) وهو ابن المقدر سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وخلع نفسه غير مستكره، كما نقل الخطيب وابن الجوزي وغيرهما سنة ثلاث وستين وثلاثمائة .

(١) سقطت ترجمته من مطبوعة الثقات . . ابن ماجه (ص ٥٩)، بغداد (١٠: ١٠)، المنتظم (٦: ٣٣٩)، النبلاء (١٥: ١١١)، البدايات والنهاية (١١: ٢١٠)، تاريخ السيوطي (ص ٣٩٧) .

(٢) الثقات (٢: ٣٣٦)، المنتظم (٧: ٦٠، ٧٩)، النبلاء (١٥: ١١٣)، البداية والنهاية (١١: ٢١٢)، تاريخ السيوطي (ص ٣٩٨) .

قال ابن حبان : (هو باق لا أدري ما الله صانع به ، إلا أنه خليفة
يموت أو يقتل ، لأن له أسوة بمن فقد هم) .
ولم يكن للمطيع من أمر الدولة شيء ، فقد تسلط بنو بويه على الدولة
وكان معز الدولة هو الحاكم الحقيقي .
من خلال ما سبق ، ظهر أن ابن حبان عاش في عصر ضعفت فيه
الخلافة ، ولم يعد لها سوى الاسم منذ تولى الخلافة المكتفي ، كما وضح أن
منصب الخليفة غدا العوية بين أيدي المتنفذين ، الذين قتلوا المقتدر وسعوا
القاهر والمعتق والمستكفي وخلعواهم ، بل كانوا كلما غضبوا على خليفة
خلعوه ونصبوا غيره .

المبحث الثاني : أصحاب النفوذ في الدولة

لقد عاصر الإمام ابن حبان تسلط الترك (٢٣٢-٣٢٤) والبويهيين (٣٣٤-٤٤١هـ) وقد كان المعتصم هو أول من قرب الترك، وكثرتهم واعتمد عليهم، ذلك أن الزنادقة من الفرس كبايك الخرمي وأخيه والمازيار والافشين تجمعت لهم الجموع الكبيرة من الفرس، وعظم شأن بابك، حتى أنفق المأمون والمعتصم على حربه قناطير مقنطرة من الذهب والفضة الى أن مكن الله منه على يد الزنديق الأخرافشين^(١)، الذي اعترف كاتبه بأنه زنديق مجوسى يتآمر على الدولة والإسلام .

إلا أن الأتراك المماليك تعاضمت قوتهم، وتطاولوا على أولياء نعمتهم فدبروا قتل الخليفة المتوكل الذي فطن لهم، وقد قيل بأنهم اتفقوا مع ولده^(٢) على قتله .

وضعف نفوذ الأتراك المماليك في عهد الموفق طلحة ثم في عهد ابنه المعتضد، ثم المكتفى، إلا أن ولاية المقتدر - وهو صغير السن - وتدخّل النساء في شئون الحكم والسياسة، أعاد لهم قوتهم ونشب الصراع بين جديد بين بني العباس من جهة، والأتراك من جهة أخرى، وسادت الدسائس وطقت الفتن، وابتدعوا (سمل) الخلفاء وخلعهم، حتى إذا كَلّوا من الصراع برز البويهيون الروافض قوة هائلة بعيدة عن الصراعات السابقة، فاحتل معز الدولة بغداد، وسيطر على الأمور فيها، وجرّد الخليفة من كل شيء^(٣) .

وقد بدأت دولة بني بويه نشاطها في أيام القاهرة . ثم توسعت وعظمت حتى استولت على الأمور في زمن المطيع . وقد كان معز الدولة بن بويه (٣٢٠-٣٥٦هـ) يتولى حكم العراق ويستبد بتصرف الأمور فيها . وكان شيعيا غالبا في الرض . وكان عماد الدولة (٣٢٠-٣٣٨) يتولى أمور

(١) النبلاء (١٠: ٢٩٨) وانظر محاكمة الافشين هناك .

(٢) النبلاء (١٢: ٣٨)، الطبرى (٩: ٢٢٢-٢٣٠)، تاريخ السيوطى (ص ٣٥) .

(٣) الوثائق السياسية والإدارية للعصر العباسي الثاني (ص ١٦) .

فارس وخراسان ، ثم تسلط بعده عضد الدولة أبو شجاع (٣٣٨ - ٣٧٢ هـ) .
ولم يكن أحد من العباسيين أو العرب أو الترك يُحرّك ساكناً إلا بأمر
هؤلاء الملوك الروافض .

وإذا استثنينا فترة تنفيذ الأمير الموفق (٢٥٦ - ٢٧٨ هـ) وابنائه
المعتضد وحفيده المكتفي فإن تسلط قادة الأتراك كان قوياً على الدولة
ولم يكن مع ذلك منظماً لشئون الأمة ، بل كان غرضه فيما يبدو وتحقيق
أطماع شخصية لبغا الكبير ، أو موسى بن بغا ، أو صالح بن وصيف . وغيرهم
ممن جاء بعدهم وقبلهم ، إلى أن سلبهم بنوبويه^(١) كل شيء .

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير (١١: ٢١) ، الفخري في
الآداب السلطانية (ص. ٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢) ، تاريخ الإسلام السياسي
لحسن إبراهيم حسن (٣: ١٨) وغير موضع .

المبحث الثالث : الدّول المستقلّة في ظلّ الخلافة العباسية

حين ضعفت الخلافة العباسيّة ، وهان منصب الخلافة على الطامحين والطامعين ، حاول كثير من ذوي الجاه والنفوذ الانفراد عن دولة الخلافة ببقعة الأرض التي كان يحكمها ، أو يصبو إلى حكمها ، ولم يكن للخليفة من الأمر سوى إقرار ذلك ومباركته غالباً .

أسس أحمد بن طولون^(١) أحد أبناء الأتراك دولته في مصر (٢٥٤-٢٩٢هـ) ثم تدرّج وتوسّع حتى ضمّ إليها الشّام ، أثناء انشغال الخليفة في حروب الزنج .

كما قام عصره يعقوب بن الليث الصّفّار^(٢) فأسس دولته في سجستان (٢٥٤-٢٩٧هـ) ثم استولى على فارس ، وظلت الحروب الطاحنة بينه وبين الخليفة ، وبعده مع أخيه عمرو ، ثم مع حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث ، حتى قضى إسماعيل بن أحمد الساماني على دولتهم بعد عام ٢٩٠هـ .

وقامت الدولة السامانية^(٣) (٢٦١-٣٨٩هـ) في سجستان ثم توسّعت حتى شملت فارس كلّها بعد القضاء على الصّفّاريين ، وقد كانت العلاقات طيبة بين الخلفاء وملوك بني سامان ، ولم تجر بين الطرفين أية منازعات .

وقد قامت دولة بني حمدان^(٤) (٣١٧-٣٩٤هـ) في الموصل وحلب وكثرت حروب هذه الدولة ومنافساتها ، ويبدو أنّ طموح حكامها مع كثرة

-
- (١) انظر تاريخ الإسلام السياسي (٣: ١٢٦-١٣٤) .
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (٦: ١٤٠٢، ٢١٠، ٢٢٠، ٥٨٠، ٦٢٠) ،
١٠٩٥، ١٠١، ١٣٦) .
(٣) الفخري لابن طباطبا العلوي (ص. ٢٨) ، تاريخ الإسلام السياسي
٣: ٧١-٨٢) .
(٤) تاريخ الإسلام السياسي (٣: ١١٣-١٢٥) وانظر بحثاً جيداً عن
نشأة الدولة الحمدانية وتطوراتها في كتاب (سيف الدولة الحمداني)
للدكتور مصطفى الشكعة .

أعدائها من الروم والبويهيين والبريديين ، والإخشيديين ثم بعضهم مع بعض ، كل ذلك أدى إلى ضعف دولتهم وذهاب ريحهم على أيدي الفاطميين .
ومع أن الفاطميين شيعة ، فقد قضاوا على الحمدانيين ، كما كانت المنافسة على أشدها بين بني حمدان والبويهيين ، وكلاهما رافضة . وذكر ابن كثير ^(١) أن الحمدانيين أعانوا القرامطة وأمدوهم بالحديد والسلاح ضد المسلمين ، فتأمل !

ولم تطل مدة دولة الإخشيد ^(٢) (٣٢٣-٣٥٨هـ) لأنها - فيما يبدو وكانت مرتبطة بشخص مؤسسها محمد بن طغج الإخشيد أحد أولاد ملوك فرغانسة ولعل سبب قوة الإخشيد ونشوء دولته إنتصاراته على جند الفاطميين ، فملك الشام ومصر ، ثم انتهت دولتهم على عهد أبي الفوارس بن بويه .

وكان بني بويه (٣٣٤-٤٤١هـ) لم ينفصلوا عن سلطة الخلافة الإسمية لما جلب هذا عليهم من نعمة أهل السنة - فوق نعمتهم ، وربما تحالفهم لكيدهم والقضاء عليهم ، ولأن فاتهم قد ملكوا البلاد ، وأذلوا العباد وانتشرت في عهدهم الزندقة والإلحاد وذاع الفساد والفجور ، حتى قضى عليهم على يد (كاليجار) .

(١) البداية والنهاية (١١: ٢٥٤-٢٦٤) .

(٢) تاريخ الإسلام السياسي (٣: ١٣٥-١٤٢) .

(٣) الفخري (ص ٢٧٧) ، وانظر عن تاريخهم كتاب (نظام الوزارة في الدولة العباسية ، العهدان البويهي والسلجوقي) (ص ١٩-١١٥) .

المبحث الرابع : الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية

لقد انفصلت عدّة دُول عن الخلافة العباسية ، وناصبها العسداء ونشأت دولة أخرى لم يكن أمراًها خاضعين لسلطان العباسيين أصلاً . وكان لبعض هذه الدول أثر مباشر على المشرق الاسلامي ، كالدولة الفاطمية ، وبعضها الآخر لم يؤثر بشكل واضح على المجتمع الاسلامي في الشرق ، إلا أن صدى هذه الدول وتلك ، لا بدّ أن أثار في نفس ابن حبان أشياء ، وجعله يقف المواقف المتشددة ضد بعض الفرق والمذاهب .

قامت دولة الأدارسة في المغرب الأقصى (١٧٢-٣٧٥هـ) وكان لها دور بارز في نشر المذهب السني في تلك البلاد ، وقد حالت دون توسع الخوارج وإفسادهم لتلك المنطقة . وكان قيامها منفصلة عن الخلافة العباسية ، نتيجة الصراع الدائم الذي نشب بين أبناء علي وخلفاء بني العباس ، وعلى إثر وقعة (فخ) ^(١) التي وقعت بين الحسين بن علي بن الحسن والعباسيين نجا من المعركة يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن ، فأما يحيى فأمنه الخليفة ثم قتله ، وأما إدريس ^{فقد} خرج في جملة حاج مصر ثم جاز إلى فاس وطنجة ، واستجاب له البربر ، وكون بداية دولة الأدارسة هناك إلا أن الترشيح تمكن فسمه ^(٢) أيضاً في مملكته . ولم يكن قد أنجب بعد ، وكانت جاريته حاملة ، فوضعت بعد شهرين ولداً سموه (إدريس) . كان هو مؤسس الدولة الحقيقي .

وقد عاصر ابن حبان من ملوك الأدارسة يحيى الرابع بن إدريس (٢٩٢-٣١٠هـ) والحسن بن محمد (٣١٠-٣١٢هـ) الذي انكشبت دولة الأدارسة بعد وفاته ، وانحصرت في بلاد الريف المغربي . ولم يعد لها كبير

(١) فخ : واد بمكة يقال له وادي الزاهر . معجم البلدان (٤ : ٢٣٧) .
(٢) انظر بعض اخبار هذه الوقعة في الطبري (٨ : ١٩٢-٢٠٣) ، مقاتل الطالبين (ص ٤٣٥-٤٦٠) ، البداية والنهاية (١٠ : ١٥٧) .

قيمة حتى انتهت على يد الفاطميين^(١) .

وقد قامت دولة الفاطميين^(٢) (٢٩٦-٥٦٧هـ) في مصر وبلاد المغرب قال في الفخري : (هذه دولة اتسعت أكناف مملكتها وطالت مدتها ، فكان ابتداءؤها حين ظهر المهدي في المغرب سنة ست وتسعين ومائتين بوانتهاؤها في سنة سبع وستين وخمسمائة ، وكادت أن تطك ملكاً عاماً ، وإن تدين لها الامم) .

وقد اختلف العلماء في صحة نسب الفاطميين ، وعندما استفحل خطرهم أمر الخليفة العباسي زعماء البيت العلوي ، فكتبوا خطوطاً بتكذيب نسبهم ، وقد كذب الذهبي هذه النسبة ، وجزم صاحب الفخري بها ، وكان ابن الأثير يميل إلى صحتها . قال بعد أن ذكر الخلاف حول صحة نسبهم : (وقد روي نسبهم على صورة أخرى ، وفيه اختلاف كثير ، والصحيح أنهم علويون إسماعيليون صحيحوا الإتصال ، وهذه الصورة التي أوردناها هي المعسول عليها ، وبها خطوط مشايخ النسابين) .

وكانت نهاية دولتهم على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب الأيوبي حيث أعاد مصر إلى الخلافة العباسية أيام المستضي ، وخطب له على المنابر فأرسل الخليفة بتقليده السلطنة .

وفي الأندلس قامت دولة الأمويين^(٣) على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام الذي استولى على قرطبة سنة (١٣٨هـ) . واستمرت دولة الأمويين في الأندلس حتى سقطت في عهد آخر ملوكهم هشام الثالث المعتمد (٤٢٢هـ) .

وقد عاصر ابن جان منهم عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن (٢٧٥-٣٠٠هـ) وعبدالرحمن بن محمد بن عبدالله (٣٠٠-٣٥٠هـ) والحكم ابن عبدالرحمن بن محمد (٣٥٠-٣٦٦هـ) .

- (١) تاريخ الإسلام السياسي (٢: ٢٢٦) ، (٣: ١٦٢) فما بعد . مقاتل الطالبين (ص ٤٦٣ ، ٤٨٧) .
- (٢) انظر بعض اخبار هذه الدولة الراضية في الفخري (ص ٢٦٢) فما بعد الكامل (٦: ١٢٤) ، النبلاء (١٥: ١٤١-٢١٥) فقد ترجم الذهبي لملوكها تباعاً .
- (٣) النبلاء (٨: ٢١٧-٢٤١) حيث ترجم لعدد من ملوكهم تباعاً . وانظر تاريخ الإسلام السياسي (٣: ١٦٧) .

الفصل الثاني

الثورات والفتن الداخلية في عصر ابن حبان

كان يسعني أن أتناول الثورات والفتن الداخلية في غضون حديثي عن الحياة السياسية في ذلك العصر، إلا أنني آثرت أفرادها مستقلة لتشعب جوانبها، وتعدد أغراضها وتنوع مذاهبها .

المبحث الأول : ثورة الزنج

في منتصف شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين ، خرج رجل^(١) اسمه علي بن محمد بن عبد الرحيم ونسبه في عبد القيس، من ساكني قرية من قرى الري ، وادعى أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الله عنهم . ولم يكن صاحب الزنج في حقيقة أمره إلا رجلاً زنديقاً ، حيث إنه زعم معرفة علم الغيب، وأنه يوحى إليه ، وأن الملائكة تؤيده . ومع هذه الزندقة فقد ادعى أنه خارجي .

ولقد أعد أتباعه ، ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال ، وذكرهم بما كانوا عليه من سوء الحال ، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ، ويملكهم العبيد والأموال ، ويبلغ بهم أعلى الدرجات . وقد كانت حالة أتباعه من العبيد مهتأة للثورة ، حيث الفقر والجهل ، والحقده على السادة ، وقد كثر عددهم هؤلاء الأتباع ، وصاروا جماعات كثيرة . وكانوا يجتمعون ويبكون وضعهم ويندبون حظهم ، دون أن يستمع أحد إليهم .

وكان لتجمعهم في جماعات كبيرة أعظم الأثر في قوة حركتهم ، وسرعة انفجار ثورتهم .

وقد لخص لهم صاحب الزنج أهدافه بما يأتي :

(١) تاريخ الطبري (٩ : ٤١٠) ، الكامل (٦ : ٨ - ٥٤) ، البداية والنهاية (١١ : ١٨) ، الفخرى (ص ٢٥) ، وانظر أخبار هذه الثورة فسي الطبري (٩ : ٤١٠ - ٦٥٤) .

(١) تحرير الزوج ورفع مستواهم .
 (٢) تمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد .
 (٣) تمكينهم من الوصول إلى السلطان والقوة والملك ^(١) .
 ولا ريب أن مثل هذه الأمانى لشعب مضطهد جاهل فقير، تجعله
 يضحي بحياة يؤس طمطاً في أن يحيا حياة كريمة . وللموت أهون على
 النفس الإنسانية من حياة ذل بغيض .
 وكان صاحب الزنج هذا فصيحاً بليغاً لبيباً ، استمال قلوب العبيد من
 زنج البصرة ونواحيها ، فاجتمع إليه خلق كثيرون ، وناس آخرون من غيرهم
 وعظم شأنه ، وقويت شوكته ، وكان في مبدأ حاله فقيراً ، لا يملك سوى ثلاثة
 أسياف ، حتى أنه أهدي إليه فرس ، فلم يكن له لجام ولا سرج يركبه بهما
 فركبه بحبل ، فاتفقت له حروب وغزوات نصر فيها ، فأثرى بسببها ، وعظم
 حاله ، وكثر نهبه ، وانبثت عسكره السودان في البلاد العراقية والبحرية
 وهجر ونهد إليه الموفق طلحة في أيام المعتمد بعساكر كثيفة ، فالتقى بين
 البصرة وواسط وبنوا مدائن هناك ، وأقام كل من الفريقين يرباط الفريـق
 الآخر .

ويرى الإمام الطبري أن ابتداء أمره هو شخوصه من سامراً إلى البحرين
 وادعى أنه من ذرية عليّ سنة تسع وأربعين ومائتين ، ودعا الناس إلى طاعته
 في (هجر) ثم انتقل إلى الأحساء ، وكان أهل البحرين قد أحلوه من
 أنفسهم محلّ النبي ^(٢) . . . ثم دخل البصرة سنة أربع وخمسين ومائتين
 وسار ذكره ، وقويت شوكته وظلّت الحروب الطاحنة بين الموفق طلحة ، وبين
 صاحب الزنج حتى قُتل صاحب الزنج في صفر سنة سبعين ومائتين من الهجرة ^(٣) .
 وقد قيل : إن عدد القتلى الذين ذهبوا في حروب صاحب الزنج

-
- (١) القرامطة وآراءهم الاعتقادية (ص ٥١ - ٥٣) .
 (٢) الطبري (٩ : ٤١٠) فما بعد ، البداية والنهاية (١١ : ١٨) .
 (٣) الطبري (٩ : ٦٥٤) فما بعد ، البداية والنهاية (١١ : ٤٤) .

كان ألفى ألف وخمسمائة ألف أنسان^(١) . يعنى مليونين ونصف مليون قتييل
فى مدة أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وستة أيام^(٢) .
ولقد سبى الحرائر الهاشميات واستعبدهنّ ، وكان لبعض رجاله
منهنّ عشر نسوة يطؤونّ ويستخدمهنّ ، لعنه الله تعالى .
وقد ذكرتُ ثورة الزنج مع أن نهايتها قبل ولادة ابن حبان ، لأنّ
آثارها السيئة امتدت زمنّاً طويلاً ، ومجريات أحداثها ظلت فى أذهان
الناس ، وفى واقعهم دهرًا .
إضافة إلى أنها فتحت الباب أمام ثورات القرامطة التى أنهكت
الدولة والأمّة .

(١) الفخرى (ص ٢٥١) .

(٢) البداية والنهاية (١١ : ٤٤) .

المبحث الثاني : ثورة القرامطة

يرى الطبرى - وهو معاصر لبداية حركة القرامطة - أن بدايات أمر قُرْمَط كان قبل سنة سبعين ومائتين ، وذكر عن قُرْمَط أنه قال :
 " صرت إلى صاحب الزنج ، ووصلت إليه ، وقلت له : إنني على مذهب وورائي مائة ألف سيف ، فناظرني فإن اتفقنا على المذهب ، ملت بمن معي إليك ، وإن تكن الأخرى انصرفت منك ، وقلت له : تعطيني الأمان ففعل فناظرته إلى الظهر ، فتبين لي في آخر مناظرتي إياه ، أنه على خلاف أمرى وقام إلى الصلاة ، فانسلت فمضيت خارجاً من مدينته ، وصرت إلى سواد الكوفة^(١) .

(١) عقيدة القرامطة :

والعقائد القرمطية مجموعة آراء مختلفة ومتباينة ، تطورت من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى زمن ، بحيث يصعب دراستها ومعرفتها ، فكانوا يقولون بآراء في بلد ، ويأتون بنقيضها بعد فترة من الزمن .

قال الشهرستاني عند حديثه عن الإسماعلية - والقرامطة منهم - :
 من مذهبهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية وكذلك من مات ولم يكن في عنقه بيعة إمام ، مات ميتة جاهلية .
 ولهم دعوة في كل زمان ، ومقالة جديدة بكل لسان . . وأشهر ألقابهم الباطنية . . والقرامطة والمزديكية^(٢) .

(١) الطبرى (١٠ : ٢٧) . وقد نسب الأستاذ سليمان السلومي إلى الطبرى القول بأنه يرى بداية أمر القرامطة سنة ٢٦٤ هـ ، وأن الحسين الأهوازي لقن المذهب لحمدان قُرْمَط ولم أقف عند الطبرى على مثل هذا ، بل الذى وجدته أن الرجل المجهول سُمي باسم صاحب الأثوار (كرميته) ثم خفف فقبل (قُرْمَط) . انظر الطبرى (١٠ : ٢٣ - ٢٥) وقارن بكتاب القرامطة وآراءهم الاعتقادية (ص . ١٤) . رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة . وهذه الرسالة أجسود وأوسع ما كتب عن القرامطة فيما أعلم .

(٢) الطل والنحل للشهرستاني (١ : ١٩٢) .

ويحسن أن نعرض أهم آرائهم الاعتقادية والعملية بايجاز :
 (١) الإمامة : قالوا : (إن الإمامة ليست قضية مصلحة تناط باختيار العامة
 وينتصب الإمام بنصيبهم ، بل هي قضية أصولية ، وهي ركن الديـن
 الذي لا يجوز للرسول إغفالها ، وإهمالها ، ولا تفويضها إلى العامة
 وإرسالها .

كما أنهم يقولون : إنها نص من الله تعالى لا يجوز الاختيار من الأمة
 وعلى ذلك فالاختيار مع النص يعتبر باطلاً (١) ولهم في الإمامة
 معتقدات غريبة سخفية تنظر في كتاب (القرامطة) (٢) .

(٢) عقيدة الظاهر والباطن والتأويل :

وهم إنما سُموا الباطنية لقولهم بعقيدة الظاهر والباطن ، وأن الظاهر
 هو القشر ، والباطن هو اللب .

وقد اعتقد الباطنية ومنهم القرامطة أن كل شيء ظاهر محسوس في
 هذا الكون ، له معنى آخر خفي ، يعرف بالمعنى الباطن ، فالفاظ القرآن
 مثلاً لها معنى باطن غير المعنى الحرفي الظاهر ، ويقولون :
 إن الذي يقف على ظاهر القرآن ، ولا يقف على تأويله ، مثله مثل
 الحمار الذي يحمل أسفراً . فقوله تعالى : " مثل الذين حطّوا التوراة " يعني
 ظاهرها " ثم لم يحملوها " يعني باطنها .

ويقول ابن تيمية - رحمه الله : إن القرامطة هم أشهر الناس بادعاء
 علم الباطن المخالف للظاهر ، ودعوى التأويلات الباطنة المخالفة للظاهر
 المعلوم المعقول من الكتاب والسنة .

وقسموا المعرفة إلى قسمين : ظاهر : وهو الإسلام ، وباطن : وهو
 الإيمان .

أما العبادات العملية من صلاة وصوم وزكاة وحج فلها دلالات على
 معان باطنية ، وكذلك الغسل من الجنابة ، وغير ذلك (٣) .

(١) القرامطة وآراؤهم (ص ٢٩٦) فما بعد .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق (ص ٢٣) فما بعد .

وغرضهم الأقصى - كما يقول الغزالي رحمه الله - (إبطال الشرائع فإنهم إذا انتزعوها عن العقائد موجب الظواهر، وقدروا على الحكم بدعوى الباطن، على حسب ما يوجب الإنسلاخ من قواعد الدين، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة؛ فلا يبقى للشرع عصام يرجع إليه ويعول عليه) (١).

(٣) عقيدتهم في الأعداد والحروف :

أما عن الأعداد، فقد أضفوا على العدد (٧) قداسة خاصة وفلسفوها بفلسفة عقلية مردولة، وكذلك العدد (١٢) . ثم إنهم حاولوا أن يجدوا لكل عدد من الأعداد معنى معيناً يتفرد به، ويدل عليه .
وأما عن الحروف فهي عندهم محدثة، وأما الكلمات المركبة منها فهي أصل كل شيء، فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم تدل على محمد وعليّ والحسين وفاطمة . . وكذلك تصرفوا بالنسبة لكل حرف من أوائل السور وغيرها .

قال الغزالي - رحمه الله - : (وهكذا تصرفوا في قول محمد رسول الله، وفي الحروف، وفي أوائل السور، وأبرزوا ضروباً من الحماقات تضحك المجانين فضلاً عن العقلاء، وناهيك خزيًا بطائفة هذا منهج استدلالهم) .
(٤) عقيدتهم في القيامة والمعاد :

قال الغزالي : (اتفقوا عن آخرهم على إنكار القيامة، وأن هذا النظام المشاهد في الدنيا، من تعاقب الليل والنهار، وحصول الإنسان من نطفة والنطفة من إنسان، وتولد النبات، وتولد الحيوان، لا يتصرم أبد الدهر وأن السموات والأرض لا يتصور انعدام أجسامها . وأولوا القيامة وقالوا إنها ترمز إلى خروج الإمام، وقيام قائم الزمان، وهو الناسخ للشرع، المغير للأمر . وأما المعاد، فأنكروا ما جاء به الأنبياء، ولم يثبتوا الحشر والنشر للأجساد، ولا الجنة والنار، ولكن قالوا : معنى المعاد : عود كل شيء إلى

(١) فضائح الباطنية للغزالي (ص ١٢) ، وذكر نحو ذلك ابن الجوزي في

تلبيس إبليس (ص ١٠٦) .

(٢) فضائح الباطنية (ص ٦٨) .

أصله . . . فالجسد يعود إلى الطبيعة التي تركب منها وهي الصفراء
والسوداء والبلغم والدم ، فالصفراء تصير ناراً ، والسوداء تراباً ، ويصير الدم
هواً ، ويصير البلغم ماءً ، وهذا هو معاد الجسد .

أما معاد الروح ، فإنها إن صفت بالمواظبة على العبادات وزكيت
بمجانبة الهوى والشهوات . . . اتحدت عند مفارقة الجسد بالعالم
الروحاني الذي منه انفصالها ، وتسعد بالعودة إلى وطنها الأصلي
ولذلك سقى رجوعاً فقيل : " ارجعى إلى ربك راضية مرضية " (١) وهي الجنة (٢) .
(٥) عقيدتهم في التكليف الشرعية :

قال الغزالي : (المنقول عنهم الإباحة المطلقة ، ورفع الحجاب
واستباحة المحظورات واستحلالها ، وانكار الشرائع - إلا أنهم بأجمعهم
ينكرون ذلك إذا نسب إليهم - وإنما الذي يصح من معتقدهم فيه أنهم
يقولون : لا بد من الانقياد للشرع في تكليفه ، على التفصيل الذي يفضله
الإمام ، من غير متابعة الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما ، وأن ذلك واجب على
الخلق ، والمستحبين إلى أن ينالوا رتبة الكمال في العلوم ، فإذا أحاطوا من
جهة الإمام بحقائق الأمور ، واطَّلَعُوا على بواطن هذه الظواهر ، انحلت
عنهم هذه القيود ، وانحطت عنهم التكليف العملية ، فإن المقصود من
أعمال الجوارح ، تنبيه القلب ، لينهض لطلب العلم ، فإذا ناله استعد
للسعادة القصوى ، فيسقط عنه تكليف الجوارح) (٣)

هذه بعض معتقداتهم التي خالفوا بها نصوص الكتاب والسنة
وانفردوا بمعظمها عن بقية الفرق التي انبثقت في الإسلام .
فالباطنية القرمطية تستروا بادعائهم إسماعيل بن جعفر الصادق
وأحاطوه ، والأئمة من قبله بهالات من التقديس وادَّعوا له معرفة علم الغيب
وإمامة الزمان .

فمذهبهم (ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، إذ إنهم بالآخرة

(١) الفجر : ٢٧

(٢) فضائح الباطنية (ص ٤٤ - ٤٥) .

(٣) فضائح الباطنية (ص ٤٦) فما بعد .

يظهرون ما يناقض الشرع وكأنه غاية مقصدهم ، لأنَّ سبيل دعوتهم ليس بمتعنين في فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاتة لإمامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرّونهم عليها ، فهذه جملة المذهب (١) .

وقد عدّهم الإمام ابن الجوزي من المارقين من الذين كبابك الخرمي وصاحب الزنج (٢) .

(٢) حروب القرامطة في زمن ابن حبان :

ذكرت في صدر الحديث عن القرامطة أن دعوتهم بدأت قبل عام سبعين ومائتين للهجرة ، ثم اشتدت سواعدهم ، وعظمت قوتهم ، وبدأوا بشراء السلاح وبنوا لهم مدينة حصينة سقوها (دار الهجرة) في سنة سبع وسبعين ومائتين فخافهم كثير من ضعاف المسلمين ، وانضموا إليهم ، جزعاً ورعباً . (ومن الجدير بالذكر أن القرامطة على تعدد الأمكنة واختلاف الأزمنة اتبعوا ماسنّه لهم حمدان قرمط من اتخاذ دور للهجرة ، يعتصمون بها ويجاهدون أعداءهم منها .

فعل ذلك حريث بن مسعود القرمطي حين استولى على مدينة واسط ، وفعل مثله أبوطاهر القرمطي سنة (٣١٦ هـ) . ومن اهتمام القرامطة بالنظم الحربية ما نقل عن أبي سعيد الجنابي من تدابير دقيقة ، ومن أبرزها تدريب الجنود وتوجيه كامل العناية بشئونهم الحربية . فإنّ أبا سعيد أقبل على جمع الخيل ، وإعداد السلاح ، واتخاذ الإبل ، وإصلاح الرّحال ، ونسج الدروع والمغافر . . . وأخذ في تعليم الصبيان الفروسية ، حتى إنّه جمعهم في دور ، وأقام عليهم قوماً ، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، ووسمهم لئلا يختلطوا بغيرهم ، ونصب عليهم عرفاء ، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان ، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت

(١) فضائح الباطنية (ص ٣٧) .

(٢) تلبيس ابليس (ص ١١١) .

دعوته طبعاً ، وطاعته ديناً . والطعن والتزال حرفة لهم . . . وكان له — هذه
 التربية القتالية أثرها البالغ في تحركات القرامطة ومعاركهم .^(١)
 والقرامطة الذين عظم شأنهم ، وأرهبوا الناس ، وحاربوا المسلمين فسي
 ذلك العصر هم قرامطة العراق ، وقرامطة البحرين ، وقرامطة الشام . ويحسن
 أن نشير إلى حروب كل من هؤلاء مع أهل السنة ، ومدى أثرهم وتأثيرهم
 عليهم .

(١) قرامطة العراق

ذكرت سابقاً أن ابتداء أمر القرامطة في العرق كان قبل السبعين
 والمائتين على يد رجل قدم من خوزستان كان يظهر الزهد والتقشف
 وراح يشكك الناس فيما هم عليه من الدين ثم ادعى أنه يدعو إلى إمام من
 آل الرسول^(٢) ، ثم قويت شوكتهم ، وطمت بليّة المسلمين بهم وانتشروا بسواد الكوفة
 فوجه المعتضد إليهم (شبل) غلام أحمد بن محمد الطائي فظفر بهم
 وأسر رئيساً لهم يعرف بأبي الفوارس ، وأبن أبي الفوارس ، فدعا به المعتضد
 لثمان بقين من المحرم سنة تسع وثمانين ومائتين ، فسأله وناظره ، ثم أمر به^(٣)
 فعذب وقلعت أضراسه ، ثم خلع بعمد إحدى يديه ببكرة ، وعلق في الأخرى
 صخرة ، وترك على حاله تلك من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه
 ورجلاه من غد ذلك اليوم وضربت عنقه ، وصلب بالجانب الشرقي ، ثم حملت جثته
 بعد أيام إلى الياسرية ، فصلب مع من صلب هناك من القرامطة^(٤) .
 وفي سنة ست عشرة وثلاثمائة اجتمع من كان بسواد العراق ممن يعتقد
 مذهب القرامطة فيكتم اعتقاده خوفاً ، فأظهروا اعتقادهم ، فاجتمع منهم

(١) القرامطة وآراؤهم (ص ٤٨٧ - ٤٩٠) مقتطفات .

(٢) الكامل في التاريخ (٦ : ٦٩) فما بعد ، الطبري (ص ٢٣ - ٢٧) .

(٣) انظر المناظرة في الكامل (٦ : ١٠٠) حوادث ٢٨٩ .

(٤) الطبري (١٠ : ٨٦) .

بسواد واسط أكثر من عشرة آلاف رجل وولوا عليهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود ، واجتمع طائفة أخرى بعين التمر^(١) ونواحيها في جمع كثير، وولّوا أمرهم إنسانا يعرف بعيسى بن موسى ، وكانوا يدعون إلى المهدي الفاطمي في مصر، فسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج ، وصرف العمال عن السواد ، وسار حريث بن مسعود إلى أعمال الموفقى ، فبنى بها دارا أسماها (دار الهجرة) واستولى على تلك الناحية .

فسير المقتدر بالله إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وسير إلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافياً البصرى ، فظفر جيش الخليفة وانهزمت القرامطة ، وأسر منهم كثير وقتل منهم كثير، وضمحل أمر من كان بالسواد منهم^(٢) .

وفى سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة عظم أمر مرداويج بأصبهان ، وكان بينه وبين أمير القرامطة صاحب البحرين تفاهم على انتزاع الملك من العرب ورده إلى العجم ، وكأنه كان يوافقه على أفكاره في الزندقة . . ففطن رعيته لذلك فثاروا عليه وقتله أخص مماليكه بجمك^(٣) ولما أسر جماعة ممن معه مسن القرامطة ، وأخذوا إلى بغداد حبسهم الخليفة في مطامير كان قد بناها لمقدمي الساجية والحجرية - كما صرح لهم - وكان يدخل إليهم الخليفة القاهر ويحسن إليهم لعله يتقوى بهم على الساجية والحجرية^(٤) وما ذلك عندي إلا لما يعرف من خطرهم وشدة بأسهم .

(١)

(٢) الكامل (٦ : ١٩٤) .

(٣) البداية والنهاية (١١ : ١٧٨) .

(٤) الكامل (٦ : ٢٣٧) .

(٢) قرامطة البحرين

ابتدأ أمر القرامطة في البحرين على يد رجل يدعى يحيى بن المهدي قصد بلده (قطيف) فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان مولى الزياديين، وكان يغالي في التشيع، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي وكان ذلك في سنة إحدى وثمانين ومائتين، فجمع له ابن المعلى الشيعة وأقرأهم كتاب المهدي، فأجابوه ووعده بالخروج معه إذا هو خرج، وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي .

وظهر أبو سعيد سنة ست وثمانين فقتل من حوله من أهل القسرى واستولى على القطيف، وأظهر أنه يريد البصرة، فكتب الخليفة إلى متوليها أن يعمل حولها سوراً (١) .

أما أبو سعيد الجنابي فإنه أغار بمن معه على هجر، واقتربوا من البصرة، فأرسل الخليفة إلى العباس بن عمرو الغنوي أمير فارس، وولاه البحرين واليمامة، وأمره بمحاربة القرامطة، فسار إلى البصرة بمن معه من الجيوش ولقيهم أبو سعيد الجنابي فهزمهم، واستولى على ما معهم من الأموال وأسرى من أسرى، ثم قدم الأسرى فقتلهم في صباح اليوم التالي وحرقهم إلا العباس بن عمرو الغنوي فإنه بقي عند الجنابي أياماً ثم أطلقه وقال له عرف مولاك بما رأيت .

وفي السنة نفسها أوقع بدر غلام الطائي بقرامطة ميسان فقتل منهم مقتلة . وفي سنة تسعين ومائتين كبس ابن بانو أمير البحرين حصناً للقرامطة فقتل منهم مقتلة عظيمة (٢) .

واستفحل أمر قرامطة البحرين في عهد مقدمهم الجنابي، حتى أراح الله منه العباد . ففي سنة إحدى وثلاثمائة دخل حمّاماً له، وعنده خادم له صقلبي، فأراد الجنابي على الفاحشة، فخنقه خادمه، ولما قتله

(١) الكامل (٦: ٩٢) .

(٢) الكامل (٦: ٩٤-٩٥-١٠٧) .

استدعى رجلاً من أكابر رؤسائهم ، وقال له : السيد يستدعيك ، فلما دخل
قتله ، ففعل ذلك بأربعة نفر ، واستدعى الخامس ففطن لذلك فأمسك بيده
الخادم ، وصاح ، فدخل الناس وقتلوا الخادم .

ولم يمض الجناي - لعنه الله حتى كان قد استولى على هجر
والإحساء ، والقطيف ، والطائف ، وسائر بلاد البحرين .

وكان قد عهد بالأمر إلى ابنه سعيد فعجز عن الأمر ، وغلبه أخوه
الأصغر سليمان أبو طاهر وفي تلك الأثناء كان الخليفة المقتدر كتب إلى
أبي سعيد كتاباً ليناً فيما عنده من الأسرى ، ويدل له على فساد مذهبه
فكان قد مات ، فوصل الكتاب إلى ابنه أبي طاهر فأكرم الرسل وأطلق
الأسرى ، وأجاب على الكتاب (١) .

وفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة قصد أبو طاهر البصرة في الصيف
وسبعمئة رجل ، فتسوروا السور وقتلوا الموكلين ببابه ، ثم استولوا على المدينة
 وقتلوا خلائق ، وألقى الناس أنفسهم بالماء فغرق كثيرون ثم تركها وانصرف إلى
بلادها (٢) .

كما سار أبو طاهر القرمطي إلى الهبير سنة إحدى عشرة وثلاثمائة
ليلقى الحاج فنهبهم ، فثار أهلهم من البغداديين ينددون بابن
الفرات الوزير ، وكان رافضياً متهماً بميله إلى القرمطي (٣) فوبخه الخليفة ثم
قبض عليه وسلب الوزارة .

وفي سنة ثنتي عشرة وثلاثمائة غزا القرمطي أبو طاهر الكوفة فهزم
عسكر الخليفة ونهب البلد ولم يحج في هذه السنة من العراق أحد خوفاً منه (٤) .
كما عاد إلى الكوفة ثانية سنة خمس عشرة وثلاثمائة واستولى عليها
وسلب ميرتها ووصل يوسف بن أبي الساج فنظر إلى قلة جيش القرمطي

-
- (١) الكامل (٦ : ١٤٧) .
(٢) الكامل (٦ : ١٧٥) .
(٣) الكامل (٦ : ١٧٧) .
(٤) الكامل (٦ : ١٨٠) .

فاحتقره ، إلا أن أبا طاهر باشر الحرب بنفسه فطحن عسكر يوسف ود قههم فانهمزوا بين يديه ، وأسّر يوسف وعدد كبير من أصحابه وهرب من بقي إلى بغداد حفاة عراة ، فخاف أهل بغداد ، وأرادوا الهرب وجرت معسكر ضخمة في تلك السنة استولى القرمطي فيها على مدينة الأنبار وجعلها مركز غاراته على جيش الخليفة وعاود الغزوة سنة ست عشرة وثلاثمائة (١) وحارب جيش الخليفة في الرحبة والرقة ورأس العين وكفر توثا وسنجار ، وأوقع بالمسلمين الوقائع ، وكبد هم الخسائر الجسيمة .

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة سار أبو طاهر إلى مكة فوصلها يوم التروية ، فنهب هو وأصحابه الحجّاج ، وقتلهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت نفسه ، وجلس على باب الكعبة والرجال تصرع بين يديه وهو يقول أنا لله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وقطع الحجر الأسود ونفذه إلى هجر ، فبلغ الخليفة الفاطمي ذلك فكتب إليه ينكر عليه ذلك وقال له : إن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجّاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة فأنا برئ منك في الدنيا والآخرة . . . (٢) قَبَّحَ اللهُ الْجَمِيعَ .

وفي سنة ثنتين وعشرين استرضاه الخليفة وطلب منه أن يعلن الطاعة فيقرّه على ما بيده من البلاد ، فلم يعترض أبو طاهر للحجاج ، وطلب منه أن يعيد الحجر الأسود فلم يفعل . (٤)

واعترض سبيل الحاج سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فقاتله أصحاب الخليفة والحجّاج بالقادسية فشجع جماعة من العلويين لديه ، فرجع واشترط ألا يحج أحد ذلك العام ففعلوا . (٥)

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة قتل القرامطة بعضهم بعضا ، حسنتي

(١) انظر هذه المعارك في الكامل (٦ : ١٨٧ - ١٨٩) .

(٢) الكامل (٦ : ١٩١ - ١٩٢) .

(٣) الكامل (٦ : ٢٠٣ - ٢٠٥) .

(٤) الكامل (٦ : ٢٤٢) .

(٥) الكامل (٦ : ٢٤٩) .

قتل خلق من عظمائهم واختل أمرهم بسبب فتنة حصلت بينهم - لعنهم الله - وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك العدوان على البلاد والإفساد بها^(١).

وقد أراح الله العباد والبلاد من شرور أبي طاهر سنة ثنتين وثلاثين وثلاثمائة فخلفه إخوته سعيد بن الحسن وهو الأكبر، والفضل بن الحسن، وكان لهم أخ ثالث يهتم باللهو والشرب، وإن كان لا يخالف أخويه في المعتقدات والفعال^(٢).

وفي سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أراد معز الدولة بن بويه استنقاذ البصرة من البريدي وسار في البرية، فأرسل القرامطة إليه من هجر يستنكرون مسيره في أرضهم، فلم يجيبهم، وقال للرسول، قل لهم: من أنتم حتى تستأمروا؟ وليس قصدي من أخذ البصرة غيركم^(٣).

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة وقالوا: أخذناه بأمر وأعدناه بأمر، وهناك خلاف كثير فسي كيفية استعادته، هل كانت بأمر الخليفة الفاطمي في مصر، وأعادوه بدون شيء، أم إشتراه بجمك منه، كما ذكر ابن كثير، أم أعادوه حين شعسروا بالضعف في تلك الفترة فخافوا من الإشتغال^(٤)؟ أم رأوا من مصلحتهم نقل أعمالهم إلى بلاد أخرى غير تلك البلاد؟ والله أعلم.

(٣) قرامطة الشام

وكانت بداية ظهور القرامطة في الشام على يد ذكرويه بن مهرويه وكان داعية قرمط، فراح ينشر دعايته في بلاد الشام حتى كانت سنة

(١) الكامل (٦ : ٢٦٨) وانظر فيها تلك الفتنة .

(٢) الكامل (٦ : ٢٩٩) .

(٣) الكامل (٦ : ٣٢٤ - ٣٢٥) .

(٤) الكامل (٦ : ٣٣٥) ، وقارن بالكامل (٦ : ٢٠٣) ، البداية والنهاية

(١١ : ١٦٠ - ١٦٣) ، (١١ : ٢٢٣) .

تسع وثمانين ومائتين فانضم قرامطة سواد الكوفة الى من استمالهم ذكرويه من اعراب بنى الطيخ ومواليهم ، فبايعوا يحيى بن ذكرويه ولقبوه الشيخ ، وأتساه جماعة من بنى الأصبح وسموا بالفاطميين ودانوا بدينه .

وفى هذه السنة غزاهم شبل غلام المعتضد بناحية الرصافة ، فاخذوه على غرة وقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة ، واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا ولاية هارون بن خمارويه فأكثروا القطع بها والإغارة ، فقاتلهم طفح فهزموه غير مرة ^(١) .

وفى سنة تسعين ومائتين سير طفح جيشا كفيفا لقتال القرمطى فقاتلهم حتى لم يبق من أصحاب طفح إلا اليسير ، فاستنجدوا الخليفة وأمدهم المصريون حتى قاتلوا القرامطة ومقدمهم يحيى بن ذكرويه على أبواب دمشق فرماه بعض المغاربة بمزراق نار فاحترق ، فبايعوا أخاه الحسين بن ذكرويه فسما نفسه أحمد ، وكنى بأبى العباس ، ودعا الناس فأجابه أكثر أهل البوادي ، وأظهر فى وجهه شامة زعم أنها آتية ، ثم سار إلى دمشق فصالحه أهلها على خراج يدفعونه إليه . ثم غلب على حمص وخطب له على منابرها ودعى المهدي أمير المؤمنين ، ثم سار إلى حماة ومعرة النعمان وغيرهما فقتل أهلها وسبى النساء . وذكر ابن الأثير حوادث يقشع لهما البدن ، ثم كبس حلب ، واستفحل خطره ، حتى أتاه بدر مولى ابن طولون فهزمه وقتل من أصحابه خلق كثير ، ومضى من سلم منهم إلى البادية ، فوجه الخليفة المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان وغيره من القواد ^(٢) .

وفى سنة إحدى وتسعين ومائتين التقت عساكر الخليفة بجيوش القرمطى قرب حماة فقدم القرمطى أصحابه ، وتأخر هو وجماعة من خاصته ، فانهزمت جيوش القرمطى ، فلما رأى ذلك أمر أخاه أن يأخذ الأموال ويهرب إلى بعض البوادي ، ثم هرب هو أيضا ، وقتل من القرامطة خلق لا يحصون ، وتشتت الباقون فى البوادي . وتابع صاحب الشامة سيره هاربا ، ومعه ثلاثة نفر

(١) الكامل (٦ : ١٠٠) .

(٢) الكامل (٦ : ١٠٥ - ١٠٦) .

وغلام رومي ، فلما نفذ زادهم أرسلوا الغلام الرومي ليشتري لهم ما يحتاجون إليه ، فدلّ عليهم ، فأسرههم شرطة أحمد بن محمد بن كشرد متولى الدالية^(١) (ابن طوق) ثم أدخلوا رقة بغداد مشهرين فقطعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم بعد ذلك .

واستأمن جماعة من بنى العليص ومواليهم فأمنهم الخليفة وأقرهم فى السماوة^(٢) حتى جاءهم كتاب الخبيث زكرويه يعلمهم أنه مما أوحى إليه أن صاحب الشامة وأخاه المعروف بالشيخ يقتلان ، وأن إمامه سيظهر ويظفر^(٣) .

بعد ذلك أنفذ زكرويه عبدالله بن سعيد أبا غانم وسمّاه (نصراً) فدار على أحياء العرب ، فاجتمع إليه طوائف من الأصبغيين المنتمين إلى الفواطم وغيرهم ، فسار بهم إلى بصرى وأذرع الشّام ، وكان العامل بدمشق والأردن أهد بن كيفلخ ، وهو بمصر يحارب الخلنجى ، فحارب القرمطى أهل بصرى وأذرع والبيثينة حتى استسلموا ، فلما آمنهم قتل مقاتلتهم ، وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم ، ثم قصد دمشق فهزموا نائب أحمد فيها ثم آمنوهم ونكثوا ، وقتلوا النائب صالح بن الفضل ، وقصدوا طبرية فقتلوا خلقا كثيرا من أهلها وسبوا النساء .

ثم جاءهم جيش الخليفة بقيادة الحسين بن حمدان فرجعوا إلى السماوة وغوّروا المياه ، حتى اضطرابن حمدان إلى الرجوع ، فهجم القرامطة على هيث وأهلها غافلون فقتلوا منهم ماقتى نفس .

ثم سبّ الخليفة محمد بن إسحاق بن كنداج فى أثرهم ، ورأسل هذا الحسين بن حمدان ليجتمعوا عليهم فيقتلهم ، فلما أحس الكلبىون القرامطة بذلك ، قام رجل منهم يسمّى الذئب بن القائم ، وقتل نصراً ، وسار برأسه إلى المكتفى مستأمناً متقرباً .

(١) هى مدينة على شاطئ الفرات الغربى . وذكر ياقوت أن القرمطى قبض

عليه فيها (٢ : ٤٣٣) .

(٢) هى بادية مشهورة بين الكوفة والشّام . معجم البلدان (٣ : ٢٤٥) .

(٣) الكامل (٦ : ١٠٨ - ١٠٩) .

واقترنت القرامطة بعد نصر اقتتالاً شديداً ، فكتب الخليفة إلى ابن حمدان يأمره بمعاودتهم واجتثاث أمرهم .

وفي هذه الأثناء أرسل إليهم زكرويه رسولا يبلغهم فيه ارتدادهم عن الدين بفعل الذئب وأن موعد ظهورهم قد حان ، وأنه يوم النحر سنة ثلاث وتسعين ومائتين في الكوفة فاستقبلوا الناس بعد صلاة العيد في المصلى وكان عددهم ثمانمائة فارس ، فقاتلوا الناس وقتلوا منهم نحو عشرين نفساً فبادر الناس إلى الكوفة وأخذوا السلاح ، ونهض بهم إسحاق بن عمران أميرها وقاتل مع إسحاق جماعة من الطالبين ، وأمد الخليفة إسحاق بجماعة من قواده ، فساروا حتى لقيهم زكرويه بالقادسية . وكان قد خرج من الجيب الذي دام فيه سنين عديدة بقرية الدرية ، فحملوه على أيديهم وسموه ولي الله ، وسجدوا له ، فأعلمهم أن القاسم بن أحمد من أعظم الناس عليهم ذممة ومنة ، وأنه ردهم إلى الدين .

واصطدم جيش الخليفة بجيش زكرويه ، وكانت الهزيمة في أول النهار على جيش زكرويه إلا أن اللعين كمن في آخر النهار لجيش الخليفة ، فلم يشعروا إلا والسيف من خلفهم ، فانهزموا أفبح هزيمة ، وغنم القرامطة غنائم عظيمة تقووا بها . بينما قتل من جيش الخليفة أكثر من ألف وخمسمائة رجل .^(١)

وقام زكرويه بعد ذلك بنفسه في تدبير الأمور ، فرحل في المحرم يقطع الطريق على الحاج وكانت وقائع مذهلة قتل فيها زكرويه - لعنه الله - أكثر من عشرين ألفاً من حجاج المسلمين فلما بلغ الخليفة ذلك استعظمه فجهز المكتفى الجيوش وسير مصيف بن سوار تكين وجرت بينه وبين القرامطة وقائع انتصر فيها جند الخليفة ، وقتل زكرويه وأسر خاصته وانهزم جماعة من القرامطة إلى الشام فقتلهم الحسين بن حمدان^(٢) عن آخرهم ، وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق فقتل بعضهم وحبس بعضهم ، ومات بعضهم بالحبس .

(١) الكامل (٦ : ١١٢ - ١١٥) .

(٢) الكامل (٦ : ١١٦ - ١١٧) .

إلا أن القرامطة تجمعوا من جديد ، وذهبت جماعة منهم إلى الشّام وقصدوا مدينة طبرية ليأخذوها من الإخشيد صاحب مصر والشّام ، وطلبوا من سيف الدولة أن يمدّهم بحديد يتخذون منه سلاحا ، فقلع لهم أبواب الرقة ، وكانت من حديد صامت ، وأخذ لهم من حديد الناس حتى أخذوا في الباعة في الأسواق وأرسل بذلك كله اليهم . . . (١) . كان ذلك في سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة .

وأقتصر على هذا القدر من تاريخ القرامطة ، فان غايته بيان خطرهم وأثرهم في عصر ابن حبان رحمه الله تعالى .
 وإنما أفضت في الحديث عنهم - نسبيا - لأنهم يشكّون أخطر ثورة فكرية وعسكرية مسلّحة في القرن الرابع الهجري ، وكان من نتائج ثورتهم الفكرية والحربية قيام دولة الفاطميين الباطنية في مصر . أو قل : إن من مخططات قيامها في مصر والمغرب اشغال الخليفة في المشرق عن التفكير في أمور تلك البلاد البعيدة .

(١) البداية والنهاية (١١ : ٢٥٤) .

المبحث الثالث : ثورات الخوارج

إن حركة الخوارج بدأت مع ظهور قضية التحكيم بين علي رضي الله عنه ومعاوية ، واستطاع شر الخوارج دهرًا ، وعظم خطرهم الفكري والحربي على المسلمين ، إلا أن العصر الذي عاش فيه ابن حبان ، قد أمن شرهم فسي معظم البلاد الشرقية من العالم الإسلامي ، وإن كان خطرهم في المغرب كان لا يزال ملموساً .

على أن ثمة حركات تمرد ، وثورات عنف قد قاموا بها في ذلك العصر . فقد ذكر ابن الأثير أن هارون الشاري وحمدان بن حمدون وممن معهم من الشراة^(١) دخلوا الموصل ، واستولوا عليها ، وصدوا غارات بني شيبان الذين عاشوا في البلاد فساداً ، إلا أن بني شيبان جمعوا جمعهم ، وقصدوا هارون الشاري وحمدان بن حمدون ، فغلب بنو شيبان الشراة وهرب هارون ومن معه في سنة ثنتين وسبعين ومائتين ، وفي سنة ثلاث وسبعين استولى ابن أبي الساج على الموصل ، فأرسل طائفة من عسكره مع غلامه (فتح) وكان شجاعاً ، إلى المرج من أعمال الموصل ، وكان اليعقوبية من الشراة قريباً منه فأرسل إليهم وهادنهم ، ثم إنهم كسبهم فهرب قسم منهم إلى أصحابهم ، وقتل قسم ، فتجمعوا وعادوا لقتال (فتح) فهزموا وقتلوا من أصحابه ثمانمائة رجل وكان أصحابه ألف رجل^(٢) ، وكان هارون الشاري وحمدان بن حمدون ومن معهم من الخوارج لم ينسوا لبني شيبان فعلتهم كما أن بني شيبان - فيمما بيبدو - معادون للخوارج عداً فكرياً إلى جانب عدايتهم الموروثة لبني تغلب أصحاب حمدان بن حمدون التغلبي الشاري ، أضف إلى ذلك كله أن بسني شيبان كانوا أعراباً - فيما يبدو - همهم الإغارة والنهب لذلك ينقل ابن الأثير أن الخوارج قد اجتمعوا ومعهم متطوعة أهل الموصل وغيرهم

(١)

(٢) الكامل (٦ : ٥٩ - ٦١) مقتطفات .

وحمداً بن حمدون التغلبيّ على قتال بني شيبان بسبب أنّ هؤلاء عسبروا الزّاب،^(١) وقصدوا نينوى من أعمال الموصل للإغارة عليها وعلى البلد . . . وكان محمد بن إسحاق بن كنداج قد أرسل هارون بن سليمان ، مولى أحمد بن عيسى بن الشّيباني صاحب ديار بكر، واليا على الموصل ، فلم يمكّنه الخوارج منها وطرده أهلها ، فلما التقوا انهزم بنوشيبان وتبعهم حمداً والخوارج ، إلا أنّ بني شيبان أيقنوا من الهلاك ، بسبب زيادة ميّساه الزّاب، فرجعوا إلى القتال والنّاس مشغولون بالنّهب، فقتلوا من أهـل الموصل مقتلة عظيمة ، وعاد الظفرليني شيبان الأعراب،^(٢) فغضب الخليفة من تطاول بني شيبان الذين أطلقوا الجزيرة والموصل فسار إليهم بنفسه وأوقع ببعضهم ، فلما نزل الموصل سأله العفو والصّفح^(٣) .

وفى سنة ثمانين خرج محمد بن عبادة ، ويعرف بأبي حوزة على هارون الخارجي ومن معه ، وكان هارون قد قصد حصنا لمحمد بن عبادة فيه ولده أبو هلال ، فقتل هارون أبا هلال واستولى على الحصن ، ثم سار فلقى محمد بن عبادة فاقتتلوا ، فانهزم هارون ومن معه ، فوقف بعض أصحابه ونادى رجالاً بأسمائهم ، فاجتمعوا نحو أربعين رجلاً فحملوا على ميمنة محمد بن عبادة فانهزمت الميمنة ، وهادت الحرب فانهزم محمد بن عبادة ومن معه ، وقتل من أصحابه ألف وأربعمائة رجل ، وحجز بين الفريقين الليل . . فانهزم محمد إلى آمد ، فأخذه صاحبها أحمد بن عيسى بعد حرب ، فظفر به وأرسله إلى المعتضد فسلخ جلده كما يسلم الشاة^(٤) .

وتتابعت أعمال شغب الخوارج ، وظلّ الخليفة يتتبعهم حتى استأمن حمداً ابن حمدون سنة ثنتين وثمانين ومائتين ، وجرت حروب ووقائع بين عسكر الخليفة

(١) هو الزاب الأعلى بين الموصل وإربل . والزاب النهر الذي حفره

أحد ملوك الفرس فسّمى باسمه . معجم البلدان (٣ : ١٢٣) .

(٢) الكامل (٦ : ٧٢) .

(٣) الكامل (٦ : ٧٦) .

(٤) الكامل (٦ : ٧٦) .

وهارون الشّاري ، انهزم في آخرها هارون ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت واستأمن كثير من أصحابه ، وأصرّ الخليفة على إنهاء أمره فأرسل في طلبه الحسين بن حمدان في ثلاثمائة فارس ، ثم قسم الحسين بن حمدان جيشه وتبع الشّاري وحاربه ثم ألقى نفسه عليه وأسره ، وجاء به أسيراً إلى المعتضد فأدخله بغداد مشهراً ثم صلبه سنة ثلاث وثمانين ومائتين . وضعف أمر الخوارج في المشرق بعد ذلك ، ولم تقم لهم قائمة إلا في اليمن وعمّان حيث استولوا عليها سنة ٤٤٢ هـ فيما بعد .^(٣)

(١) الكامل (٦ : ٧٨ - ٧٩) .

(٢) الكامل (٦ : ٨١) .

(٣) تاريخ الإسلام السياسي (٣ : ٢٠٩) .

(١)
المبحث الرابع : ثورات العلويين
~~~~~

لقد عرف التاريخ الإسلامى الإمام علىّ رضى الله تعالى عنه فارساً مظفراً ، وعلماً من أعظم أعلام الإسلام على مرّ التاريخ ، وذكياً المعياً ، وقاضياً حصيفاً ، ومشيراً حكيماً ، قد اجتمعت فيه خصال جعلته يقول غير مرة بسان رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي ، ولم يكن يظن أن أحداً يجرو أن يتقدمه للخلافة . فهو أول من أسلم بعد خديجة وورقة بن نوفل وزيد بن حارثة أو قل : إن هؤلاء جميعاً أسلموا معاً لأنهم - باستثناء ورقة - أهل بيت رسول الله ، وهو أخو رسول الله ، وابن عمه ، ولم يعرف الشرك والوثنيّة وإنما جبل بالإسلام منذ عرف الحياة ، وميّز الأمور ، وأفاض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من علمه وحلمه وحسن عنايته ، ما جعله محلّ إجلال المسلمين وعنايتهم وإكبارهم .

إلّا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلح إلى خلافة الصديق رضى الله عنه طبقاً لما أعلمه الله تبارك وتعالى بما هو كائن ، علاوة على أن أبا بكر هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم . وبعد أبى بكر عمر ، كما صح ذلك عن علي رضى الله عنه عند البخاري وغيره . ولا ريب أن فى تقديم أبى بكر وعمر وعثمان على علي رضى الله عنهم اعتبارات عديدة - إذا ما تجاوزنا مسألة التفضيل هذه - منها :

( ١ ) أنّ أبى بكر وعمر وعثمان كانوا مقربين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان عليّ مقرباً .

( ١ ) العلويون هم أبناء علي بن أبى طالب رضى الله عنه . أما من سمّوا بالعلويين هذا العصر فى بلاد الشام ، فهؤلاء هم النصيريون سمّتهم أمهم فرنسا بالعلويين ، وسمّت جبالهم جبال العلويين كما سمّت جبال الدروز جبال العرب . وقد كانت كتب الجغرافيا والتاريخ لا تذكرهم إلا بالنصيرية والدروز قبل مجيئ الإشتراكيين إلى حكم سورية .

(١) على اختلاف نزعاتهم .

### ثورة محمد بن زيد العلوي

ظهر الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في سنة خمسين ومائتين وكثير جيشه واستولى على جرجان وتلك الناحية ، واستفحل أمره ، وهزم جيش الخلفاء . ثم أخذ الري ، وصاهر الديلم ، وتمكّن وعظم (٢) وقضى على تحركات مناوئيه ، وكان بطاشاً حتى مع أقربائه العلويين ، حتى مات سنة سبعين ومائتين . فتولّى بعده أخوه محمد بن زيد ، وكانت عاصمة ملكه طبرستان ، وكان قد أطلق الخليفة في بغداد ، فوجه إليه جيشاً سنة اثنتين وسبعين ومائتين بقيادة (اذكوتكين) بأربعة آلاف فارس ، وكان جيش محمد بن زيد كثيفاً ، إلا أن الغلبة كانت لجيش الخليفة وقتل من عسكر ستة آلاف رجلاً وأسر ألفان وتشتت الباقون ، ودخل اذكوتكين الري ، وفرض على أهلها غرامة حربية (٤) .

وفي سنة خمس وسبعين ومائتين سار رافع بن هرثمة إلى جرجان ، فأزال عنها محمد بن زيد ، فسار محمد إلى (استراباد) ، فحصره رافع فيها ، وأقام على حصاره نحو سنتين ، ففارقها محمد بن زيد ليلاً إلى (سارية) وظل رافع يتبعه من مكان إلى آخر ، حتى توفي الموفق ، ثم عزل المعتضد رافع بن هرثمة عن خراسان ، فلم يقبل العزل ، وحارب جيش الخليفة ، وكان رافع قد عادى الكثيرين من ولاية تلك الأقاليم ، فصالح رافع ابن عبد العزيز ومحمد بن زيد وتوجه إلى ملاقات عمرو بن الليث في خراسان ، فراسل عمرو بن الليث محمد بن زيد ، وذكره بفعال رافع ، فعدل محمد عن إمداده بأربعة آلاف فارس ، ثم

(١) انظر في ذلك كله القرامطة وآراؤهم الاعتقادية ، والإمام زيد وآراؤه الاعتقادية للأستاذ شريف الخطيب . رسالة ماجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي (٣ : ١٣٦ - ١٣٧) .

(٣) مقاتل الطالبين (ص ٧١٢ ، ٧١٤ ، ٧١٧) .

(٤) الكامل (٦ : ٥٩) .

انهزم رافع في حروبه مع عمرو بن الليث، فعرف عمرو ذلك لمحمد بن زيد وترك له طبرستان وفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين قتل رافع بن هرثمة وصفت خراسان لعمرو بن الليث<sup>(١)</sup>.

وفي سنة سبع وثمانين بلغ محمد بن زيد أسر عمرو بن الليث الصفار فسار قاصداً خراسان ظناً منه أنه يحوزها، وأن إسماعيل الساماني لا يتجاوز عمله، فلما سار إلى جرجان أرسل إليه إسماعيل: إنزم عملك ولا تتجاوز جرجان، وحذره من قصده خراسان إلا أن محمداً أباي، فسير إليه الساماني جيشاً التقى بمحمد بن زيد وجيشه فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى انهزم جيش الساماني، وانشغل جيش محمد في الطلب، فعطف عليهم محمد بن هارون قائد جيش الساماني فهربوا وقتل منهم بشر كثير، وأصيب محمد بن زيد بجراحات في رأسه توفي على أثرها، وأسرا ابنه زيد بن محمد، فأكرمه إسماعيل الساماني كثيراً<sup>(٢)</sup>. ووقعت بعد ذلك حوادث خفيفة لم تصل إلى درجة الثورات، كان من أبرزها القتال الذي دار بين العباسيين والعلويين في المسجد الذي بناه أبو الحسن علي بن إبراهيم العلوي. إلى غير ذلك من الأحداث<sup>(٣)</sup>.

وليس ما ذكرته كل ما يقال عن الفتن والثورات والحروب الطاحنة التي كان يعاني منها المجتمع الإسلامي في ذلك العصر، فقد كانت هناك حروب أخرى كانت تجرى بين ولاة الأقاليم أنفسهم، وما أشدها وأكبر أثرها.

ولو تصفح القارىء كتاب الطبرى وذيله، أو الكامل لابن الأثير أو المنتظم لابن الجوزي أو البداية والنهاية لابن كثير، أو غيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام، لصعب عليه أن يجد عاماً أبيض، لم تذكر فيه وقائع وحروب طاحنة، المتصارعون فيها من المسلمين والخسارة لهم في حالة الظفر والهزيمة.

(١) الكامل (٦: ٧٤-٧٥، ٨٤، ٩٥).

(٢) الكامل (٦: ٩٦-٩٧)، مقاتل الطالبين (ص ٦٩٣) فما بعدها.

(٣) انظر مقاتل الطالبين (ص ٦٩٤-٧٢٢) ففيها ذكر مقاتل عدد كبير

من آل علي لأسباب متعددة.

### الفصل الثالث

#### الحروب الخارجية في عصر ابن حبان

كان ضعف سلطان الخلافة العباسية في ذلك العصر بيناً ، لا يخفى على أعداء الإسلام والمتريبين بالمسلمين من الروم وغيرهم . وقد كان هذا مثيراً لأطماع الكثيرين ، وحافزاً لهم على النيل من كرامة المسلمين ، وإذلالهم ، وتعكير صفوهم ، بل ربما طمع بعضهم باحتلال ديار الإسلام ، والقضاء على المسلمين ، واستعبادهم . ولعل العدوّ الأكبر المحارب للمسلمين في القرن الرابع الهجري هو الروم ، مع وجود أمم عديدة تتربص بهم ، إلا أنّ ضعفها كان يحول دون حربهم . بيد أنّه قد ظهر عدوّ محارب جديد للإسلام والمسلمين آنئذ في الجبهة الشرقية من ديار الإسلام . ولذلك فإنّني سأحدث عن الحروب الخارجية في مبحثين .

## المبحث الأول : الحروب الخارجية في الجبهة الشرقية

كانت الفتن والثورات الداخلية كثيرة في الجبهة الشرقية من الدولة الإسلامية، أما الحروب الخارجية فكانت معدومة في ذلك العصر . اللهم إلا ما حكاه ابن الأثير، ومسكويه وغيرهما من الهجوم الروسي على ديار الإسلام .

كان الروس في ذلك العصر أمة صغيرة العدد لا يزيد عددهم على مائة ألف إنسان <sup>(١)</sup> . وقد كانت لهم ديانتهم وشريعتهم الخاصة، وكانوا يتأخرون بلاد الصقالبة والأتراك، وقد وصفهم أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد مولى محمد بن سليمان، رسول المقتدر إلى ملك الصقالبة وكان مما وصفهم به أنهم (أقذر خلق الله، لا يستنجون من غائط، ولا يغتسلون من جنابة، كأنهم الحمير الضالة . . . . . يجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون، والأقل والأكثر، ولكل واحد منهم سرير يجلس عليه، ومعهم جواربه . . . . . فينكح الواحد جاريتة ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحالة بعضهم بحذاء بعض، وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها، فلا يزول عنها حتى يقضى أمره . وذكر أن من عاداتهم حرق موتاهم . وإذا مات الرجل منهم قالوا لنسائه وجواربه من يموت معه ؟ فمن قال : أنا، لزمه ذلك، ولا يمكنه العود، ويحرقونه مع الميت في النار .

ويعتقدون أن حرقة في النار يدخله الجنة سريعاً <sup>(٢)</sup> .

وكان إذا ولد لأحد هم ولد ألقى إليه سيفاً، وقال له : ليس لك إلا ما تملكه بسيفك <sup>(٣)</sup> .

(ومن رسم ملوك الروس أن يكون معه في قصره أربعمائة رجل ممن

- 
- (١) معجم البلدان لياقوت مادة (روس) (٣ : ٧٩) .  
 (٢) معجم البلدان (٣ : ٧٩ - ٨٣) . وطى هذا فالروس يريدون إعادة الإباحية الأصيلة فيهم، وفرضها على الناس .  
 (٣) ماسبق (٣ : ٧٩) .

صناديد أصحابه ، وأهل الثقة عنده فهم يموتون بموته ، ويقتلون دونه ، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه ، وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجارية أخرى يطؤها .

وهؤلاء الأربعمائة يجلسون تحت سريره ، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجواهر ، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه ، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا ، ولا ينزل عن سريره ، فإذا أراد قضاء حاجته ، قضاها في طشت . (١)

ومع قلة عدد هم فهم (أمة عظيمة ، لهم خلق عظام ، ولهم بأس شديد لا يعرفون الهزيمة ، ولا يولّي الرجل منهم حتى يُقتل أو يُقتل . . . ) (٢)

وقد أغار هؤلاء على مدينة (بردعة) <sup>(٣)</sup> فخرج إليهم نائب المرزبان أميرها - في جمع من الدّيلم والمطاعة يزيدون على خمسة آلاف رجل ، فلقوا الروس ، فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم ، وقتل الدّيلم عن آخرهم وأقبلت العساكر الإسلامية لقتالهم ، فكان الروس يقاتلون أشد القتال ، ولم يثبت المسلمون لقتالهم ، ولما دخلوا بردعة قتلوا من أهلها مقتلة عظيمة وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس ، وقالوا للناس : اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم . . . فلما لم يفتدوا قتلوهم عن آخرهم وغنموا أموال البلد واستعبدوا والسبي ، واختاروا من النساء من استحسنوها .

واستعظم المسلمون ما فعل الروس فتنادوا بالنفير ، فجمعوا ثلاثين ألفاً من الرجال ، إلا أنهم لم يقدروا على الروس ، وسار الروس نحو (مراغة) لاحتلالها فأكلوا الفواكه الكثيرة المتنوعة ، فأصابهم الوباء وكثر فيهم المرض والموت ، ودارت بينهم وبين المرزبان المعارك الطاحنة فلم يُفلح ، فاعمل معهم الحيلة ، فلم تنجح ، حتى أبادهم الله بالوباء ، وأراح المسلمين من شرورهم . (٤)

(١) معجم البلدان (٣ : ٨٢ - ٨٣) .

(٢) تجارب الأمم لابن مسكويه (٢ : ٦٢) .

(٣) بلدة رويت بالبدال المهمة والمعجمة تقع في أقصى أذربيجان . معجم

البلدان (١ : ٣٧٩) .

(٤) ذيل تاريخ الطبري (ص ٣٤٥ - ٣٤٦) ، الكامل في التاريخ لابن الأثير

(٦ : ٢٩٧ - ٢٩٨) .

### المبحث الثاني : الحروب ضد الرومان

كانت الحروب على أشدها في الأندلس بين المسلمين والقوط والفرنسيين ، إلا أنني لن أعرج على هذا ، لأن الذي يعنيني ما كان له أثر مباشر أو غير مباشر في حياة الإمام ابن حبان وعصره .

لذا فإنني سأعرض - بإيجاز بالغ - للحروب التي جرت بين الدولة العباسية وبين الروم ، لأن ابن حبان عاش حياته في ظل هذه الخلافة ولم يغادر ربوعها إلا قليلاً إلى مصر في رحلته التي ساعرض لها ، والتي كانت قبل تمكن الفاطميين من تلك الديار .

لا يخفى على أحد أن الروم وراث حضارة ، وبناء حضارة ، وأنهم يأنفون الغلبة ، ويستنكرون التبعية لغير أبناء جنسهم .

كما أن الرومان باردوا التفكير كسائر الأمم الأوربية ، لا ييأسون ولا يضحجون ، وهذا من أسباب استمرار عدائهم ومحاربتهم للمسلمين .

وكان كلمة الروم إذا أطلقت فإنما تعني الأمم النصرانية ، حيث إن الروم أشرفهم ، وأقواهم . وعلى هذا يُفسر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (تقوم الساعة والروم أكثر الناس) (١) .

ولقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أمته في غير ما حديث بأشهر الملاحم التي تقع بينهم وبين الروم . وبشرهم بأن فتح رومية يكون قبيل خروج الدجال (٢) . ثم يخرج الدجال ، وينتصر عليه المسلمون . (٣)

ولعلّ ثمة أسباباً أخرى مكنت لهم في الأرض ، وزادت قوتهم ، منها ما ذكره عمرو بن العاص القرشي الذي خبرهم - في حروب الشام ومصر ما يزيد على ربع قرن من الزمان . قال :

( ١ ) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة باب تقوم الساعة والروم أكثر

الناس رقم ( ٢٨٩٨ ) من حديث المستورد القرشي مرفوعاً .

( ٢ ) انظر في مسلم الحديث رقم ( ٢٨٩٩ ) .

( ٣ ) مسلم رقم ( ٢٩٠٠ ) .



( إنَّ فيهم لخطالاً أربعاً : إنَّهم لأحلم النَّاس عند فتنة ، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، وأوشكهم كربةً بعد فرة ، وخيرهم لمسكين ویتيم وضعيف وخامسة حسنة جميلة : وأمنعهم من ظلم الملوك )<sup>(١)</sup> .

فليس بعيداً عن الصواب إذا أن أقول : إنَّ النَّصارى أعتى عدو للإسلام والمسلمين منذ فجر التاريخ الإسلامي ، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد كانت الحروب بين المسلمين والروم على جبهتي الجزيرة والشام سجالاتاً بين الفريقين ، وغالباً ما يرافق النَّصر المسلمين ، إذا كانت أحوالهم الداخلية مستقرة ، وكانت صلتهم بربهم قوية .

قال ابن كثير بعد ذكره أنَّ الروافض كانوا يلعنون معاوية ، ويسبون أباه بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم من بني بويه وأتباعهم . قال : لا جرم أن هؤلاء لا يُنصرون ، وكذلك سيف الدولة بن حمدان بحلب ، فيه تشيع وميل إلى الروافض ، لا جرم أن الله لا ينصر أمثال هؤلاء ، بل يُدبِّل عليهم أعداءهم لمتابعتهم أهواءهم ، وتقليدِهم ساداتهم وكبراءهم وآباءهم ، وتركهم أنبياءهم وعلماءهم .

ولهذا لما ملك الفاطميون بلاد مصر والشام ، وكان فيهم الرفض وغيره استحوذ الفرنج على سواحل وبلاد الشام كلها ، حتى بيت المقدس ، ولم يبق مع المسلمين سوى حلب وحمص وحملة وبعض أعمالها وجميع السواحل وغيرها مع الفرنج ، والنواقيس النصرانية ، والطقوس الإنجيلية تضرب في شواهد الحصون والقلاع ، وتكفر في أماكن الإيمان من المساجد وغيرها من شريف البقاع ، والناس معهم في حصر عظيم ، وضيق من الدين . . . وكل ذلك مسن بعض عقوبات المعاصي والذنوب ، وإظهار سبِّ خير الخلق بعد الأنبياء . . . ) . ومن المسلم به أن القرن الرابع الهجري كان مسرحاً لحركات الرفض وعصراً لهيمنتهم ، فقد كان الفاطميون في مصر ثم الشام ، وبنو بويه في معظم بلاد فارس والأهواز والعراق ، وبنو حمدان في حلب والجزيرة والموصل وكلهم رافضة .

( ١ ) هو طرف من حديث المستورد القرشي عند مسلم رقم ( ٢٨٩٨ ) . والذي ينعم النظر في واقع النَّصارى اليوم يجد هم أكثر النَّاس تماسكاً وتراحماً على ما بين مذاهبهم من تباين شديد .

ومع سيطرة الرافضة تكثر الذنوب، ويقل التمسك بالدين، وتثار النزاعات  
الداخلية التي تنخر في جسد الأمة، وهل ثورة الزنج، وثورة القرامطة  
إلا غلو وجموح من الرفض والباطنية . . وهل ظهرت الزندقة، وشاع المـجـوون  
إلا في أوساط الرافضة وأحيائهم .

ولا يرد<sup>على</sup> هذا أن بني حمدان كانوا بمثابة حراس حدود بلاد الشّام  
ضد الروم، فإن بني حمدان على تشيعهم ورفضهم، لانتهمهم بأنهم يريدون  
كيد الإسلام، وتقوية أعدائه، مادام هذا الإسلام ما يرغبون ويرضون، أضف إلى  
هذا كله أن هذه البلاد تحت سيطرتهم، وكانت ربوع مملكتهم، فحريّ بهم  
الدّفاع عنها والذّود عن حياضها .

ولقد خاض المسلمون مع الروم قرابة عشرين معركة حربية في عصر ابن  
حبان، وأزيد كان النصر للمسلمين في بعضها، والنصر للروم في بعضها  
الآخر، إلا أن ملاحظته أن الدّمستق ملك الأرمن المتوفى عام ثنتين وخمسين  
وقيل خمس، وقيل ست وخمسين، كان أعنى هؤلاء الطّغاة، وأشدّهم عداوة  
للمسلمين، وأكثرهم فتكاً بهم، وقد كان عصر سيف الدولة بن حمدان وقد  
وقعت المفاداة بين المسلمين والروم مرّات عديدة كما في سنة (٢٩٥) و (٢٩٧)<sup>(١)</sup>  
و (٣٠٥) بل إن ملك الروم نفسه قد دخل بغداد في هذه السنّة (٣٠٥)<sup>(٢)</sup> ،  
لعقد الهدنة والمفاداة .

(٤)  
كما طلب الروم الهدنة مرة أخرى عام (٣٢٦) .

وتبيّن لي من خلال الاستقراء للحروب التي جرت بين المسلمين والروم  
بين عامي (٢٨٥ - ٣٥٤ هـ) أن الغلبة للمسلمين كانت عام (٢٨٥) ، (٢٩٤)  
(٢٩٦) ، (٢٩٧) ، (٢٩٨) ، (٣٠١) ، (٣٠٢) ، (٣٠٦) ، (٣٤٢) ،  
(٣٤٣) ، (٣٤٥) ، (٣٥٠)<sup>(٥)</sup> .

- 
- (١) البداية والنهاية (١١: ١٠٣) .  
(٢) البداية (١١: ١١) .  
(٣) البداية (١١: ١٢٧) .  
(٤) البداية (١١: ١٨٨) .  
(٥) البداية (١١: ٨٧، ١٠١، ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٨،  
٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٣٧) .

وكانت الغلبة للروم عام (٢٨٩) ، (٣١٤) ، (٣٢٢) ، (٣٣٢) ،  
 (٣٤١) ، (٣٤٧) ، (٣٤٨) ، (٣٥١) ، (٣٥٣) ، (٣٥٤) .<sup>(١)</sup>

(وقد تحدّث التاريخ عن أبطال الحرب من المسلمين مثل : يازمان الخادم ، وطفج بن جفّ ، وسيما الطويل ، ومؤنيس المظفر ، وبشر الخادم وغلّام زرافه ،<sup>(٢)</sup> وسيف الدولة الحمداني ، وأبي فراس الحمداني الشاعر ، وغيرهم .  
 ويلمح مما سبق أنّ الغلبة - بشكل عام - كانت للمسلمين قبل القرن الرابع الهجري ، بينما كانت للروم - بشكل عام - في القرن الرابع . ورغم ما بذله آل حمدان في الدفاع عن ثغور الشّام والجزيرة إلا أنّ قوة العسود اجتمعت مع ذنوب المسلمين ، فكانت الكارثة عليهم ، في وقعات كثيرة (حتى إنّ الإمبراطور قسطنطين السابع طلب من أهل الجزيرة الخراج ، ولمّا امتنعوا من ذلك دخل ملطية ( ٣١٤ هـ ) فأخربها وسبى منها ، وغادرها بعد أن أقام فيها ستة عشر يوماً ، وخرج أهلها إلى الخليفة المقتدر فلم يغاثوا ، وفي سنة ( ٣١٥ ) دخل سميساط ، وغنم ما فيها من مال وسلاح وضرب في الجامع بالناقوس . وفي سنة ( ٣١٦ ) أصبحت الثغور البكرية بأيدي الروم ، وفي سنة ( ٣١٧ ) تقدم الروم صوب منطقة الجزيرة ، فدخلوا أرزن ، وميافارقين ، ونصيبين ، وحاصروا الرّهّا ، ثم انسحبوا بعد أن سلّم إليهم المنديل المقدّس الموجود في إحدى كنائسها )<sup>(٣)</sup> .  
 وبالعجطة فلم تكن الحروب بشكل عام لصالح المسلمين في ذلك القرن الكئيب .

كل هذا يجري ، وابن حنّان يجوب الشرق والغرب ، ويعاني ويكابّد الآلام من هول الويلات الداخليّة والخارجيّة .

(١) البداية ( ١١ : ٩٤ ، ١٥٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ )  
 . ( ٢٥٤ ، ٢٥٣ )

(٢) المواضع السابقة نفسها وانظر شعر الصّراع مع الروم حتى نهاية القرن الرابع الهجري للدكتور نصرت عبد الرحمن (ص ٢٥) .

(٣) الصّراع مع الروم (ص ٢٦) ، وانظر للوقوف على الحروب مع الروم كتاب سيف الدّولة الحمداني للدكتور مصطفى الشكعة .

## الفصل الرابع

### الحياة الاجتماعية في عصر ابن حبان

لا ريب أن الحياة الاجتماعية تتأثر تأثراً كبيراً بالحياة السياسية للأمة فالاستقرار السياسي، والأمن العام للمجتمع من أهم أسباب التقدم الاجتماعي واستقراره، ومحال أن تعيش أمة في صراعات داخلية وخارجية مسلحة ويكون أبنائها يعيشون حياة اجتماعية هادئة مستقرة .

وعصر ابن حبان كان عصر حروب وشرور وفتن، والخليفة كما رأينا لا حول له ولا طول في معظم الأحيان، وخاصة منذ ولي المقتدر، إلى نهاية عصر ابن حبان .

وقد كان للصراعات العقائدية أثرها البالغ في إذكاء نار الخصومات وإثارة الشحناء، وهذا وذاك مؤثران خطيران على الحياة الاجتماعية .

وقد مر معنا آنفاً بعض الحركات والمذاهب الهدامة كالقرامطة والفاطميين والزنج والروافض من بني بويه والحمدانيين وغيرهم، وذكرنا بعض آثارهم في الحياة الإسلامية، ولكننا سنحاول في هذا الفصل إلقاء بعض الأضواء على الحياة الاجتماعية مباشرة .

### المبحث الأول : طبقات المجتمع

إنّ كلّ مجتمع من المجتمعات الإنسانية ينقسم إلى عدة طبقات، تكاد تكون متقاربة في جميع المجتمعات الإنسانية، والذي يختلف هو درجة التفاوت المادى بينها، وأثر ذلك التفاوت على الحياة الاجتماعية .

فمجتمع عصر الرسول صلى الله عليه وسلّم، كان من الناحية الاجتماعية ينقسم - باستثناء رسول الله صلى الله عليه وسلّم - إلى ثلاث طبقات :

- ( ١ ) طبقة القادة : وهم رؤوس المهاجرين والأنصار، وزعماء الأمة .
- ( ٢ ) طبقة الأغنياء والتجار : وهؤلاء يمثلون طبقة وسطى بين القيادة وعامة الناس .

( ٣ ) طبقة الفقراء : وهؤلاء يشكّل الغالبية العظمى من المجتمع فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلّم .

غير أن الملاحظ فى عصر الرسالة أنّ الغنى لم يكن مرافقا للقيادة غالبا بل كان من بين هؤلاء القادة من يشارك أفقر الفقراء فى فقره .

كما لم يكن الفقر فى عصر الرسالة دليلا على الجهل والتلف والانحطاط ومرافقا لها، بل كان - فى الغالب - على العكس تماما، فأهل الصفة كانوا من أفقر المسلمين يومئذ ومن الذين يعيشون على صدقات الأغنياء، غير أنّهم قد تخرج منهم كبار علماء الأمة كأبى هريرة<sup>(١)</sup>، ومثبات القراء والمحدثين، الذين تفرغوا للأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وحرصوا على متابعة مجالسه العلمية .

فالتفاوت الطبقي فى عصر الرسالة إنّما كان ملحوظا بدرجة التأثير فى المجتمع والبتّ فى الأمور الكبيرة، وتعليم الناس وثقيفهم . أما المادة فلم تكن فى ذلك المجتمع الفريد ذات أثر كبير فى النفوذ .

( ١ ) انظر عن أهل الصفة حلية الأولياء لأبى نعيم ( ١ : ٣٣٧ ) فما بعد وانظر بحثا طبيا للدكتور اكرم العمري فى كتاب (المجتمع المدنى فى عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى) (ص ٨٩) فما بعد .

نعم ، ربما اكتسب بعض قادة الصحابة مركزا معينًا في نفوس الناس لكونهم جمعوا بين القيادة الأصيلة فيهم ، والمادة المكتسبة من الطّـرق الشرعية ، والميدولة في سبيل الله . وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها . أمّا أن تكون المادة هي التي أوصلتهم إلى القيادة ، فغير صحيح البتّة .

ولم تختلف الصورة كثيرا في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلا أننا لانغفل تأثيرها بالانحراف العام الذي بدأ طفيفا ثم اتسع ، حتى إذا جاء عصر ابن حبان كانت المجتمعات بعيدة جدا عن الإسلام فـ في كثير من قيمها وأخلاقها وطبيعتها تعاملها الحياتي .

وإذا قسمنا المجتمع في عصر ابن حبان إلى الطبقات الثلاث سالفـة الذكر ، فإننا نلاحظ أن كل قسم منها يندرج تحته أنواع عديدة تشترك في جملة من الصفات ، وتختلف في صفات وأمور كثيرة أخرى .

وسأحاول عرض أهم أنواع كل قسم من الأقسام السابقة ، لتتجلى الصورة ، ويتوضح السبيل .

وسيرى القارىء الكريم أنني أخلط بين الحياة الاجتماعية العملية كالسلوك والأخلاق والمنزلة ، وبين الناحية المالية والاقتصادية ، وما ذلك عن غفلة مني ، ولكنني رأيت دمجها لتشابكهما في الحياة أولا ، ولأن أثر أحدهما في الآخر واضح ، فلاداعي للتفريق في بحث كهذا .

### ( ١ ) طبقة القادة

إن طبقة القادة في عصر ابن حبان واسعة عريضة جدا ، والحديث عنها مفصلا يحتاج إلى بحث متخصص يدرسها ، إلا أن إشارات خفيفة يمكن أن تسعف القارىء فتعرفه طبيعة هذا العصر ، ومتناقضاته العجيبة .

وقد أمكن تقسيم طبقة القيادة إلى ثمانية أقسام هي :

( أ ) طبقة أسرة الخلافة ، وهي الأسرة العباسية .

( ب ) طبقة الملوك والسلاطين وولاية الأقاليم .

- ( ج ) طبقة الأمراء في حاضرة الخلافة وما حولها .  
 ( د ) طبقة الوزراء .  
 ( هـ ) طبقة قادة الجيوش والعساكر .  
 ( و ) طبقة قادة الشرطة وجنود الخليفة .  
 ( ز ) طبقة القضاة والعلماء .  
 ( ح ) طبقة الأشراف الطالبين .  
 ( أ ) الخليفة :

الخليفة العباسي هو السلطة الشرعية العليا في الدولة، وطبقته القيادة كلها تأخذ شرعيتها منه، وقد كان للخليفة العباسي في عصر الأتراك بعض الشأن في الأمور السياسية - كما تقدم - [لأنه كان من الناحية المالية من أغنى الأغنياء في الدنيا. فلم يكن أحد له الحق في أن يمنع الخليفة من شيء، فإليه تجبى الأموال الطائلة من شتى بقاع الأرض .

ذكر الصابي في كتابه الوزراء أن جزءاً من دخل سواد العراق قد بلغ في عهد المعتضد لسنة ( ٢٨٠ هـ ) مليونين وخمسمائة وعشرين ألفاً من الدينار<sup>(١)</sup> .

وتدهور الدخل في عهد المقتدر بسبب ضعفه، وبسبب كثرة الأحداث - فبلغ دخل سواد العراق مليوناً وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار .

ويورد الصابي مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهد المقتدر في سنة ( ٣٠٦ هـ ) ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليوناً وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفاً وثمانية وأربعين ديناراً<sup>(٢)</sup> .

ولا يخفى أن هذه الأموال التي تجبى من سواد العراق، وأقاصي الدولة وأدانيها، كانت هي الفائض الذي يرسله ولاة الأقاليم لدار الخلافة

( ١ ) عن العصر العباسي الثاني ( ص ٥٣ ) .  
 ( ٢ ) عن العصر العباسي الثاني ( ص ٥٣ ) .

بعدهما يقتطعون منه حصتهم . ونفقات أماراتهم من بناء المساجد والقنادق  
ودور العلم والشوارع والجسور، وغير ذلك <sup>(١)</sup> .  
وهذا يعنى أن هذه الأموال ليست سوى نفقة الخليفة وحاشيته ومن  
يلوذ به فى حاضرة الخلافة .

( وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير، تنفق سنويا  
وقلما كان يتبقى منها شىء .

ويقال : إنه لما ولى المعتضد ( ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ ) ادّخر فى كل سنة  
من سنى خلافته مليون دينار، فبلغ ما ادّخره تسعة ملايين ، وخلفه ابنه  
المكتفى ( ٢٨٩ - ٢٩٥ هـ ) فبلغ بالمدّخر أربعة عشر مليوناً .

وجاء بعده المقتدر ( ٢٩٥ - ٣٢٠ هـ ) فلم يقف عن الادّخار فحسب  
بل أتلف كل المدّخر، مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويا ، وما كانت تغلّه  
الضياع السلطانية، حتى قالوا : إنه بدد ثمانين مليوناً من الدنانير <sup>(٢)</sup> .

وإذا مارحنا نستعرض مجالات صرف هذه الأموال الطائلة ، وجدنا  
معظمها كان ينفق على قصور الخلفاء .

( أورد الصابى فى كتابيه الوزراء ، ورسوم دار الخلافة اثباتا بما كان  
ينفق على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر ، وهى تصدّر  
عظم هذه النفقات ، فقد كان ينفق على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين  
ألف دينار شهريا ، وكان ينفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة  
آلاف دينار شهريا ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألف دينار ، وغير  
ما ينفق على البوابين من البيض والسودان ، وكان يبلغ ألف دينار . وغير  
ما ينفق على العماليك والحرس ، وكانوا يعدون بالآلاف ، وغير ما ينفق على  
المرسومين لخدمة الدار من القراء ، وأصحاب الأخبار ، والمنجمين ، والبوقيين  
والمضحكين ، والطبّالين ، وأصحاب الصيد والملاحين فى السفن ، وأصحاب  
المشاعل والأطباء . . . . وإن نفقة ذلك وما يجرى مجراه مما يلزم الدار ، كان

( ١ ) ماسبق (ص ٥٣) .

( ٢ ) ماسبق (ص ٥٤) .



يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويا . ويقال : إنه كان فى الدار بأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس ، وعشرة آلاف خادم مــــــن السود والصفالبة .

أما فى أيام المقتدر ، فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود ، وأربعة من الصفالبة وأربعة آلاف امرأة حرّة ومملوكة . . . . . وعمل الراضى ( ٣٢٢ - ٣٢٩ هـ ) على القصد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار يوميا (١) .

أما عن بناء القصور الشامخة ، فقد بنى المتوكل وحده عشرين قصرا (٢) . أما قرابة الخليفة من العباسيين فقد كانوا فى نعيم ورفاه ، فكانت لهم الإقطاعات الكبيرة التى يجبى إليهم خراجها .

#### ( ب ) الوزراء :

لقد كان الوزراء يعيشون فى نعيم الخلفاء نفسه بما يأخذونه من مرتبات ضخمة ، وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة وقد كان للوزير إقطاع يدرّ عليه مائة وسبعين ألف دينار سنويا ، إلى أن كان عهد المقتدر فأجرى عليه راتباً قدره خمسة آلاف دينار شهريا ثم صار سبعة آلاف .

ولكى نتصور مدى الثراء الذى كان للوزراء ، يكفى أن نعرف أن المعتمد ( ٢٥٦ - ٢٧٩ هـ ) استخلص من وزيره سليمان بن وهب ، وابنه عبيد اللــــه نحو مليون دينار ، وكان مبلغ غلته فى سائر ضياعه مليونا وثلاثمائة ألف دينار (٣) . ولا يخفى أن مثل هذه المبالغ الضخمة وغيرها ، لم يكن هؤلاء ليحظوا بها لولا اسم الوزارة الكبير ، لذلك فقد كان الكبراء يتنافسون عليها ويبذلون فى سبيلها الأموال الطائلة . فهذا القاسم بن عبيد الله بن سليمان

( ١ ) العصر العباسى الثانى ( ص ٥٤ ) .

( ٢ ) ما سبق ( ص ٥٥ ) .

( ٣ ) ما سبق ( ص ٥٦ ) .

ابن وهب، أراد المعتضد أن يستأصل شأفته مع إخوته ، فتوسّط لدى الخليفة بغلامه بدر المعتضدى، وكتب خطأ بألفى ألف دينار (مليونين) فاستـوزره المعتضد<sup>(١)</sup> .

وهذا ابن رائق يتوسّط للفضل بن جعفر بن الفرات، فيستوزره الراضى بالله، ظنا من ابن رائق أنّه يجتذب له الأموال<sup>(٢)</sup> .

وهذا هرون بن خمارويه يسترضى المعتضد، فيتنازل عن قنّسرين والعواصم، ويدفع إلى بيت المال ببغداد، كل عام أربعمئة ألف وخمسين ألف دينار، وسأله أن يجدد له ولاية على مصر والشّام<sup>(٣)</sup> .

وقد كان الوزراء يختلسون أموال الأمة، ويكثرونها، فكان منافسوهـم يصارعونهم عسكريا ويفضحونهم إعلاميا على سرقاتهم .

فمحمد بن أبى السّاج حارب عبد الله بن الحسين بعد أن آمنه وأصحابه، فقيدته وحبسه، وقرّره بكل أمواله، ثمّ قتله<sup>(٤)</sup> .

وقد كان الصراع بين الوزراء على أشده ليحظى كل واحد منهمـم بنصيب غيره من المال والجاه ورضى الخليفة، فمرة يدسّ بعضهم لبعض سمّا وبعضهم يقتل الآخر علانية حسب مقتضى الحال<sup>(٥)</sup> . بل إنّ الخلفاء أنفسهم وقد تيقنوا هذا فى وزراءهم وولاتهم، صاروا يولون الرجل على قدر برّه بهم وإحسانه إليهم، وتتوسع ولايته على قدر سعة ما يرسل إلى الخليفة<sup>(٦)</sup> من مال كما كان القادة والولاة يشترّون بعضهم بالمال أيضا . فكان القائد يدعو إلى الوالى على المنابر إذا أكرمه ذلك الوالى ورشاه<sup>(٧)</sup> .

وقد كان للمعتمد خمسة وزراء إضافة إلى أخيه الموفق، كما كان للمقتدر اثنا عشر وزيرا فى مدّة خلافته . فإذا علمت ضعف المقتدر، فقسّدّ البلاء الذى صب على الأمة فى عهده من هؤلاء الوزراء .

(١) الفخرى (ص ٢٥٦) .

(٢) الفخرى (ص ٢٨٢) .

(٣) الطبرى (١٠: ١٢)، الكامل (٦: ٦٢) .

(٤) الطبرى (١٠: ٣٣) .

(٥) الطبرى (١٠: ٨٨) .

(٦) ماسبق الموضوع نفسه .

(٧) ماسبق (١٠: ١٨) .

وكان للراضى بالله خمسة وزراء أحدهم ابن مقله ، بذل فى وزارته  
الثالثة فقط مبلغ خمسمائة ألف دينار للحصول عليها<sup>(١)</sup> .  
أما أمير الأمراء فقد تسمى به ابن رائق ، وكان له الأمر والنهى فى  
حاضرة الخلافة وتسيير الجيوش ، بل وصل الأمر إلى أن يكون الخليفة ملزماً  
بأوامره ، وما يقضيه حتى جاء بنو بويه ، فأمسكوا بزمام الأمور ، وحددوا سلطات  
الناس ، وصار معز الدولة بن بويه هو أمير الأمراء ، وهو الذى يعين الوزراء  
ويختارهم من حزبه ، بل وصل بهم الأمر إلى تحديد راتب للخليفة يلقى  
باحتياجاته فحسب<sup>(٢)</sup> .

ولم تكن أمور ولاية الأقاليم وقادة الجيوش ، ورؤساء الشرطة أحسن  
حالا ، وأكثر رحمة بالأمة ممن فوقهم ، إذ الأدنى يتعلم من الأعلى ، ويزيد عليه  
سواء فى دناءته .

#### (ج) الأشراف الطالبيين :

وقد كان الأشراف الطالبيين من وجهاء المجتمع ، وكبار الدولة  
الإستشاريين ، إلا أنهم كانوا مجردين من كل حول أو قوة ، سوى قوة التأثير  
الذاتى بشرفهم ودينهم ، وقد كان لهم إقطاعات ، وجرايات يقدّمها لهم  
الخليفة ببغداد ، على أن منهم من كان يعيش فقيراً لكثير من سائر الرعيّة  
لأنه ينفق خواجه على المعوزين من أبناء المسلمين ولم يكن جمهور الطالبيين  
يتعاطون الظلم والعسف ، بل كانوا ملجأ المظلومين ، وعون الضعفاء ، وشفعاء  
ذوى الحوائج ما أمكنهم<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) الفخرى ( ص ٢٨٠ ) .

( ٢ ) الفخرى ( ص ٢٨٨ ) .

( ٣ ) العصر العباسى الثانى ( ص ٥٩ ) ، وانظر بتوسع الحضارة الإسلاميّة  
فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ( ١ : ٢٧٩ ) فما بعد .

( د ) العلماء والقضاة :

كانت حياة القضاة مرموقة ممتازة ، وكانت مرتباتهم وعطاءاتهم عالية  
 وكلما كان القاضى متجردا مبتعدا عن النفاق والمجاملة كان أكبر فى عين  
 الخليفة والوزراء على أن هناك قضاة كان يستخدمهم الوزراء الظلمة  
 لتنفيذ أغراضهم ، وكان هؤلاء القضاة أغنياء من الرشاوى والعطاءات المحرمة .  
 أما علماء الأمة فتختلف حالهم باختلاف عهد الخليفة ووزرائه  
 وقد كانت محنة خلق القرآن وآثارها السيئة فتنة عصفت بكثير من النفوس  
 وأذاقت الويل كثيرا من العلماء .

غير أن عددا من خلفاء هذا العصر كانوا يحسنون إلى العلماء  
 ويتعهدونهم ، وقد يمر معنا شيء من هذا فيما يأتى إن شاء الله .

( ٢ ) طبقة الأغنياء

وأما طبقة الأغنياء ، فأعنى بها الطبقة التى تلى طبقة القيادة ، وإذا  
 استثنينا طبقة القيادة الفارقة فى النعيم . فإن هذه الطبقة تعتبر العليا  
 فى المجتمع ، أو طبقة الأغنياء ، ذلك أن الغنى والفقر يلحظ فيه أمران  
 اثنان معا :

( ١ ) الأمر الأول : مستوى المعيشة ، والقيمة الشرائية للدرهم والدينار .  
 ( ٢ ) الأمر الثانى : الموازنة النسبية بين أصحاب الأموال ، والمعدمين .  
 فباعتبار الأمر الثانى تحسب هذه الطبقة هى الوسطى إذا ماقيست  
 بالطبقة العليا طبقة القيادة ، كما تعد طبقة عليا بالنسبة للطبقة الفقيرة  
 وبالنسبة للقوة الشرائية للدرهم والدينار .

ويمكن أن نعد أبناء هذه الطبقة من التجار ، وأصحاب المصانع  
 والمزارع ، وأصحاب شبكات الصيد ، وأصحاب الحوانيت الضخمة ، ونحوهم .  
 وذلك بالاعتبار الأول الذى يلحظ مستوى المعيشة ، والقوة الشرائية  
 للنقود ، وقد جاء أن من يمتلك سبعمائة دينار تعد ثروته غير قليلة . . . . .<sup>(١)</sup>

( ١ ) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ( ٢ : ٢٠٩ ) .

ومما يؤكد ضرورة اعتبار القوة الشرائية . أن أحد أبناء الولاة أضع ثروته على بعض المغنّيات، ثم مات خادماً كان مولياً لأبيه، وابن عم له، فورث من تركتهما أربعين ألف دينار .

( ١ ) فعمر داراً بألف دينار .

( ٢ ) واشترى آلات وفرشا وثيابا وجواري ثلاثا بسبعة آلاف دينار .

( ٣ ) وسلم لتاجر ألفي دينار ليتجر له فيها .

( ٤ ) وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد .

( ٥ ) وابتاع ضيعة تغل في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته (١) .

فهذا نص يدل على أن القوة الشرائية كانت عالية جدا، فدار السكنى تبني بألف دينار . كما يدل على ارتفاع قيمة الجواري في ذلك العصر - كما سيأتي - .

ويمكن أن نعتبر من هذه الطبقة من الناحية المادية فحسب الشعراء والمغنّين المشهورين، حيث كانت تتدفق عليهم الأموال والصلوات والأعطيات، كما كان من هذه الطبقة كبار الكتاب، ورؤساء الدواوين لأنهم وإن كانوا أغنياء، إلا أنهم لم يصلوا في الغنى إلى طبقة القيادة العليا . كما يمكن أن يكون بعض القضاة من أبناء هذه الطبقة، وإنما صنفت القضاة في طبقة القيادة باعتبار أثرهم في المجتمع، دون اعتبار الناحية المالية المجردة .

### ( ٣ ) الطبقة الوسطى

( وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى، وجدنا كثيرا من يندمجون فيها، وفي مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث، وكان كثير منهم يأخذ رواتب من الدولة، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة وكانوا يدفعون إليهم أجورا قليلة .

( ١ ) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ( ٢ : ٢٠٩ ) .

ويدخل فى عداد هذه الطبقة الشعراء والمغنون عامة، وعمسال  
الدواوين والكتاب وموظفو الحسبة ورقابة الأسواق، وموظفو المكوس والضرائب.  
ومن هذه الطبقة أيضا أوساط الصّناع، وخاصة من كانوا يقومون على  
أثاث المساكن والأزياء والطعام، ويدخل فى الأثاث صناعة البسط والسجاد  
والنّمازق والمعاهد، والتخوت الوسائد . . . (١)

#### ( ٤ ) طبقة الفقراء

وهى الطبقة التى كان يقع عليها عبء العمل كله فى الزراعة، وفسى  
الصناعات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور .

فهى التى تعمل فى الإقطاعات والضياع، وهى التى تقوم على  
أسباب الحياة للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة، أو صانعة، أو خادمة  
تارة ثانية، فكل ما تنقلب به الطبقتان من النّعيم إنّما هو من أيدى هـذـه  
الطبقة العامة .

وقد مرّ معنا فيما سبق ثورة الزنج، وكيف أنهم كادوا يدمرون الدولة  
تدميرا لشدة نقيمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة، وما كادت تخمد، حتى  
هبت ثورة القرامطة وعنفت بالدولة هى الأخرى عنفا شديدا .

والحق أنّ توزيع الثروة فى هذا العصر كان توزيعا غير عادل، وزاد من  
سوءه عدم يقظة الضمائر فى النفوس، وضعف الوازع الدينى فى الصدور، وقسوة  
القلوب التى ما كانت - فى الغالب - تتنبه لمآسى المجتمع، وآلام الطبقة  
الفقيرة .

ورب قائل يقول : إنّ هؤلاء الفقراء، كانوا فى الغالب من العبيد  
الأرقاء، وليس من حقهم أكثر من أن يأكلوا ويشربوا ويكسوا بالمعروف، ولقائل  
فى الطرف الآخر أن يقول - جدلا - إن هذا من السّهام التى توجه لنظام  
الرق فى الإسلام .

ولهؤلاء وأولئك أقول :

( ١ ) العصر العباسى الثانى (ص ٦١) .

إنّ الإسلام حين أقرّ موضوع الرقّ الذى كان سائدا في تلك الأعصر كان من نظامه التشجيع على العتق بكل مناسبة ، وبدون مناسبات وكان من أهداف الإسلام ، أن يقرب الرقيق من سيده ، فيتعلم منه الإسلام ، ويتخلّق بأخلاقه ، وسيان بعد ذلك بقى رقيقا ، أو أعتق - وهو المرغوب فيه - مادام قد عاش مسلما ، ومات مؤمنا يرجى له المغفرة في الآخرة ، لأن الإسلام يعلم الناس أن الحياة الدنيا ليست سوى جسر يعبر عليه الناس إلى حياة الخلود في الجنة أو النار ، وليس معنى هذا أن يستسلم الرقيق لوضع سيده أو أن يظلم السيد المالك عبده بل إن المصطفى صلى الله عليه وسلّم قد حدّد النظام الأخلاقي الإسلامي لمعاملة الأرقاء حين قال : ( إخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه ممّا يأكل ، وليطعمه ممّا يلبس ، ولا تكفّوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم )<sup>(١)</sup> .

---

(١) أخرجه البخارى في الإيمان ، باب المعاصى من أمر الجاهلية رقم (٢٠) (٢٠: ١) ، ومواضع أخرى . وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب إطعام المملوك ممّا يأكل رقم (١٦٦١) . وأبو داود في الأدب باب حق المملوك رقم (٥١٥٧) وما بعده ، والترمذى في البرّ والصّلة باب ما جاء في الإحسان إلى الخدم رقم (١٩٤٥) . وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وفي الباب عن على وأمّ سلمة ، وابن عمر وأبى هريرة .

### المبحث الثاني : أخلاق المجتمع وعاداته

لَمَّا كَانَ الْمُفْتَرَضُ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ السَّمُوءُ وَمُقَارِبَةُ الْكَمَالِ وَالِاتِّزَامُ أَوْ أَمْرُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالتَّأْدِبُ بِآدَابِ الدِّينِ الْقَوِيمِ ، فَإِنَّ الْجَانِبَ الْإِجَابِيَّ لَا مَعْنَى لَذِكْرِهِ فِي مَعْرُضِ بَيَانِ الْإِنْحِرَافِ ، وَإِنْ كُنْتَ سَاشِرًا إِلَيْهِ فِي مَبْحَثِ (الزهد والتصوف) إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

لَقَدْ بَلَغَ الْإِنْحِلَالُ الْخُلُقِيَّ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهَجْرِيِّ مَبْلَغًا مَزِيئًا وَاعْتَادَ النَّاسُ هَجْنَ الْعَادَاتِ ، وَأَلْفَوْا مُسْتَنْكَرَ الطَّبَاعِ ، وَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَتَأَفَّفُ مِنْهُ فِي جَاهِلِيَّتِهَا - أحيانًا - بَلْهَ فِي عَصْرِ الْإِسْلَامِ الْأُولَى .

وَلَعَلَّ مَرَدَّ ذَلِكَ إِلَى عَوَامِلَ عَدَّةٍ يَحْسُنُ التَّذْكَيرَ بِأَهْمِيَّتِهَا :

( ١ ) ضَعْفُ سُلْطَةِ الْخَلِيفَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، وَاسْتِثْنَارُ وَزَرَائِهِ الْغَارِقِينَ فِي سِيِّئِ التَّرْفِ وَالْمُذَاتِ ، بِشُئُونِ الْعَامَّةِ ، وَإِذَا فَسَدَ الرَّاعِي ، فَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ وَالنَّاسُ عَلَى دِينِ مَلُوكِهِمْ .

( ٢ ) تَسَلُّطُ الْقَادَةِ غَيْرِ الْعَرَبِ مِنَ الْفَرَسِ وَالتَّرْكِ مِنْ لَمْ يَتَرَبَّوْا التَّرْبِيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ الصَّحِيحَةَ ، وَمَنْ كَانُوا عِبِيدًا أَوْ خُدَمَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ وَمِثْلَ هَؤُلَاءِ تَنَحَّرَ طِبَائِعُهُمْ غَالِبًا ، وَتَقَلَّ مَرُوءَاتُهُمْ ، وَيَحْقِدُونَ عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ وَيُرْغَبُونَ فِي إِهَانَتِهِ مِنْ يَسْلُطُونَ عَلَيْهِ . أَضْفَ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ كَانُوا مِنَ الرَّوَافِضِ ، أَوِ الشُّعُوبِيِّينَ .

( ٣ ) تَمَازُجُ عُنَاوِرِ الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ بِجَمِيعِ شُعُوبِهِ ، وَطَوَائِفِهِ وَفِرْقِهِ وَحَضَارَاتِهِ وَعَادَاتِهِ وَقِيَمِهِ وَأَدْيَانِهِ .

فَقَدْ كَانَ الْمَجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ يَعْجَجُ بِالْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَالْمَجُوسَ وَغَيْرَهُمْ وَكَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالشَّيْعَةِ ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ طَوَائِفٌ وَطَوَائِفٌ . . . وَكَانَ الْمَجُوسُ وَالشُّعُوبِيُّونَ الَّذِينَ أَبْطَنُوا الثَّنَوِيَّةَ أَوْ الزَّنَدَقَةَ ، وَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ لِلْعَقَائِدِ وَالْأَفْكَارِ أَثْرًا خَطِيرًا عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالْعَادَاتِ كَمَا كَانَ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ وَالْمَجُوسَ الْمُنْهَزِمِينَ حَاقِدِينَ عَلَى أُمَّةِ الْإِسْلَامِ لَا يَرِيدُونَ لَهَا صِلَاحًا ، وَلَا يَبْتَغُونَ مِنْ خِدْمَتِهَا سِوَى الْوَقِيعَةِ .



هذا كله وغيره مما سأذكره في مبحث (الحياة الفكرية) كان من أهم الأسباب التي أسرمت في تدنى أخلاق المجتمع المسلم في عصر ابن خيَّان القرن الرابع الهجري .

(٤) الترف والغنى : ولا ريب أن كثرة المال ، وقلة المشاغل ، ووفرة الوقت مدعاة استيقاظ الغرائز في النفوس، ومظنة ولع القلوب بالعيسوث والمرح . وقد كانت طبقات المجتمع كلها إما متمتعة أو وسائل متمتعة للمتمتعين - حاشا الطبقات الشريفة المتدينة - .

ولا ريب أن كثيرا من أخلاق المجتمع في ذلك العصر، كان وافدا على العرب، ولم يكن من شيمهم . (فإننا لو قارنا قصص العرب في عصرهم الأول ونواديرهم وكلامهم وشعرهم بما في القرنين الثالث والرابع للهجرة لأدهشنا مانجده في هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش في القول وليس هذا - شأنه شأن غيره - إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام . . . .) (١)

وقد كانت هناك أمور أخرى كثيرة تتعلق باللهو كعب الشطرنج والحام والسباق والندماء والحمقى والمغفلون مما ينبغي أن يفرد لكل قسم من هؤلاء مبحث، إلا أن الوقت لايسعفنا وطبيعة هذا البحث تتأبى كما كانت هناك أمور تتعلق بالرشوة والغصب وقطع الطريق ، دل عليها حديثي فيما مضى عن سوء توزيع الثروة ، وعن الحركات الهدامة كالزنج والقرامطة . على أن من الضروري قوله ، أن تيار الخير في المسار الإسلامي كان قويا في نفوس كثير من الناس، وقد توضع معظم هذه العادات السيئة في الداخلين على الإسلام ، وهند الرافضة والفرق الأخرى .

(١) الحضارة الإسلامية لآدم متز (٢: ١٨١-١٨٢) .

## المجلد الثالث الفصل الخامس

الحياة الفكرية : المنهجية في عصراين حبان  
~~~~~

تمهيد :

أثر احتكاك المسلمين بغيرهم من أصحاب الديانات والعقائد والأفكار المباينة لدين الإسلام وبعد تمازج وتداخل الحضارات والقيم والمفاهيم عقب ترجمة الكثير من كتب الفلسفة اليونانية الوثنية ، والهندية البوذية والفارسية المجوسية ، وتعايش المسلمين مع اليهود والنصارى أصحاب العقائد الضالة ، ومن خلال اطلاع العامة على كتب الأقدمين من الصابئة والنحل القديمة والبابليين وعبدة النجوم والكواكب، وغير ذلك من عقائد الملل والنحل القديمة أصبح من العسير على كل امرئ أن يعرف وجه الحق فيما ينبغي له معرفته وأصبح العلم الصحيح مقتصرا على أهل المعرفة من أصحاب العلم الراسخين . وكان الناس قبل ذلك لا يخوضون في المتشابهات من القرآن الكريم ولا بأحاديث الصفات التي وردت على لسان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، بل كانوا يسلّمون بها ، ولا يخوضون في تفسيرها .

حتى إذا علا كعب الجدل ، وظهر الكلام ، وانتشرت الزندقة أصبح علماء المسلمين مضطربين للقيام بواجب النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فقام المعتزلة ينافحون ويدافعون عن دين الله ورأوا أن خصومهم لا يقنعون إلا بحجج العقل ، فكافحهم بمثل أسلحتهم ووجهوا إليهم أحد من سهامهم ، وما ساروا في هذا الطريق أشواطاً حتى قنعوا بما هم عليه ، وخبطوا وراء عقولهم القاصرة ، وأنكروا كثيراً من الأحاديث الصحيحة ، لأنها لم تثبت في موازين عقولهم ، وقام غير المعتزلة بطرقهم الأخرى - على ماسياتي - .

وفي عصر بني العباس ، طفحت الزندقة والقرمطة والباطنية ، وظهر الرفض ، وكلها - في نظري - بنات الشعوبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين .

قال الجاحظ : (إنَّ عامّة من ارتاب بالإسلام ، إنّما كان أول ذلك يرى الشعوبية ، والتمادى فيه ، وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإنَّ أبغض تلك اللغة ، أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة ، أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلاتزال الحالات به ، حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وهى السلف^(١) والقدوة) .

(ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء ، الزنادقة .

والزنادقة : هم الذين كانوا يبغضون العرب ، وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام والزنادقة إنّما كان يوصم بها أولا من يتابعون (مانى) فى عقيدة النور والظلمة ، وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس .

ثم اتسع مدلولها ، فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية ، كنحلة المزدكيّة ومادعت إليه من التحلل الخلقى ، والإباحية المسرفة .

واتسعت أوسع من ذلك ، فشملت كل إلحاد بالدين الحنيفى أو بالديانات مطلقا ، وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفجور^(٢) .

واشتدت حركة الإلحاد والزنادقة فى العصر العباسى الثانى ، فكان منهم أبو عيسى الوراق (٢٤٧هـ) وتلميذه أبو الحسين أحمد بن إسحاق الراوندى الخبيث (حوالى ٢٥٠هـ) ثم ورثهما معاصر ابن حبان أبو بكر بن زكريا الرازى (٣٢٠هـ) .

وقد كان كل من الوراق وابن الراوندى معتزليا فى بداية الأمر ، ثم أحسن المعتزلة إلحاد كل منهما ، فطردوه ، فتحول شيعيا رافضيا ، ثم كفر بالديانات عموما .

ولعل هذا يفسر لنا كراهية الإمام أحمد ومن تبعه من المسلمين للمعتزلة وبيرو حمله الشديدة عليهم ، ورميهم بالكفر والزنادقة والتجهم والقدر .

(١) العصر العباسى الثانى (ص ١٠٠ - ١٠١) .

(٢) العصر العباسى الثانى (ص ١٠٠ - ١٠١) .

ولا يبعد أن يكون مثل هذا الصنف كثيرا في صفوف المعتزلة، حتى
 غدت صفحاتهم سوداء قاتمة، على ما فيها من بصيص نور من حسن نوايسا
 كثيرين منهم .

(ومن هنا - أيضا - نفهم السرّ في أنّ الخليفة المعتمد، حطّف
 الوراقين سنة (٢٧٩هـ) الأبييعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة، فقد كان
 من المتفلسفة من يبطنون الإلحاد والزندقة، ويدخلونها على ما يصنفون من
 الكتب) (١) .

بل ولم تذهب بعيدا ؟ فقد يكون دخول المرء دائرة الاعتزال
 والكلام مؤديا به في النهاية إلى الشك، ثم إلى الزندقة . ولقد حكى لنا
 علماء الكلام الذين خبروه الكثير عن قلوبهم وحيرتهم وشكهم .
 وفي هذا العصور ظهر الرفض، والاعتزال، والقرمطة، والباطنية
 وعمّت البلاد الفتن - كما مرّ سابقا - حتى إن نور السنّة كاد يخبوء، وشعاع
 الحقيقة أوشك على الانكماش .

ولا أريد الإطالة حول الانحرافات الفكرية والعقائدية المارقة، فإن
 في هذه الإشارة السريعة ما يلقى الضوء الخافت على مصادرها وغاياتها
 ولن أطيل في الحديث عنها ففيما سبق كفاية لقانع .

(١) العصر العباسي الثاني (ص ١٠٣) .

المبحث الرابع : الزهد والتصوف

تمهيد :

(يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون في العصر العباسي الثاني - عصر ابن حبان^(١) - أنه كان عصرا ملحدا غلبت عليه العنصرية ، كما غلب عليه المجون والإلحاد ، وانحلال الأخلاق ، فإن ذلك إنما كان يشيع في طبقات خاصة .

أما المجون فكان يشيع في الطبقة المترفة ، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم ، ومثلها الزندقة ، فقد كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ، فقد كسان المجتمع إسلاميا^(٢) ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام ، متمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ، ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانست ساخطة سخطا شديدا على المجان ، وعلى الشعوبيين ، وعلى الملحدين من أعداء الإسلام^(٣) .

ومع كل ما قرأناه - أسبقا - عن اضطراب حبل الأمن ، وخلخلة نظام الحكم ، وشيوع الفساد والترف ، فإن كثيرا من العلماء يعتبرون القرن الرابع الهجري عصر النهضة في الإسلام ، وذروة ما وصلت إليه الحضارة الإسلامية في العلوم والمعارف العامة ، حتى إن بعضهم جنح إلى أن قيام الولايات المستقلة ذاتيا ، وشبه المستقلة عن كيان الدولة الأم ، من أسباب هذه النهضة ، وتسارع النضوج الفكري والعلمي ، وإن كنت أرى أن ذلك علامة تدهور في العقيدة والفكر والسلوك والتدين .

- (١) ما بين المعترضين زيادة لفت نظر .
(٢) كون المجتمع إسلاميا - بكل ولايته آنخذ - يحتاج إلى وقفة ، فهو وإن كانت السمة العامة فيه هي الإسلام ، إلا أن انحرفا بالغا قد طفى على صفحات التطبيق الواقعي .
(٣) العصر العباسي الثاني (ص ١٠٤ - ١٠٥) .
(٤) انظر الحضارة الإسلامية لآدم متز (ص ٢٥ - ٣٠) ، أبو الفتح البستي للدكتور محمد مرسى الخولي (ص ٢٦ - ٣٢) .

(١) وقد اتسم هذا العصر - فيما اتسم به - بانتشار روح الزهد والعزلة ونضوج التصوف، وبروز أثره في الحياة العامة، ووضوح مفاهيمه، وتدوينه كعلم مستقل له مدارسه كالفقه والحديث والتفسير والكلام . . . الخ (واقراً في تراجم الفقهاء والمحدثين لهذا العصر، فستجدهم، وأعلى الأقل ستجد كثرتهم - وهم يعدون بالمئات، إن لم يكن بالآلاف، قد أخذوا على أنفسهم بالانصراف عن متاع الدنيا، بل لكأنما تجردوا للجهد في سبيل ذلك، أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذي لا يزول) (٢)

وإذا كان الزهد في كل عصر من عصور الإسلام هو السمة البارزة والشارة الوضاعة لأئمة الإسلام وعلمائه من محدثين ومفسرين وفقهاء، ومتكلمين فهل الزهد هو التصوف، أو التصوف شيء آخر؟ وماصلة كل منهما بالآخر؟ لكي نعرف ضوابط ذلك، فلا بد من دراسة كل من الزهد والتصوف في مطلب منفرد، مشيراً إلى الفوارق الأصلية بينهما .

(١) كتب الإمام الخطّابي في ذلك كتاباً أسماه العزلة، وهو يحدد فيه منهج الإسلام في هذا الجانب كما يراه .
(٢) العصر العباسي الثاني (ص ١٠٥) .

المطلب الأول : الزهد

ليس الزهد بدعا في تاريخ الحياة الإسلامية العملية ، وما هو بطاريء
حادث على أصالتها ، بل هو السلوك الأمثل للحياة الإنسانية التي ارتضاها
الله تبارك وتعالى لعباده (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس
نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض)^(١) .
وإن كانت لفظة (الزهد) لم ترد في القرآن الكريم سوى مرة واحدة
(وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين)^(٢) . وقد
جاءت في معرض استهانة القوم بيوسف عليه السلام .

وأما في السنة فقد روى أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ليست الزهادة في الدنيا بتحريم
الحلال وإإضاعة المال ، ولكن الزهد : أن تكون بما في يد الله تعالى
أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها ، أرغب
منك فيها لو أنها أبقيت لك)^(٣) .

وأخرج ابن ماجة عن أبي خلاد قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(إذا رأيت الرجل قد أعطى زهدا في الدنيا ، وقلة منطلق ، فاقتربوا
منه ، فإنه يلقي الحكمة)^(٤) .

(١) القصص : ٧٧

(٢) يوسف : ٢٠

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد باب ماجاء في الزهادة رقم (٣٢٤٠) وقال
هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ، وأبو إدريس الخولاني
اسمه : عائد الله بن عبد الله . وعمرو بن واقد : منكر الحديث . وأخرجه
ابن ماجة في الزهد ، باب الزهد في الدنيا رقم (٤١٠٠) ثم قال : قال
هشام بن عمار ، قال أبو إدريس الخولاني : مثل هذا الحديث فسي
الأحاديث ، كمثل الإبريز في الذهب . قلت : لكنه منكر .

(٤) أخرجه ابن ماجة في الزهد باب الزهد في الدنيا رقم (٤١٠١) . قال
البوصيري : لم يخرج ابن ماجة لابي خلاد - وله صحبة - سوى هذا
الحديث ، ولم يخرج له من أصحاب الكتب الخمسة شيئا . وفي الحديث
أبو فرقة يزيد بن سنان الجزري . قال الذهبي في الميزان بعد سياق
هذا الحديث : أبو فرقة واه (٤ : ٥٦٢) ، وقال في التقريب (٢ : ٣٦٦)
ضعيف .

ولم أقف على حديث صحيح يذكر لفظ الزهد .
غير أن العبرة للمعاني وليست للألفاظ، ولهذا فقد عقد معظم
المحدثين للزهد كتاباً في مصنّفاتهم كما أن عدداً من الأئمة قد أفرد
الزهد بمصنف مستقل كالإمام عبد الله بن المبارك - ولعله أول من صنّف في
الزهد (١٨١هـ) . والإمام المعافى بن عمران الموصلي (١٨٥هـ) والمحدث
الحافظ محمد بن فضيل بن غزوان الكوفي (١٩٥هـ) والإمام وكيع بن
الجراح (١٩٧هـ) وقد طبع أخيراً ، والحافظ أسد بن موسى (٢١٢هـ) ،
والإمام أحمد بن محمد بن حنبل (٢٤١هـ) ، والحافظ هناد بن السرى
(٢٤٣هـ) والإمام أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ) والإمام عبد الله بن
محمد بن أبي الدنيا (٢٨١هـ) والحافظ إبراهيم بن الجنيد (في
حدود ٢٦٠هـ) ، والحافظ محمد بن أحمد العسال (٢٤٩هـ) والإمام
محمد بن الحسين الآجري (٣٦٠هـ) والحافظ عمر بن أحمد بن شاهين
(٣٨٥هـ) والإمام البيهقي (٤٥٨هـ) وغير هذه المصنّفات كثير^(١) . والآيات
القرآنية في هذه المعاني تعسر على الحصر .

ومن ينظر في مباحث هذه الكتب جميعاً ، ما أجمل الزهد فيها
مع غيره من الكتب - كما في الصحيحين والسّنن وغيرها ، وما أفرد بمصنف مستقل
فإنه يجد تحت كتاب الزهد :

الحض على طاعة الله ، والتخويف من عذابه ، والترغيب في الذكر وتلاوة
القرآن والتخويف من عواقب الذنوب ، واختيار الأصدقاء ، وحفظ اللسان
والتواضع ، والتوكل على الله ، والتقلل من الدنيا ، والورع .

قال ابن الجوزي - رحمه الله - كانت النسبة في زمن رسول الله صلى
الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم
زاهد وعابد . ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبّد فتخلّوا عن الدنيّا
وانقطعوا إلى العبادة ، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً
تخلّوا بها^(٢) . وقد اشتهر جماعة من الصّحابة والتابعين ومن بعدهم

(١) انظر مقدمة كتاب الزهد لابن المبارك للمحدث الشيخ حبيب الرحمن

الأعظمي (ص ٦٤ - ١٦) .

(٢) تلبّيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٦١) .

بالزهد، إلا أن نشوء التصوف وتلبّسه بأثواب الزهد، قد لبس على كثير من الناس حقيقة الزهد وجوهره .

قال ابن الجوزي : وجاء أبو نعيم الأصبهاني، فصنّف لهم - للمتصوفة - كتاب الحلية، وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة، ولم يستح أن يذكر في الصوفية : أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً وسادات الصحابة رضي الله عنهم، فذكر عنهم فيه العجب .

وذكر منهم شريحا القاضي، والحسن البصري وسفيان الثوري وأحمد ابن حنبل .

وكذلك ذكر السلمي في طبقات الصوفية الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم ومعروفا الكرخي، وجعلهم من الصوفية بأن أشار إلى أنهم من الزهاد^(١) . لقد عرف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة الزهد، كما عرفه أكابر التابعين ومن بعدهم، وحرصوا على التمثيل به أيما حرص، فكان الواحد منهم تأتية عشرات ألوف الدراهم، فلا يبيت وعنده منها إلا النزر اليسير الذي يفي بضرورياته أو حاجاته، ولقد جهد صالحوا هذه الأمة أن يعيشوا الكفاف والقناعة، خوفا من أن يدخل أجوافهم لقمة حرام، ربما أودت بهم إلى أليم العقاب .

وإذا كان الإسلام قد وازن بين حاجات الإنسان في الدنيا، ورغباته في اللذائذ، وغاياته الأخروية، والحكمة التي خلق من أجلها، فإنه لم يمنع أحدا من العيش في نعمة وارفة وإنما خاف عليه أن تبطره النعم، فتجره إلى الترف الذي يؤدي إلى اللهو والمجون والفسوق .

ولهذا وغيره - والله أعلم - رغب علماءنا الصالحون عيشة الزهد والتتشف، وأحجموا عن الإغراق في الملذات .

(١) تلبس إبليس (ص ١٦٥) .

المطلب الثاني : التصوف

لقد اختلفت آراء العلماء حول كلمة (التصوف) من أين أتت؟ كما اختلفوا في بدء تاريخ الصوفية فالذين لم يفرقوا بين الزهد والتصوف اعتبروا الرسول صلى الله عليه وسلم أول صوفى ، والذين تأدبوا قليلا اعتبروا أبا بكر رضى الله عنه أول المتصوفة .

فإذا نحن رجعنا إلى الكتاب الأم في تاريخ التصوف الإسلامى - على حد تعبير محققه (١) - وهو كتاب "اللمع" لأبى نصر الطوسى - رحمه الله - رأيناه ينقل عن أبى بكر الواسطى قوله (أول لسان الصوفية ظهرت فى هذه الأمة على لسان أبى بكر) (٢) وارتضى هذا القول ، واعتبره (إشارة جلية لأهل التوحيد فى حقائق التفريد) (٣) وبعده عمر رضى الله عنه ، ثم أكابر الصحابة بعدهما .

وكذلك اعتبر الحافظ أبو نعيم الأصبهاني أبا بكر (٤) أول صوفى ، واعتبر قرن الصحابة أول قرون المتصوفة (٥) ، إلا أن التحقيق فى هذا هو أن اسم التصوف ، لم يعرف إلا فى أواخر القرن الثانى من الهجرة .

قال ابن الجوزى : (وهذا الاسم ظهر للنوم قبل سنة مائتين ، ولمّا أظهره أوائلهم ، تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها أن التصوف عندهم : رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق ، إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التى تكسب المدائح فى الدنيا والثواب فى الآخرة) (٦) .

(١) محققا كتاب اللمع : طه عبد الباقي سرور ، والدكتور عبد الحليم محمود وكلامه فى المقدمة (ص ١) .

(٢) اللمع (ص ١٦٨) .

(٣) اللمع (ص ١٦٩) .

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصبهاني (١ : ٢٨) .

(٥) الحلية (١ : ٤) .

(٦) تلبيس إبليس (ص ١٦٣) ، وانظر العصر العباسى الأول (ص ٨ - ٨٨) .

وأما عن مصدر كلمة (صوفى) فينقل لنا ابن الجوزى أنَّ الصوفية (رأوا أنَّ أول من انفرد بخدمة الله سبحانه وتعالى عند بيته الحرام رجل يقال له : صوفة ، واسمه الغوث بن مر ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، فسموا بالصوفية ، وذكر بسنده إلى وليد بن القاسم نحو ذلك . . . ثم ذكر أنَّ آخرين ذهب إلى أنَّ التصوف منسوب إلى أهل الصفة وإنما ذهبوا إلى هذا لأنهم رأوا أهل الصفة على ما ذكرنا من صفة صوفة فى الانقطاع إلى الله عز وجل . . . وقال آخرون : بل هو منسوب إلى الصوف ، وهذا محتمل ، والأولى أولى (١) .

أما صاحب اللمع فيرى أنَّ نسبتهم إلى الصوف ، وإنما نسبوا إلى ظاهر اللبس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التى هم بها مترسّمون ، لأن لبس الصوف ، كان دأب الأنبياء والصدّيقين ، وشعـار المساكين المتنسكين (٢) .

ولأريد الإطالة فى هذا ، ولأظن أحدا أعلم بحقيقة التصوف من الطوسى صاحب أول مؤلف معتبر فيه فقد قرّر أنّهم ينتسبون إلى اللباس الصوفى وكفى .

وإذا كنت قد سلمت له النسبة فإننى لأسلم له ولأبى نعيم بدايعة تاريخهم ، حيث إنَّ الطوسى نفسه فرق بين الزهد والتصوف ، وبين الزهاد والمتصوفة فقال : (إن سأل سائل فقال : قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث فونسبت الفقهاء إلى الفقه ، فلم قلت : الصوفية ، ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم تضيف إليهم حالا ، كما أضفت الزهد إلى الزهاد والتوكل إلى المتوكلين . . .) (٣) .

ولأنَّ هناك فوارق عديدة - حقا - بين الزهد والتصوف ، وإن كنا يجتمعان فى أنَّ ظاهر كل منهما العزوف عن الدنيا ، وابتغاء ما عند الله تعالى .

(١) تلبيس إبليس (ص ١٦١) .

(٢) اللمع (ص ٤١) .

(٣) اللمع (ص ٤٠) .

ولقد اعتبر الصوفية من أعلامهم إبراهيم بن أدهم (١) (١٦٢ هـ) وعبد
الواحد بن زيد (٢) (بعده ١٥ هـ) ورابعة العدوية (٣) (١٨٠ هـ) والفضيل بن
عياض (٤) (١٨٧ هـ) وشقيق بن إبراهيم البلخي (٥) (١٩٤ هـ) ومعروف الكرخي (٦)
(٢٠٠ أو ٢٠٤ هـ) وبشر بن الحارث الحافي (٧) (٢٢٧ هـ) والحارث
المحاسبي (٨) (٢٤٣ هـ) .

والحقيقة أنَّ هؤلاء من الزهاد ، وفي عددهم من المتصوفة تجوز غير
مرض، وإذا اعتبرنا الحارث المحاسبي آخر هؤلاء وفاة، واعتبرنا هؤلاء ممن
المتصوفة، فإن من الواجب علينا أن نعتبر الحارث المحاسبي نهاية حلقة
التصوف الزهدي المستقيم، وأنَّ التصوف دخل بعده مرحلة جديدة ابتدأت
بذي النون المصري (٩) (٢٤٥ هـ) . قال الذهبي :

(كان ذو النون المصري أول من تكلم في المقامات والأحوال بمصر
كما ذكر الذهبي أنه هجر وحكم عليه بالزندقة) .
والسري بن المغلس السقطي (١٠) (٢٥٣ هـ) أول من أظهر لسان
التوحيد ، وتكلم في الحقائق ، وهو إمام البغداديين في الإشارات .

-
- (١) النبلاء (٧: ٣٨٧) ، الحلية (٧: ٣٦٧) فمابعد ، مشاهير علماء
الأصمصار لابن حبان (ص ١٨٣) ، البداية والنهاية (١٠: ١٣٧) .
(٢) المشاهير (ص ١٦) ، النبلاء (٧: ١٨٠) ، وأخطأ من جعل وفاته
(١٧٧ هـ) فذاك الحافظ عبد الواحد بن زياد البصري .
(٣) النبلاء (٨: ٢١٥) فمابعد . وقد نسب إليها الحلول . وكذب ذلك
الذهبي .
(٤) النبلاء (٨: ٣٧٢-٣٩٠) .
(٥) النبلاء (٩: ٣١٣-٣١٦) .
(٦) النبلاء (٩: ٣٣٩-٣٤٥) ، طبقات الحنابلة (١: ٢٨٩) .
(٧) النبلاء (١٠: ٤٦٩-٤٧٧) .
(٨) النبلاء (١٢: ١١٠-١١٢) .
(٩) النبلاء (١١: ٥٣٢-٥٣٦) .
(١٠) النبلاء (١٢: ١٨٥-١٨٧) .

أما أبو يزيد البسطامي^(١) (٢٦١هـ) فقد (جاء عنه أشياء مشككة
لامساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه . . . إذ ظاهرها إلحاد، مثل سبحانسي
وما في الجبة الا الله . . .) وقد ذكر له الطوسي حكايات عديدة وقال
وقد شاع كلام أنه قال ذلك ولا أدري يصح ذلك منه أم لا؟ وأورد تفسيرات
عن الجنيد لبعضها وعصريه أبو حمزة^(٢) محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي
(٢٦٩هـ) كان بصيرا بالقراءات، كثير الغزوة إلا أنه كالبسطامي صاحب
انحراف وشطح . . .) فمن ذلك ما ذكره أبو نصر السراج في اللمع، قال
(بلغني أنه - أبو حمزة - دخل على الحارث المحاسبي، فصاحت شاة
ماع، فشهب وقال: لبيك، لبيك ياسيدي، فغضب الحارث وأخذ السكين
وقال: إن لم تتب أذبحك، فقال له أبو حمزة: أنت إذا لم تحسن أن تسمع
هذا الذي أنت فيه، فلم لا تأكل النخالة بالرماد . . .) ثم قال الطوسي:

رموه بالحلول لبعده فهمهم في معنى إشارته، وذلك أن أرباب
القلوب، ومن كان قلبه حاضرا بين يدي الله، ويكون دائم الذكر لله
فيرى الأشياء كلها بالله، ولله، ومن الله، وإلى الله، فإذا سمع كلامه، فكأنه
سمعه من الله، ولا يكون ذلك الحال إلا لعبد مجموع على الله، لا ينصرف منه
جائحة إلى سوى الله، فعند ذلك يقع له حقائق الفهم عن الله في
جميع ما يسمع، وجميع ما يرى من الأشياء . . .^(٣)

وجاء بعد هؤلاء أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخزاز^(٤)
(٢٨٦هـ) شيخ الصوفية، الذي يقال إنه أول من تكلم في علم الفناء
والبقاء . . . فولد امرا كبيرا تشبث به كل اتحادى ضال .

والحكيم الترمذي^(٥) (في حدود ٢٨٥هـ) ألف كتاب (ختم الولاية)
وكتاب (علل الشريعة) فهجر لذلك . قال السلمى: وليس فيه ما يوجب ذلك

(١) النبلاء (١٣: ٨٦-٨٩)، وقارن باللمع (ص ٤٥٩-٤٧٧)، ولا أدري
معنى تفسير الجنيد لمثل هذا الهراء .
(٢) النبلاء (١٣: ١٦٥) فما بعد .
(٣) اللمع (ص ٤٩٥) .
(٤) النبلاء (١٣: ٤١٩-٤٢٢) .
(٥) النبلاء (١٣: ٤٣٩)، طبقات الشافعية (٢: ٢٠) .

ولكن لبعده فهمهم عنه .
وقال الذهبي : (١) كذا تكلم في السلمى من أجل تأليفه حقائق التفسير
فياليت له لم يؤلفه .

فنعود بالله من الإشارات الحلاجية ، والشطحات البسطامية ، وتصوف
الاتحادية ، فواحزنه على غربة الإسلام والسنة .

قال الله تعالى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا
السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) (٢) .

وأما الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندى (٣) (٥٢٩٨ هـ) شيخ
الطائفة فكان متماسكا مع أحواله ، إلا أن له كلمات تدل على أنه ينهج منهج
القوم في ذلك ، وإن كان قليل التصريح بذلك .

قال معتذرا عن أبي يزيد البسطامى : وكان من كلام أبي يزيد رحمه
الله لقوته وغوره ، وانتهاء معانيه ، شغرت من بحر قد انفرد به ، وجعل ذلك
البحر له وحده (٤)

وذكر الجنيد عن أبي يزيد (أنه غرق فيما وجد وذهب عن حقيقة
الحق إذ لم يرد عليها ، وهى معان عرفته على تارات من الفرق ، كل
واحدة منها غير صاحبها) .

وصنو الجنيد أحمد بن محمد الخراسانى النورى (٥) (٥٢٩٥ هـ) شيخ
الصوفية بالعراق ، من أقواله : (سبيل القانين الفناء فى محبوبهم ، وسبيل
الباقين ، البقاء ببقائه ، ومن ارتفع عن الفناء والبقاء فحينئذ لا فناء ولا بقاء .

إذا كنت فيما ليس بالوصف فانيا فوقتك فى الأوصاف عندى تحير
قال الذهبي : كان النورى يلهج بفناء صفات العارف ، فكان ذلك
(أبوجاد) ذات العارف ، كما زعمت الاتحادية ، فقالوا : بتعميم فناء

-
- (١) النبلاء (١٣ : ٤٤٢) .
(٢) الأنعام : ١٥٣ .
(٣) النبلاء (١٤ : ٦٦ - ٧٠) .
(٤) اللمع (ص ٤٥٩) .
(٥) النبلاء (١٤ : ٧٠ - ٧٧) .

السوى ، وقالوا : ما فى الكون سوى الله ، وصرحوا بأنه تعالى اتحد بخلقه
وأنت أنا ، وأنا أنت ، وأنشدوا :

وألتذ إن مرّت على جسدى يدى ^(١) لأننى فى التحقيق لست سواكم
وبمضى الحسين بن منصور الحلاج ^(٢) (٣٠٩ هـ) الذى لم يستخدم
الرموز والإشارات فى تعبيراته عما يريد من الحلول والاتحاد وإنما كان صريحا
واضح العبارة ^(٣) فى ذلك ، أخذ التصوف يتعدى كل طود ، وازداد الشطح
وطمت الزندقة .

قال الذهبى : منهم من نسبه إلى الزندقة ، ومنهم من نسبه إلى
الحلول . قال السلمى :

وحكى أنه رعى واقفا فى الموقف ، والناس فى الدعاء ، وهو يقول : أنزهك
عما قرفك به عبادك وأبرأ إليك مما وحدك به الموحدون .

قال الذهبى : هذا عين الزندقة ، فإنه تبرأ مما وحد الله به
الموحدون الذين هم الصحابة والتابعون وسائر الأمة ، فهل وحدوه تعالى
إلا بكلمة الإخلاص ؟ وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله
فإذا برى الصوفى منها فهو ملعون زنديق ، وهو صوفى الزى والظاهر
متستر بالنسب إلى العارفين ، وفى الباطن من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل ^(٤) .
وكان ممن عاصر الحلاج أبو الحسين الخواص (٣٠٣ هـ) وأبو عيسى
الروذبارى ^(٥) (٣٢٢ هـ) .

وكان بعدهما الشبلى ^(٦) (٣٣٤ هـ) قال عنه الذهبى : كان يحصل له
جفاف دماغ وسكر ، فيقول أشياء يعتذر عنه فيها بأوه لا تكون قدوة ^(٧) . والبأو :
الكبر والفخر .

(١) النبلاء (١٤ : ٧٢) فما بعدها .

(٢) النبلاء (١٤ : ٣١٣ - ٣٥٤) .

(٣) الوحدة المطلقة عند ابن سبعين (ص ٩١) فما بعد .

(٤) النبلاء (١٤ : ٣٤٢) فما بعدها .

(٥) العصر العباسى الثانى (ص ١١٤) .

(٦) النبلاء (١٥ : ٣٦٧) .

(٧) ما سبق الموضوع نفسه .

قال الطوسي : سمعت أبا عبد الله بن جابان يقول : دخلت على الشَّبلي - رحمه الله - في سنة القحط فسلمت عليه ، فلما قمت على أن أخرج من عنده ، فكان يقول لي ، ولمن معي ، إلى أن خرجنا من الدار : مرّوا ، إنَّنا معكم حيث ما كنتم ، انتم في رعايتي وكلاءتي) . قال الطوسي :

(أراد بقول ذلك أن الله تعالى معكم حيثما كنتم ، وهو يرباكم ويكلؤكم ، وأنتم في رعايته وكلاءته والمعنى في ذلك : أنه يرى نفسه محققا فيما غلب على قلبه ، من تجريد التوحيد ، وحقيقة التغريد والواجد إذا كان وقته كذلك ، فإذا قال : أنا يعبر عن وجده ، ويترجم عن الحال الذي قد استولى على سره ، فإذا قال : أنا ، يشير بذلك إلى ما غلب على حقيقة صفة مشاهدته قرب سيده) (١) .

وقد ذكر الطوسي أن جماعة من أئمة التصوف قد رموا بالكفر والزندقة - زورا وبهتانا - منهم ذو النون المصري ، وسمنون المحب ، وأبو سعيد الخزاز والحسين بن منصور الحلاج الذي أصابه ما أصابه بسبب سرقة كتاب شيخه عمرو بن عثمان المكي الذي كتب فيه بعض علوم الخاصة . وسهل بن عبد الله التستري ، وأبو عبد الله الحسين بن مكي الصبيحي وأبو العباس أحمد بن عطاء الله ، والجنيد . (٢)

وهذه التهم كلها باطلة لأن الذي رموهم بذلك لم يفهموا كلامهم أو لم يصبروا على حالهم بعد أن عايشوهم فترة كما ذكر الطوسي حكايات ظاهرها الشناعة وباطنها الحق الصريح - على حد تعبيره ، عن عدد من أئمة التصوف منهم أبو علي بن الحسين بن يازدانبار ، ومحمد بن موسى الفرغانسي الواسطي الذي ذكر له جملة من كلامه ثم راح يفترض لتفسيرها وجوها عديدة من الاحتمالات . (٣)

والحقيقة أن خير كتاب يتحدث عن التصوف حتى أواخر القرن الرابع الهجري هو كتاب اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ، وما حشده في كتابه من (٤)

-
- (١) اللمع للطوسي (ص ٤٧٨) .
 (٢) اللمع (ص ٤٩٧-٥٠١) .
 (٣) ماسبق (ص ٥٠٢-٥١٥) .
 (٤) الطوسي معاصر لابن حبان توفي سنة ٣٧٨ هـ ، انظر ترجمته في شذرات الذهب (٣ : ٩١) .

مسائل شائكة، وأقوال عجيبة شهدها بنفسه، أو نقلها بسنده، يوحى بأن
التصوف في هذا العصر قد بلغ غاية أمره، وتوضّحت فيه معالم التصوف
وعرف المتصوفة الفناء والاتحاد والحلول، ودافع الطوسي عن ذلك كله باسم
الشطحات تارة، وباسم المواجيد والأذوات تارة أخرى .

وإذا تأملنا - بعين الإنصاف - تحول التصوف في بداية العصر
العبّاسي الثاني عن مسيرة الزهد وجدنا أنّ الذين حلّوا راية التصوف من
الأحاجم أبناء المجوس، أو تلامذتهم الذين تأثروا بهم .

كما أنّ ترجمة الكتب الهندية واليونانية والفارسية، كل هذا كان له
بالغ الأثر في الحياة العقلية في هذا العصر، مهما حاولنا دفع ذلك^(١). وأنّ
كتاب اللمع للطوسي خير شاهد على وجود ذلك كله .

والذي ينظر في كتاب (تلبيس إبليس) لابن الجوزي - رحمه الله -
يجده ذكر أموراً خطيرة قد تسرّبت إلى التصوف، وجرفته في تياره
الإلحادي البغيض، إلا بقايا متناثرة لم يظهر لها كبير أثر في الحياة
العامة . والذي كان طافيا هو التصوف بوجهه الحلولي والاتحادي المارق .

(١) انظر الوحدة المطلقة عند ابن سبّين (ص ٨٣ - ٩٢) ، تلبيس إبليس
(ص ١٦١) فما بعد، الفكر السّامي في تاريخ الفقه الإسلامي (٢: ٥٣) .

الفصل السادس

الحياة العلمية في عصر ابن حبان

تمهيد :

إنَّ دراسة الحياة العلميَّة في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري والنصف الأول من القرن الرابع ليس مما يهون ويسهل ، لأن القرن الرابع الهجري يعتبر عصر نضوج الثقافة الإسلاميَّة وتكاملها . ودراسة الحيات العلميَّة إنّما تعنى دراسة علوم المنطق والفلسفة والطب والهندسة وعلوم الأوائل ، ودراسة التاريخ واللغة والنحو والأدب والبلاغة والنقد ، والعلوم الشرعية من تفسير وقراءات وحديث وتراجم وقواعد حديثية ، وفقه وأصول . وهذا كله يتطلب معرفة درجة النُّمو والنُّضوج التي وصلت إليها هذه العلوم في ذلك العصر ولا يخفى على باحث أنّ دراسة علم من هذه العلوم يتطلب بحثا يخصه ، وهيئات أن يلم بأصوله العامة ، ومزاياه ، وما وصل إليه . لذا كله فإننى سأشير إشارات عابرة تلقى بعض الأضواء على الحياة العلميَّة في ذلك العصر ثم أخص العلوم الشرعية بمبحث يخصها لما لها من صلة وثيقة بطبيعة بحثنا هذا .

المبحث الأول : أسباب نشاط الحركة العلمية

إنَّ الدِّينَ الإسلامي لا يعرف الجهل ، ولا يرتضى الجهال ، وكل مسلم مطالب أن يتعلم ما يلزمه في حياته من أمور دينه مطالبة الزام ووجوب ، فيجب عليه أن يتعلم الطَّهارة والصَّلَاة ، والصَّوم - إذا جاء رمضان - وأحكام الحجِّ إذا أرادَه ، وأحكام الزَّكاة التي لها صلة بماله . وإذا كان تاجرا لزمه أن يتعلم ما يخص مثل تجارته من أحكام ، أو كان يبيع ويشترى في الأسواق فعليَّه أن يتعلم أصول البيع والشراء ، وأدب الإسلام في ذلك ، وكلما جدَّ لهُ أمر من أمور دينه أو دنياه ، وجب عليه أن يسأل عنه أهل العلم .
وبذلك ترى أنَّ المفترض بالرجل العادي المسلم أن يكون على جانب لا بأس به من الثقافة الدِّينية ، وأصول التعامل ، وقواعد الأخلاق .
فطبيعي أن يكون المجتمع الإسلامي مجتمع علم ، تكثر فيه المعرفة ويقل الجهل .

وإذا كانت الدولة الإسلامية قائمة ، فإن من أولى مهامها نشر العلوم وتشجيع العلماء وكفالتهم ، ومساعدة طلبة العلم ، لأن ازدياد المعرفة معناه التقليل من المخالفات الشرعية - كما هو المفترض - وهذا يساعد الدولة في أداء مهامها ، ويقلل من أعبائها .

أضف إلى ذلك أنَّ الحكام المسلمين في العصور الأولى كانوا على جانب من العلم والمعرفة وإنما يحب العلم ويشجِّع عليه من يعرف قيمته وقدره . وهذا ما كان بالفعل فقد شجَّع الخلفاء والحكام والعلم والعلماء بفتحوا أبواب المساجد على مصاريعها ، وغذَّوها بكل ما يحتاج إليه ، إذ كانت المساجد هي معاهد العلم الرئيسة كما كان إلى جانب المساجد المدارس العلمية المنتشرة في كل صقع من أصقاع الدولة الإسلامية المترامية الأطراف .
وقد كان العلماء محل تقدير الحكام والولاة ، وكان العالم المصنوع أعز جانباً من الخليفة نفسه .

ومما شجَّع على نضوج العلم ، وكثرة العلماء في هذا العصر ظهور الدويلات التي استقلت عن الدولة العباسية ، وظلت ترتبط بها ارتباطاً عاماً

فقد أخذت هذه الدويلات تتشبه بالدولة العباسية ، وتحاول منافستها
أو تحاول منافسة الدويلات الأخرى التي كان بينها نوع من الصراع الخفى
حيناً ، والظاهر أحياناً .

وقد كان من أهم مظاهر عظمة الدول في ذلك العصر أن تجتذب إلى
بلاطها نخبة من العلماء المبرزين ، والأدباء النابهين ، والمفكرين الكبار
وقد كان هؤلاء ينالون كل حفاوة وتبجيل .

وعلى هذا ، فبعد أن كانت بغداد هي المركز الكبير ، والينبوع الوحيد
لتخريج كبار العلماء والعناية بهم ، فقد كثرت المراكز الكبرى وتعددت
بالإضافة إلى المدن عامة ، فقد كان للعلماء فيها نشاطهم الخاص سواء كان
ذلك بانفرادهم ، أو بمساعدة ولاية الأقاليم وقد كان العلم حراً يستطيع كل
إنسان أن يقول ماشاء ويكتب ما أراد ، إلا أن الذى يستفاد منه ما شهد له
العلماء ، وأقره أهل الاختصاص .

وقد كان للدولة البويهية ثلاث عواصم كبرى هي : بغداد ، وشيراز
وأصبهان ، وقد كانت هذه الدولة حريصة على أن يكون وزراءها من كبار
الأدباء ، فوزر لها ابن العميد والصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى وابن
سعدان ، ومن كانوا غرة في جبين الأدب وكانت مجالسهم ملاذ العلماء
والأدباء من شتى البقاع .^(١)

كما كانت الدولة السامانية في بخارى وسمرقند وسجستان حريصة
على الحرص على رعاية العلماء وطلبة العلم ، وكان أمراء البيت السامانى
مولعين باقتناء نفائس الكتب فقد ذكر ابن سينا وكان على صلة وطيدة
بآل سامان أنه رأى في مكتبة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف
الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل .^(٢)

(١) أبو الفتح البستى للدكتور مرسى الخولى (ص ٢٦) .
(٢) ما سبق (ص ٢٧) ، وانظر تاريخ الإسلام السياسى (٣ : ٨٢) ، يتيمة
الدهر للشعالبي (٤ : ٩٥) .

كما كان الأمير سيف الدولة الحمداني مولعا بجمع الأدباء والشعراء والعلماء، والعناية بهم، وكم أغدق من الأموال على الشعراء والأدباء وقربهم، بل كانت له ندوة خاصة يجمع فيها صفوة الأدباء لتشخذ القراءح ويظهر الإبداع، ويجاز المتفوقون^(١).

وليس هؤلاء نهاية ما يمكن ذكره ممن اهتم بالعلم، وأشاد بأهله بل لعلنا لا نبالي إذا قلنا بأن المجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان شغوفاً بالعلم، محباً لأهله ومما يؤكد ذلك أن أحد العلماء الزهاد دخل خراسان، فخرج أهلها بنسائهم وأولادهم، لاستقباله^(٢).

(وكان في كل جامع كبير مكتبة، لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع، وقد كان الخلفاء يفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع، ولع شديد بالكتب، فكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالاته إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها^(٣)).

وقد كان كبار علماء الإسلام في ذلك العصر ينشئون المدارس، ودور العلم. فقد أنشأ الإمام ابن حبان داراً ببنيسابور، وخزانة كتب للغريباء الذين يطلبون العلم، وأجرى لهم الأرزاق، ولم تكن الكتب تعار خارج الخزانة خشية الضياع، كما أنشأ مدرسة ببست ووقف بها كتبه.

وقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب، أحد رجال حاشية عضد الدولة (٣٧٢هـ) دار كتب في رامهرمز، كما بنى داراً أخرى بالبصرة، وجعل فيها أجراً على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها^(٤).

(١) سيف الدولة الحمداني للدكتور الشكعة (ص ١٨١) فما بعد.
(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لآدم متز (١: ٣٢١).
(٣) ماسبق (١: ٣٢٢).
(٤) ماسبق (١: ٣٢٩).

المبحث الثاني : تعدد الأنشطة العلمية وتنوعها

كانت الحركة العلمية عامة تشمل جميع البقاع التي كانت معروفة ففى ذلك العصر وقد كان العلم حراً مشاعاً - كما أسلفت - وكل يدلى بدلوه ففى الحياة الثقافية، ففى مجال العقائد والغيبيات، كنت ترى الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة وأهل الحديث من الحنابلة وغيرهم، ولكل منهم مسجد يدرّس فيه آراءه ومذهبه، أو كان عدد من هؤلاء يدرّس مذهبهم فى مسجد واحد، كل ففى زاوية من زواياه، أو تحت سارية من سواريه .

كما كان فقهاء المالكية والحنفية والشافعية والحنابلة والظاهرية وأهل الحديث يختص كل منهم بمكان مجاور للآخر، أو قريب منه، وعند كسل منهم طلابه الذين يختصون به، والذين كان كثير منهم ما ينتقل فى هذه الحلقات جميعاً ليحصل على ما عندها من علم وفائدة .

وفى تلك المواقع نفسها كان يعلم القرآن الكريم والتفسير والقراءات والفرائض وكانت تعقد حلقات التحديث والإملاء، أو تقرأ كتب التراجم وتستعرض أقوال أئمة الحديث حول قيمة ما يملى من أحاديث أو تراجم .

وقل مثل ذلك عن حلقات اللغة والنحو والصرف والأدب والبلاغة والحساب بل لم يكن الطب والصيدلة ودراستهما مما يستهجن فى دور العلم وحواضر الخلافة، ومراكز الولايات .

وقد كان علماء ذلك العصر فحولاً فى علوم شتى، ولم يكن الاقتصار على علم واحد معروفاً لديهم، وإن كان أحدهم فى علم ما، أبرع منه فى غيره من العلوم .

ففى حوالى عام (٣٠٠ هـ) كان ابن كيسان النحوى يبدأ مجلسه بأخذ القرآن والقراءات ثم بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم (١) وهذا يدل على أنه لم يكن نحويًا فحسب، وإن كانت شهرته بالنحو، فكان إلى جانب ذلك مقرئًا محدثًا .

(١) الحضارة الإسلامية (١ : ٣٣٧) فمابعد .

وقد كان الإمام ابن جرير الطبري لغويا أدبيا مفسرا مقرئا مؤرخا محققا ، فيها ، صاحب مذهب مستقل في الفقه ، ينحوفيه منحى الإمام الشافعي .

كما كان الإمام ابن حبان لغويا طبييا فلکيا فيلسوفا ، إلى جانب كونه عملاق الحديث والتاريخ والتراجم . كما كان فقيها بارعا ، وأصوليا متينا ومربيًا فريدا وناسكا زاهدا (ويحس كل من يتعقب الحركة العلمية في ذلك العصر كأن سباقا نشب بين العلماء والعلم ، فهم يجدون في طلبه وتحصيله ويصلعون صراعا متصلا . . . وهذا الشغف العلمي هو الذي دفع العلماء إلى الرحلة من بلد بعيد إلى بلد بعيد طلبا للعلم ، مهما تجشعوا من مشاق . . . وأكبر من شغفوا بالرحلة في هذا العصر المحدثون ، لأن الصحابة كانوا قد نزلوا في أمصار العالم الإسلامي . . . وكانوا يروون أحاديث كثيرة فكان في كل مصر أحاديث قد لا تعرفها الأمصار الأخرى ، كما كانوا يرحلون لعلو الإسناد والوقوف على أقوال أئمة الحديث ، ومعرفة طرق الأحاديث التي يحملونها^(١) لبيان عللها .

وإذا أردنا الحديث عن علوم ذلك العصر ، فلا بد من الإشارة إلى أن سوق الترجمة كان نافعا ، وكان الخلفاء والأمراء والولاة والوزراء يشجعون عليه ، ويغدقون الأموال بسخاء في سبيل ترجمة كتب الهندود والفرس والإغريق حتى إذا ترجمت معظم الكتب الهامة ، وقف العلماء منها موقف المستفيد الناقد المشارك ، فهذا الخوارزمي يبتكر علم الجبر ، ولم يسبق إليه عند علماء الأواثل ، وله شروح على كتاب إقليدس في الهندسة ، وكتاب بطليموس في الجغرافية ، وقد خلف فيها أول كتاب عربي سماه (صورة الأرض) . . . وعلى نحو ما نهضوا بعلم الجبر والهندسة والجغرافية ، نهضوا بعلم الرياضيات ، وعلم الفلك ومن الفلكيين النابهيين في العصر هذا الفضل بن حاتم الرازي (٣١٠ هـ) وكان متقدما في علم الهندسة وهيئة الأفلاك وحركات النجوم .

(١) العصر العباسي الثاني (ص ١٢٧) .

ويبدو وأنَّ المتطبيين كثروا في هذا العصر، حتى إنَّ ابن أبي أصيبعة
ليذكر أنَّ عددهم في جاني بغداد وحدها عام (٣١٩هـ) ثمانمائة رجل
ونيفا وستين، سوى من كان في خدمة السُّلطان . . وطبيب العصر غير مدافع
ابوبكر محمد بن زكريا الرازي (حوالي ٣٢٠هـ) .^(١)

أما علم اللغة فكان قد وصل مرحلة عالية من النُّضج والاكتمال، وكان
من أبرز علماء ذلك العصر ثعلب المتوفى (٢٩١هـ) صاحب كتاب الفصح وابن
دريد صاحب الجمهرة في اللغة (٣٢١هـ) وابن الأنباري (٣٢٨هـ) ونفطويه
(٣٢٨هـ) وعبد الرحمن بن عيسى الهمداني (٣٢٧هـ) صاحب كتاب
الألغاز الكتابية، وقدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) صاحب كتاب جواهر الألفاظ
واسحاق بن إبراهيم الفارابي (٣٥٠هـ) صاحب كتاب ديوان الأدب، وأبو
منصور الأزهرى (٣٧٠هـ) صاحب كتاب تهذيب اللغة، وأبو علي القاسم
(٣٥٦هـ) صاحب الأمل والمقصور والممدود و(البارع) المعجم الكبير
وغير هؤلاء الأئمة أضعاف أعدادهم .^(٢)

ومن أبرز النحويين في ذلك العصر إبراهيم بن السرى الزَّجَّاج
(٣١٠هـ) وابن السَّراج (٣١٦هـ) إلى جانب ابن الأنباري (٣٢٨هـ) ،
وَالزَّجَّاجِي (٣٣٧هـ) صاحب كتاب الجمل .

ونشطت البلاغة في هذا العصر، وتشعبت مقاصدها ومسالكها، كما
نشط النَّقد نشاطا ملحوظا حتى وجد من أَلف في أخطاء الشعراء، وبيان
هفواتهم البلاغية كأحمد بن عبيد الله بن عمار (٣١٩هـ) الذي صنَّف كتاب
أخطاء أبي تمام في الألفاظ والمعاني . وكتب قدامة بن جعفر كتابه
(نقد الشعر) .^(٣)

كما نشطت في هذا العصر الكتابات التاريخية، فمن كتابة فـي
تاريخ السيرة النبوية، إلى كتابة في الأحداث الإسلامية وأحوال الأمم والدول

(١) العصر العباسي الثاني (ص ١٣١-١٣٧) مقتطفات .
(٢) العصر العباسي الثاني (ص ١٤٢-١٤٨) ومقدمة كتاب الصَّحاح
لأحمد عبد الغفور عطار (ص ٧٨-٨٦) .
(٣) ماسبق (ص ١٤٩-١٥٥) .

وتواريخ المدن ، والتراجم وطبقات الرواة .

ومن أبرز كتّاب هذا العصر أحمد بن يحيى البلاذري (٢٧٩هـ) صاحب كتابي فتوح البلدان وأنساب الأشراف ، وأبو حنيفة الدينوري (٢٨٢هـ) صاحب كتاب الأخبار الطوال .

ثم جاء الإمام محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) فصنف كتابه الفريـد (تاريخ الرسل والملوك) وبعده أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (٣٤٥هـ) صاحب مروج الذهب .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة ، كانت هناك تواريخ لبعض المدن كتاريخ واسط لأسلم بن سهل بن زياد المتوفى سنة (٢٨٨هـ) وتاريخ أصبهان لابن مندة (٣٠١هـ) وتاريخ الموصل ليزيد بن محمد الأزدي (٣٣٤هـ) .

ولم يفت الكتاب والمؤلفين أن يكتبوا في أخبار فئة خاصة ، فألف ابن قتيبة كتابه (الشعر والشعراء) وألف ابن المعتز كتاب طبقات الشعراء المحدثين . . . كما ألف بعضهم في الوزراء وكتّاب الدواوين مثل كتاب الوزراء والكتّاب لمحمد بن عبدوس الجهمي (٣٣١هـ) وكتاب الأوراق للصولي (٣٣٥هـ) الذي يخص العباسيين وأخبارهم .

وعلى هذا النحو نشط التأليف في التاريخ لهذا العصر نشاطا واسعا حتى كادوا لا يتركون في التاريخ جانبا ، إلا رصدوه وسجلوه ودونوه .^(١)

(١) العصر العباسي الثاني (ص ١٥٧-١٦٠) .

المبحث الثالث : العلوم الشرعية

لا يخفى على باحث أن علم اللغة والنحو والبلاغة مفتاح العلوم الشرعية وبدونه تغلق كثير من الأبواب في وجوه طلبه العلوم الشرعية ، لأنها لاتنال الا بالاطلاع على قدر من هذه العلوم . ولذلك فإن عددا من الأسماء ذات الشهرة اللغوية والأدبية ستتكرر كعلماء في علوم القرآن والتفسير والفرائض ، كما أن عددا من المؤلفين في التواريخ والأخبار سيذكر في جملة عظماء المحدثين وفحول الفقهاء والمفسرين ، وهذا ليس غريبا - كما أسلفت - لأن علوم الشريعة كانت متشابهة ، وكان لكل عالم نصيب وافر من علوم شتى إلى جانب تخصصه ونبوغه فيما اشتهر به من علم . ويحسن أن أتناول العلوم الشرعية في ثلاثة مطالب .

المطلب الأول : القرآن وعلومه

لقد كانت عناية الأمة المسلمة بكتاب الله تعالى لاتعدلها عناية بكتاب آخر سوى عنايتها بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم . ولو استعرض امرؤ كتاب البرهان للزركشى ، أو الإتيقان للسيوطى لهاله أن يرى في معظم أنواع هذه العلوم مؤلفات مستفيضة كل مؤلف يخص جزئية من جزئيات علوم القرآن تتناول جانبا من جوانب هذا الكتاب العظيم . وأولى علوم القرآن علم أدائه وكيفية قراءته . وقد كان من أشهر علماء القراءات في هذا العصر الإمام محمد بن جرير الطبرى (٣١٠ هـ) وله كتاب في القراءات ، كما طارت شهرة الإمام ابن مجاهد (٣٢٤ هـ) خاصة بعد أن كتب كتابه السبعة في القراءات . ومن معاصريه الإمام محمد بن مقسم العطار (٣٥٤ هـ) والإمام محمد بن أحمد بن شنبوذ . والإمام أبو جعفر بن النحاس (٣٣٨ هـ) .

وقد كتب ابن النُّحَّاس عددا من المصنَّفات التي خدم بها كتاب الله تعالى منها كتاب القطع والائتناف في كفيات الوقوف والابتداء ، وإعراب القرآن في ثلاثة مجلدات كبار ، ومعاني القرآن في التفسير - لم يطبع بعد - والناسخ والمنسوخ ، وكل كتبه مطبوعة ما عدا كتابه معاني القرآن فلما يطبع بعد .

ومن الآثار التي وصلتنا من القرن الرابع فيما يتعلق بعلوم القرآن كتاب المصاحف لابن أبي داود السَّجِسْتَانِي (٣١٦هـ) وهو مطبوع ، وقصييدة في التجويد لموسى بن عبيد الله بن خاقان (٣٢٥هـ) ومن أبرز أعلام العصر في القراءات أيضا أحمد بن الحسين النيسابوري (٣٨١هـ) وأحمد بن محمد ابن أوس (٣٣٠هـ) وأبو الحسن الدارقطني (٣٨٥هـ) وأبو الطيب بن غلبون (٣٨٩هـ) .^(١)

أما كتب التفسير فقد كانت ثمة أربعة اتجاهات تتنازع في ذلك العصر فالتفسير بالمأثور وهو التفسير الذي كان يستمسك به أهل السنة ويعتمد ونه والتفسير بالرأى وقد كان زعمائه في ذلك العصر هم المعتزلة ، وكــــان التفسير الشيعي ، والتفسير الصوفي .

أما التفسير بالمأثور فقد بلغ غايته المرجوة على يد الإمام محمد بن جرير الطبري ، إذ استطاع أن يجمع في تفسيره عن طريق الروايات المسندة كل - أو جل - ما أثر عن الصحابة والتابعين في تفسير الآي القرآنية . وهناك كتاب (تفسير القرآن العظيم) لابن أبي حاتم .

وأهم تفسير اعتزالي ، حاول المعتزلة إنفاذ آرائهم الاعتزالية من خلاله هو تفسير أبي علي الجبائي (٣٠٣هـ) وكانت تأويلات المعتزلة للآيات القرآن تأويلات عقلية صرفة . وكان وراء هذين الاتجاهين من التفسير التفسير الشيعي والتفسير الصوفي ، وكلاهما يحاولان تفسير القرآن الكريم تفسيراً اعتقادياً ، وإشارياً .

فكان الشيعة يخرجون عن ظاهر القرآن ملتصقين بتأويلات بعبيدة

(١) تاريخ آداب العرب لبروكلمان (٤ : ١-٦) ، العصر العباسي الثاني (ص ١٦٠) فما بعد ، مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة (ص ٦ - ٥٩ ،

إذ يذهبون إلى أنّ لفظا بعينه، يقصد به عليّ أو غيره من أئمتهم، وأنّ لفظا آخر يقصد به ما اعتبروه خصما من خصومهم، كما فسّر بعضهم الجبت والطاغوت بمعاوية وعمرو بن العاص .

أما تأويل المتصوفة حينئذ، فلم يكن يبعد عن ظاهر اللفظ بعهد التفسير الشيعي، إذ كان كل ما ربه أن يوضح من خلال بعض الآيات بعض الأفكار الصوفية، وربما كان أقدم تفسير لهم هو تفسير سهل التستري (٢٨٣هـ) فنراه في تفسير قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) من سورة النور، يجعل النور المحمدي في سابق الأزل أساسا للآية وكان سهلا قد سبق الحلّاج في فكرة النور المحمدي (١).

وقد وصل من كتب التفسير في ذلك العصر كتاب أحكام القرآن للجصاص (٣٧٠هـ) وتفسير ابن عطية الدمشقي (٣٨٣هـ) وقبلهما تفسير ابن جرير الطبري الشهر (٢). وبعض تفسير ابن أبي حاتم الرازي، ومعان القرآن للنحاس وغير ذلك .

(١) العصر العباسي الثاني (ص ١٦٣) .
 (٢) تاريخ آداب العرب (٤: ٧ - ٢٠) .

المطلب الثاني : الفقه وأصوله

(كان القرن الرابع أهم نقطة فاصلة في تاريخ التشريع الإسلامي ، فيقال إنه في هذا القرن وقف التكوين المستقل للتشريع الإسلامي المبني على الاجتهاد المطلق وعلى فهم الفقيه الحكم من القرآن والسنة^(١) .
(وفي هذا العصر اختلط المجتهدون بغيرهم ، فكان يوجد أهل الاجتهاد المطلق ، ولكن غلب التقليد في العلماء ورضوا به خطة لهم ، ولا يزال في هذا العصر يزيد التقليد ، وينقص الاجتهاد إلى المائة الرابعة إذ أصبح كثير من علمائها راضين بخطة التقليد ، عالة على فقه أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل وأضرابهم ممن كانت مذاهبهم متداولة إذ ذاك .
وانساقوا إلى اتخاذ أصول تلك المذاهب دوائر ، حصرت كل طائفة نفسها في داخلها لا تتخطاها وأصبحت أقوال هؤلاء الأئمة بمنزلة نصوص الكتاب والسنة لا يعدونها ، وبذلك نشأت سدود بين الأمة وبين نصوص الشريعة ، ضخمت شيئا فشيئا إلى أن تنوسيت السنة ، ووقع البعد من الكتاب ، بازدياد تأخر اللغة ، وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء وأقوالهم لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم . . .)^(٢) .

وهذا كله باعتبار الغالب ، وإلا فقد كان يوجد في علماء الأئمة من يجتهد كأبي القاسم عبدالعزيز بن عبد الله الداركي الشافعي ، وأحمد بن ميسر بن محمد القرطبي ، وأبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي بل كان قبلهم الإمام محمد بن إبراهيم بن المنذر ، والإمام محمد بن إسحاق ابن خزيمة كما كان الإمام ابن حبان مجتهدا ، وسيأتي ذكر بعض المسائل التي خالف بها الإمام الشافعي الذي ينتسب هو إلى مذهبه . وغير هؤلاء كثير ، إلا أنه ليست لهم مذاهب مدونة متكاملة ولذلك اعتبر بعضهم من مجتهدى المذهب ، واعتبر آخرون من الفقهاء فيه .

(١) الحضارة الإسلامية (١ : ٣٨٧) .
(٢) الفكر السامي (٢ : ٥) .

وقد كانت جملة الأئمة المجتهدين الذين دونت مذاهبهم ، وصار لهم أتباع ثلاثة عشر إماما هم على الترتيب الزمني : الحسن بن أبي الحسن البصرى ، أبو حنيفة النُّعْمان بن ثابت ، أبو عمرو عبد الرحمن الأوزاعى أبو سعيد سفيان الثورى ، الليث بن سعد ، مالك بن أنس ، سفيان بن عيينة أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى ، إسحاق بن إبراهيم الحنظلى المشهور بابن راهويه ، أبو ثور إبراهيم بن خالد بن اليمان الكلبى ، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بـداود الظاهري . وآخرهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وهؤلاء جميعا فقهاء أهل السنة . كما كان للشيعة الزيدية والإمامية فقهاءهم ولكل فرقة من فرق الخوارج فقهاءها وأئمتها . وقد كان لكل إمام من هؤلاء الأئمة أتباعه المنتشرون في الأرض ، إلا أنه لم يبق إلا المذاهب الأربعة المعروفة مذهب أبي حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وأتباع الإمام أحمد أقل هؤلاء عددا من القديم إلى يومنا هذا . ولا أدري لذلك سببا سوى أن كثيرا من الأئمة اعتبره أحد تلامذة الشافعى وأتباعه ، أو لأن أتباعه في بداية أمرهم لم يكونوا على المستوى المطلوب من العلم ، والحكمة ولين الجانب ، وقد مرَّ معك سابقا بعض ما يمكن أن يكون معوقا .

المطلب الثالث : الحديث وعلومه

يمكننى القول بأن علم الحديث الشريف قد بلغ غاية نضجه ، ومنتهى كماله فى المائة الرابعة ، وقد وجد فى هذا العصر من الأئمة الأعلام ما لا يحصون كثرة ولا يستهان بما قدموه إلى السنة النبوية من خدمة . ومن يذكر بأن ابن حبان (٣٥٤ هـ) قد كان له أكثر من ألفى شيخ فى بقاع العالم الإسلامى علم أن هذا العصر عصر خير وبركة ، وإن ذمه أهله وحطوا عليه .

ومن يمسك تذكرة الحفاظ للإمام الذهبى يجد ما يدهشه من كثرة الحفاظ فى عصر ابن حبان وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، فضلا عن آلاف المحدثين الذين لم يبلغوا درجة هؤلاء فى الحفظ والإتقان ، فالطبقة الحادية عشرة هى طبقة شيوخ ابن حبان ، والطبقة الثانية عشرة طبقة أترابه وأقرانه ، والطبقة الثالثة عشرة طبقة تلامذته ، وهؤلاء يشكلون نسبة عالية من الحفاظ فمن الطبقة الحادية عشرة سبعة وسبعون حافظا ، ومن طبقة أقرانه ، ومن الطبقة الثانية عشرة تسعة وسبعون حافظا ، ومن الطبقة الثالثة عشرة أربعة وسبعون حافظا .

كما أن نظرة أخرى فى سير أعلام النبلاء يجد من أعلام المحدثين فى هذا العصر أضعاف هؤلاء ولولم يكن فى هذا العصر من الأعلام سوى أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى ، وابن خزيمة ، والنسائى والإسماعيلى وابن عبدوس ، والأنماطى ، والحسن بن سفيان ، وأبو يعلى الموصلى ، وزكريا الساجى ، وابن جرير الطبرى ، وابن السراج ، والباغندى ، وابن منبج وأبو عروبة ، وأبو عوانة ، وابن المنذر ، وابن الجارود ، والطحاوى ، وعبد الرحمن ابن أبى حاتم الرازى ، وابن عقدة ، وابن الأنبارى النحوى ، وأبو بكر الشافعى وأبو على النيسابورى الحاكم الكبير ، والرامهرمزي ، والطبرانى ، والجعابى وابن حبان ، وأبو بكر الصعلوكى ، والميانجى ، وابن السنى ، والآجرى ، وابن عدى ، والعقيلى ، وابن شاهين ، والد أرقطنى ، والحاكم النيسابورى ، والخطابى وغنجار ، وتمام الرازى ، وأبو نعيم الأصبهانى ، لكان هذا العصر مليئا بالعلم والمعرفة .

وقد تشعبت علوم الحديث في هذا العصر، فاستقل علم التراجم وانقسم إلى تراجم خاصة بالثقات ككتابات ابن حبان، وثقات ابن شاهين، وإلى تراجم خاصة بالضعفاء من المحدثين، كالمجروحين لابن حبان، والكامل في الضعفاء لابن عدي الجرجاني، والضعفاء للعقيلي، والضعفاء للدارقطني كما كثر التأليف في السنة، فألف الطبراني معاجمه الثلاثة الكبير والأوسط والصغير، وألف الحسن بن سفيان مسنده الكبير، وألف أبو يعلى الموصلي مسنده البحر، وألف ابن خزيمة كتابه الصحيح، وكتب ابن الجارود العبسي "المنتقى" وابتكر أبو حاتم بن حبان طريقة فريدة في كتاب التقاسيم والأنواع. كما انتشر التدوين في أصول الحديث ومما وصلنا من تلك الحقب المحدث الفاصل للرامهرمزي وعلل الحديث لابن أبي حاتم، وعلل الحديث للدارقطني.

إلى غير ذلك من المؤلفات والأنواع التي يصعب حصرها في هذه العجالة.

ويمكننا بعد هذا العرض السريع نلمس الحركة العلمية والفكرية المتوقدة في هذا العصر، ويتلمس هذا نستطيع أن نفسر كثيرا من الظواهر التي تعرض علينا في هذا العصر.

الفصل السابع

بيئة الإمام ابن حبان في (بست)
~~~~~

إنَّ الحديث عن مدينة (بست) لامندوحة عنه ، لمن يريد دراسة حياة علم من أشهر أعلامها ، إن لم يكن أشهر من أنجبتهم .  
وإذا كانت (بست) اليوم تعد في أواخر البلدان الأفغانية أهمية فلقد كانت في عصر ابن حبان ثاني مدن إقليم سجستان الكبير .

المبحث الأول : التاريخ السياسي لمدينة (بست)  
~~~~~

لقد كان مركز مدينة بست الجغرافي ، ذا أثر هام في مكانتها السياسية ذلك أن (بست) واقعة في البقعة التي يصبح فيها النهر الكبير (هيلمند) (١) صالحا للملاحة .

وتشهد الأبنية الموجودة في جوار بست على ما كان لها من ازدهار فقد كانت مركزا من مراكز الحضارة الإيرانية القديمة ، وكانت في بداية القرن السادس الميلادي في حوزة السهياطة ، ثم استردها منهم خسرو الأول (كسرى انوشروان) (٢) .

وقد اختلف المؤرخون المسلمون في زمن دخول (بست) في حوزة المسلمين ، فذهب الإمام الطبري (٣) إلى أن عاصم بن عمرو قد فتح سجستان كلها ، وصالح أهل (زرنج) قصبته (٤) ، وذلك عام ثلاثة وعشرين من الهجرة في أيام عمر بن الخطاب ، وذكر ياقوت (٥) أن عاصم بن عدى التميمي افتتح سجستان في أيام عمر رضي الله عنه .

-
- (١) هيلمند هو الاسم العصري لنهر (هندمند) فهما اسمان لمسمى واحد .
 - (٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بست) .
 - (٣) تاريخ الرسل والملوك للإمام الطبري (٤ : ١٨٠) فمابعد ها .
 - (٤) قسبة البلاد : عاصمتها ومدينتها الكبرى .
 - (٥) معجم البلدان لياقوت الحموي (٣ : ١٣٨) .

بينما يرى خليفة بن خياط^(١) أنَّ فتح سجستان كان سنة ثلاثين وما بعدها على يد الربيع بن زياد الحارثي، ثم على يد عبد الرحمن بن سمرة سنسنة ثلاث وثلاثين، حيث بقي الأخير في سجستان حتى اضطرب أمر عثمان .
وذلك هو رأي ابن حبان، ابن هاتيك الديار، الذي ألف كتابا عن تاريخها والذي يبدو لي أن ليس ثمة تعارض بين هذه النصوص، لأنه لا يخفى على من قرأ تاريخ الفتح الإسلامي أنَّ استقرار المسلمين في تلك البلاد، لم يكن أمرا هيئا، فقد كان أهالي هاتيك البلاد قوما أشداء، فإذا ما خسروا الجولة في الحرب أمام المسلمين صالحوهم، وإذا علموا في المسلمين ضعفا أخذوهم على غرة ودام الحال كذلك إلى زمن معاوية بن أبي سفيان .
يفسر ما خلصت إليه ما ذكره الطبري^(٢) من أنَّ سلم بن زياد - والسي خراسان من قبل معاوية - قد صالحهم وفرح بصلحهم، وذلك (أنَّ شاه سجستان، قد هرب من أخيه "رتبيل"^(٣) إلى بلد فيها تدعى "آمل"، ودانوا لسلم بن زياد، وفرح بذلك، وعقد لهم، وأنزلهم بتلك البلاد، وكتب إلى معاوية بذلك، يرى أنه قد فتح عليه، فقال معاوية: إنَّ ابن أخي ليفرح بأمر، إنني ليحزنني، وينبغي له أن يحزنه، قالوا: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنَّ (آمل) بينها وبين (زنج)^(٤) صعوبة وتضايق، وهؤلاء قوم نكر غدر، فيضطرب الحبل غدا، فأهون ما يجي منهم أن يغلبوا على بلاد آمل بأسرها، وتم لهم على عهد ابن زياد فلما وقعت الفتنة بعد وفاة معاوية، كفر الشاه، وغلب على (آمل) وخاف رتبيل، الشاه فاعتصم منه . . . ولم يرضه ذلك حين تشاغل الناس عنه، حتى طمع في زنج، فغزاها، فحصرهم حتى انتهت الأمداد من

-
- (١) تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٦٤، ١٦٧)، الثقات (٤: ٢٢٥) في ترجمة الربيع بن زياد .
(٢) تاريخ الطبري (٤: ١٨٠-١٨١) .
(٣) (رتبيل) : لقب لكل من يملك في هاتيك البلاد تحت إمرة الدولة الساسانية. انظر دائرة المعارف مادة (بست) .
(٤) آمل : بضم الميم. أكبر مدينة باقليم طبرستان. انظر أخبارها في معجم البلدان (١: ٥٧) .
(٥) زنج : بفتح أوله وثانيه وسكون النون هي أكبر مدينة بسجستان. معجم البلدان (٣: ١٣٨) .

البصرة، فسار رتبيل والذين جاءوا معه، فنزلوا تلك البلاد شجا لم ينتزع إلى اليوم، وقد كانت تلك البلاد مذلة إلى أن مات معاوية (٢).

ومن خلال استقراء تاريخ المنطقة في القرنين الأولين، يبدو أن الحياة السياسية كانت زاخرة بالقلق، والتشنج، والمطاحنات العسكرية، كما أن منطقة سجستان بالذات، لم تستقر للمسلمين إلا مؤخرا، وقد كان رتبيل ذا قوة لا يستهان بها، لذلك فقد اضطر المسلمون إلى مصالحته سنة اثنتين وخمسين على ألف درهم مقابل إقراره على بلاده (٣).

غير أن رتبيل هذا كان يتحين الفرص، فتارة كان يؤدي الخراج، وتارة لا يفعل (٤)، فبعث الحجاج إلى عبيد الله بن أبي بكره والي سجستان أن ناجز عدو الله رتبيل يمن معك من المسلمين، ولا ترجع عنه حتى تسبيح أرضه وتهدم قلاعه، وتقتل مقاتلته، وتسي ذريته، فخرج عبيد الله للقاء رتبيل ففعل رتبيل حيلة انهزم فيها أمام المسلمين حتى حصرهم في الشعب ثم التف عليهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ولم ينج من بقي منهم إلا بعد أن دفع عبيد الله لرتبيل سبعمائة ألف درهم (٥).

فحال الحجاج هذا الأمر، وتوفي عبيد الله بن أبي بكره، فجهز الحجاج جيشا كثيفا وولى عليه عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وعقد له على ولاية سجستان وحرب رتبيل (٦). فسار ابن الأشعث يتبع رتبيل موغلا في بلاده المخيفة حتى وصل إلى مكان موغل مخيف، وكان قد حاز غنائم كثيرة فخاف على من معه من المسلمين، ورأى أن يكتفى في ذلك العام بهـذه الحروب مع رتبيل، على أن يعاود الكرة كل عام حتى يستأصل شأفة رتبيل (٧).

(١) يقصد اليوم الذي يريد محمد وطلحة والمهلب وعمرو، لأن الطبري قال: كتب إلى السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو. تاريخ الطبري (٤: ١٨٠-١٨١).

(٢) ماسبق الموضوع نفسه.

(٣) تاريخ خليفة (ص ٢١٨).

(٤) تاريخ الطبري (٦: ٣٢٢).

(٥) ماسبق (٦: ٣٢٣).

(٦) تاريخ الطبري (٦: ٣٢٦).

(٧) ماسبق (٦: ٣٢٩).

إِلَّا أَنَّ الْحِجَاجَ وَشَخَّهُ عَلَى ذَلِكَ، وَاتِّهَمَهُ بِالْجَبَنِ، وَقَالَ لَهُ: إِذَا لَمْ تَتَّبِعِ السَّيْرَ وِرَاءَ رَتْبِيلٍ، فَأَخُوكَ هُوَ الْأَمِيرُ مَكَانَكَ وَتَنْحُ، فَأَتَى أَخَاهُ، وَقَالَ لَهُ وَاللَّهِ لَعْنُ كَلِمَتِ أَحَدَا بَهَذَا لِأَقْتُلَنَّكَ. ثُمَّ أَعْلَنَ الْعَصِيانَ عَلَى الْحِجَاجِ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ رَتْبِيلَ خَلْفَهُ، فَصَالِحُهُ عَلَى أَنَّهُ إِنْ ظَفَرَ عَلَى الْحِجَاجِ فَلَا خِرَاجَ عَلَيْهِ أَبَدًا^(١)، وَدَارَتِ الْمَعَارِكُ الطَّاحِنَةُ بَيْنَ جِيُوشِ الْحِجَاجِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ فَهَزَمَ ابْنَ الْأَشْعَثِ، وَرَجَعَ فَالْتَجَأَ إِلَى بَسْتٍ، وَكَانَ أَمِيرَهَا عِيَاضُ بْنُ هَمِيَانَ الْبِكْرِيَّ فَرَحِبَ بِابْنِ الْأَشْعَثِ وَأَكْرَمَهُ، حَتَّى إِذَا غَفَلَ، اتَّسَرَهُ وَقِيدَهُ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ رَتْبِيلٌ فَأَحَاطَ بِبَسْتٍ، وَهَدَدَ الْبِكْرِيَّ، فَأَخْلَى سَبِيلَ ابْنِ الْأَشْعَثِ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ أَمَانًا لِنَفْسِهِ وَلِلْبَلَدِ مِنْ رَتْبِيلٍ، فَسَارَ ابْنُ الْأَشْعَثِ وَأَقَامَ عِنْدَ رَتْبِيلٍ^(٢).

غَيْرَ أَنَّ الْحِجَاجَ أَهَمَّهُ أَمْرُ ابْنِ الْأَشْعَثِ، وَهَيِّهَاتُ أَنْ يَتْرَكَهُ حَتَّى يَرَاهُ جِثَّةَ هَامِدَةَ، فَصَارَ يِرَاسِلُ رَتْبِيلَ فَتَارَةً يَمْنِيهِ وَتَارَةً يَخُوفُهُ، حَتَّى قَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ حَوْلَهُ: إِنَّ الْحِجَاجَ لَنْ يَدْعَكَ، فَمَالَكَ وَلِهَذَا الْأَمْرَ فَفَرَّرَ الْغَدْرَ بِأَبْنِ الْأَشْعَثِ^(٣)، وَقِيدَ ابْنَ الْأَشْعَثِ وَحَمَلَ إِلَى الْحِجَاجِ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ وَهُوَ فِي الطَّرِيقِ فَمَاتَ.

وَفِي سَنَةِ ثِنْتَيْنِ وَتِسْعِينَ غَزَا قَتَيْبَةُ بْنُ مَسْلَمٍ سَجِسْتَانَ يَرِيدُ رَتْبِيلَ وَقَرَّرَ اسْتِئْصَالَهَ، فَتَلَقَتْهُ رَسَلُ رَتْبِيلٍ بِالصُّلْحِ، فَصَالِحَهُ^(٤).

فَوَاضِحٌ أَنَّ الْقَرْنَ الْأَوَّلَ انْقَضَى وَلَا يَزَالُ رَتْبِيلٌ يَحْدُثُ الْقَلَاظِلَ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ، وَيَحْوِلُ دُونَ اسْتِقْرَارِهَا بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ.

وَيَحْدُثُنَا التَّارِيخُ أَنَّ خُلَفَاءَ بَنِي أُمِيَّةٍ وَخُلَفَاءَ بَنِي الْعَبَّاسِ كَانُوا يِرْسَلُونَ الْجِيُوشَ لِإِخْمَادِ الْفِتَنِ الَّتِي كَانَتْ يَحْدُثُهَا مَلُوكُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْمَعَاهِدِيْنَ أَوْ بَعْضِ فِئَاتِ الْمُسْلِمِينَ كَالْخَوَارِجِ وَغَيْرِهِمْ.

-
- (١) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ (٦: ٣٣٦).
 (٢) مَاسْبِقُ (٦: ٣٦٩-٣٧١)، تَارِيخُ خُلَيْفَةَ (ص ٢٨٤).
 (٣) مَاسْبِقُ (٦: ٣٩١)، تَارِيخُ خُلَيْفَةَ (ص ٢٨٨).
 (٤) تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ (٦: ٤٦٨)، تَارِيخُ خُلَيْفَةَ (ص ٣٠٤).

ومما يذكره التاريخ أنَّ معن بن زائدة اغتيل على أبواب مدينة بست (١٥٦هـ) .

وأشرت في الباب الأول إلى أنَّ يعقوب بن الليث الصفار مد سلطانه إلى بست بعد أن احتل (كابل) سنة (٢٥٧هـ) .

ولما حاول السامانيون بدورهم أن يثبتوا أقدامهم في هذه المنطقة كانت بست إحدى أشهر مواقع الصراع، حتى تمكن السامانيون من بسط نفوذهم على تلك البلاد، بإنهاء الدولة الصفارية .

على أنَّ (بست) إنما نعت قرابة قرن من الزمان بأوج ازدهارها في عهد الغزنويين، إذ استولى عليها سبكتكين سنة (٣٦٦هـ) فصلها عن ولاية (زرنج) وأصبحت بست المقر الثاني لحكام غزنة الذين أقاموا فيها معسكرهم الدائم (العسكر) .

كما وقعت (بست) في وجه التقدم السلجوقي سنة (٤٤١هـ) وهزمهم عدة مرات، وهم يحاولون الاستيلاء على هذا الإقليم .

على أنَّ انهزام غزنة ونهبها سنة (٥٤٤هـ) على يد علاء الدين الغوري، أضعف موقف بست .

ولم تلبث أن وقعت في يد علاء الدين الذي غزاها ونهبها وأحرق القلاع السلطانية وكان هذا إيذانا ببدء اضمحلال بست .

إلا أنَّ ولاية الغوريين من سكان هذا الإقليم مالبثوا أن أصلحوا قصور الغزنويين في بست، ورمموا ما تهدم من قلاعها، كما سكنها من بعدهم الخوارزمشاهية .

أما التخريب الكبير فهو الذي أصاب المدينة من قبل المغول (٦١٨هـ) ثم قضى تيمور على كثير مما تبقى من معالمها في القرن الثامن الهجري، مما أدى إلى هجر المدينة هجرانا تاما، وأصبحت أراضيها المزروعة فيافي وسهوبا، ولم تبق إلا القطعة التي كان لها شأن في حروب أباطرة المغول مع بلاد فارس، وظلت القطعة عامرة حتى جردها نادر شاه من كل أسباب الدفاع ولا تزال أسوار حصن بست قائمة على شاطئ نهر الهند مند، كما أنَّ الأطلال التي تشغل مساحة كبيرة من الأرض تشهد على

ما كان لعاصمة الغزنويين من عظمة وبهاء^(١) .

غير أنَّ الحقيقة تُلزِمنا أن نقول بأن مدينة بست، بسبب موقعها الجغرافي، ومكانتها في تلك الحقبة سادها شيء غير قليل من الاضطراب والفوضى، وضعفت عند كثير من أهلها حوافز الخير .

ومما يدل على أنَّ بست في القرن الرابع الهجري لم تكن مستقرة هادئة، قول أبي الفتح البستي شاعرها الكبير :

حرّضوني على وزارة بست ورأوها من أرفع الدرجات

قلت لأشتهي وزارة بست إنني لم أملُ - بعد - حياتي^(٢)

وهو يعيب على كتاب بست ورجالها تناحرهم على منصب وزارة بست ويراها أقل من أن يسعى إليه، وبخاص من أجله فيقول :

أكتاب بست كم تناحركم على وزارة بست وهي سخنة عيين

وخفحنين فوق ما تطلبونسه فكم بينكم في ذاك حرب حنين^(٣)

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بست) (ص ٢١٥-٢١٩)، وانظر

تاريخ أفغانستان لفاروق حامد بدر (ص ٢٤-٢٧) .

(٢) أبو الفتح وشعره (ص ٢٣٣) .

(٣) ماسبق (ص ٣٢) .

المبحث الثاني : جغرافية مدينة بست وعمارته

لعله يتعذر الحديث عن طبيعة مدينة (بست) وجغرافيتها ، ما لم نشير إشارة سريعة إلى الإقليم الذى تشكل (بست) ثانية أكبر مدنه الرئيسية فى القرن الرابع الهجرى .

تقع (بست) اليوم غربى بلاد الأفغان ، على مقربة من الحدود الأفغانية الإيرانية .

(١) (وأفغانستان - اليوم - دولة حبيسة فى وسط آسيا ، وتقدر مساحتها بستمائة وسبعة وأربعين ألف كيلو متر مربعاً ، وخمسمائة كيلو متر مربعاً (٦٤٧٥٠٠) كم . وتمتد بين دائرتى العرض (٢٩٣٠ - ٣٨٣٠) شمالاً وخطى الطول (٦١ - ٧٥) شرقاً .

وشكل البلاد بيضوى ، وغير منتظم ، ولها حدود طويلة مع جاراتها جمهوريات تركمانستان ، وازبكستان وطاجيكستان فى الشمال ، ولكنها داخلية فى نطاق الاتحاد السوفىيتى - اليوم - كما ان لأفغانستان حدود مع جارتيها باكستان فى الجنوب والشرق .

أما حدودها الغربية مع إيران ، وحدودها الشمالية الشرقية مع كشمير والصين ، فهى قصيرة نسبياً .

وسميت أفغانستان بهذا ، نسبة إلى قبائل الأفغان التى كانت تعيش فى جزء منها ، ولم يطلق عليها هذا الاسم إلا منذ أواسط القرن الثانى عشر الهجرى - الثامن عشر الميلادى .

وكانت تعرف فى الأزمنة القديمة باسم (أريانا) بينما عرفت فى العصور الإسلامية (الوسطى) باسم خراسان نسبة إلى إقليم خراسان فى شمال البلاد ، والذى تزيد مساحته على ثلث مساحة أفغانستان الحديثة^(٣) .

(١) الدولة الحبيسة فى اصطلاح الجغرافيين هى الدولة التى لا تطل على البحر .

(٢) وهذه الجمهوريات الإسلامية كلها خاضعة للاستعمار الروسى الملحد انظر بحثاً جيداً للتعرف على هذه البلاد فى البلدان الإسلامية والأقليات للدكتور السيد غلوب وزميليه (ص ٣١٢ - ٣٦٢) .

(٣) مسبق (ص ٢٣١) .

وسجستان إقليم الذي تنتسب اليه مدينة (بست) ، إقليم واسع سمي بهذا الاسم نسبة إلى سجستان بن فارس .

ويحدها من الشرق مفازة بين (مكران) (١) وأرض السند، وشي من عمل الملتان، ومما يلي الغرب خراسان (٤) وشي من عمل الهند، ومما يلي الشمال أرض الهند، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان (٨) .
ولها من المدن زرنج، وكش، والطاق، والقرنين، وخواش، وفهره (١٤) وجزه، وبست، وروذان، وسروان، وصالقان، ومدن أخرى كثيرة . (١٥) (١٦) (١٧) (١٨) (١٩) (٢٠)

- (١) مكران : بضم الميم وسكون الكاف . انظر أخبارها في معجم البلدان (١٧٩: ٥) فما بعد .
- (٢) السند : بكسر السين المشددة وسكون النون ، بلاد ما بين الهند وكرمان وسجستان . معجم البلدان (٣: ٢٦٧) .
- (٣) الملتان ، أو المولتان ، بلد من بلدان الهند . معجم البلدان (٥: ٢٢٧) .
- (٤) خراسان : تقدم التعريف بها في الباب الأول .
- (٥) لم أجد تعريفا عند ياقوت لأرض الهند ، لأنها أشهر من أن تعرف .
- (٦) تقدم الحديث عنها . وهذا الوصف كله لسجستان الإقليم لا لسجستان البلد .
- (٧) انظر معجم البلدان (٤: ٢٢٦) لتقف على الكثير من أخبارها وحدثها .
- (٨) سيأتي الحديث عنها في ترجمة ابن حبان .
- (٩) مضى وسيأتي مزيد تفصيل عنها .
- (١٠) معجم البلدان (٤: ٤٦٢) .
- (١١) مدينة بسجستان صغيرة بها أعناب كثيرة (٤: ٦) .
- (١٢) قرنين : بفتح القاف وسكون الراء وكسر النون ، من نواحي سجستان . معجم البلدان (٤: ٣٣٣) .
- (١٣) خواش : بضم الخاء مدينة بسجستان . معجم البلدان (٢: ٣٩٨) .
- (١٤) فره : بفتح أوله وثانيه . معجم البلدان (٤: ٢٥٩) .
- (١٥) حزه : بكسر أوله وفتح ثانيه ، وأهلها يقولون : كزه ، وتكتب بالجيم مدينة بسجستان . معجم البلدان (٢: ١٣٤) .
- (١٦) انظر معجم البلدان (١: ٤١٤) فما بعد .
- (١٧) رودان : بضم الراء وسكون الواو ، بلد قرب بست . معجم البلدان (٣: ٧٧) .
- (١٨) سروان : بفتح السين وسكون الواو . مدينة بسجستان كثيرة الفواكه والنخل والأعناب . معجم البلدان (٣: ٢١٦) .
- (١٩) صالحان : بفتح اللام . بلدية على مرحلة من بست . معجم البلدان (٣: ٣٩) .
- (٢٠) انظر المسالك والممالك (ص ٣٩) ، معجم البلدان مادة سجستان مراد الاطلاع على الأمكنة والبقاع (١: ١٩٦) ، معجم ما استعجم (١: ٢٤٩) ، بلدان الخلافة الشرقية (ص ٣٧٢-٣٩١) .

ومدينة سجستان العظمى تسمى (زرنج) وأما مدينة (بست) فليس فى أعمال سجستان بعد زرنج أكبر منها . وقد كانت كذلك فى القرن الرابع الهجرى ، وكان بها متاجر إلى بلد الهند ، وبها نخيل وأعناب .^(١)
(وهى المنطقة التى اشتهرت فى القرون الوسطى بخصوصيتها العظيمة وبساتينها جيدة الرى ، والتى تقع بين مجريين من مجارى الماء ، وأنها كانت محطة فى الطريق الرئيسى بين خراسان وفارس وبين السند . أى : بين بغداد والهند ، فى الموضع المعهود الذى كان جسر القوارب يعبر فيه النهر عند نفس المكان الذى يصبح فيه هذا النهر صالحا للملاحة تجاها (زرنج) .

وقد نقد جغرافيو العرب فى القرون الأولى (بست) لكثرة ما ينتابها من أوبئة ، ونوهوا فى الوقت نفسه بنشاطها العظى والتجارى ، وبمحصول أراضيها التى كانت تزرع الفاكهة والكروم والنخيل وتشهد الأبنية الموجودة فى جوار بست على ما كان لها من ازدهار عمرانى ، وقد كانت دائما موضعا جليلا ، كما كانت قبل الإسلام مركزا من مراكز الحضارة الإيرانية القديمة .^(٢)
ولاريب أن موقع بست على شاطئ نهر (هلمند)^(٣) الكبير ، وفى البقعة التى يصلح^(٤) فيها النهر للملاحة ، ووفرة أموالها ، كان من الأسباب الهامة فى حضارتها وعمرانها ، إضافة إلى خصوبة أرضها .
وكانت (بست) مشهورة بقلعتها المنيعة ، وفيها جامع حسن ، وأسواق عامرة .^(٥)

-
- (١) المسالك والممالك للإصطخرى (ص ١٤١) ، بلدان الخلافة الشرقية (ص ٣٨٣) .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (بست) ولاتنافية بين وجود الأوبئة فيها وخصوبتها ، فالمستنقعات كثيرة العطاء مع ضررها .
(٣) يسمى باسم (هند مند) أيضا . معجم البلدان (٥ : ٢١٨) .
(٤) ذكر الإصطخرى أن نهر هند مند يبقى نهرا واحدا من بست حتى ينتهى إلى مرحلة من سجستان ، ويتشعب منه مقاسم الماء ، ولا يخفى أن النهر كلما كان أعظم كان أحسن للملاحة . (ص ١٤١) .
(٥) المسالك والممالك (ص ١٤٢) ، بلدان الخلافة (ص ٣٨٣) .

ولقد وصفت بستانها (حسنة كثيرة الأنهار والخضر) ^(١) وسئل عنها بعض الفضلاء فقال : هي كثنيتها . يعني بستان ، كما ذكر أنها من البلاد الحارة ، كثيرة الأنهار والبساتين . ^(٢) حتى لقد قال أحد الشعراء يمدح الشاعر أبا الفتح البستي :

إذا قيل أي الأرض في الناس زينة ؟ أجبنا وقلنا : أبهج الأرضيستها ^(٤)
وقال النويري : (وأما بستان وما اختصت به ، فيقال : إن هواءها كهواء العراق ، وهواءها كماء الفرات ، ومن خصائصها (الإجاص) الذي لا يوجد مثله في غيرها . وكان يقال : من مات ببستان مغفورا له ، فقد انتقل من جنسية ^(٥) إلى الجنة .

وبقيت (بستان) تتمتع بمركزها السياسي والحضاري والعمراني — وبلغت أوج عمرانها وعظمتها في العهد الغزنوي ، إلى أن اكتسح جهارسوز الغوري مملكة بهرام شاه ، وخرّب عاصمتها (بستان) وقضى بذلك على ما كان لها من ازدهار ، غير أن حسن موقعها ، وحاجة مخربها إليها كان هو العامل على بقائها ، وإن كانت قد ظلت ضعيفة تتعثر خلال القرون ، ولذلك فإن ياقوت حين زارها قال : إن الخراب فيها ظاهر ، على أن المدينة فقدت كل أمل في سبيل تقدمها بسبب غزوات تيمور لئك الذي أوقع بها ، وبما جاورها الخراب .

وظل حصن بستان يقاوم الأحداث بسبب موقعه الحربي ، إلى أن خربته نادر شاه عام (١٧٣٨ م) .

ويمكن القول بأن صفحة مجد هذه المدينة الحضاري ، قد انطوت في نهاية القرن الثامن الهجري وأجهز عليها بعد ثلاثة قرون نهائيا . ^(٦)

(١) اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير (١: ١٥١) .

(٢) الأنساب للسمعاني (٢: ٢٢٥) ، مع الإشارة إلى تثنية بستان لغة : بستيان ، أو بستوان .

(٣) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع (١: ١٩٦) .

(٤) حاشية مراصد الاطلاع (١: ١٩٦) .

(٥) نهاية الأرب في معرفة فنون العرب (١: ٣٦٥) .

(٦) بلدان الخلافة الشرقية (ص ٣٨٣) فما بعدها .

المبحث الثالث : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في (بست)

مرَّ سابقاً أنَّ لبست موقعا جغرافيا متميزا ، ولذلك فهي محطة بين الطرق المؤدية إلى فارس وخراسان والهند ، وهذا يعني أنَّها ملتقى تجارى متنوع فيه المنتجات ، وتتعدد المحاصيل ، كما أنَّ موقعها كمرفأ عظيم للملاحة على نهر كبير أعطاها قيمة اقتصادية أخرى بالإضافة إلى خصوبة أراضيها ووفرة مياهها ، وكثرة أشجارها وثمارها ، حتى قيل إنَّها جنة .

وهذا يفسر لنا اهتمام الصفارين ، والسامانيين والغزنويين والغوريين والمغول ومن بعدهم بهذه المدينة ، وحرص كل دولة من هذه الدول على امتلاكها ، أو إهلاكها .

فهي مدينة خصبة ، وفيرة المياه ، كثيرة المزروعات والمنتجات ، واقعة في وسط تجارى مرموق ، وتتمتع بموقع حصين يمكن المقيم فيها من صد غارات المعتدين .

وعلى هذا فإنه يمكننا القول بأنَّ الحياة الاقتصادية كانت جيدة ومنتعشة ، وأنَّ أهل بست كانوا يعيشون في نعمة ورفاه .

ولقد عرف أهل سجستان عامة بعظم الخلق والجلادة ، فهم يمشون في أسواقهم ، وبأيديهم سيوف مشهورة ، ويعتَمون بثلاث عمائم ، أو أربع ، كل واحدة لون ، ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض ، وغير ذلك من الألوان ، على قلائس شبيهة بالمكوك^(١) ، ويلقونها لفا يظهر ألوان كل واحدة منها ، وأكثر ما تكون هذه العمام من الإبريسيم^(٢) ، وطولها ثلاثة أذرع أو أربعة وليس بينهم من المذاهب غير الحنفية من الفقهاء إلا قليل^(٣) نادر .

(١) المكوك : في القاموس : المكوك كتور : طاس يشربه به . (٣ : ٣٢٠) .

(٢) الإبريسيم : هو الحرير . القاموس (٤ : ٧٩) .

(٣) يتكلم ياقوت على سجستان حين زارها في القرن السابع . أما في عصر ابن حبان فكان الغالب عليها مذهب الشافعي . أولعله يتكلم على مدينة سجستان بعينها ، قال ابن سلطان في شرح المشكاة : أما بلاد الأفغان فشافعية . انظر الفكر السامي (٢ : ٦٦ - ٦٧) .

وأهل هذه المنطقة ذوو غيرة، وأنفة وشرف، شأن الأتوام الخالصاء الذين لم يستذلهم الطغيان، ولم تستهوههم الشهوات الرخيصة، وقد زادهم الإسلام عزة وشرفاً ونخوة (فلاتخرج لهم امرأة من منزل أبداً، وإن أرادت زيارة أهلها فبالليل) .

وكان هذا كان عرفاً عاماً في المجتمع الإسلامي كله، إلى عهد قريب حتى استعمر الغرب بلاد المسلمين، وانبهر المسلمون بمد نيتهم الزائفة وأمام هذا الانبهار، لم يستطيعوا رؤية شيء مما عند الغرب سوى دعارتهم ومجونهم وسفور نساءهم، فخدعوا أنفسهم بأن الحضارة هي هذه المنكرات فانقادوا وراء شهواتهم، ونزواتهم، وبعدوا عن تعاليم دينهم وعراقه أخلاقهم ونبلهم .

قال محمد بن بحر الرهني : سجستان إحدى بلدان المشرق، ولم تزل لقاها على الضيم، ممتنعة من الهضم، منفردة بمحاسن، متوحدة بمآثر لم تعرف لغيرها من البلاد، وما في الدنيا سوقة أصح معاملة، ولا أقل منهم مائلة .

ومن شأن سوقة بلادهم أنهم إذا باعوا، أو اشترى منهم العبد أو الأجير، أو الصبي، كان أحب إليهم من أن يشتري منهم الصاحب المحتاط والبالغ العارف، ثم إن من أبرز أخلاقهم مسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف، ثم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولو كان فيهم جدع الأنف .

وأجل من هذا كله أنه لعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - على منابر الشرق والغرب، ولم يلعن علي منبرهم إلا مرة واحدة، وامتنعوا على بني أمية، حتى زادوا في عهدهم : وألا يلعن علي منبرهم أحداً ولا يصطادوا في بلادهم قنفذاً ولا سلحفاة .^(١)^(٢)

(١) القنفذ : حيوان له شوك على ظهره بمثابة سلاح له . انظر الكلام

عليه في عجائب المخلوقات للقزويني (ص ٤٨٦) .

(٢) السلحفاة : حيوان برى بحرى انظر الكلام عليه في عجائب المخلوقات (ص ٤٧٨) . وإنما شرطوا ذلك لأن بلادهم مليئة بالأفاعى =

وأى شرف أعظم من امتناعهم من لعن أخى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منبرهم ، وهو يلعن على مقابر الحرمين ، مكة والمدينة) .
كانت هذه هى الصفات العامة لأهل تلك البلاد ، إلا أن كثرة الحروب والمطاحنات السياسية قد شوهدت وجه تلك البلاد ، وأظهرتها بغير ذلك المظهر النقى الأصيل .

(فى هذه الرقعة من العالم الإسلامى ، التى كثرت فيها الدول والإمارات ، كثرة يحار المؤرخ فى تتبعها واستقصائها ، ويضطر لى لا يضل فى متاهتها أن يغفل بعضها ، لى يحتفظ بالصورة العامة للأحداث فى المنطقة .

هذه المنطقة - كان السلام فيها أبعد الأشياء عن التحقيق ، فالحروب بين الدول الكبيرة فيها ، لا تنقطع لسبب أو لآخر ، وإذا انقطعت فلن نعدم على أى حال حربا أو اثنتين بين الدول الصغيرة فيها ، أو شقا للطاعة داخل هذه أو تلك من أقارب الوالى ، أو قواده أو الطامعين فى ملكه .

لهذا فقد كان عدم الاستقرار هو طابع العصر المميز ، ومنه نشأت الفتن والاضطرابات ، وانعدمت إلى حد كبير الروابط الاجتماعية بين الناس ، وفقدت الثقة بينهم أيضا ، نتيجة لفقدان الوازع الدينى أو الأخلاقى فى نفوس الكثيرين منهم ، تلك النفوس التى لم يبق فيها مكان لغير الانتهازية والجشع وكيف يكون فيها شىء من هذا ، والملوك والأمرء يسلكون سبلا مسن الوحشية للاحتفاظ بممتلكاتهم أو توسيعها على حساب الآخرين .

ولعل من أغرب الأمثلة على ذلك ما نقرؤه عن خلف بن أحمد الصفار ملك سجستان الذى قتل ابنه بيده ثم غسله وكفنه وصلى عليه ، وذلك لأنسه فشل فى تحقيق طمع والده فى الاستيلاء على إحدى الإمارات .

= والقناقد تأكل الافاعى ، فما من بيت إلا وفيه قنفذ . معجم البلدان

(٣ : ١٩١) .

وأما السلحفاة فيزعم أهل المعرفة أن لها فوائد جمعة بالنسبة لعلاج الأمراض ، ووقاية المزروعات . انظر عجائب المخلوقات للقزوينى (ص ٤٧٨) .

ثم ما نراه من أمر عضد الدولة حين قتل ابن عمه بختيار بن معز الدولة^(١) واستولى على ملكه في بغداد، استشرافاً إلى العظمة بتولى الملك في حاضرة الخلافة .

وإذا كان هذا ديدن الملوك مع من تربطهم بهم صلة القرابة والدم فما بالك بطريقة معاملتهم بمن لا تربطهم به هذه الصلة من حاشيتهم ومحكوميتهم .

وهكذا كانت العلاقة بين الحكام، وبين من يخدمونهم من رعاياهم قائمة على البطش والقهر والإيقاع بهم متراوحة بين القتل والضرب والعزل وهو أخفها .

وقد ترتبت على كثرة العزل والتولية، أدواء خطيرة في المجتمع فاستشرى الفساد والرشوة في أرجائه وقد أصبحت هذه الأخيرة قانوناً مفروضاً، وعرفاً سائداً لا مفر منه في قضاء الحاجات^(٢) .

وإن خير من يصور لنا الحياة الاجتماعية في بستان أحد أكبر عظمائها وأعلامها وهو الإمام حمد بن محمد أبو سليمان الخطابي البستي (٣٨٨هـ) . قال رحمه الله مبينا عدم استتباب الأمن في بستان، وكثرة الوشاة والمغرضين .

(وفي العزلة الأمان ببلد بستان خاصة، من داهي الكنف^(٣) الشارعة والمثاعب^(٤) السائلة . ثم إن جنائيتها عند أهلها جنائية لا أرش لها، ودماء قتلاها مطلولة، لا عقل ولا قود فيها فكما قلّ بروز الإنسان إليها، وعيوره عليها كان أوفر لمروءته، وأبقى لنظافته، وأبعد له من أذاها وغاظتها وأسلم له من دائها وعاديتها^(٥) . والعزلة وإن كان للأقدمين فيها

-
- (١) تاريخ الإسلام السياسي (٣ : ١٠٥) .
(٢) انظر فيما سبق كله : أبو الفتح البستي للدكتور مرسى الخولي (ص ١٩)
٢٦) مقتطفات .
(٣) الكنف جمع كنيف وهو بيت الخلاء .
(٤) المثاعب جمع ثعب بفتح الثاء وسكون العين هو مسيل الماء وغيره .
(٥) العزلة للخطابي (ص ٣٣) .

أخذ ورد (فالأختيار في هذا الزمان اعتزال الناس، ومفارقة عوامهم، فإن
السَّلامَةَ في مجانبتهم، والراحة في التباعُد منهم)^(١) حيث إنَّ هذا الزمان قليل
خيرِه، بكىءِ درِه، وبالله نستعيذ من شره وريبه، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ أنذَر أُمَّتَه في عِدَّةِ أخبارِ أيامِ الهِرجِ وحذَّرهم فتنه، وذكر أنَّ أُمارة
الهِرجِ أن لا يَأمنَ الرَّجُلُ جليسه، فتأملوا رحمكم اللهُ، فإن كنتم لا تأمنون
جلساءكم في هذا الزمان، ولا تسلمون من أكثر من تصحبون، فاعلموا أن
قد حلت العزلة، وطاب الهرب، وحن الفرار منهم...)^(٢)

(وفي العزلة السَّلامَةُ من المأثم في المنكر، يراه الإنسان فلا يفسيره
والأمان من غوائل أهله وعاديتهم إذا غيره، فقد أبى أكثر أهل هذا الزمان
قبول النصائح، ونصبوا العداوة لمن دعاهم إلى هدى، أو نهاهم عن
ردئ، فلولم يكن في الوحدة والتباعُد منهم إلا السَّلامَةُ من إثم المداهنَّة
وخطر المكافحة، لكان في ذلك الربح الرابع، والغنيمة الباردة...)^(٣)

ولعلَّ أهم من هذا كله أنَّ كثرة العامة توقع المرء فيما لا يد له فيه
وما أكثر هذا في ذلك الزمان وفي بست خاصَّة؟ (ولولم يربح الإنسان في
العزلة والتخلي عن النَّاسِ وعن مساوئهم والانتقاط عن محاورتهم إلا ما يكفاه
من مؤنة التحرز منهم، وما يستفيده من الأمان أن يرفعوا عليه قولا يسمعونه
يتكلم به في حال غفلة واسترسال، أو يتأولوا عليه كلاما لا تبلغ عقولهم كنهه
فيوجهوه إلى غير جهته، وينحلوه غير صفته، لكان فيه كفاية كافية، وعصمة
واقية)^(٤)

(ثم اعلم يا أخي أنَّ عامة أهل هذا الزمان قد ساءت رغبتهم
وقلت آدابهم، وغلظت محنتهم على من يعاشرهم، لأنَّ موقفه بين أن يخونهم
فيسألهم بوبين أن لا يصون نفسه فيناصحهم، وقد كانوا والنَّاسُ ناس، والزمان

(١) العزلة للخطابي (ص ٦) .

(٢) ماسبق (ص ٨) .

(٣) ماسبق (ص ١١) .

(٤) ماسبق (ص ٢٥) .

(٥) ماسبق (ص ٢٧ - ٢٨) .

زمان ، يستبشعون الحق ، ولا يستمرثون طعم النصح ، وينكرون على من يهدى إليهم عيوبهم ، ويصد قهم عن أنفسهم ، فما ظنك بهم الآن ، مع فساد هذا الزمان الكلب المنقلب ، أتراهم يذعنون للحق ، ويصفون إلى النصح ؟ كلا إنك إلى أن تفسد بهم يخضعون ، أقرب منهم إلى أن يصلحوا بك يستمعون . . فانظر رحمك الله وتأمل ، هل تجد اليوم أعوانا على المعروف ، ودعاة إلى الخير ، ونهاة عن المنكر ؟ فإن كنت لا تظفر بهم ، ولا تقدر عليهم فانج برأسك ولا تغرر بنفسك ، إن رضى الناس غاية لا تدرك ، قد أعيا الأولين داؤهم وانقطعت فيهم حيلهم ، فما حاجتك إلى عناء لاغنى له ، وتعب لا نجاح فيه وما أربك بصحبة قوم لا تستفيد بلقيهم علما ، ولا بمشهدهم جمالا ، ولا بمعونتهم مالا ؟

إذا تأملتهم حقا ، وجدتهم إخوان العلانية أعداء السريرة ، إذا لقوق تملقوك ، وإذا غبت عنهم سلقوك ، من أتاك منهم كان عليك رقبيا ، وممن خرج قام بك خطيبا ، أهل نفاق وخديعة ، وأصحاب نقل ونميمة وإخوان بهت وعظيمة ، ولا يغرنك ماترى من احتشادهم عندك ، وأزد حامهم عليك ، ولا تتوهمن بهم تعظيما لعلمك ، أو تقدما لحقك .

(إن أعظم ما يقودهم إلى مجالس العلماء - اليوم - ويحشرهم إلى أبوابهم ، الرغبة فى منال مآربهم ، وما يتخذونه سلما إلى أوطارهم ، وحمسيرا لحاجاتهم .

فهم المساكين بين شرين منهم ومن تكاليفهم . إن اسعفوهم ببعضها احتجروهم بكثرة توابعها وآذوهم ، وإن امتنعوا عليهم فيها شنعوهم وعادوهم) وليس هذا فحسب بل هم يمتنون على مشايخهم بذلك .

(ثم إنهم على ذلك يلزمونهم بدالة المعرفة أن يهدفوا لهم اغراضهم فيخاصموا عنهم من خاصمهم ، ويعادوا من عاداهم ، وينازلوا من نازلهم فيصرون من حيث يبدؤونهم فقهاء ؟ سفهاء ، ومن حيث ظنوا أنهم متبوعون رؤساء ، أتباعا أخساء .

فمن أخسر صفقة وأشد بليّة من هؤلاء معهم ؟ أليس الفرار منهم حقا واجبا ، والتخلص من بينهم غنما ؟ بلى إنّه كذلك ، ويحق ما قيل : اعْتَزَالِ

العامّة مرؤة تامّة (١) .

إنّى المح من بين كلمات أبى سليمان الخطّابى - رحمه الله - مرارة وأسى ، وحرقة ولوعة ، فالحياة فى بست لأمان فيها ، والنّاس لاذم لهم وجوؤها موبوء بالقدارة وعدم اهتمام المسئولين ، وطلبة العلم لأدب عندهم والعلماء ضعفاء مقهورون لا حيلة لهم .

وما أكثر الذين يسمعون منك الكلام فىأولونه على غير مرادك فيوقعون بك عند الأمراء ولذلك تراه يكرر من مناقب العزلة (إنّها تحسم عنك أوهام المتجنّين ، وتقطع مواد شكايات المتجّرين . . .) (٢) . ويلمّح الإمام الخطّابى إلى سوء ظن الحكام برعيّتهم ومراقبتهم لكى حركة منهم وذلك (أنّ سوء ضمائرهم يصورّ لهم ، ويوحى إلى قلوبهم ، أنّ اجتماع كل طائفة من النّاس وتناجى كل شردمة منهم ، إنّما هو فى التنفير عنهم ، والبحث عن عيوبهم أوفى تبييت رأى ، ودسيس غائلة عليهم ، ويغلب هذا الظن خصوصا على من يحس من نفسه بتهمة ، ويعرف عند النّاس بربية ، وقد وصف الله عز وجل المنافقين بذلك فقال عز وجل : (٣) يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العمد و فاحذرهم ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون) (٤) .

وهو يشنّع على أعوان السّلاطين الذين لا يتورعون عن رمى النّاس بالباطل ، ويحذر من صحبة السّطان لأنّ صحبته فتنة للإنسان عن دينه إذ (من الذى يدخل إليهم اليوم فلا يصدقهم على كذبهم ؟ ومن الذى يتكلم بالعدل إذا شهد مجالسهم ؟ ومن الذى ينصح ؟ ومن الذى ينتصح منهم إنّ الأسلم لك يا أخى والأحوط لديك أن تقلّ مخالطتهم وغشيان أبوابهم ونسأل الله الغنى عنهم ، والتوفيق لهم) (٥) . هـ

(١) العزلة (ص ٢٩ - ٣٠) .

(٢) العزلة (ص ٣٠) .

(٣) المنافقون : ٤

(٤) العزلة (ص ٣٠) .

(٥) العزلة (ص ٨٦) .

ثم يوجّه الإمام الخطّابي نصيحة ملؤها الأسى والحزن ، والشعور
بالضعف فى ذلك العصر الذى كثر فيه الشر، وقلّ فيه الخير، فيقول :
(سأفيدك فائدة يا أخى ، يجلُّ نفعها ، وتعظم عائدتها ، وما أقولها
لك إلا عن ودِّ لك ، وشفقة عليك ، فإنَّ البلوى فى معاشرة أهل زمانك عظيمة
فاستعن بها على ما يلقاك من أذاهم ، فإنَّك لا تخلو من قليله ، وإن سلمت من
كثيره . وذلك أنك قد ترى الواحد بعد الواحد منهم ، يتكالب على الناس
ويتسفه على أعراضهم ، وينبج فيها نباح الكلب ، فيهمك من شأنه ما يهمك
ويسوءك منه ما يسوءك أن لا يكون رجلا فاضلا يرجى خيره ، ويعوم شره ، فيطول
فى أمره فكرك ، ويدوم به شغل قلبك ، فأزح هذا العارض عن نفسك بأن تعده
على الحقيقة كلبا خلقه ، وزد به فى عدد الكلاب واحدا ، ولعلك قد مسررت
مرة من الممار بـكلب من الكلاب ينبج ويعوى وربما كان أيضا يساور^(١) ، ويعقر ، فلم
تحدّث نفسك فى أمره بان يعود إنسانا ينطق ويسبّح . فلا تتأسف لــــه
ألا يكون دابة تركب ، أو شاة تحلب .
فاجعل - أيضا - هذا المتكلب كلبا مثله واسترح من شغلــــه
واربح مؤونة الفكر فيه وكذلك فليكن منزلة من جهل حقك ، وكفر معروفك فاحسبه
حمارا ، أو زد به فى عدد العانة^(٢) واحدا . . .)^(٣) .
أوليس فى هذه الكلمات الفظيعة المفجعة أكد الدلالة على
أنَّ الحياة الاجتماعية فى بست بلغت حدا من التردى يؤسف له ؟

-
- (١) المساورة : المواثبة والمهاجمة .
(٢) العانة : القطيع من حمر الوحش .
(٣) العزلة (ص ٥٣) .

المبحث الرابع : الحياة العلمية في مدينة بست

ذكرت سابقاً أنَّ القرن الرابع الهجري كان أزهى عصور الثقافة الإسلامية على الإطلاق .

ولقد كانت النهضة العلمية عميقة وشاملة ، فلم تقتصر على عواصم الدول الإسلامية وحواضرها المتعددة ، التي كانت تزخر بالعديد من العلماء الأعلام ، بل وصلت كذلك إلى الإمارات البعيدة ، والولايات الصغيرة فمدينة بست . . . كان فيها في ذلك العصر عدد من العلماء الذين لم تجد بمثلهم هذه المدينة من قبل ولا جادت بهم من بعد .

فمن شيوخ ابن حبان - رحمه الله - تجد إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي ، وإبراهيم بن إسماعيل أبو محمد القاضي ، ومحمد بن عبد الله بن الجنيد ، وهؤلاء روى عنهم في كتبه العديدة كما أنَّ من تلامذته أبو سليمان حمد بن سليمان الخطابي البستي ، وأبو الفتح البستي الشاعر الذي تخرَّج باهين حبان وأكثر عنه .

كما كان هناك الإمام محمد بن حامد البستي الفقيه الكبير والمحدث الثبت ، ويعد هؤلاء القاضى أبو بكر بن محمد البستي الذى تولى قضاء نيسابور ، وكان يسمى الكامل لعلمه وعقله .

ومن أخرجتهم بست من العلماء محمد بن حبان أبو جعفر البستي وأحمد بن عبد الله بن سهل البستي ، وإسماعيل بن على الزيدى البستي وعبد العزيز بن إبراهيم النحوى البستي ، ومحمد بن إبراهيم أبو الطيب البستي ، وناصر بن أحمد البستي الكيلانى ، ومحمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله البستي الصوفى ، والنضر بن محمد البستي .

وأعظم هؤلاء جميعاً وأشهرهم إمام عصره بلامدافع محمد بن حبان البستي صاحب ترجمتنا .

وقد حدثنا الإمام الخطابي عن وجود القراء ووصفهم لنا ، وبين ما ينبغي عليهم من الخصال ، كما ذكر وجود طوائف من أهل الزهد والتصوف

وأنهم جهال لا يتعلمون^(١)، وذكر أن هناك طلبة علم إنما يتعلمون ليتوصلوا
بعلومهم لزخرف الدنيا^(٢)، كما أنه أشار إلى وجود طلبة علم مخلصين واحد هم
الذي أُلِّف له كتاب العزلة هذا .

ولا يخفى أن نشاط البيئة العلمية يجعل علماء العصر يجوبون في
الأرض فيفيدون ويستفيدون في رحلاتهم تلك، فإلى جانب علماء بست أنفسهم
فقد كان يتوارد على بست علماء من أقطار شتى، خاصة في الفترات التي
كان لبست حظوة سياسية .

(١) العزلة (ص ٨٤) .

(٢) سبق ذكر ذلك في وصف الحالة الاجتماعية في بست .

الباب الثاني

حياة الإمام ابن حبان

الباب الثاني

حياة الإمام ابن حبان

الفصل الأول : ترجمة الإمام ابن حبان .

- (١) المبحث الأول : مصادر ترجمة ابن حبان .
- (٢) المبحث الثاني : اسم ابن حبان وكنيته ونسبه .
- (٣) المبحث الثالث : ميلاده ووفاته .
- (٤) المبحث الرابع : أسرة ابن حبان وأصله .

الفصل الثاني : رحلات ابن حبان العلمية .

- (١) المبحث الأول : أهمية الرحلة في حياة المحدث .
- (٢) المبحث الثاني : تاريخ رحلات ابن حبان .
- (٣) المبحث الثالث : أماكن رحلات ابن حبان .

الفصل الثالث : شيخ ابن حبان وتلامذته .

- (١) المبحث الأول : أشهر من روى عنهم في كتبه .
- (٢) المبحث الثاني : شيخ ابن حبان الكبار .
- (٣) المبحث الثالث : تلامذة ابن حبان .

الفصل الرابع : فقه الإمام ابن حبان .

تمهيد

- (١) المبحث الأول : مذهب ابن حبان الفقهي .
- (٢) المبحث الثاني : اصول الاستدلال عند ابن حبان .
- (٣) المبحث الثالث : نماذج من فقه ابن حبان .

الفصل الخامس : عقيدة الإمام ابن حبان .

تمهيد

- (١) المبحث الأول : مذهبه في الإيمان .
- (٢) المبحث الثاني : مذهبه في القرآن .
- (٣) المبحث الثالث : مذهبه في رؤية الله في الآخرة .
- (٤) المبحث الرابع : مذهبه في الصفات .

الفصل السادس : أخلاق ابن حبان ومكانته العلمية .

تمهيد

- (١) المبحث الأول : ابن حبان العاقل .
- (٢) المبحث الثاني : وفاء ابن حبان .
- (٣) المبحث الثالث : سخاء ابن حبان وكرمه .
- (٤) المبحث الرابع : زهد ابن حبان وتقواه .
- (٥) المبحث الخامس : مكانته بين العلماء .

الفصل السابع : الاتهامات العقديّة والسلوكيّة التي وجهت إلى ابن حبان .

تمهيد

- (١) المبحث الأول : حول اكتساب النبوة .
- (٢) المبحث الثاني : إنكار الحدّ لله تعالى .
- (٣) المبحث الثالث : تهمة مؤازرة القرامطة .
- (٤) المبحث الرابع : تهمة الكذب .
- (٥) المبحث الخامس : تهمة سرقة الحديث .
- (٦) المبحث السادس : تهمة العجب والغرور .

الفصل الثامن : موقف ابن حبان من أبي حنيفة وأهل الرأي .

تمهيد

- (١) المبحث الأول : أسباب جرح أبي حنيفة عند ابن حبان .
- (٢) المبحث الثاني : الاتهامات العقديّة .
- (٣) المبحث الثالث : مكانة أبي حنيفة في علم الحديث .

الفصل الأول

ترجمة الإمام ابن حبان ~~~~~

تمهيد :

إنَّ الإمام ابن حَبَّانَ شخصيَّةٌ علميَّةٌ متعدِّدة الجوانب ، جمع بين علوم الشريعة من حديث وعلومه وفقه وأصوله ، وتفسير وعلوم القرآن ، ولغة ونحو وأدب ، وتربية وزهد ، وفلسفة ورياضيات ، وطب وهندسة وفلك .
وشخصيَّةٌ هذا شأنها حرىَّ أن تكون مترجمة في مصادر متنوعــــــــــــــــة متعدِّدة ، منها ما وصلنا ومنها ما لم يصل ، وما وصل قسم أطلعنا عليه وقسم لم يتيسر لنا الاطلاع عليه ، وقسم آخر لم يصل إلى علمي عنه شيء .
نظرا لهذا فإنني سأتناول ترجمة الإمام ابن حَبَّانَ في مباحث عدة .

المبحث الأول : مصادر ترجمة ابن حبان

ليس بين أيدينا كتاب تراجم من القرن الرابع الهجري - فيما أعلم - ذكر ابن حبان في كتابه ، ولعل ذلك يعود إلى أن العلماء المعاصرين قلما يذكرون معاصريهم في كتبهم ، إما لأن المعاصرة حجاب ، أو لمخالفتهم إياهم في الاتجاه ، أو نفاسة ، أو لأن العلماء كانوا يترجمون طبقة مشايخهم فأعلى . كتب مسلمة بن قاسم (٣٥٣ هـ) كتاب " الصلة " وهو ذيل على التاريخ الكبير للبخاري - كما يرى ابن حجر العسقلاني ، أو هو ذيل على كتاب الزاهر للمصنف نفسه .

وألف الإمام أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد الربيعي (٣٧٩) كتابه (تاريخ مولد العلماء ووفياتهم)^(١) وأغل فيه ذكر ابن حبان ، مع أنه ذكر في وفيات سنة (٣٥٤ هـ) وما بعدها من لا يكاد يعرف . وكذلك الإمام أبو الحسن الدارقطني (٣٨٥ هـ) فإنه ذيل على المحمدين خاصة من تاريخ البخاري .

وأبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين الواعظ (٣٨٥ هـ) كتب كتابه التاريخ ، قال عنه الذهبي : انه يقع في مائة وخمسين جزءاً^(٢) ، كما ألف كتابه الثقات .

أما الكتب الثلاثة الأولى فلا أعرف عنها شيئاً ، ولم ينقل عن أصحابها شيء في ابن حبان - فيما أعلم - من مدح أو قدح . أما ثقات ابن شاهين ، فليس لابن حبان ذكر فيه . وقد ذكرنا عن الربيعي ما عنده .

(١) حقق الكتاب كرسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية الطالب عبد الله ابن أحمد الحمد .

(٢) ذكر المؤلف ترجمة علي بن يعقوب الهمداني ، وأحمد بن إبراهيم الحداد في وفيات (٣٥٤ هـ) وذكر في السنة التي تليها أبا إسحاق بن شعبان ، وأبو الفضل الصيرفي . قال محقق الكتاب : لم أجد لهما ترجمة .

(٣) بحوث في تاريخ السنة المشرفة للدكتور أكرم ضياء العمري (ص ١٠٥) .

وإذا تركنا القرن الرابع الهجرى ، فإننا نجد عددا من المصنفات فى الرجال .

وأقدم هذه المصنفات " تاريخ سمرقند " للحافظ أبى سعيد الإدريسي (٤٠٥هـ) وتاريخ نيسابور للحافظ أبى عبد الله بن البيع (٤٠٥هـ) المشهور بالحاكم النيسابورى وتاريخ بخارى للحافظ محمد بن أحمد البخارى المعروف بفنجانارو (٤١٢هـ) تلميذ ابن حبان . وهؤلاء الأئمة الثلاثة تناولوا الإمام ابن حبان وترجموه بتراجم مستفيضة ، وخصوصا تلميذه الحاكم النيسابورى ، وهذه الكتب الثلاثة مفقودة ، ولم يصل إلّا مختصر تاريخ نيسابور (١) ثم جاء بعد هؤلاء الحافظ حمزة بن يوسف السهمى (٤٢٧هـ) وكتب " تاريخ جرجان " وأخذ على نفسه أن يذكر فى كتابه " العلماء والفقهاء " والرواة والمفسرين ممن دخل جرجان وحدث بها ، ومات بها أو من أهل جرجان ، وانتقل منها إلى بلد آخر (٢) .

فلا أدري هل يريد كل من دخل جرجان من العلماء ، أو حدث بها أو مات بها ، أم يريد اجتماع هذه الأوصاف فى الراوى حتى يترجمه فى تاريخه ؟

ظاهر صنيعه فى التاريخ يدل على أن مراده مجرد دخول جرجان والتحدث بها دون اشتراط الوفاة فيها .

فقد ترجم لأبى الحسن على بن الحسين بن عبد الرحيم النيسابورى وقال : أُملى بـجرجان ، مات بنيسابور ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين (٣) .

وترجم لأبى الحسن على بن محمد بن يحيى الخالدى المروزي وقال روى بـجرجان عن أبى حاتم الرازى ، حدثنا عنه أبو بكر الإسماعيلى (٤) .

وابن حبان دخل جرجان ، وسمع من كبار شيوخها - كما سيأتى - ومعلوم أن المسحذّ يسمع ويحدث بما عنده ، ورحلة ابن حبان إلى جرجان

-
- (١) هو مختصر كتبه صاحبه باللغة الفارسية ، وليس فيه سوى ذكر أسماء المترجمين فى الكتاب .
(٢) تاريخ جرجان (ص ٥٨) .
(٣) تاريخ جرجان (رقم ٥٠٩) .
(٤) ماسبق رقم (٥١٦) وأنظر (٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠) وغيرها .

لم تكن قبل سنة ثلاثمائة، وهذا يعنى أنه كان فى سنّ توّهله للإمام — فلا أدرى سبب إهمال السّهمى لترجمته . وعصرى السّهمى الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني لم يذكر فى كتابه " ذكر أخبار أصبهان " الإمام ابن حبان ، رغم أنّه على شرطه^(١) ، ويعتبر من طبقة شيوخه الكبار .

وكتب الحافظ أبو يعلى الخليلي بن عبد الله الخليلي القزويني (٤٤٦ هـ) كتاب " الإرشاد فى معرفة علماء الحديث " . ولا نعرف عن هذا الكتاب شيئاً .

والذى وصلنا منه عشرة أجزاء من انتخاب الحافظ السّلفي^(٢) (٥٧٦ هـ) . ولم يترجم الحافظ السّلفي فيما انتخبه للإمام ابن حبان ، كما لم ينقل أيّاً من أقواله فى الجرح والتعديل ، كما أنّه حين ترجم لعدد من شيوخ ابن حبان كان يذكر فى تلامذتهم من هم دون ابن حبان علماً وشهرة ، ويهمّل ذكره ، وكذلك فعل حين ترجم لبعض تلامذة ابن حبان^(٣) ، فذكر لهم شيوخاً فوقهم ابن حبان علماً وقدروا وعلوا .

فلا أدرى هل هذا الإعراض من الخليلي نفسه ، أم من تصرف السّلفي ؟ رحمهما الله تعالى .

وجاء الخطيب أحمد بن على بن ثابت (٤٦٣ هـ) فصنّف عدداً من المصنّفات فى التّاريخ والرجال وعلم الحديث ، فأغفل أقوال ابن حبان فى تاريخ بغداد ، وعذره فى ذلك أنّه لم يقف على شيء^(٤) من كتبه ، على أنّي لأجد له ترجمة فى المطبوع من تاريخ بغداد ، وابن حبان على شرطه^(٥)

-
- (١) انظر ذكر أخبار أصبهان (ص ١) .
 (٢) ويسمى أيضاً (الإرشاد فى معرفة علماء البلاد) وهو من المصنّادر السّامية لتراجم علماء القرن الرابع وأوائل القرن الخامس منه نسخة مصورة فى المكتبة المركزية لجامعة أم القرى فى مكة المكرمة .
 (٣) انظر على سبيل المثال تراجم : إبراهيم بن إسحاق السّراج الثّقفى فى الإرشاد (ق ١٦٨) ، والفضل بن الحباب الجمحي (ق ٨٣) ومحمد ابن إسحاق بن خزيمة (ق ١٦٨) وهؤلاء من شيوخ ابن حبان . وترجمة الحاكم أبى عبد الله النيسابوري من تلامذته (ق ١٧٤) .
 (٤) نص على ذلك فى الجامع لأخلاق الراوى وآداب السّامع (٢ : ٣٦١) .
 (٥) لأن شرطه أن يذكر (خبر بنائها ، وذكر كبار نزالها ، وذكر وارد يهها وتسمية علمائها) تاريخ بغداد (١ : ٣) .

والواجب أن يترجم له .

وأغلب الظن أن ترجمة ابن حبان سقطت من تاريخ بغداد ، كما سقطت كثير من التراجم غيرها ومما يؤكد هذا الظن أن أبا نعيم الأصبهاني شيخ الخطيب ، ليس له في تاريخ بغداد ترجمة ^(١) . غير أن الخطيب قد احتفظ لنا بثبت نادر اختاره من مصنفاته ابن حبان في كتابه الجامع ^(٢) .

وبعد هؤلاء ترجم الحافظ علي بن هبة الله المشهور بالأمرابيين ماكولا (بين ٤٧٥-٤٨٧هـ) فترجم ^(٣) لابن حبان ترجمة بليغة وجيزة .

فأنت ترى أن الذين ترجموا لابن حبان في القرن الخامس هـ الإدريسي والحاكم وغانجار والخطيب وابن ماكولا وكل من جاء بعد هؤلاء فقد اعتمد على أقوالهم ، وإن كان ثمة إضافات جديدة عند بعضهم ، تتعلق بمناقشة ما اعترض به علي ابن حبان ، أو توجيه بعض النقد إليه .

فإذا انتقلنا إلى القرن السادس نجد ممن ترجم لابن حبان الإمام أبو سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني ^(٤) (٥٦٢هـ) وأسهب الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر ^(٥) (٥٧١هـ) فجمع خلاصة أقوال من سبقه ، واحتفظ لنا بها .

أما الحافظ أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي (٥٩٧هـ) فقد أغفل ترجمته في "المنتظم" و"طبقات كبار الحافظ" ^(٦) ولا أدري سبب هذا الإغفال

(١) ذكر الدكتور العمري في كتاب موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (ص ٤٩٨) أن الخطيب قد ساق من طريق أبي نعيم ٧٤٢ نصا إلا أنه لم يشر عما إذا كان وقف على ترجمة لأبي نعيم من خلال ما عثر عليه من مخطوطات تاريخ بغداد .

(٢) الجامع للخطيب (٢: ٣٦١-٣٦٣) ومما يرجح سقوط ترجمة ابن حبان من تاريخ بغداد ما قاله ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠: ٥٠٣) أنبأنا أبو القاسم علي بن إبراهيم ، أنبأ أبو بكر الخطيب ، قال محمد بن حبان ابن أحمد ، أبو حاتم البستي ، نزيل سجستان ، ولي القضاء بسمرقند وكان قد سافر الكثير وسمع ، وصنف كتبا واسعة ، وكان ثقة ثبتا فاضلا فهما " فهذا النص من طراز تراجم الخطيب في تاريخه . والله أعلم .

(٣) الأكمال لابن ماكولا (١: ٤٣٢) .

(٤) في كتاب الأنساب (٢: ٢٢٥) .

(٥) تاريخ مدينة دمشق (١٠: ١٠٠ ق: ٥٠١-٥٠٢) .

(٦) منه نسخة مصورة في الجامعة الإسلامية برقم (١٧٠٨) .

مع أن ابن الجوزي يعتمد اعتماد اكبر على كتب ابن حبان حتى في المنتظم نفسه ، بل إن ابن الجوزي قد ترجم للمتنبي^(١) ترجمة طويلة . فلست أدري ، أسقطت هذه الترجمة مع ماضع من المنتظم ، أم أسقطت عمدا من بعض الذين تناولوا كتبه من بعده ، أم أغفلها هو على عادته في إغفال بعض الأحداث الهامة التي ليست في صالح الحنابلة^(٢) ؟

وإذا خطونا خطوة أخرى فوصلنا إلى القرن السابع رأينا الإمام أبان القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني (٦٢٣هـ) قد أعرض عن ذكر ابن حبان في كتابه "التدوين في أخبار قزوين"^(٣) مع أنه على شرطه في كتابه .

وأما ياقوت الحموي (٦٢٦هـ) فقد أفرد لابن حبان ترجمة^(٤) لانظير لها فيما بين أيدينا من كتب التراجم مطبوعها ، وما أطلعت عليه من مخطوطها . وبعدهما الإمام علي بن محمد بن عبد الكريم المعروف بعز الدين ابن الجزري (٦٣٠هـ) فذكر له ترجمة وجيزة^(٥) في تاريخه ، كما ترجم له في (اللباب في تهذيب الأنساب)^(٦) .

وجاء ابن الصلاح (٦٤٣هـ) فترجم له في "طبقات الشافعية"^(٧) ووجهه اليه عدة انتقادات وذكره علي بن يوسف القفطي (٦٤٦هـ) في كتابه "إنباه الرواة على طبقات النحاة"^(٨) .

أما سبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ) صاحب مرآة الزمان فإنه لم يترجمه في كتابه ، فهل لهذا علاقة بالمنتظم^(٩) ؟

-
- (١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (٧: ٢٤-٣٠) .
 - (٢) كما أغفل ذكر حوادث سنتي (٣١٧، ٣٢٣) لأنهما من صنع الحنابلة انظر المنتظم (٦: ٢٢١-٢٢٥، ٢٢٥، ٢٧٥-٢٧٧) .
 - (٣) منه نسخة ميكروفيلم في المكتبة المركزية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .
 - (٤) معجم البلدان (١: ٤١٤) فما بعد .
 - (٥) الكامل في التاريخ (٧: ١٦) .
 - (٦) اللباب (١: ١٥١) .
 - (٧) طبقات الشافعية لابن الصلاح (ق ٥) .
 - (٨) إنباه الرواة (٣: ١٢٢) .
 - (٩) حيث إن منتظم ابن الجوزي لم يترجم لابن حبان ، وابن الجوزي حنبلي والسبب هذا حنفي متعصب .

والإمام النُّووي (٦٧٦هـ) ترجم له ترجمة جيدة في طبقات الشافعية^(١) وقال "ربما أخطأ الخطأ الفاحش فيما رأيته له".
أما المؤرخ أحمد بن محمد بن خلّكان (٦٨١هـ) فرغم أنّه نقل بعض أقوال^(٢) ابن حبان، إلا أنّه لم يترجم له في كتابه وفيات الأعيان. ولم أتبين سبب ذلك.

وممن ترجم له من علماء القرن الثامن فأتنب الإمام الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي (٧٤٨هـ) فترجم له في عدد من مصنّفاته^(٣) وأسهب في ترجمته في كتابيه سير أعلام النبلاء^(٤)، وميزان الاعتدال^(٥)، وتذكرة الحفاظ.

كما ترجم له ابن شاكر الكتبي (٧٦٤هـ) في عيون التواريخ^(٦)، وترجم له صلاح بن ايّك الصّفيدي (٧٦٤هـ) وترجم له اليافعي^(٨) (٧٦٨هـ)، وأتنب في ترجمته ابن السبكي (٧٧١) في طبقاته^(٩).
وقد ترجم له الإسنوي (٧٧٢هـ) والعماد ابن كثير (٧٧٤هـ) في طبقاته وتاريخه^(١١)^(١٢).

-
- (١) طبقات الشافعية للنووي (ق ٢٠-٢٣) منه نسخة مصورة في مكتبة مركز البحث الطمي بجامعة أم القرى.
- (٢) انظر وفيات الأعيان (٤: ٣٥٢)، (٥: ٢٠٩، ٢٥٧).
- (٣) في تذكرة الحفاظ (٢: ٩٢٠)، العبر في أخبار من غير (٢: ٣٠٠)، مناقب الشافعي وطبقات أصحابه (ص ٧٨)، مختصر دول الإسلام (١: ١٧٢).
- (٤) سير أعلام النبلاء (١٦: ٩٢-١٠٤).
- (٥) ميزان الاعتدال (٣: ٥٠٦) فما بعد.
- (٦) مصورة مكروفيلم في مكتبة مركز البحث العلمي في جامعة أم القرى حوادث (٣٥٤).
- (٧) الوافي في الوفيات (٢: ٣١٧).
- (٨) مرآة الجنان لليافعي (٢: ٣٥٧).
- (٩) طبقات الشافعية الكبرى (٢: ١٤١)، وانظر (١: ١٨٨).
- (١٠) طبقات الشافعية لعبد الرحيم بن الحسن الإسنوي (١: ٤١٨) فما بعد.
- (١١) طبقات الشافعية لابن كثير (ق ٨٢-٨٣) مصورة مكروفيلم في جامعة أم القرى - مركز البحث العلمي.
- (١٢) البداية والنهاية له (١١: ٢٥٩).

وممن ترجمه من أعلام القرن التاسع ابن قاضي شهبة (٨٥١هـ) فسى طبقات الشافعية والحافظ ابن حجر فى لسان الميزان، ودافع عنه، والبدر العيني (٨٥٥هـ) فى تاريخه^(٣) وابن تغرى بردى (٨٧٤هـ) فى النجوم الزاهرة^(٤).

ومن أعيان علماء القرن العاشر وقفت على ثلاثة ممن ترجموا لابن حبان رحمه الله فابن عبد الهادى (٩٠٩هـ) قد ترجم له بإيجاز، ثم ترجم لــــه السيوطى فى طبقات الحفاظ^(٦) باختصار أيضا، وترجم له بعدهما أحمد بن مصطفى المعروف بطلس كبرى زادة^(٧) (٩٦٧هـ) وذكر بعض مصنّفاته.

ووقفت على ترجمة وجيزة لابن حبان فى القرن الحادى عشر، لابن العماد الحنبلى^(٨) (١٠٨٩هـ).

ووقفت على عدة تراجم لكتاب معاصرين : إحداهما للأستاذ خيرالدين الزركلى^(٩)، والأخرى للأستاذ عمر رضا كحّالة^(١٠)، والثالثة للأستاذ محمد كسردي على^(١١)، والرابعة للدكتور أحمد عيسى بك^(١٢).

-
- (١) طبقات الشافعية (ق ٣١ أ) مصورة مكروفيلم فى مركز البحث العلمى .
 - (٢) لسان الميزان لابن حجر (٥ : ١١٢) فما بعد .
 - (٣) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان حوادث (٣٥٤) نسخة مصورة محفوظة فى دار الكتب المصرية رقم (١٥٨٤) تاريخ .
 - (٤) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (٣ : ٣٤٢) .
 - (٥) مصورة مكروفيلم بعنوان كتاب فى التراجم لابن عبد الهادى محفوظة فى مكتبة مركز البحث العلمى (ق ٣٤ أ) . ومن الجدير بالذكر أن لابن عبد الهادى كتابين فى التراجم أحدهما بعنوان تذكرة الحفاظ وتبصرة الايقاظ والثانى بعنوان معجم الشافعية . وكلاهما من مخطوطات دار الكتب الظاهرية رقم (٤٥٤٣، ٤٥٥١) .
 - (٦) طبقات الحفاظ (ص ٣٧٤) فما بعد .
 - (٧) مفتاح السعادة (٢ : ١٤٤، ٥٥٦) .
 - (٨) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (٣ : ١٦) .
 - (٩) الأعلام (٦ : ٣٠٦ - ٣٠٧) .
 - (١٠) معجم المؤلفين (٩ : ١٧٣) .
 - (١١) كنوز الأجداد (ص ١٥٤ - ١٥٨) وذكر لطائف فى ترجمته .
 - (١٢) معجم الأطباء (ص ٨٤) ، إلا أنه كناه أبا حامد ، فهو إما سهومنه ، أو خطأ من الطابع أو عدم تمكنه من قراءة المخطوطة كما ينبغى ، لأنه ذكر مصدرا واحدا مخطوطا لترجمته ابن حبان هو تاريخ البدر العيني .

ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي ، نجد ابن حبان من أعلام
الإسلام البارزين ، ومن كان له أثر في الحياة العلمية والفكرية في عصره
ولولا ذلك لما ترجم له المعنيون بتراجم المحدثين والفقهاء واللغويين
والمؤرخين والأطباء .

المبحث الثاني : اسم ابن حبان وكنيته ونسبه
متممة

لما كانت المصادر الأصلية^(١) التي ترجمت لابن حبان مفقودة ، فإنه يتعين ان نستقى معلوماتنا من المصادر التي نقلت عن هذه الكتب واحتفظن لنا ببعض نصوصها .

ولقد رأيت الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق قد ساق نسب ابن حبان بإسناده إلى الحافظ الإدريسي في تاريخه . لذلك فإنني سأعتمد على كتاب الحافظ ابن عساكر في سياق نسبه .

ومما يحسن التذكير به أنه لم يختلف في أن اسم مترجمنا محمد ، وأن أباه "حبان" بن أحمد ابن حبان ، وأن كنيته أبو حاتم .

(١) أسند الحافظ ابن عساكر إلى الحافظ أبي سعيد الإدريسي أنه نسب أبا حاتم بن حبان فقال : "محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مرة بن هدية بن سعد بن يزيد بن مرة بن زيد بن عبد الله ابن دارم بن مالك بن حنظله بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن اد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان التميمي أبو حاتم البستي" قال الإدريسي : حدثني بنسبه النضر بن محمد الخياط البستي ببست .

(٢) وقال ابن عساكر : " ذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد البخاري المعروف بغنجان نسبه فقال : "محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد التميمي ووافقه غيره على نسبه إلى معبد ، ثم قال : بن هديه بن مرة بن سعيد بن يزيد بن عبد الله ابن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن اد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان " .

ولاريب أن ابن عساكر قد رجح رواية غنجان بدليل أنه صدر بها ترجمة ابن حبان قبل أن يذكرها عنه أحمد . ثم ذكر بإسناده إلى الإدريسي

(١) عنيت بها تاريخ سمرقند ، وتاريخ بخارى وتاريخ نيسابور وتاريخ بغداد لقرب عهد مؤلفيها من الإمام ابن حبان ، بل إن الحاكم تلميذه والإدريسي قرين تلميذه .

الرواية الأخرى ، ونقل عن الإدريسي أنّ الذي حدثه بها رجل بستى فسـى
بست .

ولمّا لم يكن بين أيدينا مرجح فإنّنا نترك الأمر كما هو لنتناقض الحافظ
ابن عساكر فيما اختاره فقد ذكر ابن حزم في جمهرته نسب عبدالله بن دارم ،
كما ذكر ذريته ، فلم يذكر له ولدا يسمى يزيد ، وإنّما ذكر من أولاده زيـدا
فقال :

زيد بن عبدالله بن دارم ^(٢) بن مالك ^(٣) بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة
ابن تميم ^(٥) بن مرين ابن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن
عدنان .

فالاختلاف في نسب ابن حبان وقع فيمن دون عبدالله بن دارم ، بينما
اتفقوا على نسب عبدالله بن دارم إلى عدنان . وصورة الخلاف :

(١) أنّ الإدريسي يجعل معاذ ابن مرة بن هدية ، بينما هو عند غنجار
معاذ بن معبد بن سعيد بن شهيد بن هدية . فيزيد غنجار ثلاثة
جدود في النسب هم معبد وسعيد وشهيد .

(٢) والإدريسي يجعل هدية بن سعد بن يزيد بن مرة بن زيد بن
عبدالله بن دارم ، بينما يجعله غنجار هدية بن مرة بن سعيد بن
يزيد بن مرة بن يزيد بن عبدالله بن دارم .
فزاد غنجار مرة الأول ، وجعل سعيدا بدل زيد ، وجعل يزيد بدل
زيد .

وبعد تتبع جمهرة ^(٦) ابن حزم وجدت عبدالله بن دارم ولد زيـدا
وأمية ، ومعاوية ، وقتة ، ووهبا ، وعيدا بنى عبدالله بن دارم ، ولم يكن لعبدالله
ابن دارم ولد يسمى يزيد ، فيرجح أنّ ابن حبان من ذرية زيد بن عبدالله
ابن دارم .

-
- (١) جمهرة أنساب العرب (ص ٢٣) .
(٢) ماسبق (ص ٢٣١) .
(٣) ماسبق (ص ٢٢٩) .
(٤) ماسبق (ص ٢٢٨) .
(٥) ماسبق (ص ٢٢٢) وانظر بقية النسب في الصفحات (٢٠٧ ، ٢٠٦ ،
١٩٨ ، ١٠٠) مرتبة .
(٦) جمهرة أنساب العرب (ص ٢٣١) .

(١) ووجدت زيد بن عبدالله بن دارم قد ولد :عدس، وحق ، و حارثة
وجناب، وعبدالله، ومالك، ومرة، فصح أن مرة ابن زيد بن عبدالله، وليس
ابن يزيد . واحتمل أن يكون زيد قد تصحّف إلى يزيد .
ورغم هذا كله فقد بقيت شغرات عديدة تحتاج إلى ملء، غسير أن
فقدان المصادر القريبة سبب ذلك . وتبقى الرواية التي اختارها ابن
عساكر هي الأرجح في نظري، لأن الحافظ ابن عساكر قد ارتضاها، وصدّر
ترجمة ابن حبان بها . ثم نقلها عن غنjar مرة ثانية .
وغنjar تلميذ ابن حبان، فكان ابن عساكر ارتضى روايته له—ذا
المعنى .

-
- (١) جمهرة أنساب العرب (ص ٢٣٢) .
(٢) لقد جهدت وأنا أدرس كتب ابن حبان، أن أجد ترجمة لأجد أجداده
ولكن دون جدوى .

المبحث الثالث : ميلاده ووفاته
~~~~~

تجمع المصادر التي وقفت عليها على أن وفاة ابن حبان كانت في شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، لأعلم في ذلك خلافا بينهم .  
فقد أسند الحافظ ابن عساكر إلى محمد بن أبي بكر الحافظ ببخارى قال : مات أبو حاتم بن حبان بسجستان في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة .  
كما أسند إلى الفقيه أحمد بن محمد بن علي الطيبي قوله : " توفي الشيخ أبو حاتم بن حبان ليلة الجمعة لثمان بقين من شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة "بست" .

وأسند إلى الحاكم النيسابوري - تلميذ ابن حبان - نحو ذلك، وزاد :  
" ودفن بقرب داره التي تلى - اليوم - مدرسته لأصحابه ، ومسكن الغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقه منهم ، ولهم جرايات يستنفقونها " ولا ريب أن الحاكم من أدرى الناس بأحوال شيخه .  
أما ما قاله غنجار ، من أنه توفي بسجستان ، فليس من وجهة نظري معارضا لما سبق ، إذ يمكن أن يقال : إن الذي قال : توفي بسجستان عنى الإقليم ، و"بست" مدينة فيه . وقول من قال : بأنه توفي في سجستان (المدينة) ثم نقل إلى بست ودفن فيها ، بعيد لسببين :

( ١ ) الأول أن عامة المصادر تقول بأنه رجع في أواخر أيامه إلى بلده "بست" واليه صارت الرحلة ، لقراءة مصنفاة وكتبه ، وكانت عودته فسى حد ود سنة ( . ٣٤٤ هـ ) . ولم تذكر المصادر أنه غادر "بست" وإنما ذكرت أن الرحلة كانت إليه في بلاد خراسان .  
( ٢ ) والثاني أن ابن حبان خرج طريدا من سجستان ، لأنه أنكر الحد لله تعالى .

وكان علماء سجستان الذين كانوا يتكرون أى تأويل للصفات ، أجمعوا أمرهم وكتبوا فيه كتابا إلى الخليفة ، شهدوا فيه على زندقته ، فكتب الخليفة بقتله ، فمات ابن حبان قبل وصول الكتاب - كما قال ابن شاکر الكتبي - .  
قال ياقوت بعد أن نقل كلام الحاكم عن وفاة ابن حبان : " وقبره

بيست معروف يزار إلى الآن ، فإن لم يكن نقل من سجستان بعد وفاته وإلا فالصواب أنه مات ببست .

وقال في مرآة الجنان : " ولى قضاء سمرقند ، ثم قضاء نسا ، وغاب دهرا عن وطنه ، ثم رد إلى بست وتوفى بها " رحمه الله تعالى .

وأما عن مكان ولادته ، فالمصادر تجمع على أنه يستى المولد والنشأة إلا أن كتب التاريخ والتراجم كلها تسكت عن تعيين سنة ولادته .<sup>(١)</sup>

وكى الذى رأيت من تحديد يشبه قول الذهبى :<sup>(٢)</sup> " مات أبو حاتم بن حبان فى شوال سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهو فى عشر الثمانين " وقوله الآخر<sup>(٣)</sup> وهو يتحدث عن توفى فى هذه السنة " وفيها مات عالم وقته أبو حاتم مسعود بن حبان التميمى البستى الحافظ ، صاحب التصانيف ، وقد قارب الثمانين " .

وقوله الثالث " ولد سنة بضع وسبعين "<sup>(٤)</sup> . فإذا كان قد قارب الثمانين سنة ٣٥٤ هـ فهو قد ولد بين سنة ٢٧٥ - ٢٧٩ ، لأن من قارب الثمانين لا بد أن يكون قد زاد على الخامسة والسبعين ، وآخر هذه الزيادة أن تكون ولادته سنة ٢٧٥ ، وأول هذه الزيادة أن تكون دون الثمانين .

وكنى قد استشرفت أن تكون ولادة ابن حبان سنة سبع وسبعين ، فى السنة التى توفى بها أبو حاتم الرازى ، تيمنا وتفاؤلا بأن يكون أبو حاتم البستى حل محل أبى حاتم الرازى ، إلا أنني رأيت ابن حبان معرضا إعراضا كبيرا عن أبى حاتم الرازى ، ومهملا إياه إلا فى النادر اليسير .

( ١ ) إلا ما نقل بعضهم عن النجوم الزاهرة من أن ولادته كانت سنة ( ٢٦٠ ) وهذا خطأ محض فالذى فى النجوم الزاهرة ذكر وفاته ، أما سنة ٢٦٠ فهى تاريخ ولادة أبى بكر محمد بن عبد الله الشافعى الذى توفى فى عام وفاة ابن حبان ، فتداخل الأمر على الناقل فوهم . ومثل ذلك من حدد ولادته بسنة ٢٧٠ كسزكين وبروكلمان . فهى محض اجتهاد من غير دليل .

( ٢ ) تذكرة الحفاظ ( ص ٩٢٢ ) .

( ٣ ) مختصر دول الإسلام ( ١ : ١٧٢ ) .

( ٤ ) أعلام النبلاء ( ١٠ : ٣ : ٣٣١ ) .

بقي أن أقول : لعل والد ابن حبان - وهو عصى أبي حاتم -  
الرازي - رأى هذا الرأي فسمى ابنه (محمدًا) وكناه أبا حاتم .  
ثم خطر لي خاطر آخر . وهو أن لبعض الأسماء كني لازمة لها ففى  
عرف بعض البلدان ففى مصر مثلاً يقال لكل (إبراهيم) : أبو خليل ، ولكل  
على (أبو حسن) ، ولكل (حسن) أبو على .  
وفى دمشق خاصة ، والشام عامة يقال لكل محمد أبو قاسم ، ويحرفونها  
فى بعض المناطق فيعطشون القاف لتصبح قريبة من الكاف على لهجـة  
بعض قبائل العرب ، ويتأثمون فى بعض المناطق من الجمع بين اسم النسبى  
صلّى الله عليه وسلّم وكنيته للرجل الواحد ، فيقولون : (أبو جاسم) بالجيم  
الخالصة .

قلت : ففعل كنية (أبو حاتم) كانت ملازمة لاسم محمد فى تلك البلاد  
خاصة وأن وزن (حاتم) هو وزن جاسم ، وقاسم ، والمعطشة بينهما .  
ومما يدعم هذا الخاطر - بعض الدّعم - أن أبا حاتم الرازى محمد بن  
إدريس كنى به ، وليس له ولد بهذا الاسم .  
نعم مثل هذه الدعوى تحتاج إلى أدلة مقنعة ، كما يحتاج الباحث  
فيها إلى دراسة للعادات التى كانت سائدة فى بلاد المشرق الإسلامى  
فى ذلك العصر ، ومراجعة كتب الرجال للوقوف على من اسمه (محمد) وكنيته  
أبو حاتم . وهذا عزيز علىّ فى مثل هذه الظروف فعسى وعلى .  
ومهما يكن من أمر فإنّ ولادة ابن حبان بين عامى (٢٧٥ - ٢٧٩)  
والله أعلم .

المبحث الرابع : أسرة ابن حبان وأصله

ذكرت في المبحث الثاني أن ابن حبان عربي تميمي صميم ، وان كان أعجمي البلد ، غير أن المصادر تجمع على كونه ولد في "بست" . فما صلة بني تميم بذاك البلد الأعجمي البعيد ؟

لقد وضعت معركة نهاوند ( ٢٠ هـ ) بين المسلمين والفرس ، حدا لسيطرة الساسانيين على العراق ، وانساح المسلمون في أراضي الدولة الساسانية<sup>(١)</sup> بعد ذلك .

ولقد وجه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه ( ت ٤٢ هـ ) الأحنف بن قيس التميمي ( ٧١ هـ ) إلى قم<sup>(٢)</sup> و( قاشان )<sup>(٣)</sup> ففتحهما سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

ومن المعروف أن تميم دخلت هذه المناطق في هذا الوقت مع الأحنف ابن قيس ، واستطاعت أن تثبت أقدامها هناك .

والى هذا الاستيطان المتقدم ، ومعرفة أحوال تلك المنطقة يمكن أن يعزى سرّ قوة تميم ، ومشاكلها الكثيرة هناك<sup>(٤)</sup> .

أما إقليم سجستان فيرى خليفة بن خياط أنه فتح سنة ثلاثين حيث وجه عبد الله بن عامر ( ٥٩ هـ ) الربيع بن زياد الحارثي إلى سجستان ، فافتتح زالق ، وشرواذ ، وناشروذ ، وتوجه ابن عامر إلى خراسان ، وعلى مقدمته الأحنف بن قيس ، فلقى أهل هراة ، فهزمهم<sup>(٥)</sup> .

وفي سنة إحدى وثمانين ، كان عبد الرحمن بن الأشعث على سجستان فخلع الحجاج وحرّض الناس على قتاله ، ولما أقبل يريد العراق أمر على بسست

- 
- ( ١ ) القبائل العربية في المشرق للدكتور ناجي حسن ( ص ١٦٣ ) .  
( ٢ ) قم - بضم القاف وتشديد الميم - مدينة إسلامية مستحدثة لا أثر للأعاجم فيها . معجم البلدان ( ٤ : ٣٩٧ ) .  
( ٣ ) قاشان : مدينة غرب أصبهان تذكر مع قم . معجم البلدان ( ٤ : ٢٩٦ ) .  
( ٤ ) القبائل العربية في المشرق ( ص ١٦٦ ) بتصريف يسير .  
( ٥ ) تاريخ خليفة بن خياط ( ص ٢٠٨ ) . وذكرت سابقا أن ابن حبان يرى ذلك أيضا .



عياض بن هميان البكري وعلی زرنج ، عبد الله بن عامر التميمي الدارمي (١) .  
فمن هذه النصوص يتبين أنّ لتمييم وجودا في تلك المنطقة ذاتها  
وان كانت قوتهم العظمى في خراسان (٢) .

وإذا كانت المصادر غنية وفيرة المادة عن مآثر بني تميم وآثارهم في  
تلك الديار، فإنّها تسكت سكوتا مطبقا عن الإشارة إلى أسرة ابن حبان  
ومكانتها الاجتماعية والعلمية، كما أنّي لم أجد ابن حبان ترجم لوالده  
أو أحد أجداده في كتابه الثقات مما جعلني أميل إلى القول بأنّ أسرة  
ابن حبان بعيدة عن التخصص العلمي، والنّبوغ فيه، بل بعيدة عن حملته  
والمشاركة فيه .

وهذا لا يمنع أن تكون على جانب لا بأس به من الغنى والمكانة  
الاجتماعية العالية بسبب ما كان لتمييم والفاحين العرب - عموما - من مكانة  
هناك .

بيد أنّي وقفت على نص للخطيب البغدادي، جعلني أشكك فيما قلته  
آنفا . قال الخطيب : ( أنبأنا أحمد بن محمد الكاتب، أنبأنا محمد بن  
حميد، أخبرنا ابن حبان قال : وجدت في كتاب أبي بخط يده، قال أبو زكريا  
أراني حجاج (٦) كتابه معلما، وقال : هذه علامات أبي خالد الأحمر، كتبها  
عني أحمد (٧) .

- 
- (١) تاريخ الطبري (٦: ٣٣٦) .  
(٢) القبائل العربية في المشرق (ص ١٨٧) .  
(٣) تاريخ بغداد (٥: ٤٩) وقال : كتبت عنه وكان صحيح السماع كثيره .  
(٤) تاريخ بغداد (٢: ٢٦٥) وقال عن الأزهرى : كان ثقة، وأخرى : كان  
ضعيفا .  
(٥) هو يحيى بن معين كما جاء مصرحا به في موضع آخر. من رؤوس الطبقة  
العاشرة .  
(٦) حجاج هو ابن إبراهيم الأزرق . وهو وابن معين من الطبقة العاشرة  
قال الخطيب كان ثقة يسكن مصر. تاريخ بغداد (٨: ٢٣٩) ، وفي  
التقريب (١: ١٥٢) : ثقة فاضل من العاشرة .  
(٧) الجامع لأخلاق الراوي للخطيب (٢: ١٥٨) تحقيق الدكتور الطحان  
(٢: ٢١٩) تحقيق الدكتور محمد رأفت سعيد وما أسوأ حظنا  
مع هذا الكتاب الفريد، فإنّه لم يخدم من كلا المحققين الفاضلين خدمة  
تستحق الثناء .

وهذا النص الذي أورده الخطيب في كتابه (الجامع) تحت عنوان  
(رسم الحافظ العلامة على ما ينتخبه) يبيِّن لنا أنَّ والد ابن حَبَّان، كان من  
أهل العلم، وأنَّ ابن حَبَّان كان يعرف خطه . ويشير إلى أنه كانت له—ذا  
الوالد كتب يجمع فيها الحديث ويصنعه . ومرزمن وأنا مغتبط بهذه النتيجة  
ثم تبين لي أنَّ ابن حَبَّان هذا هو :

على بن الحسين بن حَبَّان . وقد تكرر اسمه عدة مرات صريحا .<sup>(١)</sup>

قال تحت عنوان (الدائرة في آخرة كل حديث) رقم (٥٧٢) :  
أُنْبأنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الكاتب، قال : أُنْبأنا  
محمد بن حميد بن سهيل المخرمي، أخبرنا علي بن الحسين بن حَبَّان، قال  
وجدت في كتاب أبي بخط يده، قال أبو زكريا - يعني يحيى بن معين- . . . )  
وذكر نسا يناسب الترجمة .

ولو أنَّ واحدا من محققي الكتاب عمل له فهرس علمية، واحدا منها  
للرواة لما وقعنا بهذا الإشكال الذي لم يزره إلى قراءة الكتاب كله .  
بقي أن نعرف من هو ابن حَبَّان الذي أوهمنا المحققان الفاضلان  
وجوده في الجامع ؟

قلنا : إنَّهما حقا أنَّ اسمه علي بن الحسين بن حَبَّان . وبالرجوع إلى  
تاريخ بغداد<sup>(٢)</sup> وجدت أنه علي بن الحسين بن حَبَّان بن عمار بن واقد  
أبو الحسن المروزي المتوفى سنة خمس وثلاثمائة . . . روى عنه محمد بن  
حميد المخرمي . . . قال الخطيب : كان ثقة .

ووالده هو الحسين بن حَبَّان بن عمار بن الحكم بن عمار بن واقد  
أبو علي، صاحب يحيى بن معين . قال الخطيب<sup>(٣)</sup> : كان من أهل الفضل  
والتقدم في العلم، وله عن يحيى كتاب غزير الفائدة، روى عنه ابنه علي بن  
الحسين ذلك الكتاب عن أبيه وجادة والحسين بن حَبَّان قديم الموت، توفى  
فيما ذكر ابنه سنة اثنتين وثلاثين ومائتين قبل وفاة يحيى بن معين بسنة .

وبهذا نتيقن أنَّ ابن حَبَّان هذا غير ابن حَبَّاننا، وليت أحد المحققين  
أشار إلى شيء من مهامه في تحقيق الكتاب .

(١) انظر الجامع (١: ٢٧٢، ٣٠٥)، (٢: ٦٣) ومواضع كلها صرح فيها  
باسمه ونسبه .

(٢) تاريخ بغداد (١١: ٣٩٥) .

(٣) ماسبق (٨: ٣٦) .

## الفصل الثاني

### رحلات ابن حبان العلمية

تمهيد :

مر معنا سابقاً أنَّ القرنين الثالث والرابع بلغت فيهما الحياة العلمية ذروتها ، وصار العلم شغل النَّاس الشَّاغل ، وغدا اقتناء الكتب ، والتنافس في نسخها مفخرة ذوى الوجاهة واليسار وأغلب الظن أنَّ ابن حبان ورث عن أسوته اللغة العربية الخالصة ، وورث عنهم شيئاً من المال وقبض الله له من أخذ بيده إلى الكتاب فقرأ القرآن الكريم ، وربما حفظه ، لأنه كان أول ما يتعلمه الأولاد في تلك العصور .

ثم انتقل بعد ذلك إلى حلقات الفقه والحديث واللغة والأدب ، وصار يحضر على علماء بست ، ومن يفد إليها من العلماء ، حتى اكتمل شبابهم ونضج فكره ، وجمع مالمدى علماء بست من الحديث والفقه وغيرها من العلوم الشرعية ، وتخرج بأكبر العلماء المقيمين ببست في ذلك العصر وهم إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي ،<sup>(١)</sup> ومحمد بن عبد الله بن الجنيد التستري<sup>(٢)</sup> وعبد الله بن محمد بن هند ،<sup>(٣)</sup> وأبو علي محمد بن عمر بن عباد .<sup>(٤)</sup>

وكانت العادة لدى طلبة العلم أنهم يحصلون علوم بلدهم ، ويأخذون مالمدى مشايخهم ، حتى إذا تم لهم ذلك ، ارتحلوا في طلب العلم ، وجابوا أقطار الأرض للازدياد والتحصيل .<sup>(٥)</sup>

(١) انظر ترجمته في الإكمال لابن ماكولا (١ : ٤٣١) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٠٢) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) ، تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢ : ٤٠٩) ، سير أعلام النبلاء للذهبي (١٤ : ١٤٠) توفي سنة (٥٣٠٧هـ) .

(٢) انظر معجم البلدان (١ : ٤١٥) وانظر صحيح ابن حبان رقم (٣٩) ، (٢١٥٢ ، ٢٢٤) وغير ما موضح .

(٣) انظر صحيح ابن حبان (٦ : ٢٦٧) .

(٤) انظر صحيح ابن حبان رقم (١٤٧٦ ، ٢٢٩٩) ، (٩ : ٢٠٠) ب .

(٥) مقدمة ابن الصلاح (ص ٢٢٢) .

قال ابن الصلاح : ( وإذا أخذ فيه - أي في سماع الحديث - فليشمر  
عن ساق جهده واجتهاده ، ويبدأ بالسماع من أسند شيوخ مصره يومن الأولى  
فالأولى ، من حيث العلم ، أو الشهرة ، أو الشرف . أو غير ذلك .  
وإذا فرغ من سماع العوالي والمهمات التي ببلده ، فليرحل إلى غيره .  
روينا عن يحيى بن معين أنه قال : أربعة لا تؤنس منهم رشداً  
حارس الدرب ، ومنادى القاضى ، وابن المحدث ، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل  
في طلب الحديث )<sup>(١)</sup> .

---

( ١ ) مقدمة ابن الصلاح ( ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ) ، الرحلة في طلب الحديث  
( ص ٨٩ ) .

المبحث الأول : أهمية الرحلة في حياة المحدث

لقد كانت الرحلة في طلب الحديث سنة لأهله ، وهي عند هم سنة شرعية وليست مجرد طريقة علمية . فقد رحل موسى عليه السلام ليتعلم ممن هو أكثر منه علماً .<sup>(١)</sup> ورحل عدد من الصحابة<sup>(٢)</sup> في طلب الحديث والعلم ، وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه " ما أنزلت آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ولو أني أعلم أحدا أعلم بكتاب الله متى تبلغه الإبل والمطايا لأتيته"<sup>(٣)</sup> .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرحلون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، أو يتحيتون المواسم فيرحلون للقيه والأخذ عنه .<sup>(٤)</sup>

ولقد رحل سعيد بن المسيب الأيام والليالي في الحديث الواحد<sup>(٥)</sup> ورحل عبيد الله بن عدي إلى علي رضي الله عنه لسماع خطبة منه ، ورحل أبو عثمان النهدي إلى أبي هريرة<sup>(٦)</sup> في سماع حديث ، ورحل سعيد بن جبير إلى ابن عباس ليسأله عن آية تخليد القاتل متعمدا في النار<sup>(٨)</sup> ، وسئل الشعبي عن حديث ، فأجاب ، ثم قال للسائل " خذها بغير شيء " ، فلقد كان الرجل يرحل في أدنى منها إلى المدينة<sup>(٩)</sup> .

فإذا ترك الباحث عصر التابعين ، وجد الرحلة عند أتباع التابعين على قدم وساق ، حتى لقد كان الرجل القانع بما عند أهل بلده من علم لا يؤبه له في الحديث ، ولا يلتفت إليه .

قال ابن حبان : " فرسان هذا العلم . الذين حفظوا على المسلمين الدين ، وهدوهم إلى الصراط المستقيم . الذين آثروا قطع المقارن والقفار

( ١ ) الرحلة في طلب الحديث (ص ٩٧) ، وهذا ثابت في كتاب الله تعالى

وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

( ٢ ) الرحلة (ص ١٠٩) فما بعدها .

( ٣ ) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي صلى

الله عليه وسلم رقم ( ٤٧١٦ ) ومسلم في الفضائل ، باب من فضائل

عبد الله بن مسعود وأمه رقم ٢٤٦٢ - ٢٤٦٣ ، وغيرهما . وانظر الرحلة

في طلب الحديث (ص ٩٥) واللفظ للخطيب .

( ٤ ) الرحلة في طلب الحديث (ص ١٨٧) .

( ٥ ) الرحلة في طلب الحديث (ص ١٢٧) .

( ٦ ) ما سبق (ص ١٢٩) .

( ٧ ) ما سبق (ص ١٣٢) .

( ٨ ) ما سبق (ص ١٣٨) .

( ٩ ) ما سبق (ص ١٤) .

على التنعم في الديار والأوطان ، في طلب السنن من الأمصار، وجمعها بالرحيل والأسفار، والدوران في جميع الأقطار، حتى إن أحدهم ليرحل في الحديث الواحد الفراسخ البعيدة، وفي الكلمة الواحدة الأيام الكثيرة حتى لا يدخل مزلّ في السنن شيئا يضلّ به، وان فعل، فهم الذّابون عن رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم ذلك الكذب، والقائمون بنصرة الدين<sup>(١)</sup>. وذكر عددا من الآثار تفيد ضرورة الرحلة واعتمادها .

ولقد كان للرحلة عندهم أهداف جلية، من أهمها : جمع الحديث وتحصيله استكمالاً لما حصّله الرجل في بلده، والتثبت من صحة الحديث والوقوف على طرقة، وطلب طو الإسناد، لتقل الوسائط بين المحدث وبين النبي صَلَّى الله عليه وسلّم، وبذلك يقل احتمال وقوع الخطأ، ويسهل حفظ الحديث بسنده لقلة عدد رجال السند . ومن هذه الأهداف : البحث عن أحوال رواة الحديث، ومعرفة الثقات من غيرهم، ومذاكرة العلماء الأفاضل في نقد الأحاديث وطلبها<sup>(٢)</sup>.

وهذه الأهداف جميعاً أشار إليها ابن حبان بقوله : ( حتى لا يدخل مزلّ في السنن شيئا يضلّ به، وان فعل فهم الذّابون . . . ذلك الكذب ) . والرحلة سبيل ذلك كله .

والى جانب هذه الأهداف الكبيرة، فقد كان للرحلة فوائد عديدة هامة منها :

اتساع ثقافة المحدث العامة، وتنمية الفضائل والكمالات في نفسه والتمكن من الجوانب العلمية التي يعوزها، حيث إن كل بلد يحتوى على لون أو عدة ألوان من الثقافة، ولا بد أنه يشتهر بعدد من العلوم، وجمهرة مخصوصة من الطماء، ومحال أن يجتمع في المصر الواحد جميع طماء الأمة وشقى أنواع العلوم والمعارف فيها، حتى ولو كانت العاصمة ذاتها .

( ١ ) المجروحين لابن حبان ( ١ : ٢٧ ) فما بعد .  
( ٢ ) انظر بحثنا نفيساً لأستاذنا الدكتور نور الدين عتر في مقدمة الرحلة في طلب الحديث للخطيب ( ص ١٦ - ٢٣ ) .

ومن هنا كانت الرحلة لازمة، ولولا الرحلة لما نبغ حافظ، ولما عرف طرق  
الحديث وعلمه محدّث في تلك العصور<sup>(١)</sup>.  
ولقد كان أبو حاتم بن حبان من أكثر العلماء ارتحالا، ومن أطولهم  
رحلة، كما كان رحمه الله حريصا على الفائدة، يخاف أن تضيع منه لحظة  
واحدة دون أن يستفيد فيها جديدا يدونه ويحتفظ به.  
قال أبو حامد أحمد بن محمد بن سعيد النيسابوري: "كنا مع أبي  
بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في بعض الطريق من نيسابور، وكان معنا  
أبو حاتم البستي، وكان يسأله ويؤذيه، فقال له محمد بن إسحاق بن خزيمة  
يا بارد تنح عني لا تؤذني، أو كلمة نحوها، فكتب أبو حاتم مقالته، فقبل له  
تكتب هذا؟ فقال نعم: أكتب كل شيء يقوله"<sup>(٢)</sup>.

---

(١) مقدمة الرحلة في طلب الحديث للخطيب (ص ٢٤ - ٢٨) .  
(٢) معجم البلدان (١: ٤١٩) .

## المبحث الثاني : تاريخ رحلات ابن حبان

قال الذهبي في ترجمة ابن حبان : " كان من أئمة زمانه ، وطلب العلم على رأس الثلاثمائة<sup>(١)</sup> ونقل عن الحاكم قوله " ثم انصرف إلينا سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وبني الخانقاه وقرى عليه جملة مصنفاة ثم خرج إلى وطنه بست عام أربعين ، وكانت الرحلة إليه لسماع كتبه<sup>(٢)</sup> .

هذان النصان يحددان لنا بداية رحلات ابن حبان ونهايتها أما طلبه العلم على رأس الثلاثمائة ، فلا يفهم منه غير الرحلة في طلب العلم بعد ان حط علوم بلده إذ من المحال أن يرحل الإنسان في طلب العلم والعلم بين يديه لم ينهل منه شيئا بعد .

وكأنني بالإمام ابن حبان قد ارتحل بعد أن تلمذ لأكبر عالم ببست<sup>(٣)</sup> وأخذ ما عنده وعن غيره من علمائها .

وإذا نحن قدرنا ولادة ابن حبان سنة خمس وسبعين أو سبع وسبعين فيكون عمره يوم رحل بين الثالثة والعشرين والخامسة والعشرين ، ومحال أن يكون ابن حبان كل هذه المدة لم يتعلم شيئا ، وإنما طلب العلم على رأس الثلاثمائة .

وإذا كان الإمام ابن حبان قد أدرك الإمام النسائي قبل عام اثنتين وثلاثمائة<sup>(٤)</sup> في مصر فلا ريب أن من يرحل للقاء النسائي وأمثاله ، لا بد أن يكون قد حصل جانبا كبيرا من المعرفة تمكنه من معرفة الرجال الذين يرحل إليهم .

وليس بين أيدينا من النصوص ما يعيننا على تحديد أزمنة رحلات ابن حبان إلى العراق والشام والجزيرة ومصر ، وتنقله بين نيسابور والاسكندرية غير أن الذي فهمته من حياة ابن حبان ، وصلت بشيوخه ، أنه كان كثير التجوال

- 
- ( ١ ) ميزان الاعتدال ( ٥٠٦ : ٣ ) .  
 ( ٢ ) تاريخ دمشق لابن عساكر ( ٥٠٢ : ١٠ ) ، أعلام النبلاء ( ٣٠٣ : ٣ : ١٠ ) .  
 تذكرة الحفاظ ( ص ٩٢١ ) .  
 ( ٣ ) أعنى القاضي إسحاق بن إبراهيم البستي المقوفى سنة ٣٠٧ هـ كما  
 في شذرات الذهب ( ٢ : ٢٤٢ ) .  
 ( ٤ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٣٣ ) .



والتنقل ، فبينما تراه قد لحق الإمام النَّسائي قبل خروجه من مصر عام ( ٣٠٢ هـ ) إذ بك تراه في ( نسا ) يشهد جنازة شيخه الحسن بن سفيان الشَّيباني ، ويحضر دفنه <sup>(١)</sup> عام ( ٣٠٣ هـ ) وهذا يدل على همة ونشاط بالفين .

على أنه كان في " حران " قبل رمضان سنة ( ٣٠١ هـ ) لأنَّ شيخه الحافظ ابن ناجية توفي في رمضان من هذه السنة ، وهذا الشيخ أقدم شيوخه وفاة - رحمهما الله تعالى - ورحل إلى مرو، وطوس، وسرخس وبخارى ومرو الروذ ونيسابور قبل عام ( ٣٠٣ هـ ) وكان في كل من جرجان والبصرة قبل عام ( ٣٠٥ هـ ) ورحل إلى عبادان وعسكر مكرم وفبيح ودمشق وحلب قبل عام ( ٣٠٦ هـ ) وتلقى على علماء مكة قبل عام ( ٣٠٨ هـ ) ، كما عاد إليها حاجا عام ( ٣١٤ هـ ) وزار البيت المقدس قبل عام ( ٣١٠ هـ ) وكذلك عسقلان وبلاد فلسطين والذي يتبين من استعراض شيوخ ابن حبان أنَّه رحل عدة رحلات بين اسفيجاب والاسكندرية ، وليست رحلة واحدة فحسب ، ودليل هذا أنَّ المصادر تقول بأنَّه صحب ابن خزيمة وتفقه به ، وتخريج على يديه . وأطال المكث عنده ، وتأخرت وفاة ابن خزيمة <sup>(٢)</sup> حتى عام ( ٣١١ هـ ) ، وقد رأينا أنَّ رحلات ابن حبان إلى مصر والشام وفلسطين والجزيرة والمشرق والعراق كانت قبل هذه السنَّة .

وأغلب الظن أنَّ ابن حبان سمع من ابن خزيمة في نيسابور، ثم تابع طريقه يلقي العلماء سريعا ، حتى حظ رحاله في حران ولما يمض على رحلته عام واحد ، وتابع طريقه إلى منبج وحلب وأنطاكية ودمشق والقـدس وعسقلان ، حتى وصل إلى مصر فلقى الإمام النَّسائي وغيره من الأئمة ، حتى إذا سافر الإمام النَّسائي لقي غيره من العلماء ، ثم سافر إلى الاسكندرية فلقى أشهر علمائها ، ثم عاد أدراجه ، ليلحق بقية عمر الحسن بن سفيان في

( ١ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٦٠ ) .

( ٢ ) ماسبق ( ١٤ : ١٦٥ ) .

( ٣ ) اعتمدت في توقيت هذه الرحلات على وفيات شيوخه المنسوبين والمتوفين في هذه البلاد .

نسا ، حتى إذا توفي الحسن بن سفيان ( ٣٠٣ هـ ) وشيع جنازته ، تابع طريقه فلقى ابن خزيمة ، ومكث عنده ، ثم عاد أدراجه إلى العراق وطال مكثه في البصرة وبغداد وواسط والموصل بدليل كثرة مشايخه فيها ، ثم عاد إلى ابن خزيمة ، ولزمه حتى وفاته - رحمه الله - ثم تابع رحلته ليلتقى بعلم آخر من الأعلام .

ويبدو أنّ ابن حبان ظل يصحب كبار العلماء ، ويتلقى على أيديهم حتى ودّع آخر شيخين<sup>(١)</sup> من كبار شيوخه عام ( ٣٢٥ هـ ) ، ثم ذهب إلى سمرقند فتولى قضاءها وفقه الناس وطّهم ، ثم غادرها وذهب إلى نيسابور فعلم بها سنة ( ٣٣٤ هـ ) قليلا ، ثم غادرها إلى نسا حتى سنة سبع وثلاثين حيث تولى قضاءها هذه المدة ، ثم عاد إلى نيسابور فبنى فيها مدرسة وقرأ الناس عليه جملة من مصنفاته .

وفي عام ( ٣٤٠ هـ ) عاوده الحنين الشديد إلى الوطن ، فوصل إلى مدينة سجستان عاصمة إقليم سجستان ، فعلم بها وناظر علماءها فلم يقبلوا آراءه في العقيدة ، فخرج منها في نفس تلك السنة إلى مدينته بست ، بعد رحلة امتدت أربعين<sup>(٢)</sup> سنة من عمره ، فحط رحاله فيها ، وبنى دارا ومدرسة ، وذاع صيته ، وصارت الرحلة إليه لسماع مصنفاته ، والإفادة من علومه ، حتى وافاه أجله عام أربعة وخمسين وثلاثمائة رحمه الله تعالى .

( ١ ) هما الحافظان محمد بن عبد الرحمن الدغولي وأبو حامد أحمد بن محمد بن الشرقي .

( ٢ ) ولا أدري سببا لاعتبار الشيخ الأرنؤوط مدة هذه الرحلة نيفا وثلاثين عاما ، كما ذكر في مقدمته للإحسان ( ١٢ : ١ ) .

المبحث الثالث : أماكن رحلات ابن حبان

يصعب علينا الجزم بأن ابن حبان لم يترك بلدا إسلاميا يقطن فيه علماء ومحدثون إلا زاره لأننا لانلمح أى ذكر لليمن فى مجموعة البلدان التى زارها، غير أن فقدان أكثر كتب ابن حبان يجعلنا نتنبأ بكثرة البلدان التى زارها ابن حبان تبعاً لكثرة الشيوخ الذين يروى عنهم فى كتبه المفقودة والذين يمكن أن يكونوا من ديار أخرى غير ديار الذين حدث عنهم فى كتبه الموجودة بين أيدينا .

وقد بلغت مجموعة البلدان التى زارها ابن حبان - فيما بين أيدينا من كتبه - ستا وتسعين بلداً ، حدث فيها عن خمسمائة شيخ وبضعمة عشر شيخاً .

ويمكننا القول بأنه لم يترك حاضرة من حواضر العلم المعروفة فى القرن الرابع الهجرى إلا حدث عن شيخ أو شيوخ من علمائها أو رؤادها . إلا أن قيمة هذه البلدان تختلف بالنسبة لموضوعنا ، فالبلدان التى لم يحدث فيها ابن حبان إلا عن شيخ واحد ، لا يمكننا مساواتها مع البلدان التى حدث فيها عن عشرة شيوخ أو عشرين أو ثلاثين شيخاً ، مع لفت النظر إلى وجود حفاظ كبار فى البلدان التى قل ذكر شيوخه فيها .

وإذا بدأنا ببلدة بست التى كانت ثانية المدن الجليلة فى سجستان فى ذلك العصر ، والتى خرج منها عدد غير يسير من رجال العلم والأدب ، نجده قد حدث عن أربعة من شيوخها ، وأدخل اثنين منهم فى صحيحه .

وحدث عن سبعة من علماء (تستو) منهم الحافظ أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير التستري ، الذى أكثر عنه فى سائر مصنفاته ، ومنهم محمد بن أحمد الرقام ، وأحمد بن الخطاب بن مهران وحدث عن ستة شيوخ من ( جرجان ) أبرزهم الحافظ عبد الملك بن محمد بن عدى الجرجانى ومن ( الرى ) حدث عن سبعة من علمائها من أبرزهم عبد الرحمن بن محمد بن حماد الطهرانى وطى بن الحسن بن مسلم الأصبهاني ، ومهران بن هارون .

وحدّث عن ستة من علماء (سمرقند) منهم إبراهيم بن نصر العنبري  
وأحمد بن خلف بن عبد الله السمرقندي .

وحدّث عن أحد عشر شيخاً ممن لقيهم في (مرو) منهم عبد الله بن  
محمود بن سليمان السعدي المروزي ، وأحمد بن محمد بن بشر الشافعي .

وحدّث عن أحد عشر شيخاً من شيوخ بلد (نسا) منهم شيخه  
الحافظ الحسن بن سفيان الشيباني الذي أكثر عنه ابن حبان كثيراً ، ومحمد  
ابن أحمد بن أبي عون الرياني .

أما نيسابور فقد كانت حاضرة خراسان العلمية إلا أن ابن حبان لم  
يحدّث إلا عن تسعة من علمائها أبرزهم الإمام الحافظ محمد بن إسحاق بن  
خزيمة ، والحافظ محمد بن إسحاق بن إبراهيم الثقفي السراج ، وإبراهيم بن  
إسحاق الأنماطي الزاهد . كما حدّث عن خمسة من علماء (هراة) منهم  
محمد بن هاجك الهروي ، ومحمد بن عثمان بن سعيد الدارمي .

فإذا تركنا أهم المراكز العلمية في المشرق الإسلامي ، وقصدنا الحجاز  
وجنناه يحدّث عن اثني عشر شيخاً . من أبرز علمائها يومئذ منهم الإمام  
العلم الحافظ محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري نزيل مكة ، والإمام  
المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي ، وأحمد بن محمد بن زياد ابن  
الأرأبي ، ولم يخرج في الصحيح عن شيخه محمد بن أحمد بن حماد  
الدولابي .

أما بلاد العراق ، فقد كانت حواضر العلم الكبرى فيها آنئذ : بغداد  
والبصرة ، والموصل ، وواسط ، وقد حدّث ابن حبان عن سبعة عشر شيخاً  
لقيهم في بغداد من أبرزهم حامد بن محمد بن شعيب الكجي البلخي  
وعبد الله بن سليمان أبي داود السجستاني ، والهيثم بن خلف الدوري وهذا  
يعنى أنه أقام ببغداد طويلاً ، حتى اطلع على ما عند هؤلاء الشيوخ ووازنها  
ثم اختارهم للرواية عنهم ، كما صرح بذلك في مقدمة صحيحه .

ويبلغ عدد الذين حدّث عنهم من شيوخ (البصرة) أربعة وثلاثين  
شيخاً كان أبرزهم العلم الحافظ أبا خليفة الفضل بن الحباب الجمحي  
وهو من الذين أكثر عنهم ابن حبان في سائر كتبه . والحافظ زكريا بن يحيى

السَّاجِي ، ومحمد بن الحسين بن مكرم البزار .  
وحدَّث عن ثمانية من علماء الموصل أشهرهم أبو يعلى أحمد بن علي  
ابن المثني الحافظ وإبراهيم بن علي بن عبد العزيز العمري ، وروح بن  
عبد المجيب أبو صالح الموصلِي .  
وتأتى ( واسط ) في الدَّرَجَة الثانية بعد البصرة في كثرة من حدَّث عنه  
من علمائها ، إذ بلغوا ثلاثة وعشرين شيخاً منهم أحمد بن عيسى بن السكين  
البلدي ، وجعفر بن أحمد بن سنان القطان .  
وإذا تركنا العراق إلى بلاد الجزيرة من الشَّام نجد أبرز مراكز العلم  
فيها حران والرقَّة وطرسوس والمصيصة .  
أما حران فقد حدَّث عن تسعة من علمائها أبرزهم الحافظان أبو عمرو  
الحسين بن محمد بن مودود الحراني وعبد الله بن محمد بن ناجية .  
وحدَّث عن ستة من علماء الرقة أبرزهم الحافظان أحمد بن الحسن بن  
عبد الجبار الصُّوفِي ، والحسين بن عبد الله بن يزيد القطان .  
وحدَّث عن أحد عشر شيخاً من طرسوس منهم إبراهيم بن أبي أمية  
الطرسوسِي ، ومحمد بن يزيد الرقي .  
وأما علماء المصيصة فحدَّث ابن حَبَّان عن سبعة منهم أبرزهم محمد بن  
أحمد بن أبي الخصيب ، وأحمد بن مجاهد بن قولان .  
أما بقية بلاد الشَّام ، فقد كانت مراكز العلم فيها كثيرة وعديدة  
أبرزها أنطاكية وحلب وحمص ودمشق وعسقلان .  
وقد حدَّث ابن حَبَّان عن سبعة من علماء أنطاكية أبرزهم الحافظ  
وصيف بن عبد الله العطار الأَشْرُوسِي ، وأحمد بن إبراهيم بن فيل البالسي .  
ومن حلب حدَّث عن علي بن أحمد بن عمران الجرجاني ، وعلي بن  
عبد الحميد الفضائري وحدَّث عن ستة من علماء حمص أبرزهم العباس بن خليل  
الطائي ، ومحمد بن عبيد الله بن الفضل الكلاعي .  
أما دمشق فقد حدَّث عن ستة عشر عالماً من أعلامها أبرزهم الحافظان  
أحمد بن عمير بن يوسف بن جوصا ، وحاجب بن محمد بن اركين الفرغاني .  
ومن علماء عسقلان حدَّث عن ثلاثة مشايخ أبرزهم الحافظ محمد بن

الحسن بن قتيبة .

أما مصر فقد كانت غنية بمراكز العلم في ذلك العصر، إلا أنني لست  
أجد لابن حبان شيوخاً إلا في القاهرة، التي كان يذكرها باسم  
الفسطاط، أو مصر . . . وقد حدثت عن عشرة من علمائها منهم أحمد بن  
الحسن بن أبي الصغير المدائني، ومحمد بن زياد التجيبي وهناك مراكز  
أخرى كثيرة شاركت في النهضة العلمية لذلك العصر تجدها في ثبوت  
رحلات ابن حبان في آخر هذا القسم، إلا أن أهميتها - كما أسلفت - تأتي  
في الدرجة الثانية . فبيروت مثلاً، حدثت عن أوجد علمائها الحافظ محمد بن  
عبد الله بن عبد السلام البيروتي "مكحول" وحدثت عن شيخ بيت المقدس عبد الله  
ابن محمد بن سلم المقدسي، وحدثت عن الحافظ إبراهيم بن خريم من أعلام  
"خرشكت" .

وبمطالعة ثبت رحلات ابن حبان، وثبت شيوخه تتبين مدى المعاناة  
والجهد الذي بذله الحافظ ابن حبان في خدمة دين الله تعالى .

### الفصل الثالث

#### شيوخ ابن حبان وتلامذته

تمهيد :

إن الحديث عن شيوخ ابن حبان يحتاج إلى بحث علمي يخصصه ، لأنهم من الكثرة بحيث يشكلون عملا علميا ضخما يخدم علم رجال الحديث في فترة حرجة من الزمن خدمة جليلة حيث إن كثيرا من التواريخ قد فقدت كتاريخ نيسابور ، وتاريخ بخارى وتاريخ سمرقند ، وتاريخ مصر وغيرها من التواريخ التي تحدثت عن علماء كل بلد من البلدان التي نبغ فيها علماء وأدباء ومفكرون .

ولقد أعددت معجما لشيوخ ابن حبان سأجعله ملحقا في آخر هذه الرسالة وأترك الحديث عن شيوخه جميعا لعلم مستقل إذا قدر الله ذلك وشاءه .

أما الآن فإنني سأذكر أشهر العلماء الذين تلقى العلم عنهم ، ثم أترجم لأهم هؤلاء تراجم موجزة تعطى فكرة عن كل واحد منهم ، وأثره في عظمة ابن حبان وعلمه .

المبحث الأول : أشهر من روى عنهم ابن حبان في كتبه

لقد روى الإمام ابن حبان عن الشيخ المحدث الثقة المعمر أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد البغدادي الصوفي الكبير (٣٠٦) ببغداد (١) .  
وعن الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى (٣٠٧) بالموصل (٢)  
وعن الحافظ أحمد بن محمد بن يحيى بن زهير (٣١٠) بتستر، وعن  
الشيخ الثقة المحدث إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي (٣٠٧) ببست (٤)  
وعن الحافظ إبراهيم بن إسحاق الأنطاقي الزاهد (٣٠٣) بنيسابور، وعن  
الحافظ إبراهيم بن خزيم بن قمير (٣١٨) ببلدة "خرشكت" . وعن  
المحدث إبراهيم بن عبد الواحد العبسي (٣١١) بدمشق، وعن  
المحدث إبراهيم بن علي بن إبراهيم العمري (٣٠٦) ببغداد (٨)

- (١) تاريخ بغداد (٤: ٨٢) فما بعد ، طبقات الحنابلة (١: ٣٦) فما بعد ، ميزان الاعتدال (١: ٩١) ، شذرات الذهب (٢: ٢٤٧) ، أعلام النبلاء (١٤: ١٥٢) ، فما بعدها .
- (٢) تذكرة الحفاظ (ص ٧٠٧) فما بعدها ، البداية والنهاية (١١: ١٣٠) ، طبقات الحفاظ (ص ٣٠٦) ، أعلام النبلاء (١٤: ٧٤) .
- (٣) تذكرة الحفاظ (ص ٧٥٧) فما بعدها ، شذرات الذهب (٢: ٢٥٨) ، أعلام النبلاء (١٤: ٣٦٢) .
- (٤) الإكمال لابن ماكولا مادة البستي (١: ٤٣١) ، تهذيب ابن عساكر (٢: ٤٠٩) ، شذرات الذهب (٢: ٢٤٢) ، النبلاء (١٤: ١٤٠) .
- (٥) تذكرة الحفاظ (ص ٧٠١) ، طبقات المفسرين للداودي (١: ٥) فما بعدها ، أعلام النبلاء (١٤: ١٩٣) ، الشذرات (٢: ٢٤٢) .
- (٦) الإكمال لابن ماكولا (١: ١٣٤) ، المشتبه للذهبي (١: ٢٦٣) ، أعلام النبلاء (١٤: ٤٨٦) .
- (٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر (٢: ٢٣١) .
- (٨) تاريخ بغداد (٦: ١٣٢) فما بعدها ، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (١: ٢٠) ، أعلام النبلاء (١٤: ٢٢٩) .



والحافظ حاجب بن اركين الفرغاني<sup>(١)</sup> (٣٠٦) بدمشق، والإمام  
الجيل الحسن بن سفيان الشيباني<sup>(٢)</sup> (٣٠٣) بنسا وصحبه حتى توفى  
وحضر دفته .

والحافظ الحسين بن عبد الله بن يزيد القطان<sup>(٣)</sup> (٣١٠) بالرقعة  
والحافظ الحسين بن محمد بن مصعب المروزي السنجي<sup>(٤)</sup> (١٥-٣١٦) ببلدة  
سنج ومرو . والحافظ العلم أبو عروبة الحسين بن مودود الحراني<sup>(٥)</sup> (٣١٨) ،  
بحران ، والحافظ زكريا بن يحيى الساجي<sup>(٦)</sup> (٣٠٧) بالبصرة والمحدث الثقة  
عبد الله بن محمد بن سلم<sup>(٧)</sup> (بعد ٣١٠) ببيت المقدس، والحافظ عبد الله  
بن محمد بن ناحية الحراني<sup>(٨)</sup> (٣٠١) بحران، والحافظ عبدان عبد الله بن  
أحمد الاهوازي الجواليقي صاحب المصنفات<sup>(٩)</sup> (٣٠٦) بعسكر مكرم، والإمام  
القدوة العابد المجاهد عمر بن سعيد بن أحمد بن سعد بن سنسان  
المنبجي الطائي<sup>(١٠)</sup> (كان حيا سنة ٣٠٦) بمنبج، والحافظ الكبير عمر بن  
محمد بن بجير الهداني السمرقندي صاحب التفسير والصحيح<sup>(١١)</sup> (٣١١) ببخارى

- 
- (١) تاريخ بغداد (٧١: ٨) فما بعد ، تهذيب ابن عساكر (٣: ٤٢٩) فما  
بعدها ، الشذرات (٢: ٢٤٩) ، النبلاء (١٤: ٢٥٨) .  
(٢) تذكرة الحفاظ (ص ٧٠٣) فما بعد ، ميزان الاعتدال (١: ٤٩٢) فما  
بعد ، شذرات الذهب (٢: ٢٤١) ، النبلاء (١٤: ١٥٧) .  
(٣) تهذيب ابن عساكر (٤: ٣٠٥) ، أعلام النبلاء (١٤: ٢٨٦) .  
(٤) الإكمال (٤: ٥٣) ، تذكرة الحفاظ (ص ٨٠١) ، طبقات الحفاظ  
للسيوطي (ص ٣٣٤) ، أعلام النبلاء (١٤: ٤١٣) فما بعد .  
(٥) تذكرة الحفاظ (ص ٧٧٤) ، شذرات الذهب (٢: ٢٧٩) ، أعلام  
النبلاء (١٤: ٥١٠) .  
(٦) تذكرة الحفاظ (ص ٧٠٩) ، شذرات الذهب (٢: ٢٥٠) ، ميزان الاعتدال  
(٢: ٧٩) ، النبلاء (١٤: ١٩٧) .  
(٧) اللباب في تهذيب الأنساب (٣: ٢٤٦) ، سير أعلام النبلاء (١٤: ٣٠٦) .  
(٨) تاريخ بغداد (١٠: ١٠٤) فما بعد ، تذكرة الحفاظ (ص ٦٩٦) ،  
شذرات الذهب (٢: ٢٣٥) ، أعلام النبلاء (١٤: ١٦٤) .  
(٩) تاريخ بغداد (٩: ٣٧٨) ، تذكرة الحفاظ (ص ٦٨٨) ، تهذيب ابن  
عساكر (٧: ٢٨٧) ، أعلام النبلاء (١٤: ١٦٨) .  
(١٠) معجم البلدان (٥: ٢٠٧) ، اللباب (٣: ٢٥٩) ، أعلام النبلاء (١٤: ٢٩) .  
(١١) تذكرة الحفاظ (ص ٧١٩) ، البداية والنهاية (١١: ١٤٩) ، طبقات  
المفسرين للداودي (٢: ٧) ، أعلام النبلاء (١٤: ٤٠٢) .

والحافظ عمران بن موسى بن مجاشع السُّخْتِيَانِي (١) (٣٠٥) بجرجان ، والإمام  
العلم أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي (٢) (٣٠٥) وهو أكبر شيوخه  
سمع منه بالبصرة ، والإمام الفقيه المحدث العلم محمد بن إبراهيم بن المنذر (٣)  
النيسابوري (٣١٨) بمكة المكرمة ، وإمام الأئمة (٤) محمد بن إسحاق بن خزيمة  
النيسابوري (٣١١) بنيسابور وغيرها ، والحافظ محمد بن الحسن بن قتيبة  
اللخمي العسقلاني (٦) مسند فلسطين (٣١٠) بعسقلان ، والحافظ محمد بن  
أحمد بن أبي عون الرِّبَّانِي (٧) (٣١٣) بنسا ، والإمام الحافظ محمد بن عبد الله  
ابن عبد السلام مكحول البيروتي (٨) (٣٢١) ببيروت ، والإمام الحافظ المتقن  
محمد بن المنذر بن سعيد الهروري (شكر) (٩) (٣٠٣) بعدة أماكن ، والمحدث  
الثقة المفضل بن محمد الجندی (١٠) (٣٠٨) بمكة المكرمة ، والحافظ المتقن

- 
- (١) تذكرة الحفاظ (ص ٧٦٢) ، البداية والنهاية (١١ : ١٢٨) ، تاريخ جرجان  
للشَّهْمِي (ص ٣٣٢) ، طبقات الحفاظ (ص ٣٢٠) ، النبلاء (١٤ : ١٣٦) .  
(٢) ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم (٢ : ١٥١) ، طبقات الحنابلة (١ : ٢٤٩)  
تذكرة الحفاظ (ص ٦٧) ، الميزان (٣ : ٣٥٠) ، أعلام النبلاء  
(١٤ : ٥٧) .  
(٣) تذكرة الحفاظ (ص ٧٨٢) ، ميزان الاعتدال (٣ : ٤٥٠) ، شذرات الذهب  
(٢ : ٢٨٠) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٤٩٠) .  
(٤) سمي إمام الأئمة لكثرة من روى عنه من الحفاظ الكبار في حياته .  
(٥) تذكرة الحفاظ (ص ٧٢) ، تاريخ جرجان (ص ٤١٣) ، البداية والنهاية  
(١١ : ١٤٩) ، طبقات القراء (٢ : ٩٧) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٣٦٥) .  
(٦) تذكرة الحفاظ (ص ٧٦٤) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٦٠) ، العبر  
(٢ : ١٤٧) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٢٩٢) .  
(٧) تاريخ بغداد (١ : ٣١١) ، تاريخ جرجان (ص ٣٧٢) ، العبر (٢ : ١٥٧)  
أعلام النبلاء (١٤ : ٤٣٣) .  
(٨) معجم البلدان (١ : ٥٢٥) ، تذكرة الحفاظ (ص ٨١٤) ، الأنساب  
(٢ : ٣٦١) ، أعلام النبلاء (١٥ : ٣٣) .  
(٩) تذكرة الحفاظ (ص ٧٤٨) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٤٢) ، العبر  
(٢ : ١٢٦) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٢٢١) .  
(١٠) معجم البلدان (٢ : ١٧٠) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٥٣) ، البداية  
والنهاية (١١ : ١٣١) ، طبقات القراء (٢ : ٣٠٧) ، أعلام النبلاء  
(١٤ : ٢٥٧) .

(١) ابوعوانة يعقوب بن إبراهيم الإسفراييني صاحب الصحيح المخرَج على صحیح مسلم (٣١٦) ، والحافظ محمد بن عبدالرحمن الدغولي الشَّرخسى شيخ خراسان (٣٢٥) ، والحافظ أحمد بن محمد بن الشرقي صاحب الصحيح ، وتلميذ الإمام مسلم (٣٢٥) ، والحافظ محمد بن الحسين بن مكرم البغدادي نزيل البصرة (٣٠٩) ، والإمام الحافظ المقدم محمد بن إسحاق الثقفي السَّراج (٣١٣) بنيسابور . ولا يخفى عليك أخذه عن الإمام أحمد بن شعيب النسائي (٣٠٣) بمصر، والإمام محمد بن أحمد بن حماد الدوابي (٣١٠) بمكة المكرمة إلا أنه لم يحدث عنهما فيما بيدينا من كتب .

ولا يخفى أنَّ التَّمذدة على مثل هؤلاء العلماء ، والاغتراف من مثاهلهم العذبة الشرة ، هو الذي مكن لابن حبان من العلم ، وذلل له الصعاب ، وبوأه منازل الحفاظ المجودين بمشيئة الله وتوفيقه وحسن عنايته .

- 
- (١) تاريخ جرجان (ص ٤٤٨) ، وفيات الأعيان (٦ : ٣٩٣) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٧٩) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٤١٧) .
- (٢) تذكرة الحفاظ (ص ٨٢٣) ، العبر (٢ : ٢٠٥) ، الشذرات (٢ : ٣٠٧) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٥٥٧) .
- (٣) تاريخ بغداد (٤ : ٢٤٦) ، الأنساب (٧ : ٣١٩) ، تذكرة الحفاظ (ص ٨٢١) ، ميزان الاعتدال (١ : ١٥٦) ، أعلام النبلاء (١٥ : ٣٧) .
- (٤) تاريخ بغداد (٢ : ٢٣٣) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٣٥) ، الشذرات (٢ : ٢٥٨) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٢٨٦) .
- (٥) تاريخ بغداد (١ : ٢٤٨) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٣١) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٦٨) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٣٨٨) .
- (٦) تذكرة الحفاظ (ص ٦٩٨) ، طبقات الشافعية للأسنوي (٢ : ٤٨٠) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٣٩) ، تهذيب التهذيب (١ : ٣٦) ، النبلاء (١٤ : ١٢٥) .
- (٧) تذكرة الحفاظ (ص ٧٥٩) ، ميزان الاعتدال (٣ : ٤٥٩) ، شذرات الذهب (٢ : ٢٦٠) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٣٠٩) .

المبحث الثاني : شيخ ابن حبان الكبار

لا ريب أن هؤلاء الحفاظ وغيرهم ممن لم نذكرهم في المبحث السابق كان لهم الأثر الكبير في شخصية ابن حبان العلمية، والتربوية، وكثرة هؤلاء الأعلام الحفاظ، واختلاف مشاربهم، وتعدد تخصصاتهم، مكن لابن حبان من اتساع الأفق، وتنوع المعارف، والتقدم في العلوم.

ولقد ترددت كثيرا فيمن أنتخب من شيخ ابن حبان للتعريف بهم وكلهم أئمة حفاظ؟ ثم هديت إلى أن أختار عددا من الذين كان لهم أثر بالغ في حياة ابن حبان العلمية، ومن الذين أكثر عنهم في كتبه.

( ١ ) الشيخ الأول : أبو يعلى الموصلي .

هو الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي محدث الموصلي، وصاحب المسند والمعجم. ولد في ثالث شوال سنة عشر ومائتين، فهو أكبر من النسائي بخمس سنين، وأعلى إسنادا منه (١).

وقال الخليلي : ثقة متفق عليه، صاحب المسند والمعجم، رضي الله عن الحفاظ وأخرجوه في صحاحهم : أبو بكر الإسماعيلي، وأبو علي النيسابوري وابن عدي، وأبو منصور القزويني، وابن المقرئ الأصبهاني (٢) سمع يحيى بن معين وشيوخ بغداد وغيرها (٣).

لقي الكبار، وارتحل في حدائته إلى الامصار . . . وسمع من أحمد بن حاتم الطويل، وأحمد بن جميل، وأحمد بن عيسى التستري . . . وأبى خيثمة زهير بن حرب، وخليفة بن خياط، وخلائق كثير سوى هؤلاء مذكورين في معجمه .

- 
- ( ١ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٧٤ ) .  
( ٢ ) ولم يذكر الخليلي ابن حبان مع أنه أعلى منزلة من كل من ذكرهم وصحيحه أحسن هذه الصحاح فيما أعلم .  
( ٣ ) الإرشاد في معرفة علماء البلاد للخليلي ( ق / ١٠٤ / أ ) .

قال أبو موسى المديني : أخبرنا هبة الله الأبرقوهي عن ذكره  
أنَّ والد أبي عبد الله بن مندة رحل إلى أبي يعلى ، وقال له : إنَّما  
رحلت إليك لاجتماع أهل العصر على ثقتك وإتقانك وقال السُّلمي : سألت  
الدارقطني عن أبي يعلى فقال : ثقة مأمون .

حدَّث عنه الحافظ أبو عبد الرحمن النسائي في "الكنى" ، والحافظ يزيد  
ابن محمد الأزدي ، وأبو حاتم بن حبان ، وأبو الفتح الأزدي ، وحمزة بن  
محمد الكناني ، والطبراني ، وأبو بكر الإسماعيلي ، وأبو أحمد عبد الله بن  
عدي ، وابن السنِّي . . . وخلق كثير .

قال يزيد بن محمد الأزدي في " تاريخ الموصل " : كان من أهل  
الصدق والأمانة والدين والحلم قال ابن عدي : ماسمعت مسندا على الوجه  
إلامسند أبي يعلى ، لأنَّه كان يحدث لله عز وجل .

وقال الحافظ عبد الغني الأزدي : أبو يعلى أحد الثقات الأثبات .

وقال ابن عدي في كامله في ترجمة محمد الطفاوي : سمعت أبا يعلى  
يقول : عندي عن أبي خيثمة المسند والتفسير والموقوفات ، حديثه كنه (١) .

وقال ابن حبان في ترجمة أبي يعلى " من المتقنين في الروايات  
والمواظبين على رعاية الدين وأسباب الطاعات ، أدخلناه في هذه الطبقة  
- الرابعة - لأنَّ بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أنفس في  
اللقاء (٢) .

قال الذهبي : إليه انتهى علو الإسناد ، وازدحم عليه أصحاب  
الحديث ، وعاش سبعا وتسعين سنة .

قال أبو سعد السمعاني : سمعت إسماعيل بن محمد بن الفضل  
التيمي يقول : قرأت المسانيد كمسند العدني ، ومسند أحمد بن منيع ، وهي  
كالأنهار ، ومسند أبي يعلى يكون مجتمع الأنهار .

قال الذهبي : صدق . ولا سيما مسنده الذي عند أهل أصبهان

( ١ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٧٧ - ١٧٩ ) مقتطفات .

( ٢ ) الثقات لابن حبان ( ٨ : ٥٥ ) .

من طريق ابن المقرئ عنه فإنه كبير جدا . وأرخ ابن حبان<sup>(١)</sup> والذهبي وغيرهما وفاته في سنة سبع وثلاثمائة .  
وقد أكثر عنه الإمام ابن حبان في صحيحه ، فروى عنه أكثر من مائتي حديث وعشرة أحاديث من أصل ألفي حديث ومائتين وخمسة وعشرين حديثا هي جملة ما حوته المجلدات الثلاث الأولى المطبوعة من الإحسان ترتيب صحيح ابن حبان ، أي ما يعادل عشر الأحاديث المخرجة في هذه الأجزاء . وما ذلك إلا لعلو إسناده وثقته ورفعة شأنه .  
وقد أكثر عنه أيما إكثار في كتاب الثقات ، وحدّث عنه ومن طريقه بأكثر من مائة موضع من كتاب المجروحين ، وكذلك في كتاب روضة العقلاء .

### ( ٢ ) الشيخ الثاني : الحسن بن سفيان الشيباني .

هو الإمام الحافظ الثبت أبو العباس الحسن بن سفيان بن عامر بن عزيز بن النعمان بن عطاء الشيباني الخراساني النسوي ، صاحب المسند .  
ولد سنة بضع ومائتين<sup>(٢)</sup> وهو أسن من بلديه الإمام أبي عبد الرحمن النسائي ، وماتا معا في عام واحد .  
ارتحل إلى الآفاق ، وروى عن أحمد بن حنبل ، وإبراهيم بن يوسف البلخي ، وقتيبة بن سعيد ، ويحيى بن معين ، وشيبان بن فروخ . . . . . وخلق كثير .

وهو من أقران أبي يعلى ، ولكن أبا يعلى أعلى إسنادا منه ، وأقدم لقاء ، فإنه سمع من علي بن الجعد ، وقد سمع الحسن تصانيف الإمام أبي بكر بن أبي شيبة منه ، وسمع السنن من أبي ثور الفقيه ، وتفقه به ، ولازمه وبرع ، وكان يفتي بمذهبه .

( ١ ) الثقات ( ٥٥ : ٨ ) ، أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٨٠ ) .  
( ٢ ) في النبلاء ( ١٤ : ١٥٧ ) ولد سنة بضع وثمانين ومائتين ، وهو غلط فاحش من الطبع أو التحقيق ، ولم ينتبه إليه . وغالب الظن أنها سنة ثمان ومائتين ، لأن الذهبي يقول في ترجمة ابن حبان : وأكبر شيخ لقبه الفضل بن الحباب . وقد ولد الفضل سنة ست ومائتين - كما سيأتي .

حدّث عنه إمام الأئمة ابن خزيمة، وهو من أقرانه - ويحيى بن منصور  
القاضي، وأبو علي الحافظ النيسابوري، وأبو بكر الإسماعيلي، وأبو حاتم بن  
حبّان .

قال الحاكم : كان الحسن بن سفيان محدّث خراسان في عصره  
مقدما في الثبوت، والكثرة والفهم والفقّه والأدب .

وقال ابن حبّان<sup>(١)</sup> : كان الحسن ممن رحل وصنّف وحدّث على تيقظ  
مع صحة الديانة والصلابة في السنة .

وقال ابن أبي حاتم : الحسن بن سفيان، سمع حبّان بن موسى  
وقتبية بن سعيد، وابن أبي شيبة كتب إليّ وهو صدوق .

وقال الحافظ أحمد بن علي الرازي : ليس للحسن في الدنيا نظيره .

وقال أبو الوليد حسان بن محمد : كان الحسن بن سفيان فقيها  
أديبا، أخذ الأدب عن أصحاب النضر بن شميل، والفقّه عن أبي ثور، وكان  
يفتي بمذهبه . صنّف المسند الكبير، والجامع والمعجم وغير ذلك .

وقال ابن حبّان : حضرت دفنه في شهر رمضان سنة ثلث  
وثلاثمائة . مات بقريته بالوز رحمه الله تعالى<sup>(٢)</sup> .

وقد صحبه الإمام ابن حبّان - رحمهما الله - حتى وفاته، وتلمذ له  
وأكثر عنه في صحيحه وفي سائر كتبه، فقد حدّث بأكثر من مائة وستين حديثا  
من طريقه، من جملة المجلدات الثلاث الأولى، وذكره في الثقات كثيرا جدا  
كما نقل عنه وحدّث من طريقه في أكثر من مائة وخمسين موضعا في كتاب  
المجروحين، وقد أكثر عنه كثيرا في روضة العقلاء أيضا .

(١) لم أجد للحسن ترجمة في الطبقة الرابعة، فلعله في الطبقة الخامسة  
(طبقة شيوخ ابن حبّان) .

(٢) اعلام النبلاء\* (١٤: ١٥٧)، تهذيب ابن عساكر (٤: ١٨١)، طبقات  
الحفاظ (ص ٣٠٥)، تذكرة الحفاظ (ص ٧٠٣)، البداية والنهاية  
(١١: ١٢٤)، طبقات الشافعية لابن السبكي (٢: ٢١٠) .

( ٣ ) الشيخ الثالث : أبو خليفة الجمحي .

هو الإمام العلامة ، المحدث الأديب الإخباري ، شيخ الوقت : أبو خليفة الفضل بن الحباب - واسم الحباب عمرو - بن محمد بن شعيب الجمحي البصري الأعمى .

ولد في سنة ست ومائتين ، وعنى بهذا الشأن وهو مراهق ، فسمع سنة عشرين ومائتين ، ولقى الأعلام ، وكتب علما جما . وكان حسن المعرفة صاحب فنون . توفي سنة خمس وثلاثمائة . سمع القعني ، ومسلم بن إبراهيم وسليمان بن حرب ، ومحمد بن كثير ، وأبا الوليد الطيالسي ، ومسدد بن سرهد ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وأخاه عبد الرحمن بن سلام ، وعلي بن المديني ، ولقد كتب حتى روى عن تلميذه أبي القاسم الطبراني تلميذه .

وكان ثقة مأمونا ، صادقا ، أدبيا ، فصحا ، رحل إليه من الأفاق وعاش مائة عام سوى أشهر . حدث عنه أبو عوانة في صحيحه ، وأبو بكر الصولي وأبو حاتم بن حبان ، وأبو علي النيسابوري ، وأبو القاسم الطبراني ، وابن عدي ، والإسماعيلي ، وأبو بكر الجعابي وغيرهم .

قال أبو الحسين بن المحاملي : أخبرنا علي بن أحمد بن أبي خليفة سمعت أبي يقول : حضرنا يوما عند خليل أمير البصرة ، فجرى بينه وبين أبي خليفة كلام ، فقال له : من أنت أيها المتكلم ؟ فقال : أيها الأمير ماملك من جهل مثلي . أنا أبو خليفة الفضل بن الحباب ، أفهل يخفى القمر ؟ فاعتذر إليه وقضى حاجته ، ولما خرج سأله ، فقال : ما كان إلا خيرا . . . (١) .

وقد تأثر ابن حبان بشيخه أبي خليفة الجمحي ، واهتم به أيما اهتمام لأنه كما قرأت سابقا ، ولأنه أكبر شيخ لقيه ابن حبان وأعلام إسناده ، وقد روى من طريقه في المطبوع من صحيحه أكثر من مائة وخمسين حديثا ، وأكثر عنه أيما إكثار في ثقاته ، خاصة في تعداد شيوخ أبي خليفة ، فكان كثيرا ما يقول عن الشيخ : حدثنا عنه أبو خليفة بالبصرة .

( ١ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ٧ - ٩ ) ، تذكرة الحفاظ ( ص ٦٧ ) فما بعدها .



أما في المجروحين قلم يرومن طريقه إلا في خمسة عشر موضعا .  
وحيث إنَّ أبا خليفة أديب ، فإنَّ أبا حاتم بن حبان أكثر عنه في كتابه  
"روضة العقلاء" .

( ٤ ) الشيخ الرابع : ابن خزيمة .

هو الحافظ الحجة الفقيه ، شيخ الإسلام ، إمام الأئمة ، أبو بكر محمد بن  
إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي  
صاحب التصانيف .

ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وعنى في حداثة بالحديث والفقه  
حتى صار يضرب به المثل في سعة العلم والأتقان .

سمع من إسحاق بن راهويه ، ومحمد بن حميد ، ولم يحدث عنهما  
كونه كتب عنهما في صغره ، وقبل فهمه وتبصره ، وسمع من محمود بن غيلان  
وعتبة بن عبد الله المرزوي ، وعلي بن حجر ، وأحمد بن منيع ، ومحمد بن  
بشار ، ومحمد بن المثنى ، ومحمد بن عبد الأعلى ، ويونس بن عبد الأعلى  
ومحمد بن يحيى القطيعي . . . وأم سواهم .

حدث عنه البخاري ومسلم في غير الصحيحين ، ومحمد بن عبد الله بن  
الحكم - أحد شيوخه - وأبو حامد بن الشرقي ، وأبو العباس الدغولي ، وأبو  
علي النيسابوري ، وأبو حاتم بن حبان ، وابن عدي ، وأبو أحمد الكرابيسي  
الحاكم . . . وخلق كثير .

كان ابن خزيمة كريما سخيا لا يدخر شيئا ، بل ينفق ما يأتيه على طلبه  
العلم ، قال حفيده محمد بن الفضل بن محمد : كان لا يعرف سنجسة  
الوزن ، ولا يميز بين العشرة والعشرين ، ربما أخذنا منه العشرة فيتوهم  
أنها خمسة .

وكان إماما كبيرا ، قال الربيع بن سليمان : هل تعرفون ابن خزيمة  
قلنا : نعم ، قال : استفدنا منه أكثر مما استفاد منا . . . وقال أبو علي  
الحافظ : كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القاري  
السورة .

وقال الدارقطني : كان ابن خزيمة إماما ثبتا ، معدوم النظر —  
وقال ابن سريج في ابن خزيمة : يستخرج النكت من حديث رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بالمنقاش .

وقد كان هذا الإمام جهبذا بصيرا بالرجال ، فقال فيما رواه عنه  
محمد بن جعفر شيخ الحاكم : لست أحتج بشهر بن حوشب ، ولا بحرير بن  
عثمان ، لمذهبه - وكان متهما بالنصب - ولا بعبد الله بن عمر ، ولا ببقية  
ولا بمقاتل بن حيان ، ولا بأشعث بن سوار ، ولا بعلي بن جدهان لسوء حفظه  
ولا بعاصم بن عبيد الله ، ولا بابن عقيل ، ولا بيزيد بن أبي زياد . . . وذكر أقواما  
دون هؤلاء في العدالة ، فإن المذكورين احتج بهم غير واحد .

قال الحاكم : فضائل إمام الأئمة ابن خزيمة عندي مجموعة في  
أوراق كثيرة ، ومصنفاته تزيد على مائة وأربعين كتابا سوى المسائل ، والمسائل  
المصنفة أكثر من مائة جزء . وله فقه حديث بريرة في ثلاثة أجزاء<sup>(١)</sup> .

أمام هذا وأضعافه من مناقب هذا الإمام الجليل ومآثره فإن ابن  
حبان لازمه ، وكان يكتب كل كلمة يقولها ، كما كان يسأله ، ويضايقه بكثرة أسئلته  
حرصا منه على زيادة الفائدة ، وقد كان ابن حبان يقدر ابن خزيمة قدره  
ويعرف له حقه ، لذلك فقد أثنى عليه بما لم يثن بمثله على سواه ، قال في  
الجنس الرابع من الثقات الذين لا يحتج بأخبارهم :

(الثقة الحافظ إذا حدث من حفظه وليس بفقير ، لا يجوز عندي  
الاحتجاج بخبره ، لأن الحفاظ الذين رأيناهم أكثرهم كانوا يحفظون الطرق  
والأسانيد ، دون المتون ، ولقد كنا نجالسهم برهة من دهرنا على المذاكرة  
ولا أراهم يذكرون من متن الخبر إلا كلمة واحدة يشيرون إليها .

وما رأيت على أديم الأرض من كان يحسن صناعة السنن ، ويحفظ  
الصحاح بالفاظها ، ويقوم بزيادة كل لفظة تزداد في الخبر ، ثقة حتى كسأن  
السنن كلها نصب عينيه إلا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، رحمة الله عليه - فقط<sup>(٢)</sup> .

(١) أعلام النبلاء (١٤ : ٣٦٥ - ٣٨٢) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٢) فما بعد .

(٢) المجروحين لابن حبان (١ : ٩٣) .



السراج ثقة متفق عليه من شرط الصحيح سمع قتيبة ، ومحمد بن أبان  
البلخي وإسحاق بن راهويه ، وأبا قدامة السرخسي ، وعبد الأعلى بن حماد  
ويشرب بن الوليد الكندي ، وأحمد بن منيع ، وهناد بن السري ، ومحمد بن  
الصباح الجرجاني ، وداود بن رشيد ، وأبا كريب ، وأبا مصعب ، وابن أبي  
عمر العدني وأقرانهم ومن بعدهم ، وكان يكتب عن الأقران ، ومن هو أصغر  
منه سنا لعلمه وتبحره . . . قال : كتبت عن ألف شيخ وخمسمائة بسلسل  
زدت عليه .

روى عنه الكبار بالعراق ونيسابور ، سمع منه محمد بن إسحاق  
الترمذي أحاديث سنة نيف وسبعين ( . ا . هـ )

قال الذهبي : حدث عنه البخاري ومسلم بشيء يسير خارج الصحيحين  
وأبو حاتم الرازي أحد شيوخه ، وأبو بكر بن أبي الدنيا ، وعثمان بن السماك  
والحافظ أبو علي النيسابوري ، وأبو حاتم بن حبان البستي وأبو أحمد بن  
عدي ، وأبو أحمد الحاكم ، وحسينك بن علي التميمي ( ٢ ) .  
قال الخطيب : كان من الثقات الأثبات ، عني بالتحديث ، وصنف  
كتبا كثيرة وهي مصروفة ( ٣ ) .

وقد روى عنه ابن حبان أكثر من ثلاثين حديثا فيما طبع من صحيحه  
إلا أنه أكثر عنه في الثقات أيما أكثره ، وخاصة في الطبقة الرابعة من ثقاته  
أما في المجروحين فقد حدث من طريقه في نحو سبعين موضعا ، وحدث عنه  
في بعض العواضع من روضة العقلاء .

### ( ٢ ) الشيخ السادس : أبو عوانة الإسفرايني .

( هو الإمام الحافظ الكبير الجوال ، أبو عوانة ، يعقوب بن إسحاق  
ابن إبراهيم بن يزيد النيسابوري الأصل ، الإسفرايني ، صاحب السنن )

( ١ ) المنتخب من كتاب الإرشاد للخطيب ( ق ١٦٧ ب ) .

( ٢ ) النيلة ( ١٤ : ٣٨٩ ) فما بعد .

( ٣ ) تاريخ بغداد ( ١ : ٢٤٨ ) .

المصحح الذى خرَّجه على صحيح مسلم، وزاد أحاديث قليلة فى أوامر الأبواب .

مولده بعد الثلاثين ومائتين ، ووفاته سنة ست عشرة وثلاثمائة .  
 سمع بالحرمين والشَّام ومصر واليمن والشَّعير والعراق والجزيرة  
 وخراسان وفارس وأصبهان وأكثر الترحال ، وسمع فى هذا الشأن وبذ القرآن .  
 سمع يونس بن عبد الأظفى ، وعلى بن حرب الطائى ، ومحمد بن يحيى  
 الذهلى ، وعمر بن شبة ، وأحمد بن سعيد الدارمى ، وأحمد بن ملاعبس  
 وأحمد بن عبد الجبار العطاردى ، والربيع المرادى وخلقا كثيرا .  
 حدَّث عنه : أحمد بن على الرازى الحافظ ، وأبو على الحافظ ، ويحيى  
 ابن منصور ، وسليمان بن أحمد الطبرانى ، وأبو أحمد بن عدى ، وأبو بكر  
 الإسماعيلى ، وأبو حاتم بن حبان ، وولده أبو مصعب محمد بن أبى عوانة .  
 قال الحاكم : أبو عوانة من طماء الحديث وأثباتهم .

وأبو عوانة أول من أدخل مذهب الشافعى وكتبه إلى إسفراين حطها  
 عن الربيع المرادى والمزنى وقد روى عنه ابن حبان عدة أحاديث فى صحيحه  
 وأكثر عنه فى الثقات ، وروى من طريقه فى المجروحين فى بضعة عشر موضعا .

#### ( ٧ ) الشيخ السابع : مكحول البيروتى .

هو الحافظ الإمام المحدث الرحال أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله  
 ابن عبد السلام بن أبى أيوب البيروتى ، ولقبه "مكحول" - توفى سنة احدى  
 وعشرين وثلاثمائة ، أو قبلها بسنة . سمع أبا عمير عيسى بن محمد النخاس  
 وأحمد بن سليمان الرهاوى ، وأحمد بن حرب الطائى ، ومحمد بن اسماعيل  
 ابن علقمة ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وسليمان بن يوسف الحرائى  
 وطبقتهم .

وروى عنه أبو حاتم بن حبان ، وأبو بكر الربيعى ، وأبو أحمد الحاكم

( ١ ) أعلام النبلاء للذهبي ( ١٤ : ٤١٧ ) .

وأخرون<sup>(١)</sup> .

روى ابن حبان من طريقه بضعة أحاديث في صحيحه ، وأكثر عنه  
أيما إكثار في الثقات ، وخاصة في الطبقة الرابعة وقد حدث عنه في ستين  
موضعا من كتاب المجروحين تقريبا . كما حدث عنه في روضة العقلاء أيضا .

#### ( ٨ ) الشيخ الثامن : ابن قتيبة اللخمي .

هو الإمام الثقة ، المحدث الكبير أبو العباس محمد بن الحسن بن  
قتيبة بن زيادة اللخمي العسقلاني . كان مسند أهل فلسطين ، ذا معرفة  
وصدق . قال الذهبي : أحسبه توفي سنة عشر وثلاثمائة أو نحوها .

سمع صفوان بن صالح ، وهشام بن عمار ، وإبراهيم بن هشام الغساني  
وبزيد بن عبد الله الإيلي وحرطلة بن يحيى وتدة .

حدث عنه أبو حاتم بن حبان ، وأبو أحمد بن عدي ، وأبو عيسى  
النيسابوري ، وأبو بكر بن العقري<sup>(٢)</sup> وأكثر عنه .

وقد أكثر عنه الإمام ابن حبان ، واعتمده ، فروى من طريقه قرابة مائة  
حديث في المطبوع من صحيحه ، وأكثر عنه كثيرا في الثقات ، وروى عنه في  
السروحين قرابة ستين موضعا كما روى عنه في مواضع كثيرة من روضة العقلاء .

#### ( ٩ ) الشيخ التاسع : أبو عمرو الحراني .

هو الإمام الحافظ المعمر الصادق أبو عمرو الحسين بن محمد بن أبي  
معشر مودود بن حماد السلمي الجزري الحراني ، صاحب التصانيف ، له  
كتاب الطبقات وتاريخ الجزيرة .

ولد بعد العشرين ومائتين ، وأول سماعه في سنة ست وثلاثين  
ومائتين ، ومات سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة .

( ١ ) تذكرة الحفاظ (ص ٨١٤) فما بعدها ، أعلام النبلاء (١٥ : ٣٣) معجم

البلدان (١ : ٥٣٦) .

( ٢ ) تذكرة الحفاظ (ص ٧٦٤) ، النبلاء (١٤ : ٢٩٢) .

سمع مخلد بن مالك السلمسي، ومحمد بن الحارث الراءقي،  
واسماعيل بن موسى الفزاري، وعبد الجبار بن العلاء، ومحمد بن سعيد بن  
حماد الانصاري، ومحمد بن بشار، وعبد الوهاب بن الضحاك، وخلقاً  
سواهم .

قال ابن عدي : كان عارفاً بالرجال والحديث، وكان مع ذلك مفتياً  
أهل حران، شقاني حين سألته عن قوم من المحدثين .

وقال أبو أحمد الحاكم في (الكنى) أبو عمرو : الحسين بن محمد بن  
مودود بن حماد السلمى كان من أثبت من أدركناه، وأحسنهم حفظاً  
يرجع إلى حسن المعرفة بالحديث والفقه والكلام<sup>(١)</sup> .

وقد وثقه ابن حبان فخرج له في صحيحه أكثر من أربعين حديثاً  
ما طبع منه . أما في الثقات فقد روى عنه في مواضع كثيرة، وروى عنه في  
المجروحين في بضعة عشر موضعاً .

#### (١٠) الشيخ العاشر : ابن سنان الطائى .

هو الإمام أحمد بن سعيد بن أحمد بن سعد بن سنان الطائى  
المنبجى أبو بكر المحدث، القدوة العابد .

سمع أبا مصعب الزهرى، وهشام بن عمار، ودحيما، وأحمد بن أبى  
شعيب الحرانى، ومحمد بن قدامة، وطبقتهم .

حدث عنه الطبرانى، وابن حبان، وعبدان بن حميد المنبجى  
وأبو أحمد بن عدى وآخرون .

قال ابن حبان : كان قد صام النهار، وقام الليل ثمانين سنة، غازياً  
مرابطاً، رحمه الله .

قال الذهبي : لم أظفر له بوفاة . ولكنه كان حياً سنة ست وثلاثمائة<sup>(٢)</sup> .

(١) النبلاء (١٤ : ٥١٠) .

(٢) معجم البلدان (٥ : ٢٠٧) ، أعلام النبلاء (١٤ : ٢٩٠) .

وقد روى عنه ابن حبان قرابة خمسين حديثا فيما طبع من صحيحه وأكثر عنه في الثقات، أما في المجروحين فلم يرو من طريقه إلا في بضعة عشر موضعا . وفي عدة مواضع من التروضة .

### (١١) الشيخ الحادي عشر : عمر بن محمد البجيرى .

هو الإمام الحافظ الثبت الجوال ، مصنف المسند ، محدث ما وراء النهر ومصنف التفسير ، والصحيح أبو حفص عمر بن محمد بن بجير الهمداني السمرقندي . كان من أوعية العلم ، ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، وكان أبوه صاحب حديث ، ومن أصحاب عارم وطبقته ، فرحل بابنه عمر إلى الأقاليم وتوفي سنة إحدى عشرة وثلاثمائة .

حدث عن عيسى بن حماد وزغبة ، وبشر بن معاذ العقدي ، وعمرو بن علي الفلاس ، وأحمد بن عبدة الضبي ، وبندار ، وطبقتهم .

حدث عنه محمد بن محمد بن صابر ، ومحمد بن بكر الدهقسان ومحمد بن أحمد بن عمران الشاشي ، وعيسى بن موسى الكسائي ، وأبو حاتم بن حبان وآخرون .

قال الإدريسي : كان فاضلا خيرا ثبتا في الحديث ، له الغاية في طلب الآثار والرحلة <sup>(١)</sup> . وقد أكثر عنه ابن حبان في كل كتبه الموجودة ، فروى عنه قرابة ثمانين حديثا فيما طبع من الصحيح وأكثر عنه في الثقات وروضات العقلاء . أما في المجروحين فقد روى عنه في مائة موضع تقريبا .

وهذا يدل على رفعة شأنه عند ابن حبان ، وعلو كعبه في الحديث والرجال .

### (١٢) الشيخ الثاني عشر : عمران السختياني .

هو الإمام المحدث الحجة الحافظ أبو إسحاق عمران بن موسى بن مجاشع الجرجاني السختياني .

(١) تذكرة الحفاظ (ص ٧١٩) ، البداية والنهاية (١١ : ١٤٩) ، أصلام النبلاء (١٤ : ٤٠٢) .



ولد سنة بضع عشرة ومائتين ، ومات بجرجان سنة خمس وثلاثمائة وهو في  
عشر المائة .

سمع من هدية بن خالد ، وشيبان بن فروخ ، وإبراهيم بن المنذر  
الحزامي ، وأبو الربيع الزهراني ، وسويد بن سعيد وطبقتهم .  
حدث عنه أبو عبد الله بن الأخرم ، والحافظ أبو طي النيسابوري  
وأبو عمرو بن نجيد ، وأبو بكر الإسماعيلي ، وأبو أحمد الغطريفى وخلق كثير .  
قال الحاكم : هو محدث ثبت مقبول ، كثير التصنيف والرحلة ، وقال  
حمزة السهمي كان قد صنف المسند ، حدثنا جماعة عنه . سمعت أبا بكر  
الإسماعيلي يقول : عمران بن موسى السخيتاني صدوق ، محدث جرجان  
في زمانه .<sup>(١)</sup>

أما ابن حبان فقد روى عنه قرابة خمسين حديثا فيما طبع من صحيحه  
وقد أكثر عنه في الثقات . وروى عنه بعض الروايات في الروضة ، أما في  
المجروحين فلم يرو من طريقه إلا في اثني عشر موضعا .

### ( ١٣ ) الشيخ الرابع عشر : ابن المنذر .

هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم بن  
المنذر النيسابوري الفقيه نزيل مكة ، وصاحب التصانيف كتاب " الإشراف في  
اختلاف العلماء " وكتاب " الإجماع " وكتاب " المبسوط " ، وغير ذلك .  
ولد في حدود موت أحمد بن حنبل . وأرخ الإمام أبو الحسن بن  
قطان الفاسي وفاته في سنة ثمانى عشرة وثلاثمائة .

روى عن الربيع بن سليمان ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكيم  
ومحمد بن إسماعيل بن الصائغ ، ومحمد بن ميمون ، وطى بن عبد العزيز ، وخلق  
كثير مذكورين في كتبه .

حدث عنه أبو بكر بن المقرئ ، ومحمد بن يحيى بن عمار الدمياطسى

( ١ ) تاريخ جرجان للسهمي (ص ٣٢٢) ، تذكرة الحفاظ (ص ٧٦٢) ، أعلام  
النبلاء (١٤ : ١٣٦) .

والحسن والحسين ابنا علي بن شعبان ونسبه الحاكم فلم يذكره في تاريخ نيسابور، ولا هو في تاريخ بغداد، ولا تاريخ دمشق فإنه ما دخلها .

قال الشيخ النوارى : له من التحقيق في كتبه ما لا يقاربه فيه أحد وهو في نهاية من التمكن من معرفة الحديث، وله اختيار فلا يتقيد فسى الاختيار بعد هب بعينه، بل يدور مع ظهور الدليل<sup>(١)</sup> .

ولم يرو عنه ابن حبان في صحيحه إلا بضعة أحاديث، وروى عنه فسى الثقات روايات عديدة، أما في المجروحين فلم يرو عنه إلا في موضع واحد وكذلك في روضة العقلاء إلا أن ابن حبان قد تلمذ له في الثقة، وأخذ عنه علم الاستنباط، وإنما قُتت روايته عنه لأنه متأخر الولادة، وعلى هذا فأسانيدُه نازلة، وظلوا الإسناد مهم عند علماء الحديث، وإنما روى عنه بضعة أحاديث في ك إشعاراً بفضله وعلمه وأثره . والله أعلم .

(١) تذكرة الحفاظ (ص ٧٨٢) ، ميزان الاعتدال (٣ : ٤٥٠) ، أعلام النبلاء

٠ (٤٩٠ : ١٤)

المبحث الثالث : تلامذة ابن حبان

إن كثرة تجوال أبي حاتم بن حبان في البلاد ، وتوليه قضاء سمرقند مدة طويلة ، ثم انتقاله إلى ( نسا ) وتوليه قضاءها وتفقيه الناس فيها ، ثم إقامته في ( نيسابور ) ثلاث سنوات ، واستقراره بعد ذلك أربع عشرة سنة في ( بست ) حيث صارت الرحلة إليه لقراءة مصنفاته عليه ، واخذ العلم على يديه ، كل هذا يوحى بكثرة الآخذين عنه ، والمتلمذين عليه ، كما دل على كثرة شيوخه الذين جاوزوا الألفين - كما سبق - .

بيد أن ضياع تواريخ نيسابور ، وسمرقند ، وبخارى ، التي عنيت بعلماء تلك المناطق خاصة ، وأسهبنا في تراجعهم ، جعلنا نجعل الكثير من بعض كبار علماءها ، لأنه لم يتسن لهم الرحلة إلى بغداد ودمشق وغيرهما من البلدان التي مازالت تواريخها موجودة .

وابن حبان الذي أصابه إغفال شديد من معاصريه ومن بعدهم قد احتفظ لنا هو بأسماء ربع أسماء مشايخه الذين أخذ عليهم ، وضاع ثلاثة الأرباع الأخرى ، وحتى الذين بقيت أسماءهم ، لم نحصل على معلومات وافية لأكثر من عشرهم .

أما تلامذته والآخذون عنه ، فقد احتفظ لنا ياقوت الحموي وابن حجر عسكرة والذهبي بأسماء عدد منهم ، لا يتجاوز ثلاثة عشر تلميذا ، لم أعثر لبعضهم على ترجمة ، كما أن بعضهم لا تشير المصادر كثيرا إليه ، ولا تعطى معلومات كافية عنه .

إلا أن الذي يلفت النظر هو أنك تجد في كتب التراجم من يقول في ترجمة راو من الرواة حدث عن الطبراني وابن عدي . . . وطبقتهم ، وابن

---

( ١ ) كما في ترجمة إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل ، ومحمد بن عبد الله بن الجنيد ، وأحمد بن عمرو بن هند البستي ، وغيرهم ممن لم استطع معرفة حالهم ، أولم أعرف مدى كفايتهم العلمية وأثرهم .

حَبَّان من كيار هذه الطبقة وأعلامها ، ومع ذلك فلا يذكرون الرواة عنه .  
والذى استرمى انتباهي هو عدم ذكر تلمذة الإمام الخطابي عيسى  
الإمام ابن حَبَّان مع أنه بلديه ، ومن طبقة كيار تلامذته .  
كما استكرر أصحاب كتب التراجم أن يقولوا بأن الدارقطني تلمذ لابن  
حَبَّان ، وأخذ عنه .  
ويحسن أن أتناول هذا المبحث بعدة مطالب :

### المطلب الأول : صلة الدارقطني بابن حبان

مما لا ينكر أن أبا الحسن الدارقطني جيل من جبال العلم، وعلم من أكبر علماء القرن الرابع الهجري في الحديث والفقه والقراءات والأدب وفيما خلفه من تراث اعظم الدلالة على بعض ما ذكرت .

ولد أبو الحسن علي بن عمرو بن أحمد بن مهدي الدارقطني البغدادي سنة ست وثلاثمائة وسمع البغوي وابن أبي داود وابن صاعد وخلائق لا يحصون كثرة . وسمع منه خلائق وتوفى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة .

ولا يخفى أن البغوي وابن أبي داود من شيوخ ابن حبان ، فسير ابن البغوي توفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، والد دارقطني ابن إحدى عشرة سنة وهذا يعني أنه كان صغيراً حين سمع منه ، ولأنه أكبر شيوخه فقد حرص على كثرة الرواية عنه لعلواستناده غير أنه لم يسمع منه كل ما عنده ، لصغر سنه ولهذا قال ابن طاهر : للدارقطني مذعب خفي في التذليل ، يقول فيما لم يسمعه من البغوي ، قرى علي أبي القاسم البغوي حدثكم فلان (١) .

ولم يرو الدارقطني في كتبه شيئاً عن ابن حبان ، والذي يبدو لي أنه كانت بينهما معرفة وصلة فكتاب المجروحين يرويه الدارقطني عن ابن حبان بالإجازة . فقد جاء في الورقة الأولى من كتاب المجروحين ، الجزء الأول من كتاب المجروحين من المحدثين ، تصنيف أبي حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي رحمة الله عليه .

رواية أبي الحسن علي بن عمرو بن أحمد الدارقطني الحافظ إجازة عنه . وقد تكرر هذا في أجزاء الكتاب جميعها . إلى جانب وجود تعليقات كثيرة للدارقطني على المجروحين .

وقد روى ابن الجوزي في كتابه العلل المتناهية تسعة وتسعين حديثاً من كتاب المجروحين ، فقال في سبعة وتسعين موضعاً منها :

(١) انظر تذكرة الحافظ (ص ٩٩١-٩٩٥) ، النبلاء (١٦: ٤٥١) .

أنيابنا ابن خيرون - أو محمد بن عبد الملك - قال أنيابنا الجوهري عن  
الدارقطني عن ابن حبان<sup>(١)</sup> .

وقال في أحد الموضوعين الآخرين : أنيابنا محمد بن عبد الملك ، قال  
أنيابنا أبو محمد الجوهري ، قال : أنيابنا الدارقطني عن ابن حبان البستي<sup>(٢)</sup> .

وقال في الآخر : أنيابنا محمد بن أبي طاهر البزار ، قال : أنيابنا  
الحسن بن علي ، قال : أنيابنا علي بن عمر - الدارقطني - عن أبي حاتم  
البستي .

فهل صيغة ( عن ) التي تفيد التبدليس عند من عرف به ، تسوغ لمن  
يروى بالإجازة ؟

وهل هذا من تصرف ابن الجوزي ، أو الدارقطني ، أو من بينهما ؟  
والذي يعنيننا أن ثمة صلة كانت بين الدارقطني وابن حبان ، وقد أجاز  
الثاني للدارقطني رواية كتابه المجروحين ، وإلا فكيف يروى الكتاب من طريقه ؟  
ثم وقفت على كلام صريح يؤكد أن الدارقطني قد اتصل بابن حبان  
وقرأ عليه بعض كتابه المجروحين ، وربما غيره ثم إجازته .

ففي ميزان الاعتدال للذهبي<sup>(٣)</sup> :

قال أبو الحسن الدارقطني : أخبرنا ابن حبان في كتابه ، قال :

علي بن موسى الرضا يروى عنه عجائب ، يهيم ويخطئ .

وهذا النص يجعلني أجزم بتلمذة الدارقطني لابن حبان ، كجزءنا  
بتلمذة ابن حبان للنسائي ، ولو لم نجد نصا واحدا في كتب ابن حبان يرويه  
عن النسائي .

( ١ ) انظر على سبيل المثال الأرقام : ( ١ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٤ ) .

١١٦٦ ، ١١٨٦ ، ١٥٥٢ ) .

( ٢ ) انظر رقم ( ٨٥٢ ) ورقم ( ١١٦٦ ) من العلل المتناهية .

( ٣ ) ميزان الاعتدال ( ٣ : ١٥٨ ) . ومن المحتمل أن يكون إبراهيم بن أحمد

ابن شاذان من تلامذته ، فإن له على المجروحين تعليقات .

### المطلب الثاني : صلة الإمام الخطابي بابن حبان

لم تذكر المصادر أية صلة بين هذين العلمين اليستيين ، كما لم يذكر احد من أصحاب كتب التراجم - فيما أطلعت عليه - صلة الخطابي لابن حبان .

وقد تتبعت كتابي غريب الحديث والعزلة للخطابي ، فلم أقف على رواية صريحة واحدة من طريق ابن حبان .

غير أنني لمست ما يمكن الاعتماد عليه في إثبات تلمذة الخطابي لابن حبان ، أوجزه فيما يأتي :

( أ ) لقد ولد الإمام الخطابي <sup>(١)</sup> حمد بن محمد بن إبراهيم البستي سنة تسع عشرة وثلاثمائة وأكبر شيخ تقيه أحمد بن محمد بن زياد بسن الأعرابي شيخ الحرم ، وهو من شيوخ ابن حبان أيضاً . وقد كان ابن حبان في تلك الفترة قد انتهى - تقريباً - من تأليف مصنفاته ، وكتابه (المجروحين) انتهى من تأليفه سنة (٣٣٤) وقد ألفه بعد كتاب الثقات كما سيأتي . وهذا يعني أن ابن حبان كان في غاية نضجه والإمام الخطابي يافع بعد .

ومعلوم أن الخطابي قد انتقل إلى بخارى وسمرقند ونيسابور ، وقد كان ابن حبان من أبرز علماء تلك الديار ، فما الذي يمنعه من الأخذ عنه ؟

( ب ) لقد أشار الخطابي إلى محنة ابن حبان في كتابه العزلة قال :  
( وفي العزلة الأمان ببلد بست خاصة من داهي الكنف الشارسة والشاعب السائلة ، فإن جنابيتها عند أهلها جناية لا ارش لها ، ودماء قتلاها مطلوبة ، لا عقى ولا قود فيها فكلما قل بروز الإنسان إليها وعيوره عليها كان أوفر لمروته ) <sup>(٢)</sup> . وقال :

( ١ ) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ - (ص ١٠١٨) ، مقدمة غريب الحديث

( ١ : ٨ - ٢٢ ) .

( ٢ ) العزلة (ص ٣٣) وأنظر (ص ١١٠ ، ٢٥٠ ، ٢٩ - ٣٠ ) .

( ولولم يربح الإنسان في العزلة والتخلي عن الناس، وعن مساوئهم  
والانقطاع عن محاورتهم إلا ما يكفاه من فضل مؤنة التحرز منهم، وما يستقيسده  
من الأمان : أن يرفضوا عليه قولاً يسمعونته يتكلم به في حال غفلة واسترسال  
أو تأولوا عليه كلاماً لا تبلغ عقولهم كنهه فيوجهوه إلى غير جهته، وينحلوه  
غير صفته، لكان فيه كفاية كافية . . . . )<sup>(١)</sup>

وقد ذكرت سابقاً أن ابن حبان اتهم بالزندقة، ورفع فيه كتاب السنن  
الخليفة، فجاء أمر الخليفة بقتله .

ومن ذا الذي يستطيع أن يحدث عن رجل، جاء أمر الخليفة بقتله  
وهو متهم بالزندقة والإلحاد ؟

فعل مثل هذا هو الذي منع الخطابي من التصريح باسم ابن حبان  
بل لعله ألف كتاب العزلة تأثراً بما حدث لذلك العلم الشامخ، الذي ربما  
سمعوا منه قولاً في حال غفلة واسترسال، أو تأولوا عليه كلاماً لم تبلغه عقولهم  
فوجهوه إلى غير وجهته .

( ج ) ولقد أكثر الإمام الخطابي في كتابيه غريب الحديث والعزلة من إغفال  
اسم شيخه بن الإسناد، ومثل هذا لا يقوه أصحاب الحديث . كما  
هو معلوم، فلولم يكن لهذا الشيخ قصة ما كان من مرور لإغفال اسمه  
حتى ولو كان ضعيفاً، لأنه تسمية للمحدث في حديثه أحياناً .

وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك عليها تساعد في تقوية ما اذهب إليه .  
( ١ ) قال في العزلة : حدثونا عن الخلادي قال : حدثنا عبد الله بن صقر .  
وقال ابن حبان في الروضة أنبأنا محمد بن أبي علي الخلادي، حدثنا  
عبد الله بن الصقر السكري<sup>(٢)</sup> . وقد ذكر عدة روايات في العزلة عن  
الخلادي يغفل فيها شيخه، وابن حبان تلميذ الخلادي ويرجح عندي  
أن هو المغفل .

---

( ١ ) العزلة (ص ٢٧) .  
( ٢ ) انظر العزلة (ص ٧) وقارن بروضة العقلاء (ص ١٠٠) ، وانظر العزلة  
(ص ٣٨، ٣٩، ٧٠) .



( ٢ ) وقال في العزلة : أخبرني بعض أصحابنا ، قال : حدثنا سعيد بن

عبد العزيز ، قال : حدثنا أحمد بن أبي الخوارى .

وسعيد بن عبد العزيز شيخ ابن حبان ، حدث عنه في الثقات  
والمجروحين والصحيح (١) .

( ٣ ) صح الخطابي باسم محدثه عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل

البيستي ، وعن محمد بن عمرو بن عباد (٢) وعن محمد بن عبد الله بن

الجنيد في مواضع عديدة . وهؤلاء الثلاثة من شيوخ ابن حبان ففى

" بست " .

إلا أنه أقل اسم محدثه عن محمد بن عبد الله بن الجنيد فى كثير من

المواضع ، كما أقل غيره أيضا .

( ٤ ) قال فى غريب الحديث : ( ولسنأى عن سفيان بن عيينة ، أنه قال لو كعب

ابن الجراح وهو يذاكره : ما معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم

" الحساب المال ؟ " فقال وكعب : أراد أن الرجل إذا كان ذا مال عظمه

الناس ، فقال سفيان : ليس كذلك إنما هو قول أهل المدينة ، إذا لم

يجد نفقة زوجته فرق بينهما .

حدثني بعض أصحابنا ، نا محمد بن عبد الله بن الجنيد ، نا سويد ، نا

علي بن الحسين بن واقد عن أبيه عن عبد الله بن بريدة عن أبيه

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" أحساب أهل الدنيا المال " (٥) .

( ١ ) انظر ترتيب صحيح ابن حبان ( ٤ : ٨٢ ب ) ، ( ٧ : ٢١٤ ب ) ، الثقات

( ١ : ٣٤٥ ) ، المجروحين ( ١ : ٣٤٥ ) .

( ٢ ) غريب الحديث ( ١ : ٢٠٨ ) .

( ٣ ) ماسبق ( ١ : ١٨٦ ) .

( ٤ ) ماسبق ( ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ٢٠٥ ، ٢١٨ ) .

( ٥ ) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ( ٥ : ٣٥٣ ، ٣٦١ ) ، والنسائى فى

التكاح باب الحساب ( ٦ : ٥٣ ) ، وابن حبان فى صحيحه ( ١٢٣٤ ) مؤاره

كثير من بريدة مرفوعا . وقد أخطأ محقق كتاب غريب الحديث فقسال

عن سمرة ( ١ : ٩٩ ) .

وهذا الحديث أخرجه ابن حبان فقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن  
الجنيد "بست" حدثنا سويد بن نصر بن سويد السروزي ، حدثنا  
علي بن حسين بن واقد عن أبيه . . . فذكر نحوه .

( ٥ ) وقال أيضا ( وقد روى محمود بن خالد الدمشقي عن الوليد بن

الاوزاعي أنه قال في هذا الحديث : سره آخره .

هكذا حدثناه أصحابنا عن إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل ، ثنا  
محمود بن خالد ) .

واسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل النسفي من شيوخ ابن حبان الذين  
أكثر عنهم في سائر كتبه وقد صح الخطابي بمحدثه عنه - كما سبق -  
فلم أغظه هنا ؟

( ٦ ) وروى الخطابي حديث ( هل صنعت من سرر شعبان شيئا ؟ فقال : لا ،

قال : فإذا أفطرت - يعني من رمضان - فصم يومين )<sup>(١)</sup> ثم قال الخطابي :

( كان بعض أهل العلم يقول في هذا : إن سؤاله سؤال زجر وإنكار  
لأنه قد نهى أن يستقبل الشهر بيوم ، أو يومين ) .

وقد روى ابن حبان هذا الحديث في صحيحه ثم قال :

( قوله صلى الله عليه وسلم " أصمت من سرر هذا الشهر لفضلة استخبار

عن فعل مرادها الإعلام بتفني جواز استعمال ذلك الفعل المستخبر عنه كالمتكبر  
عليه لو فعله ) .

وكان ابن حبان قد روى حديث ( لا تقدموا صيام شهر رمضان بصيام يوم

أو يومين إلا رجل كان يصوم صياما قليما )<sup>(٢)</sup> . فقد نقل عن ابن حبان فصرح

كلامه - كما ترى - .

كل هذه إشارات وقوافل يمكن الركوب إليها ، في إثبات صلة بسنن

الخطابي وشيخ بلاده يومئذ .

( ١ ) غريب الحديث ( ١ : ١٣٢ ) .

( ٢ ) صحيح ابن حبان ( ٥ : ٢١٥ ) ، وانظر ( ٥ : ٢١٤ ب ) .

### المطلب الثالث : الحاكم أبو عبد الله النيسابوري

هو الحافظ الكبير إمام المحدثين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم الضبي الطهماني النيسابوري ، المعروف بابن البيع ، صاحب التصانيف ، ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، وطلب الحديث من الصَّغَرِ باعتناء أبيه وخاله ، فسمع سنة ثلاثين ، ورحل إلى العراق وهو ابن عشرين ، وحج ثم جال في خراسان وما وراء النهر ، وسمع بالبلاد من ألفي شيخ ، أو نحو ذلك<sup>(١)</sup> .

وحين قدم ابن حبان نيسابور سنة أربع وثلاثين استملى عليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة<sup>(٢)</sup> .

روى عن أبيه ، ومحمد بن علي بن عمر المذكر ، وأبي العباس الأصم وأبي علي الحافظ وانتفع بصحبته ، وما زال يسمع ، حتى سمع من أصحابه وكان يناظر الجعابي والدارقطني ونحوهما ، وقد سمع منه من شيوخه أحمد بن أبي عثمان الحيري ، وأبو إسحاق المزكي .

وحدث عنه الدارقطني وأبو الفتح بن أبي الفوارس ، وأبو العباس الواسطي ، وأبو يعلى الخليلي ، وأبو بكر البيهقي ، وأبو القاسم القشيري . . . . . وخلائق .

وقد قرأ القراءات على ابن الإمام ، ومحمد بن أبي منصور الصرام ، وأبي علي بن النُّقار الكوفي .

وقرأ المذهب على أبي علي بن أبي هريرة ، وأبي سهل الصعلوكسي وأبي بكر حسان بن محمد .

قال الخطيب البغدادي : أبو عبد الله الحاكم ، كان ثقة ، يميل إلى التشيع . قال ابن طاهر : سألت أبا إسماعيل الأنصاري عن الحاكم فقال : ثقة في الحديث ، رافض خبيث . ثم قال ابن طاهر : كان شديد التعصب

( ١ ) تذكرة الحفاظ ( ص ١٠٣٩ ) .

( ٢ ) أعلام النبلاء ( ١١ : ١ : ٧٠ ) .

لشبهة في الباطن ، وكان يظهر التمسك في التقديم والخلافة وكان منحرفاً  
عن معاوية وآله ، وما ظهر بذلك ولا يحتدر منه .

قال الذهبي : أما أنصروه من خصم على فظايره ، وأما أمر الشيعة  
فمعظم لهما بقي حال فهو شيعي لا رافضي . . . تنهى الحاكم في سفر سنة  
خمسة وأربعين ، رحمه الله تعالى<sup>(١)</sup> .

وأبو إسحاق الأنصاري المبرور هو نفسه الذي نقل اتهام ابن حبان  
بما اتهم به كما سيأتي .

وأما الحاكم فليس رافضي ولا شيعي ، وألا فكيف يصف بعض الرواة  
بالتشيع ويضعه في الباب الرابع .

ولقد صنف الحاكم من الكتب ما يقارب ألف جزء حديثي من تخريج  
الصحيحين ، والعلل ، والتراجم ، والأبواب ، والشيوخ ، ثم المجموعات مثل  
معرفة علوم الحديث والمستدرک على الصحيحين وتاريخ نسابور ، وكتاب بزكّي  
الأخبار ، والمدخل إلى معرفة الصحيحين ، وكتاب الإكمال ، ونضائـ  
الشافعي ، وغير ذلك<sup>(٢)</sup> .

وقد وصل إلينا من مصنفاته المستدرک على الصحيحين ، والمدخل  
إلى معرفة كتاب الإكمال ، ويسمى المدخل إلى الإكمال ، ومعرفة علوم الحديث  
والمدخل إلى معرفة الصحيحين ، وثلاثين ورقة من كتابه تسمية من أخرج لهم  
الشيخان وغير سؤالاته ونوائده وحديثه<sup>(٣)</sup> .

(١) أنصرت ترجمة الحاكم في التذكرة (ص ١٠٣٩-١٠٤٥) ، أعلام النبلاء  
(١٧٢: ١٧٢) فما بعد ، تاريخ بغداد (٤٧٢: ٥) ، شذرات الذهب  
(٣: ١٧٦) ، طبقات الفقهاء لابن الجزري (٢: ١٨٤) ، وفيات الأعيان  
(١: ٤٨٤) تبين كذب المفتري (ص ٢٢٧) ، البداية والنهاية  
(١١: ٣٥٥) وغيرها .

(٢) تذكرة الحفاظ (ص ١٠٤٣) .

(٣) موارد النقطيب البغدادي (ص ٢٦٨) ، تاريخ الثقات العربيين  
لسزكين (١: ٥٤٦) . وقد جعل الدكتور العمري الكتابين كتاباً  
واحداً أعطاه اسمين هما المسمى واحد ، فتنبه .

وقد طبع من كتبه - فيما أعلم - المستدرك ، ومعركة طوم الحد بيست  
 والمدخل إلى الإكمال . ولدى نسخة من كتاب " المدخل إلى معرفة  
 الصحيحين " في أربع وسبعين ورقة مخطوطة . وهو غاية في الأهمية  
 بالنسبة للصحيحين . وقد نوقش هذا الكتاب كرسالة ماجستير في جامعة  
 الإمام محمد بن سعود <sup>(١)</sup> .

---

(١) صدر الجزء الأول منه بتحقيق الدكتور ربيع بن هادي .

المطلب الرابع : الحافظ الخزاز

الحافظ الخزاز محدث ما وراء النهر أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن سليمان بن كامل البخاري ، صاحب تاريخ بخاري .  
قال الذهبي : حدثت عن خلف بن محمد الخيام ، وسهل بن عثمان السلمي ، وأبي عبد الله أحمد بن عمرو الكوفي ، ومحمد بن حفص بن أسلم . . .  
وخلق كثير ، ولم يرخل .  
حدثت عنه أبو العظمر هناد بن إبراهيم النسفي . قال : لم أشفر له  
بترجمة كما ينصني .

ومات سنة اثنتي عشرة وأربعمائة<sup>(١)</sup> . وذكر ياقوت من تلاميذه أبا زكريا  
عبد الرحيم بن أحمد البخاري الحافظ .<sup>(٢)</sup>

قال ابن ناصر الدين : كان حافظاً ثقة مصنفاً<sup>(٣)</sup> .  
وكتابه "تاريخ بخاري" من أهم الكتب التي عنيت بتراجم علماء بلاد  
ما وراء النهر ، ولذلك فقد اعتمد عليه الخطيب وابن ماكولا ، والسمعاني  
والذهبي والسبكي وياقوت وابن كثير وابن حجر وغيرهم ، في تراجم علماء  
هاتيك البلاد .

وقد بلغت النصوص التي نظمها الخطيب البغدادي في تاريخه من  
كتاب خزاز مائة موضع وخمسة عشر موضعاً . وكما تتناول تراجم رجال  
الحديث من أهل بخارى والوارثين فيها ، وهو يذكر تواريخ وفياتهم وأحياناً  
مواليدهم ، وأحياناً مكاناتهم وجرحهم ، وبعض الأحياء بيت النبوية التي يروونها  
من طريقهم<sup>(٤)</sup> .

- (١) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص ١٠٥٢) ، طبقات الحفاظ (ص ٤١٢)  
العبر في أخبار من عبر للذهبي (٣ : ١٠٨) ، الإشارة إلى وفيات  
الأعيان للذهبي (ق ١٠٤) ، وأرخ وياتك هناك (٤١١) ، شذرات  
الذهب (٣ : ١٩٦) .  
(٢) معجم البلدان (١ : ٣٥٥) .  
(٣) الشذرات (٣ : ١٩٦) .  
(٤) موارد الخطيب البغدادي (ص ٢٧٧) فما بعدها .

المطلب الخامس: الحافظ ابن مندة

الإمام الحافظ الجوال محدث العصر أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي يعقوب إسحاق بن الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى بن مننده الأصبهاني المصدي .

ولد الحافظ أبو عبد الله سنة ثمان وثلاثمائة ، وتوفي في الحزب ثمان وثلاثمائة وتوفي سنة خمس وتسعين وثلاثمائة . كان فارسى النسب ، وكانت أم جده من بنى عبد يالم فتيل المصدي ، فنسب إلى أجداده .

قال الذهبي : أبنى ما رأيت أنه سمع سنة ثمان عشرة وثلاثمائة وأول ارتحاله قبل الثلاثين أو فيها إلى نيسابور .

قال أبو طي الحافظ : بنو مندة أعلام الحفاظ في الدنيا قديماً وحديثاً ، أتوا إلى قريحة أبي عبد الله ، وتوفي : إن أبا نعيم ذكر له ابن مندة ، فقال : كان جيلاً من الجبال<sup>(١)</sup> .

وقال أبو نعيم : حافظ من أولاد المحدّثين ، كتب بالشام ومصر وخراسان ، واختلط في آخر عمره ، فحدث عن أبي أسيد ، وابن أخي أبي زرععة وابن الجارود ، بعد أن سمع منه أن له عنهم إجازة ، وتخصّط أيضاً في أهل بيته ونسب إلى جماعة أقوالاً في الصحاحات ثم يعرفون بها ، نسأل الله جميل الستر والصيانة برحمته<sup>(٢)</sup> .

قال الذهبي : لا يعياً بقولك في خصمك للعداوة المشهورة بينكم كما لا يعياً بقوله فيك . فقد رأيت لابن مندة مقالا في الخططى أبي نعيم من أجل العقيدة ، أقدح فيه ، وكان منهما صدوق غير متهم في الحديث<sup>(٣)</sup> . وقد ذكرت المصادر لابن مندة ثمانية كتب ، فذكره الكنائى كتاباً في<sup>(٤)</sup>

- 
- (١) تذكرة الحفاظ للذهبي (ص ١٠٣١ - ١٠٣٦) ، وانظر طبقات الحفاظ (ص ٤٠٨) ، وذوات الذهب (٣ : ١٤٦) .  
 (٢) ذكر أخبار أصبهان لأبي نعيم (٢ : ٣٠٦) .  
 (٣) التذكرة (ص ١٠٣٤) .  
 (٤) الرسالة المستطرفة للكنائى (ص ٥٣ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٩ ، ١٢٣) .

السُّنَّة (التوحيد) وكتاب (معجم الصحابة) وقال : هو كتاب جليل حافل  
قال ابن عساكر : وله فيه أوام كثيرة ، وتاريخ أصبهان ، وحوالي سفيان بن  
صبيبة ، والأمالى ، والأسماء والكنى .

( وقد بقي من مصنفاته : الجزءان السابع والثلاثون ، والثامن  
والأربعون من كتابه في معرفة الصحابة ، وبعض أماليه ، وكتاب الإيمان على  
رسم الاتفاق والتفرق ، وكتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله تعالى ، وورقتان في  
نقد أبي حنيفة - رضي الله عنه - )<sup>(١)</sup> .

هؤلاء أبرز تلاميذ ابن حنَّان وأشهرهم في العلم والفضل ، وقد ذكرت  
المصادر من تلاميذه جعفر بن شعيب بن محمد السمرقندي ، والحسن بن  
محمد بن سهل الفارسي ، وطى بن منصور بن عبد الله الإسفنجابي أبا الحسن<sup>(٢)</sup>  
وعبد الله بن محمد بن إبراهيم بن سلمة الحنطلي ، وعبد الرحمن بن محمد بن  
رزق السجستاني (٤٢٦ هـ) ، ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن غشنام  
الشروطي ، ومحمد بن أحمد بن عبد الله بن منصور التوقانسي  
وأبا الحسن محمد بن أحمد بن محمد بن هارون الزوزني ، وأبا طي منصور بن  
عبد الله الخالدي الذُّعَلِي وأبا مسلمة محمد بن محمد بن داود الشافعي<sup>(٣)</sup>  
والشاعر أبو الفتح البستي المشهور ومحمد بن حميد .

- 
- (١) موارد الخطيب البغدادي (ص ٤٠) ، وانظر بحوث في تاريخ السُّنَّة  
المعروفة للعمري (ص ٦٩-٦٠) .
- (٢) معجم البلدان (٤١٦: ١) ، وله ترجمة في طبقات المفسرين الشُّروطي  
(ص ٣٦-٣٧) .
- (٣) ماسبق (٤١٦: ١) وقارن بها (١٨٠: ١) ، وقد ذكر في بعض المواضع  
باسم الحسن بن منصور .
- (٤) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠١: ١٠) .
- (٥) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٠١: ١٠-٥٠٢) ، أعلام النبلاء (١٠: ٣ :  
٣٣١) فباب مد ، معجم البلدان (٤١٦: ١) فما بعدهما . وانظر  
تاريخ بغداد (١٣: ١٤) في ترجمة منصور الخالدي .
- (٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب (٢: ٢١٩) .



### الفصل الرابع

#### فقه الإمام ابن حبان

#### تمهيد :

إن الذي ينظر في كتاب الأنواع والتقسيم لابن حبان ، يجد الرجل فقيها أصوليا ، عميق الغور في سيرة سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بارعا في استنباط الأحكام من النصيب .  
ولأدلة على ذلك من اختراجه العجيب ، وتصنيفه الثريد للشئ من الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
فقد رأى ابن حبان أن الغاية من معرفة السنن وحفظها ، الفقه في الدين ، واتباع سيد المرسلين في أحكام الشريعة ، فأطال التفكير في أقسام السنن فوآها تدور على خمسة أقسام : الأوامر التي أمر الله عباده بها والنواهي التي نهى الله عباده عنها ، والثالث : الأخبار التي يحتاج المسلم إلى معرفتها ، وحكم كل نوع منها ، والرابع : الإباحات التي بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والخامس : الأفعال التي انفرد النبي صلى الله عليه وسلم بفعلها .

وتدور الأوامر الواردة من المصطفى صلى الله عليه وسلم فوجد هنا تدور على مائة نوع ومائة أنواع<sup>(١)</sup> وكذلك كانت أنواع النواهي مائة نوع ومائة أنواع . أما الأخبار فكانت مائة نوع<sup>(٢)</sup> والإباحات تدور على خمسين نوعا<sup>(٣)</sup> وكذلك كانت أفعال النبي صلى الله عليه وسلم خمسين نوعا . فالسنة كلها

- 
- (١) صحيح ابن حبان (٢٤:١) .  
(٢) ماسبق (٢٥:١) .  
(٣) ماسبق (٤٦:١) .  
(٤) ماسبق (٥٧:١) .  
(٥) ماسبق (٦٧:١) .  
(٦) ماسبق (٧٤:١) .

تنقسم إلى خمسة أقسام ، وتتفرع إلى أربعمائة (١) نوع .  
ولاريب أن تصنيف صحيح السنة على هذه الأقسام ، وتنويعها إلى  
هذه الأنواع الأربعمائة دليل فقه عظيم ، وفهم دقيق ، وحاشة أصولية بارعة .  
بيد أن المصادر التي بين أيدينا تشير إلى كون ابن حبان شافعيًا  
وهذا يعني أنه صنف تقاسيمه وأنواعه حسب المذهب الشافعي وخدمة له  
وهذا يقلل من قيمة صحيحه ، ويجعله مذهبيًا يلوي الأدلة لتوافق مذهبه  
شأن كثير من المصنفين في فقه المذاهب .  
إلا أن دراسة صحيح ابن حبان تعطي صورة أخرى من الرجس  
وتدل على أنه كان يدور مع الدليل ، وإن خالف مذهب إمامه الشافعي  
- رحمهما الله تعالى - .  
ويحسن قبل أن أخوض في عرض نماذج من فقه ابن حبان ، وأبين منهجه  
في الاستدلال أن أحدد مذهبه الفقهي ، لئلا تشتت علينا الأمور ، أمام زحمة  
الاختلافات النقمية فيما بعد .

---

(١) صحيح ابن حبان (٧٩:١) .

### المبحث الأول : مذهب ابن حبان الفقهى

إنَّ ابنَ حَبَّانٍ من حيث المبدأ شافعى المذهب، ويعتز بانتسابه إلى الإمام الشافعى ويرى أنَّ للشَّافعى من المآثر ما لم يسيقه أحد من العلماء إليها، ولم يلحقه أحد إلا كان عالة عليه .

قال رحمه الله تعالى : ( للشَّافعى رحمه الله ثلاث كلمات، ما تكلم بها أحد في الإسلام قبله، ولا تفوق بها أحد بعده، إلا والى أخذ فيها كان منه .

( ١ ) إحداهما : أنى سمعت ابن خزيمة يقول : سمعت المزنى يقصِّط

سمعت الشَّافعى يقول : إذا صحَّ لكم الحديث عن رسول الله صلَّى

الله عليه وسلَّم، فخذوا به ودهوا قولى .

( ٢ ) والثَّانية : أخبرنى محمد بن المنذر بن سعيد عن الحسن بن محمد

ابن الصباح الزعفرانى عن الشَّافعى قال : ما نظرت أحدا قط فأحببت

أن يخطئ .

( ٣ ) والثَّالثة : سمعت موسى بن محمد الدبلى بأنطاكية، سمعت الربيع بن

سليمان يقول : سمعت الشَّافعى يقول : وددت أن النَّاس تعلموا هذه

الكتب، ولم ينسبوها إلى<sup>(١)</sup> .

والذى يعنيننا فى فقه ابن حَبَّانٍ رحمه الله النخلة الأولى ( إذا صحَّ

الحديث فخذوا به ودهوا قولى ) . فقد تمسَّك بها ابن حَبَّانٍ أيضا تمسَّك

ورأى أن من تمام الانتساب إلى مدرسة الإمام الشَّافعى، تطميق هذه القاعدة

فضلا عن كونها أصلا شرعيا لى عالم قادر .

قال تعقيبا على حديث بسرة بنت صفوان : ( من مسَّ ذكره فليتوضأ )<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) صحيح ابن حَبَّانٍ ( ٤٣٥ : ٣ ) .

( ٢ ) أخرجه ابن حَبَّانٍ فى صحيحه ( ٣١٥ : ٢ ) ، ومالك فى الموطأ فى كتاب

الطهارة باب الوضوء من من الطَّوَج ( ٤٢ : ١ ) ، وأبو داود فى

الطهارة باب الوضوء من من المذكور رقم ( ١٤١ ) ، والترمذى فى الطهارة

الباب نفسه رقم ( ٨٢ - ٨٤ ) ، والمسائى فى الطهارة الباب نفسه

( ٨٣ : ١ - ٨٤ ) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح ، وفى

الباب من أم حبيبة ، وأبى أيوب، وأبى هريرة، وأبى أنيس، ومعاوية

وجابر، وزيد بن خالد، وصدة الله بن عمرو . قال : وهو قول غير واحد من =

وفي بعض طرقه مروان بن الحكم الأموي :

عائد بالله أن نحتج بخبر رواه مروان بن الحكم وذويه في شيء من كتبنا لأننا لا نستحل الاحتجاج بخبر الصحيح من سائر الأخبار، وإن وافق ذلك مذهبنا، ولا نعتمد إلا على المنتزح من الآثار، وإن خالف ذلك قول أئمتنا .

وأما خبر بسرة الذي ذكرنا فإن عروة بن الزبير سمعه من مروان بن الحكم عن بسرة فلم يقنعه ذلك، حتى بعث مروان شرطيا له إلى بسرة فسألها ثم أتاهم فأخبرهم بمثل ما قالت بسرة، فسمعه عروة ثانية عن الشرطي عن بسرة متصل وليس بمنقطع، وصار مروان والشرطي كأنهما عاريتان يستطآن من الإسناد<sup>(١)</sup>

وقال عقب مناقشت مسألة خالف فيها مذهب الإمام الشافعي رحمه

الله تعالى :

( ولا يتوهمون متوهم أن الجمع بين الأخبار على حسب ما جمعنا منها في هذا النوع من أنواع السنن يضاد قول الشافعي - رحمه الله ورضوانه عليه - وذلك أن كل أصل تكلمنا عليه في كتبنا، أو فرع استنبطناه في مصنفاتنا هي كتبنا قول الشافعي - رحمه الله - وهو راجع عما في كتبه، وإن كان ذلك المشهور من قوله، وذلك أني سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت العزني يقول: سمعت الشافعي يقول: "إذا صح لكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا به، ودعوا قولي". والشافعي - رحمه الله عليه - في كثرة عنايته بالسنن، وجمعه لها، وتفقيه فيها، وذب عنه عن حريمها، وقمعها من مخالفتها، زعم أن الخبر إذا صح فهو قائل به، راجع عما تقدم من قوله في كتبه، وهذا مما ذكرناه في كتاب "الميزان"<sup>(٢)</sup> .

= أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. وبه يقول الأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق . وانظر تمام تخريجه والكلام عليه للمرحوم العلامة أحمد شاكر هناك في سنن الترمذي (١: ١٢٦-١٣٠) .

(١) صحيح ابن حبان (٢: ٣١٥) .

(٢) صحيح ابن حبان (٢: ٤٣٥) .

فابن حبان - رحمه الله - من مدرسة الإمام الشافعي ، وأتباعه نسي  
أصول النظر والاستدلال ، إذ الشافعي وأضح ذلك العلم ، ومؤسس علم أصول  
الفقه . إلا أن أبا حاتم بن حبان إمام مجتهد له افتراقاته الخاصّة  
التي خالف فيها الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، كمسألة الوضوء من لحم  
الجزور ، ومسألة صلاة المأموم قائدا إذا صلى إمامه قائدا ، وغير ذلك من  
المسائل التي سأعرض لبعضها في فقهه .

## المبحث الثاني : أصل الاستدلال عند ابن حبان

تمهيد :

يعتقد ابن حبان في استنباطاته الفقهية على أصل ، وقواعد ، ترى كثيرا منها ماثورا في ثنايا كتبه الموجودة بين أيدينا ، وجميع أصل الاستدلال وقواعده موجودة في كتاب الله لهذا الغرض ، سواه "شرايط الأخبار" . فقد فقد مع ما فقد من كتبه الكثيرة .

وقد ذكر ابن حبان في كتبه الموجودة بين أيدينا ألفاظا أصولية كالعام والخاص ، والمجمل والبيان والمفسر ، والناسخ والمنسوخ ، وكيفية الجمع بين الأخبار المتضادة في الظاهر ، والاحتجاج بغير الواحد ، وغير ذلك من الألفاظ الأصولية الكثيرة ، التي سأذكر بعضها فيما بعد .

ولا يسعني في بحث يتحدث عن "الجرح والتعديل" أن أفيض فسي مثل هذه المسائل لذا فأنني سأشير إشارات سريعة إلى منهجه فسي الاستدلال ، تاركا الإسهاب لمن يريد الكتابة في "فقه ابن حبان" مثلا .

وتنحصر أصل الاستدلال عند ابن حبان في : الكتاب والسنة والإجماع والقياس واضح العلة . أما المقاييس المعكوسة ، والآراء المنكوسة - على حد تعبيره - فلا يقيم لها وزنا ، بل يستعيز بالله تعالى منها . ومن الركون إلى أصحابها وأدعيائها .

وأنني في عرضي لأصل الاستدلال عند ابن حبان ، سأقتصر على ذكر هذه الأدلة ، وإثبات اعتمادها عليها ، دون التمثيل لذلك ، ومن غير مقارنة آرائه بآراء غيره من العلماء لأن مثل هذا يتطلب وقتا وجهدا ودراسة خارجة من قصدنا وموضوعنا .

( ١ ) الأصل الأول : الكتاب الكريم .

الكتاب : هو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، المنقول إلينا بالتواتر ، المتعبد بتلاوته ، المعجز بأقصر سورة منه ، المجموع بين دفتي المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .  
والله قد أرسل بهذا الكتاب رسوله ، وجعله إلى جنانه هادياً ، فبُليغ  
رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالاته ، وبين المراد من آياته<sup>(١)</sup> . . . .  
( فمن تنازع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ، وجب  
رد أمره إلى قضاء الله ثم إلى قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . )<sup>(٢)</sup>  
( وفي العنود من اتباعه معصية إذ لا حكم بين الله ، وبين خلقه —  
إلا الذي وضعه الله - جل وقلا - موضع الإبانة لخلقته عنه . . . . )<sup>(٣)</sup>  
( وخطاب الكتاب قد يستدل بنفسه بحالة دون حالة ، حتى يستعمل  
على عموم ما ورد الخطاب فيه ، وقد لا يستدل في بعض الأحوال ، حتى يستعمل  
على كيفية اللفظ المجمل الذي هو مطلق الخطاب في الكتاب ، دون أن تبينها<sup>(٤)</sup>  
السنن ) .

( ٢ ) الأصل الثاني : السنة المطهرة .

السنة المطهرة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع ، فمن (تنازع  
بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ، وجب رد أمره إلى قضاء الله  
- الكتاب - ثم إلى قضاء رسوله - السنة - )<sup>(٥)</sup> .  
( وكل ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما ليس الله فيه حكم  
فبحكم الله سنه ، ووجب علينا اتباعه )<sup>(٦)</sup> .

- 
- ( ١ ) الإحسان ( ٢٣ : ١ ) .
  - ( ٢ ) الثقات ( ٥ : ١ ) .
  - ( ٣ ) الثقات ( ٦ : ١ ) .
  - ( ٤ ) الإحسان ( ٣ : ٢١٠ - ٢١١ ) .
  - ( ٥ ) الثقات ( ٥ : ١ ) .
  - ( ٦ ) مأسبق ( ٧ : ١ ) .

(وسنن المصطفى صلى الله عليه وسلم كُتِبَ مستقلة بنفسها، لا حاجة بها<sup>(١)</sup> إلى الكتاب، لأنها الدينية لمجمل الكتاب والفسرة لمبهمه .

قال الله - جل وعلا - : ( وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم )

فاخير - جل وعلا - أن المفسر لقوله ( اقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ) وما شبهها من مجمل اللفاظ في الكتاب، رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومحال أن يكون الشيء المفسر له الحاجة إلى الشيء المجمل، وإنما

الحاجة تكون للمجمل إلى المفسر، ضد قول من زعم أن السنن يجب عرضها على الكتاب، فإني بما لا يوافقه الخبر، ويدفع صحته النظر<sup>(٢)</sup> .

والسنة التي يحتاج بها ابن حبان - رحمه الله - هي السنة الصحيحة

الثابتة . قال :

(ولسنا نستجيز أن نحتاج بخبر لا يصح من جهة النقل في شيء ممن

كتبنا، ولأن فيما يصح من الأخبار - بحمد الله ومثله - يغني عنا<sup>(٣)</sup> عن

الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها ) .

(وليس بين أخبار المصطفى صلى الله عليه وسلم تضاد ولا تهاثر

ولا يكذب بعضها بعضاً، ولا ينسخ بشيء منها القرآن، بل تفسر عن مجمل

الكتاب ومبهمه، وتبين عن مختصره ومشكله ) .<sup>(٤)</sup>

والسنة كالكتاب فيها المجمل والمبين، والمبهم والواضح، والمعام

والخاص، والناسخ والمنسوخ فيجب ألا يحكم الناظر فيها من خلال حديث ورد

في مسألة ما، ما لم يجمع الأحاديث الواردة في هذه المسألة، أو ينظر في

(١) لم يقصد ابن حبان رحمه الله تعالى الاكتفاء بالسنة دون القرآن، لأنه

اعتبره الأصل الأثني وإنما يريد: إذا صح الحديث من جهة النقل وسلم

من العوارض المانعة من قبوله، فيجب الأخذ به دون عرضه على القرآن

وقد أشار إلى هذا - كما ترى - فهو هنا في معرض التودد على من يذهب

هذا المذهب، ولا يقصد التعميم، إذ ليس كل القرآن مجملاً ومبهماً

كما أن السنة نفسها فيها المبهم والمبين والخاص والمعام .

(٢) الإحسان (٣: ٢١٠-٢١١) .

(٣) المحرر وحسن (١: ٢٥٠) .

(٤) الإحسان (٣: ٤٣٤) .



أقوال العلماء فيها ، ويرى هل أجمعوا على شيء فيها أم اختلفوا ؟ فإذا ورد من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نص كقولهِ (صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي) <sup>(١)</sup> مثلا نظير في مفاد هذا الأمر من خلال استقراء النصوص . إذ كلمة (صَلُّوا) لفظة أمر تشتغل على كل شيء كان يستعمله رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاته .

فما كان من تلك الأشياء بحسب الإجماع أو الخبر بالنقل ، فهو لا حرج على تاركه في صلاته ، وما لم يخصه الإجماع أو الخبر بالنقل ، فهو أمر حتم على المخاطبين كافة ، لا يجوز تركه بحال <sup>(٢)</sup> .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا) <sup>(٣)</sup> لفظة أمر تستعمل على صومه في بعض الأعمال ، وقد خصه خبر ابن عمر <sup>(٤)</sup> بأن هذا الأمر قصد به الصَّحَارَى دون الكُفِّ والمواضع المستورة والتخصيص الثاني هو من الإجماع ؛ أن من كانت قبلته في المشرق أو في المغرب ، عليه أن لا يستقبلها ولا يستدبرها بمناظر أو ببول ، لأنها قبلته ، وإنما أمر أن يستقبل أو يستدبر ضد القبلة عند الحاجة <sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢٧: ٣) . وأخرجه البخاري في الأذان باب الأذان للحياض رقم (٦٠٣) . ومسلم في الصلاة ومواضع الصلاة باب من أحق بالإمامة رقم (٦٧٤) . كسبهم من حديث مالك بن الحويرث مرفوعا .

(٢) الإحسان (١٢٧: ٣) .

(٣) يقصد حديث أبي أيوب (إذا أتيتم المناظر فلا تستقبلوا القبلة ولا تستدبروها ، ولكن شرقوا أو غربوا) أخرجه البخاري في الوضوء باب لا تستقبل القبلة ببول ولا غائط رقم (١٤٤) . ومسلم في الطهارة باب الاستطابة رقم (٢٦٤) وابن حبان في صحيحه (٤٩٦: ٢) . وغيرهم كما جاء هذا الحديث عن عدد من الصحابة انظر جامع الأصول (١٢٥: ٧-١٢٤) .

(٤) خبر ابن عمر قال (ارتكبت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي ، ورأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقضي حاجته ، مستقبلا للأمام ، مستدبرا للقبلة) . أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٩٢: ٢) ، وأخرجه البخاري في الوضوء باب من تبرز على الميتين رقم (١٤٥) . وغير موضع . ومسلم في الطهارة باب الاستطابة رقم (٢٦٦) .

(٥) الإحسان (٤٩٦: ٢) .

وقد تأتي سنن تحسب من المجمل والفسر، وليست منه في شيء، وإنما هي سنن متعددة لعمل واحد يجوز للمسلم أن يختار أيها شاء .  
مثال ذلك حديث عمرو بن أمية الضمري أن ( رأى النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح على العمامة والخفين )<sup>(١)</sup> .

وحديث المغيرة بن شعبه ( أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ ومسح بناصيته وفوق العمامة )<sup>(٢)</sup> .

قال أبو حاتم بن حبان : ( وهذه اللفظة " مسح بناصيته وفوق العمامة " قد توهم من لم يحكم صناعة العلم أن المسح على العمامة دون الناصية جائز، ويجعل خبر عمرو بن أمية مجملاً، وخبر المغيرة مفسراً لأنه أن مسح النبي صلى الله عليه وسلم على العمامة، كان ذلك مع الناصية فوق المسح على الناصية دون العمامة، إذ الناصية من الرأس .

وليس بحمد الله ومثله كذلك، بل مسح النبي صلى الله عليه وسلم على رأسه في وضوئه ومسح على عمامته دون الناصية، ومسح على ناصيته وعمامته ثلاث مرات في ثلاث مواضع مختلفة . فكل سنة تستعمل، من غير أن يكون استعمال إحداها حتماً، واستعمال الآخر مكروهاً )<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٥٥:٢) ، وأخرجه البخاري في الوضوء باب المسح على الخفين رقم (٣٠١٠٢٠) وهذا عنده حديثان من عمرو بن أمية . وليس عند الشافعي في الطهارة باب المسح على الخفين إلا المسح على الخفين (٦٩:١) .

(٢) أصل حديث المغيرة عند البخاري في الوضوء باب الرجل يوضئ صاحبه رقم (١٨٠) ومواضع أخرى . وسلم في الطهارة باب المسح على الخفين رقم (٢٧٤) . وقد ورد بالفاظ عديدة انظرها مجموعة في جامع الأصول (٧:٢٢٨-٢٣٢) . أما لفظ ابن حبان المذكور فهو في صحيحه (٤٥٦:٢) ويند مسلم رقم (٢٧٤) . ولم يخرج البخاري لفظ "الناصية" . وقد أخرج مسلم أحد عشر طريقاً ورواية لحديث المغيرة .

(٣) الإحسان (٢٥٧:٢) .

( ٣ ) الأصل الثالث : الإجماع .

( الإجماع : اتفاق طمأء العصر على حكم الحادثة<sup>(١)</sup> الواقعة . وقد يكون هذا الإجماع في آخر الزمان ، كما قد كان في عصر الصحابة ، أو التابعين أو من بعدهم .

وقد كثرت كلمة الإجماع على لسان ابن حبان في عدد من كتبه وخاصة كتابه " التقاسيم والأنواع<sup>(٢)</sup> . فمثال إجماع الصحابة ما ذكره ابن حبان من حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد وعمر يخطب يوم الجمعة ، فناداه عمر : أي ساعة هذه ؟ فقال : إني شئت اليوم فلم أنظب إلى أهلي ، حتى سمعت النداء<sup>(٣)</sup> فلم أزد على أن توضأت قال عمر : والوضوء أيضا ، وقد طمأ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالغسل<sup>(٤)</sup> .

قال أبو حاتم بن حبان رحمه الله : ( في هذا الخبر دليل صحيح على نفي إيجاب الغسل للجمعة على من يشهدها ، لأن عمر بن الخطاب كان يخطب ، إذ دخل المسجد عثمان بن عفان ، فأخبره أنه مازاد على أن توضأ ثم أتى المسجد ، فلم يأمره عمر ولا أحد من الصحابة بالرجوع والاعتسال للجمعة ، ثم العود إليها .

ففي إجماعهم على ما وصفنا ، أبين البيان بأن الأمر من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، كان أمر ندب لا حتم<sup>(٥)</sup> .

ومثال إجماع التابعين العيني على إجماع الصحابة صلاة المأموم قاعدا إذا صلى إمامه قاعدا . قال ابن حبان :

( وقد أفتى به من التابعين جابر بن زيد ، ولم يرو عن أحد ممن التابعين خلافا ، لا بإسناد صحيح ولاواه ، فكان التابعين أجمعوا على إجازته<sup>(٥)</sup> .

- 
- ( ١ ) الحديث في الأصل للباقي (ص ٦٣-٦٤) .  
( ٢ ) انظر على سبيل المثال ( ٢ : ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٤٩٦ ) ، ( ٣ : ١٢٧ ، ٢٦٦ ) .  
( ٣ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( ٢ : ٣٨١ ) . وأخرجه البخاري في صحيحه الجمعة باب فضل الجمعة رقم ( ٨٣٨ ، ٨٤٢ ) . ومسلم في فاتحة الجمعة رقم ( ٨٤٥ ) . كسهم من حديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما عن عمر .  
( ٤ ) الإحسان ( ٢ : ٣٨٢ ) .  
( ٥ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٧ ) .

ويقال إجماع المتأخرين المعنى على إجماع من سبقهم من الصحابة والتابعين ، الإجماع على عدم تشبيه النبيين حين الركوع في الصلاة .  
 قال ابن حبان : ( وأجمع المسلمون قاطبة من لدن المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا على أن هذا الفعل كان في أول الإسلام ، ثم نسخه الأمر بوضع اليدين للمصلي في ركوعه )<sup>(١)</sup> .  
 ولعلك تلاحظ معنى أن ابن حبان يحاول أن يرد كل إجماع حدث إلى عصر الصحابة ، فهو مع اعترافه بإمكان حدوث الإجماع ، وصحته لو حدث إلا أنه كان يرى أن الإجماع الواقع هو إجماع الصحابة رضوان الله عليهم .  
 قال : ( والإجماع عندنا إجماع الصحابة الذين شهدوا هبوط الوحى والتخيل ، وأعيذوا من التحريف والتبديل ، حتى حفظ الله بهم الدين على المسلمين ، وصانه عن ثلب القادحين . . . )<sup>(٢)</sup> .  
 وقد مر أننا أن الإجماع يخص عموم الكتاب والسنة .

#### ( ٤ ) الأصل الرابع : القياس .

القياس هو : ( حمل أحد المطلوبين على الآخر في إثبات حكم أو إسقاطه بأمر يجمع بينهما )<sup>(٣)</sup> .  
 وأبو حاتم بن حبان العلم المطلع على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمتبحر فيها يرى أن القياس لا يلجأ إليه عند ورود النص ولا يذهب إليه إلا عند الضرورة أو التشريع على النصوص ، ومن خلال تتبعنا لأقواله تبين لى أنه لا يقبل إلا بالقياس واضح العلة .  
 بعد روايته حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه :  
 ( مثل المجلس الصالح ، ومثل مجلس سوء ، كما هل المسك ونافع الكحل )<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الإحسان ( ٣ : ٢٦٧ ) .

( ٢ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٧ ) .

( ٣ ) الحدود للباقي ( ص ٦٩ ) ، إرشاد الفحول ( ص ١٩٨ ) .

( ٤ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( ١ : ٤٦٩ ) ، وأخرجه أبو داود في الأدب

باب من يثور أن يجالس رقم ( ٤٨٢٩ ) بإسناد صحيح .

قال : ( في هذا الخبر دليل على إباحة المقاييسات في الدين )<sup>(١)</sup> .  
وقال في معرض الرد على من قال بأن من أخر صلاة العصر عن وقتها  
إلى أن خرج الوقت همدا يكفر : ( لما جاز تقديم صلاة العصر عن وقتها ، ولم  
يستحق فاطه أن يكون كافرا ، كان من أخر الصلاة عن وقتها ، ثم أداها  
بعد وقتها ، أولى أن لا يكون كافرا )<sup>(٢)</sup> .

وهذا قياس ولا ريب .

هذه هي الأصول التي اعتمدها ابن حبان في تفريعاته الفقهيّة  
على النصوص ، ولم أره لجأ إلى أصول أخرى ، وإن كان قد ذكر في ترجمته  
أحد الرواة أنه خالف الأصول وذكر منها هذه السابقة والاستحسان والاجتهاد  
والعقل .

#### ( ٥ ) شروط النظر والاستدلال .

يرى الإمام ابن حبان أنه لا يجوز لكل دعوى أن يتصدى للاستنباط  
وإدعاء العلم والفتيا . ( فمن لم يحفظ سنن المصطفى صلى الله عليه وسلم  
ولم يحسن تمييز صحيحها من سقيمها ، ولا عرف الثقات من المحدثين  
ولا الضعفاء والمتروكين ، ومن يجب قبول أفراد خيريه ، ومن لا يجب قبول زيادة  
الألفاظ في روايته ، ومن لم يحسن معاني الأخبار ، والجمع بين تضادها فسي  
الظواهر ، ولا عرف المفسر من المجهل ، ولا المختصر من المتقصى ، ولا الناسخ من  
المنسوخ ولا اللفظ الخاص الذي يراد به العام ، ولا اللفظ العام الذي يراد به  
الخاص ، ولا الأمر الذي هو فريضة وإيجاب ، ولا الأمر الذي هو فضيلة وإرشاد  
ولا النهي الذي هو حتم لا يجوز أو تكليفه ، من النهي الذي هو نداء مباح  
استعماله مع سائر السنن ، وأنواع أسباب الأخبار ، على حسب ما ذكرناها في  
كتاب "فصول السنن" ، كيف يستعمل أن يفتى ؟ أو كيف يسوغ لنفسه تحريم الحلال  
أو تحليل الحرام ، تقليداً منه لمن ينظمي ، ويصيب ، رافضاً قول من لا ينطق عن  
النهى ، إن هو إلا وحى يوحى ، صلى الله عليه وسلم )<sup>(٣)</sup> .

( ١ ) الإحسان ( ٤٦٤١ ) .

( ٢ ) الإحسان ( ١٣٤٣ ) .

( ٣ ) المجروحون ( ١٣٤١ ) .

### المبحث الثالث : نماذج من فقه ابن حبان

ذكرت فيما سبق أن الإمام ابن حبان شافعي المذهب، وهذا يعني أنه يذهب بمذهب الإمام الشافعي في الأحكام، إلا أنني أبحث إلى أن الرجل لا يلتزم بالمذهب الشافعي التزام المظن، وإنما يتبع الدليل حيث وجده، وسأذكر هذه مسائل خالف فيها الإمام الشافعي - رحمه الله - اتبها للأثر الذي صحَّ عنده، ثم أعرض لبعض المسائل الفقهية من دراسة لتتوضح صورة ابن حبان الفقهية أمام من يطالع هذا الفصل .

( ١ ) الوضوء من أكل لحم الإبل

ذهب جمهور العلماء إلى عدم وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل من أكل الخلفاء الأربعة وهو مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأصحابهم وحثهم في ذلك حديث جابر بن عبد الله (كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك الوضوء مما مست النار) (١).

وذهب الإمام أحمد، وابن راهويه، وابن المنذر، وابن خزيمة، وابن حبان، وابن حزم، والشافعي في القديم، واختاره البيهقي، وحكى عن أصحاب الحديث مطلقاً، وحكى عن جماعة من الصحابة (٢) إلى وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل، وأن كفه ناقض للوضوء.

قال الإمامان أحمد وإسحاق بن راهويه: صح عن النبي صلى الله عليه وسلم في الوضوء - من أكل لحم الإبل - حديثان، حديث جابر وحديث الجراء (٤).

(١) أما حديث جابر بن سمرة أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: إن شئت فتوضأ، وإن شئت فلا توضأ، قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: نعم، فتوضأ من لحوم الإبل.

قال: أصلى في مريض الغنم، قال: نعم، قال أصلى في مسارك الإبل؟ قال: لا (٥).

(١) المجموع للنووي (٥٨٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة باب ترك الوضوء مما مست النار، رقم (١٩٢)، والسنائي في الطهارة، باب ترك الوضوء مما غربت النار (٩٠: ١)، وصححه الإمام النووي في المجموع (٥٧: ٢)، وابن

حزم في المحلى (٢٤٣: ١). وانظر كلام البيهقي في السنن الكبرى (١٥٣: ١) فما بعد.

(٣) انظر مذاهبيهم وحثهم في السنن لابن قدامة (١٨٧: ١)، المحلى (٢٤١: ١)، المجموع (٥٨: ٢) فما بعد. وصحیح ابن خزيمة

(٢٢-٢٣: ١)، وصحیح ابن حبان (٣٢٥: ٢) فما بعد.

وسنن البيهقي (١٥٨١: ١-١٥٩).

(٤) المجموع للنووي (٦٠: ٢).

(٥) أخرجه الإمام مسلم في الحيف باب الوضوء من لحم الإبل رقم (٣٦٠).

وانظر البيهقي (١٥٩: ١).

( ٢ ) و أما حديث الجراء بن مازب رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الوضوء من لحوم الإبل ، فقال : توضؤوا منها .  
وسئل عن الصلاة في مبارك الإبل فقال : لاتصلوا فيها ، فإنها مسنن الشياطين ، وسئل عن الصلاة في مراض الغنم ، فقال : صلوا فيها فإنها بركة <sup>(١)</sup> . وروى البيهقي عن أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويته تصحيح هذين الحديثين وقال ابن خزيمة عن حديث الجراء هذا : لم نر خلافا بين علماء أهل الحديث أن هذا الخبر صحيح من جهة النقل ، لعدالة ناقله <sup>(٢)</sup> .

والذين قالوا بعدم النقص من أكل لحم الإبل ، أجابوا عن هذين الحديثين بثلاثة أجوبة :

- ( ١ ) الأول : أن حديث جابر بن عبد الله ناسخ لهما <sup>(٣)</sup> .
  - ( ٢ ) الثاني : حمل الأمر بالوضوء على الاستحباب <sup>(٤)</sup> .
  - ( ٣ ) الثالث : حمل الوضوء في هذين الحديثين على غسل اليدين لأن في لحوم الإبل من الحرارة والزهومة مانيس في غيرها من اللحوم <sup>(٥)</sup> .  
وقد أجاب النووي على ذلك فقال :
- ( أما حمل الوضوء على معناه اللغوي فضعيف ، لأن الحمل على الوضوء الشرعي مقدم على اللغوي كما هو معروف في كتب الأهل .  
وأما النسخ فضعيف أو باطل لأن حديث ترك الوضوء مما سنت النصار

---

( ١ ) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ( ٢٨٨ : ٤ ) ، ( ٣٠٣ : ٤ ) ، وأبو داود الجارود في المنتقى ( ص ٢٢ ) ، وأبو داود في الطهارة باب الوضوء من لحوم الإبل رقم ( ١٨٤ ) ، والترمذي في الطهارة باب ما جاء في الوضوء من لحوم الإبل رقم ( ٨١ ) ، وأخرجه ابن خزيمة ( ٢١ : ١ ) ، وابن حبان ( ٢٢٥ : ٢ ) وغير موضع ، وابن حزم في المحلى ( ٢٤١ : ١ ) ، وصححه . وانظر كلام العلامة أحمد شاكرا على الحديث في الترمذي ( ١٢٢ : ١ - ١٢٥ ) ، كما صححه الإمام النووي في المجموع ( ٦٠ : ٢ ) والبيهقي في الكبرى ( ١٥٩ : ١ ) .

( ٢ ) السنن الكبرى للبيهقي ( ١٥٩ : ١ ) ، صحيح ابن خزيمة ( ٢٢٥ : ٢١ : ١ ) .

( ٣ ) المجموع للنووي ( ٦٠ : ٢ ) ، المفنى ( ١٨٨ : ١ ) .

( ٤ ) المفنى ( ١٨٩ : ١ ) .

( ٥ ) المجموع ( ٦٠ : ٢ ) .



عام، وحديث الوضوء من لحم الإبل خاص، والخاص يقدم على العام، سواء وقع قبله، أو بعده (١).

وأجاب ابن قدامة عن دعوى الاستحباب فقال :  
هذا مخالف للظاهر من ثلاثة أوجه :

(١) أحدهما : أن مقتضى الأمر الوجوب .  
(٢) الثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن حكم هذا اللحم فأجاب بالأمر بالوضوء منه فلا يجوز حمله على غير الوجوب، لأنه يكون طبيعياً على السائل، لا جواباً .

(٣) الثالث : أنه عليه السلام قرنه بالنهي عن الوضوء من لحوم الفسق والمراد بالنهي هنا نفي الإيجاب، لا التحريم، فيتميم حمل السائل الأمر على الإيجاب، ليحصل الفرق) . ا. هـ

قال النووي عند عرضه لمذهب الشافعية (وفي لحم الحزور - بفتح الحيم - وهو لحم الإبل قولان : الجديد المشهور لا ينتقض . وهو الصحيح عند الأصحاب .

والقديم أنه ينتقض، وهو ضعيف عند الأصحاب، ولكنه هو القسوى أو الصحيح من حيث الدليل، وهذا الذي أعتقد رجحانه) (٣).

وقال البيهقي بعد أن ذكر آثاراً عن بعض الصحابة كابن مسعود أنه كان يأكل من ألوان الطعام ثم لا يتوضأ منه : (ومثل هذا لا يترك ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٤).

ولولا النقل عن الخلفاء الراشدين لجزم النووي بوجوب الوضوء ممن أكل لحم الإبل . قال : (وأقرب ما يستروح إليه، قول الخلفاء الراشدين وجماهير الصحابة، والله أعلم) (٥).

- 
- (١) المجموع (٢: ٦٠) .  
(٢) المغني (١: ١٨٩) .  
(٣) المجموع (٢: ٥٨) .  
(٤) السنن الكبرى (١: ١٥٩) .  
(٥) المجموع (٢: ٦٠) .

والذى بيده ولى أمرٌ في المسألة التباساً ، فالوضوء مما مسَّت النار عموماً  
شئاً ، والوضوء من أكل لحوم الإبل شئاً آخر ، والمنقول عن الراشد حسن  
هو الأول ، ولذلك فقد ذكر المصنف<sup>(١)</sup> الآثار الدالة على ذلك تحت سبب  
(ترك الوضوء مما مسَّت النار) وكذلك الحازمي في الاعتبار<sup>(٢)</sup> وابن الجوزي في  
الناسخ والمنسوخ<sup>(٣)</sup> .

وهذا هو ما فهمه ابن حبان رحمه الله . بعد أن ( ذكر الخبر الدال  
على أن الأمر بالوضوء من أكل لحوم الإبل ، إنما هو الوضوء المفروض للصلاة  
دون غسل اليدين ) - حديث الجراء - قال : ( في سؤال السائل عن الوضوء  
من لحوم الإبل ، وعن الصلاة في أمطانيهما ، وتفريق النبي صلى الله عليه  
وسلم بين الجوابين ، أبين البيان أنه أراد الوضوء المفروض للصلاة دون غسل  
اليدين ولو كان غسل اليدين من الغمر ، لاستوى لحوم الإبل والغنم جميعاً  
وقد كان الوضوء مما مسَّت النار ، وبقي المسلمون طيه مدة ، ثم نسخ ذلك  
وبقي لحوم الإبل مستثنى من جطة ما أبيع بعد الحظر الذى تقدم ذكرنا  
له<sup>(٤)</sup> . وروى حديث جابر ( كان آخر الأمرين من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ترك الوضوء مما مسَّت النار ) ثم قال : ( هذا خبر مختصر من حديث  
طويل ، اختصره شعيب بن أبي حمزة متوهماً لنسخ إيجاب الوضوء مما مسَّت  
النار مطلقاً ، وإنما هو نسخ لإيجاب الوضوء مما مسَّت النار خلا لحوم  
الجزور فقط<sup>(٥)</sup> ) . وذكر أن هذا إنما كان من أكل لحم شاة لالحوم جزور .  
ونقل من أبي بكر وعمر مثل ذلك . وليس في شئ مما نقله أنهم أكلوا  
لحم إبل . وبذلك يتبين دقة فهمه رحمه الله ، وترجيحه وجوب الوضوء مسن  
أكل لحوم الإبل .

- 
- ( ١ ) السنن الكبرى ( ١ : ١٥٣ ) .  
( ٢ ) الاعتبار ( ص ٤٨ ) فقط بعد .  
( ٣ ) إعلام العالم بعد رسوخه بنسخ الحديث ومنسوخه ( ص ٦٦ ) رسالة  
ماجستير مقدمة من الدكتور أحمد العمارة .  
( ٤ ) الإحسان ( ٢ : ٣٢٥ ) .  
( ٥ ) الإحسان ( ٢ : ٣٢٩ ) .  
( ٦ ) انظر الإحسان ( ٢ : ٣٢٩ ) فمابعد الأحاديث ذات الأرقام ( ١١٢١ -  
١١٢١ ) وانظر هذا البحث في مسند الجراء بن عازب تحقيق الشيخ  
حسين عبد الحميد النقيب ( ص ٥٥ - ٦٧ ) فإنه نفس ما تم .

( ٢ ) جواز التطهر بالماء المستعمل

وهذه المسألة أيضاً مما خالف فيه ابن حبان إمامه الشافعي رحمهما  
الله تعالى .

قال الشافعي - في رواية المزني - : ( وإن توضأ رجل ، ثم جمع وضوءه  
في إناء نظيف ثم توضأ به ، أو غيره ، لم يجزه ، لأنه أدى به الوضوء الفرض مرة  
وليس ينجس ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ .

ولاشك أن من بلل الوضوء ما يصيب ثيابه ، ولا نعلمه غسله ، ولا أحداً  
من المسلمين فعله ، ولا يتوضأ به <sup>(١)</sup> . فالماء المستعمل عند الإمام الشافعي  
ظاهر غير مطهر لغيره ، إلا أنه أنكر إنكاراً شديداً على من زعم نجاسته <sup>(٢)</sup> .

أما من كون الماء طاهراً بعد الاستعمال - ما لم يلاق نجاسة - فهو  
مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وأصح الأقوال عن أبي حنيفة ، وذهب  
أبو يوسف - وهو رواية عن أبي حنيفة - إلى نجاسته <sup>(٣)</sup> . وقد ردَّ طبعه  
الشافعي في اختلاف الحديث وأطال .

وأما من كون الماء المستعمل يتطهر به ثانية أو لا يتطهر ؟  
فقد ذهب الشافعي وأحمد وأبو حنيفة ، ومالك - في رواية ابن المنذر -  
إلى أنه غير مطهر .

وذهب طوائف إلى أنه مطهر ، وهو قول الزهري ، ومالك والأوزاعي  
- في أشهر الروايتين منهما - وأبي ثور ، وداود .

قال ابن المنذر : يروي عن طي وابن عمر وأبي أمامة وعطاء والحسن  
ومكحول والنخعي أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه ، فوجد في لحيته بسلاً :  
يكفيه مسحه بذلك البلل .

قال ابن المنذر : وهذا يدل على أنهم يرون المستعمل مطهراً ، وبه

---

( ١ ) مختصر المزني على حاشية الأم ( ١ : ٣٩٠ - ٤٠ ) .  
( ٢ ) انظر تفصيل ذلك في اختلاف الحديث له ( ص ٩٥ - ١٠٤ ) رسالته  
ما جستبر تحقيق الطالب إبراهيم محمد الصبيعي .  
( ٣ ) المجموع للنووي ( ١ : ١٩٩ ) .

أقول (١) .

وأقوى حجج القائلين بأن الماء المستعمل غير مطهر - كما يقول الثوري رحمه الله - : ( أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه رضوا الله عنهم ، احتاجوا في مواطن من أسفارهم الكثرة إلى الماء ، ولم يجمعوا المستعمل لاستعماله مرة أخرى .

فإن قيل : تركوا الجمع ، لأنه لا يتجمع منه شيء ، فالجواب أن هذا لا يسلم ، وإن سلم في الوضوء ، لا يسلم في الغسل .

فإن قيل : لا يلزم من عدم جمعه منع الطهارة به ، ولهذا لم يجمعوا للشرب والطبخ والعجن والتبرد ونحوها من جوارها به بالاتفاق ؟  
فالجواب : أن ترك جمعه للشرب ونحوه للاستعداد ، فإن النفوس تعاف في العادة وإن كان طاهراً ، كما استقدر النبي صلى الله عليه وسلم والضرب وتركه ، فقيل : أحرام هو ؟ قال : ( لا ولكني أعافه ) وأما الطهارة به ثانية ، فليس فيها استعداد ، فتركه يدل على امتناعه .

وذكر أدلة القائلين بجواز التطهر بالماء المستعمل ، وقد مرها فلا نشغل بالإطالة (٢) بذكرها .

أما ابن حبان فقد أخرج حديث جابر بن عبد الله ( جاءني النبي صلى الله عليه وسلم يعودني وأنا مريض لا أعقل ، فتوضأ ، وصب من وضوئه علي فعقلت . . . ) الحديث (٣) .

تحت عنوان ( ذكر الخبر الدال على أن الماء المستعمل المؤدى به الفرض مرة جائز أن يؤدى به الفرض مرة أخرى ) وطلق عليه قائلا :  
( في صلب المصطفى صلى الله عليه وسلم وضوؤه على جابر بيان واضح

( ١ ) المجموع ( ١ : ١٩٩ ) .

( ٢ ) المجموع ( ١ : ٢٠٠ ) .

( ٣ ) انظرها في المجموع ( ١ : ١٩٩ - ٢٠٢ ) .

( ٤ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه . الإحسان ( ٢ : ٤٠٣ ) . وأخرجه البخاري في الوضوء باب صب النبي صلى الله عليه وسلم وضوؤه على المعصوم عليه ، ومواضع أخرى انظر الحديث وأطرافه في المنهج ( ١ : ٣٠١ ) . وأخرجه مسلم في الشرائع باب ميراث الكلاله رقم ( ١٦١٦ ) .

بأن الماء المتوضأ به ظاهر ليس له أن يتيمم بوجوده ، لأنه واجد الماء الطاهر  
ولمّا أباح الله - عز وجل - التيمم عند عدم الماء الطاهر ، وكيف التيمم لو وجد  
الماء الطاهر؟ <sup>(١)</sup> .

قاله سبحانه وتعالى طالب المسلمين بالوضوء من ماء طاهر ، وهذا  
ظاهر - كما تقولون - فمن أين لكم أن تفرقوا بين الطاهر فتجعلون منه  
مطهراً وغير مطهراً ؟

والذي يؤكد صحة ما قلناه حديث عبد الرحمن بن أبيزى قال : (سأل  
رجل عمر فقال : إني أجنب فلم أجد الماء ، فقال : لا تصل . فقال عمر : أما  
تذكر إذ كنت أنا وأنت في سرية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فذكر ذلك له ، فقال : إنما كان يكفيك ، فضرب يده الأرض ضربة ، فنفخ في كفيه  
ومسح وجهه وكفيه؟ ) <sup>(٢)</sup> . ثم قال :

(في تعليم المصطفى صلى الله عليه وسلم التيمم ، والاكتفاء فيه بضربة  
واحدة الوجه والكفين ، أبين البيان أن المؤدى به الفرض مرة ، جائز أن يؤدي  
به الفرض ثانياً ، وذلك أن المتيمم عليه الفرض إن تيمم بوجهه وكفيه جميعاً  
فلما أجاز صلى الله عليه وسلم أداء الفرض في التيمم لكفيه ، بفضل يفضل  
مأني به فرض وجهه ، صح أن التراب المؤدى به الفرض بعضو واحد جائز أن  
يؤدي به فرض العضو الثاني به مرة أخرى ، ولما صح ذلك في التيمم ، صح  
ذلك في الوضوء سواء <sup>(٣)</sup> . ومذهب ابن حبان هذا ، هو الذي رجحه ابن  
تيمية - رحمه الله - في الاختيارات <sup>(٤)</sup> .

والذي يبدو لي أن في هذا الاستدلال نظراً ، لأن التيمم يستدل  
إضطراري بن الوضوء ، إذ هو طهارة حكيمية ، وليس طهارة حقيقية . لذا فإن  
أحكامه تخصه هو ، ولا يقاس عليه .

ومن جهة أخرى فإن الوضوء أصل ، والتيمم فرع ، والفرع يصح أن يقاس على  
الأصل ، أما قياس الأصل على الفرع فممتنع ، لأن الفرع لا يشارك أصله في كل  
الصفات . والله أطم .

- 
- (١) الإحسان (٢: ٤٠٣) .  
(٢) الإحسان (٢: ٤٠٤) . وأخرجه البخاري في الوضوء باب التيمم ، هل  
ينفخ فيهما رقم (٣٣٨) وغير موضح . وسلم في الحيض باب التيمم رقم (٣٦٨) .  
(٣) الإحسان (٢: ٤٠٤) .  
(٤) الاختيارات الفقهية (ص ٢) .

( ٣ ) صلاة الإمام والمأموم

ذهب الإمام الشافعي في ( اختلاف الحديث ) وغيره ، إلى أن الإمام إذا صلى جالسا لعذره ، فليس للمأموم أن يصلي خلفه جالسا ، إلا إذا كان صاحب عذر مثله .

قال رحمه الله :

( إذا لم يقدر الإمام على القيام ، فصلّى بالناس جالسا ، صلى الناس وراءه إذا تدروا على القيام قياما ، كما يصلي هو قائما ، ويصلي من خلفه إذا لم يقدروا على القيام جلوسا فيصلي كل فرضه ، وقدر روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما قلت : ناسخ ومنسوخ .

... أخبرنا مالك بن ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب فرسا فصروا فحشش شقه الأيمن ، فصلّى صلاة من الصلوات وهو قاعد ، فصلينا وراءه قعودا ، فلما انصرف قال : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا صلى قائما فصلوا قياما وإذا صلى جالسا ، فصلوا جلوسا أجمعين<sup>(١)</sup> .

قال الشافعي : وهذا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأسم منسوخ بسنته ، وذلك أن أنسا روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى جالسا من سقطة من فرس في مرضه ، وعائشة تروى ذلك ، وأبو هريرة يوافق روايتها ، وأمر من خلفه في هذه العلة بالجلوس ، إذا صلى جالسا . ثم تروى عائشة<sup>(٢)</sup> رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم صلّى في مرضه الذي مات فيه جالسا والناس خلفه قياما ، وهي آخر صلاة صلاها بالناس ، حتى لقي الله تعالى ، وهذا لا يكون إلا ناسخا . . . فنحن لسبب

( ١ ) أخرجه البخاري في كتاب الأذان باب إنما جعل الإمام ليؤتم بسنته ( ١٧٣ : ٢ ) وانظر أطرافه هناك . ومسلم في الصلاة باب إتيان المأموم بالإمام رقم ( ٤١١ ) .  
( ٢ ) أخرجه البخاري في الأذان باب إنما جعل الإمام ليؤتم به ( ١٧٢ : ٢ ) ومسلم في الصلاة باب اختلاف الإمام إذا عرض له عذره رقم ( ٤١٨ ) .  
وبذهب مسلم مذهب الشافعي في هذا .

نخالف الأحاديث الأولى إلا بما يجب علينا من أن نصير إلى النسخ . الأولى كانت حقا في وقتها ، ثم نسخت فكان الحق فيما نسخها . وهكذا كـ...  
منسوخ يكون الحق ما لم ينسخ ، فإذا نسخ ، كان الحق في نسخه (١) . هـ .  
فالشافعي يقرر أن حديث القعود للمأموم خلف الإمام القاعد منسوخ  
بحديث عائشة .

وروى ابن حبان حديث عائشة الموافق لحديث أنس الأول ثم قال :  
( هذه السنة رواها عن المصطفى صلى الله عليه وسلم : أنس بن  
مالك ، وعائشة ، وأبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر بن  
الخطاب ، وأبو أمامة الباهلي ، وهو قول أسيد بن حضيرة ، وقيس بن عبيد  
وجابر بن عبد الله ، وأبي هريرة . ) وقال جابر بن زيد والأوزاعي والملك بن  
أنس ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، وأبو أيوب سليمان بن  
داود الهاشمي وأبو خزيمة - زهير بن حرب - وابن أبي شيبة ، ومحمد بن  
إسماعيل ، ومن تبعهم من أصحاب الحديث مثل محمد بن نصر ، ومحمد بن  
إسحاق بن خزيمة (٢) .

وقال الإمام الثوري يعرض مذاهب العلماء في هذه المسألة :  
( ذكرنا أن مذهبنا جواز صلاة القائم خلف القاعد ، وأنه لا تجوز صلاتهم  
خلفه قعودا .

وبهذا قال الثوري وأبو حنيفة وأبو ثور والحميدي وبعض المالكية .  
وقال الأوزاعي وأحمد وإسحاق وابن المنذر : تجوز صلاتهم وراءه قعودا  
ولا تجوز قياما ، وقال مالك في رواية : وبعض أصحابه لا تصح الصلاة  
وراءه قاعدا مطلقا - يعني في حالة قعود الإمام - واحتج لمن قال : لا تصح  
الصلاة مطلقا بحديث رواه الدارقطني والبيهقي وغيرهما عن جابر الجعفي  
عن الشعبي عن النبي صلى الله عليه وسلم ( لا يؤمن أحد بعدى جالسا ) .  
واحتج الأوزاعي وأحمد بحديث أنس . . . رواه البخاري ومسلم ، وفي

(١) اختلاف الحديث للإمام الشافعي (ص ٨٧ - ٩٠) .

(٢) الإحسان (٣ : ٤١٣) .

الصحيحين عن عائشة وأبي هريرة مثله<sup>(١)</sup> . ويرى ابن حجر أن النسخ إنما كان للوجوب، فإذا نسخ الوجوب بقى الجواز والجواز لا ينافي الاستحباب فيحمل أمره الأخير بأن يصلوا قعودا على الاستحباب، لأن الوجوب قد رفع بتقريره لهم وترك أمرهم بالإعادة، هذا مقتضى الجمع بين الأدلة، وباللهم التوفيق والله أعلم<sup>(٢)</sup> .

إلا أن ابن حبان روى حديث أبي هريرة ( . . . فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بالأمر فأتوا منه ما استطعتم )<sup>(٣)</sup> تحت عنوان ( ذكر الخبر الدال على أن هذا الأمر من المصطفى صلى الله عليه وسلم أمر فريضة وإيجاب ، لأمر فضيلة والارشاد ) ثم قال : ( في هذا الخبر بيان واضح أن التواهي عن المصطفى صلى الله عليه وسلم كلها على الحرمة والإيجاب ، حتى تقوم الدلالة على ندهيتها ، وأن أوامره صلى الله عليه وسلم بحسب الطاقة والوسع على الإيجاب حتى تقيم الدلالة على ندهيتها .

قال الله جل و علا : ( وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ) ثم نفى الإيمان عن من لم يحكم رسوله فيما شجر بينهم ، من حيث لا يجدون في أنفسهم مما قضى وحكم حرجا ، ويسأموا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما بترك الآراء المعكوسة ، والمقاييس المنكوسة )<sup>(٤)</sup> .

ثم روى حديث أبي هريرة تحت عنوان ( خير ثالث يدل على أن هذا الأمر هو أمر حتم لا ندب ) : ( إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فلا تخطفوا عليه فإذا كبر فكبروا ، وإذا ركع فأركعوا ، وإذا قال : سمع الله لمن حمده ، فقولوا اللهم ربنا ولك الحمد ، وإذا صلى قاعدا فصلوا قعودا أجمعون )<sup>(٥)</sup> . ثم قال : قد زجر المصطفى صلى الله عليه وسلم في هذا الخبر

- 
- ( ١ ) المجموع للنووي ( ٤ : ١٤٥ ) .  
( ٢ ) فتح الباري ( ٢ : ١٧٣ ) .  
( ٣ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٣ ) .  
( ٤ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٣ - ٤١٤ ) .  
( ٥ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٤ ) ، وأخرجه البخاري في الأذان باب إقامة الصف ( ٢ : ٢٠٨ ) . وسلم .



المؤمنين عن الاختلاف على إمامهم إذا صلى قاعدا وهو من الضرب الذي ذكرت في غير موضع من كتبنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد يجر عن الشئ بلفظ العموم، ثم يستثنى بعض ذلك الشئ المزجور منه فيبيحه لعلته معلومة، كما نهى صلى الله عليه وسلم عن (المزابنة)<sup>(١)</sup> بلفظ مطلق، ثم استثنى بعضها، وهو العربة، فأباحها بشرط معلوم لعله معلومة.

وكذلك يأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم الأمر بلفظ العموم، ثم يستثنى بعض ذلك العموم فيحظره لعله معلومة، كما أمر صلى الله عليه وسلم المؤمنين والأئمة جميعا أن يصلوا قياما إلا عند العجز عنه، ثم استثنى بعض هذا العموم، وهو إذا صلى إمامهم قاعدا، فجزهم من استعماله مستثنى من جملة الأمر المطلق<sup>(٢)</sup>.

وروي حديث أنس وابن عمر ثم قال :

في هذا الخبر - يعني حديث ابن عمر - بيان واضح أن صلاة المؤمنين قعودا إذا صلى بهم إمامهم قاعدا من طاعة الله جل وعلا التي أمر بها عباده، وهو عندنا ضرب من الإجماع الذي أجمعوا على إجازته، لأن مسن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أفتوا به، جابر بن عبد الله وأبو هريرة، وأسيد بن حضير، وقيس بن فهد، والإجماع عندنا : إجماع الصحابة الذين شهدوا هبوط الوحي والتنزيل، وأعيدوا من التحريف والتبديل، حتى حفظ الله بهم الدين على المسلمين، وصانه عن ثلث سبب القادحين، ولم يرو عن أحد من الصحابة خلاف لهؤلاء الأربعة بإسناد متصل ولا منقطع.

فكان الصحابة أجمعوا على أن الإمام إذا صلى قاعدا كان على المؤمنين أن يصلوا قعودا. وقد أفتى به من التابعين جابر بن زيد - أبو الشعثاء - ولم يرو عن أحد من التابعين أصلا بخلافه لا بإسناد صحيح ولاواه

(١) المزابنة : بيع التمر في رؤوس الشغل بالتمر كيلا . المغرب (ص ٢٠٦) .

(٢) الإجماع (٣ : ٤١٥) .

(٣) قال ابن حجر : وقد ادعى ابن حبان الإجماع على العمل به، وكانه

أراد الإجماع السكوتي . فتح الباري (٢ : ١٧٧) .

فكان التابعين أجمعوا على إجازته .

وأول من أبطل في هذه الأمة صلاة المأموم قاعدا إذا صلى إمامه جالسا ، المغيرة بن مقسم ، صاحب النخعي ، فأخذ عنه حماد بن أبي سليمان ، ثم أخذ من حماد أبو حنيفة وتبعه عليه من بعده أصحابه . وأطى شيئا احتجوا به شيئا رواه جابر الجعفي عن الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( لا يؤمن أحد بعدى جالسا ) . وهذا لو صح إسناده لكان مرسلا ، والمرسل من الخبر ومالم يرد سنيان في الحكم عندنا .

لأننا لو قبلنا إرسال تابعي ، وإن كان ثقة فاضلا على حسن الظن لزمننا قبول مثله عن أتباع التابعين ، ومتى قبلنا ذلك ، لزمننا قبول مثله عن تبع الأتباع ، ومتى قبلنا ذلك ، لزمننا قبول مثل ذلك من تبع التابع ، ومتى قبلنا ذلك لزمننا أن نقبل من كل إنسان إذا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا نقض الشريعة . . . ( ١ ) .

وتحت عنوان ( ذكر خبر أوهم بعض أئمتنا أنه ناسخ لأمر النبي صلى الله عليه وسلم المأمومين قعودا ، إذا صلى إمامهم جالسا ) روى حديث عائشة من طريق زائدة عن موسى بن أبي عائشة ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وفيه : ( . . . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين لصلاة الظهر ، وأبو بكر يصلي بالناس ، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخره ، فأوى إليه أن لا يتأخره ، وقال لهما : أجلساني إلى جنبه ، فأجلساه إلى جنب أبي بكر ، فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم . والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد ) . وذكر خبرا يعارض الخبر الذي تقدم ذكرنا له في الظاهر ( وهو حديث عائشة من طريق شعيبه عن موسى بن أبي عائشة به ، وفيه :

( أن أبا بكر صلى بالناس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه ) ثم قال : خالف شعيبه بن الحجاج زائدة بن قدامة في متن هذا الخبر عن موسى بن أبي عائشة ، فجعل شعيبه النبي صلى الله عليه وسلم

( ١ ) الإحسان ( ٣ : ٤١٧ - ٤١٨ ) .

مأموما حيث صلى قاعدا والقوم قيام، وجعل زائدة النبي صلى الله عليه وسلم  
إماما حيث صلى قاعدا، والقوم قيام، وهما متفقان حافظان .  
فكيف يجوز أن تجعل إحدى الروايتين اللتين تضادتا في الظاهر في  
فعل واحد ناسخا لأمر متقدم ؟  
فمن جعل أحد الخبرين ناسخا لما تقدم من أمر النبي صلى الله  
عليه وسلم، وترك الآخر من غير دليل يثبت له على صحته، سوغ لخصمه  
أخذ ما ترك من الخبرين، وترك ما أخذ منهما .  
ونظير هذا النوع من الشنن خبر ابن عباس أن النبي صلى الله عليه  
وسلم، نكح ميمونة وهو محرم وخبر أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم  
نكحها وهما حلالان فتضاد الخبران في فعل واحد في الظاهر من  
غير أن يكون بينهما تضاد عندنا .  
فجعل جماعة من أصحاب الحديث الخبرين اللذين روي في نكاح  
ميمونة متعارضين، وذهبوا إلى حديث عثمان بن عفان عن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : ( لا ينكح المحرم ولا ينكح ) فأخذوا به إذ هو يوافق إحدى  
الروايتين اللتين رويتا في نكاح ميمونة، وتركوا خبر ابن عباس أن النبي صلى  
الله عليه وسلم نكحها وهو محرم .  
فمن فعل ذلك، لزمه أن يقول : تضاد الخبران في صلاة النبي  
صلى الله عليه وسلم في طهته على حسب ما ذكرناه قبل، فيجب أن نجى إلى  
الخبر الذي فيه الأمر بصلاة المأمومين قعودا إذا صلى إمامهم قاعدا  
وأخذ به، إذ هو يوافق إحدى الروايتين اللتين رويتا في صلاة النبي صلى  
الله عليه وسلم في طهته، وترك الخبر المنفرد، كما فعل ذلك في نكاح ميمونة .  
وليس عندنا بين هذه الأخبار تضاد ولا تهافت، ولا ناسخ ولا منسوخ  
بل منها مختصر ومتقصى، ومجمل ومفسر، إذ ضم بعضها إلى بعض بطول  
التضاد بينهما واستعمل كل خبر في موضعه (١) .  
وروي حديث عائشة من طريق عاصم بن أبي النجود، عن شقيق عن  
مسروق، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إماما وأبو بكر مأموما

وأثب صلى الله عليه وسلم خرج بين بريرة وثوبة .  
ثم روت عائشة من طريق نعيم بن أبي هند عن أبي وائل عن مسروق ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مأموماً ، وكان أبو بكر إماماً  
ثم قال :

( خالف نعيم بن أبي هند ، عاصم بن أبي النجود في متن هذا الخبر ، فجعل عاصم أبا بكر مأموماً ، وجعل نعيم بن أبي هند أبا بكر إماماً ، وهذا شقان حافظان متقنان ، فكيف يجوز أن يجعل خبر أحدهما ناسخاً لأمر متقدم ، وقد عارضه في الظاهر مثله ؟

ونحن نقول بشيئة الله وتوفيقه : إن هذه الأخبار كلها صحاح وليس شيء منها يعارض الآخر ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في طئته صلاتين في المسجد جماعة ، لاصلاة واحدة ، في إحداهما كان مأموماً وفي الأخرى كان إماماً .

والدليل على أنهما كانتا صلاتين ، لاصلاة واحدة ، أن في خبر عبيد الله بن عبد الله عن عائشة ( أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بين رجلين تريد : أحدهما العباس والآخر علياً ، وفي خبر مسروق عن عائشة ( أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج بين بريرة وثوبة ) فهذا يدل على أنها كانت صلاتين ، لاصلاة واحدة (١) .

ويرى ابن حبان أن خبر عائشة مختصر مجمل ، فأما اختصاره ، فليس فيه ذكر الموضع الذي جلس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألقى يمين أبي بكر ، أو عن يساره ؟

ثم ذكر الخبر المتقصى للفظة المختصرة من حديث جابر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس من يسار أبي بكر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس قاعداً ، وأبو بكر قائماً ، فعائشة حكّت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الموضع . أما جابر فزاد ، فصلينا وراءه ، وهو قاعد ، وأبو بكر يسمع الناس تكبيره ، قال فالتفت إلينا فرآنا قياماً ، فأشار

(١) الإحسان (٣ : ٤٢٨) فما بعدها .

إليها ففقدنا ، فصلينا بصلاته قعوداً ، فلما سلم قال : كدتم أن تفعلوا فعل  
فارس والروم يقومون على ملوكهم وهم قعود ، فلا تفعلوا ، إلتموا بإمامكم إن صلى  
قائماً فصلوا قياماً ، وإن صلى قاعداً ، فصلوا قعوداً <sup>(١)</sup> . وعقب عليه بتولسه : في  
هذا الخبر المفسر بيان واضح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما قعد عن  
يسار أبي بكر ، وتحول أبو بكر مأموماً يقتدى بصلاته ، ويكبر ، ويسمع الناس  
التكبير ، ليقتدوا بصلاته ، أمرهم صلى الله عليه وسلم حينئذ بالقعود ، حين  
رأهم قياماً .

ولما فرغ من صلاته أمرهم أيضاً بالتعود إذا صلى إمامهم قائماً  
وقد شهد جابر بن عبد الله صلاته صلى الله عليه وسلم حيث سقط عن فرسه  
فجحش شقه الأيمن ، وكان سقوطه صلى الله عليه وسلم عن الفرس في  
شهر ذي الحجة ، آخر سنة خمس من الهجرة ، وشهد هذه الصلاة في طته  
صلى الله عليه وسلم ، فأدى كل خير بلفظه ، ألا تراه يذكر في هذه الصلاة  
رفع أبي بكر صوته بالتكبير ليقتدى الناس به ؟

وتلك الصلاة التي صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته  
عند سقوطه عن فرسه ، لم يحتج أبو بكر إلى أن يرفع صوته بالتكبير ليرفع  
الناس تكبيره ، على صغر حجرة عائشة وإنما كان رفعه الصوت بالتكبير في  
المسجد الأعظم الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في طته ، فلما  
صح ما وصفناه ، لم يجز أن يجعل بعض هذه الأخبار ناسخاً لما تقدم طسى  
حسب ما وصفناه <sup>(٢)</sup> .

فقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الأعظم مرتين  
الأولى كان فيهما إماماً ، والثانية كان فيها مأموماً ، والتي كان فيها إماماً  
خرج بين العباس وطى . وأمر الناس بالقعود ، والثانية كان فيها مأموماً  
صلى بهذا أبي بكر في الصف وقد خرج فيها بين بريرة وثوبة . وليس بين  
شيء من هذا تعارض أو نسخ <sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) الإحسان (٣ : ٤٢٠ - ٤٢١) .  
(٢) الإحسان (٣ : ٤٣١) .  
(٣) الإحسان (٣ : ٤٣٤) .

وروى حديث أنس بن مالك (آخر صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع القوم في ثوب واحد متوشحاً به ، يريد قاعداً خلف أبي بكر) ثم قال :

هذا الخبر ينفي الارتباب عن القلوب ، أن شيئاً من هذه الأخبار يصاد ما عارضها في الظاهر .

ولا يتوهم من متوهم أن الجمع بين الأخبار على حسب ما جمعنا منها في هذا النوع من أنواع السنن يصاد قول الشافعي رحمه الله ورضوانه عليه . وذلك أن كل أصل تكلمنا عليه في كتبنا ، أو فرع استنبطناه من السنن في مصنفاتنا هي كتبها قول الشافعي ، وهو راجع عما في كتبه ، وإن كان ذلك المشهور من قوله ، وذاك أني سمعت ابن خزيمة يقول ، سمعت المزني يقول ، سمعت الشافعي يقول : ( إذا صح لكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخذوا به ، ودعوا قولي )<sup>(١)</sup> .

بعد هذه الرحلة الطويلة مع ابن حبان في استدلالاته ، والتي كان الأجدر أن ننقلها بتامها دون اختصار ، قد يتساءل البعض فيقول : إن هذا الاحتجاج يصح لو أن الشافعي نقل عن هذه السنة ولم يعرفها ، أما وقد ذكر في بداية حديثه الأحاديث المتعارضة وأشار إلى الباقي ، فمن أين يسوغ لابن حبان أن يقول ما قال ؟

قلت : إن الشافعي رحمه الله لم يغيب عنه حديث جابر بن عبد الله إلا أنه لم يعتمد ، واعتبر اعتماده غلطاً . قال :

( وقد روى في هذا الصنف شيء يغلط فيه بعض من يذهب إلى السني الحديث ، وذلك أن عبد الوهاب أخبرنا ، عن يحيى بن سعيد عن أبي الزبير ، عن جابر ، أنهم خرجوا يشيعونه وهو مريض ، فصلى جالساً ، وصلوا خلفه جلوساً )<sup>(٢)</sup> .

أخبرنا عبد الوهاب عن يحيى بن سعيد أن أسيد بن حضير فعل ذلك<sup>(٣)</sup> .

- 
- (١) الإحسان (٣ : ٤٣٥) .  
 (٢) أخرجه الشافعي في اختلاف الحديث . وأخرجه ابن شعبة في المصنف (٢ : ٣٢٦) . وقال ابن حجر في الفتح (٢ : ١٧٦) إسناده صحيح .  
 (٣) قال في الفتح (٢ : ١٧٦) أخرجه ابن المنذر بإسناد صحيح .

قال الشافعي : وفي هذا ما يدل على أن الرجل يعلم الشيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يعلم خلافه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول بما علمه ، ثم لا يكون في قوله بما علم وروى حجة على أحد طمس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قولاً ، أو عمل عملاً ينسخ العمل السدى قال به غيره وعلمه .

كما لم يكن في رواية من روى أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى جالساً وأمر بالجلوس ، وصلى جابر بن عبد الله وأسيد بن حضير وأمرهما بالجلوس وجلوس من خلفهما ، حجة على من علم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ينسخه .

وفي هذا دليل أن علم الخاصة<sup>(١)</sup> يوجد عند بعض ويغيب عن بعض وأنه ليس كعلم العامة<sup>(٢)</sup> الذي لا يسع جهله ، ولهذا أشابه كثيرة ، وفي هذا دليل على ما في معناه منها<sup>(٣)</sup> .

أما ابن حبان فإنه رأى أن جابر بن عبد الله قد رأى الأمرين ، ورواهما وأفتى بعد حياة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وكذلك أسيد بن حضير وأبو هريرة ، وقيس بن قهد عند عبد الرزاق بإسناد صحيح<sup>(٤)</sup> أيضاً ، فهذا أولى بالمتابعة ، خاصة وأنه لم ينقل خلاف عن الصحابة في ذلك .

قال ابن حجر : ( وقد ألزم ابن المنذر من قال : بأن الصحابي أعلم بما روى بأن يقول بذلك ، لأن أبا هريرة وجابراً روي الأمر المذكور واستمرا على العمل به والفتيا بعد النبي صلى الله عليه وسلم . ويلزم ذلك من قال إن الصحابي إذا روى وعمل بخلافه ، فإن العبرة بما عمل من باب الأولى

- 
- (١) علم الخاصة : خبر الواحد في هذا الموضع .  
 (٢) خبر العامة : المتواتر ، أو المشهور الذي تكاثر حتى غدا من المعلومات من بالضرورة تقريبا .  
 (٣) اختلاف الحديث (ص ٨٩ - ٩٠) ، وانظر الاستدلال العقلي فسي الأم (١ : ١٥٢ - ١٥١) فإنه نفيس .  
 (٤) فتح الباري (٢ : ١٧٦) .

لأنه هنا عمل بوفق ما روي (١) .

إلا أن ابن حجر قال : ( نازع ابن حبان في ثبوت كون الصحابة صلوا خلفه صلى الله عليه وسلم وهو قاعد قياما غير أبي بكر، قال : لأن ذلك لم يرد صريحا ، وأطال في ذلك بما لا طائل فيه .

والذي ادعى نفيه أئمة الشافعي ، وقال : إن في رواية إبراهيم عن الأسود بن عائشة ، ثم وجدته مصرحا به أيضا في مصنف عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرني عطاء ، وذكر الحديث وانظروا : ( فصلي النبي صلى الله عليه وسلم قاعدا ، وجعل أبا بكر وراءه بينه وبين الناس ، وصلى الناس وراءه قياما ) . وهذا مرسل يعتمد بالرواية التي طلقها الشافعي عن النخعي ، وهذا الذي يقتضيه النظر فإنهم ابتدأوا الصلاة مع أبي بكر قياما بلا نزاع ، فمن ادعى أنهم قعدوا بعد ذلك فعليه البيان (٢) .

وذكر ابن حجر كلاما يتعلق برده على ابن حبان مستدلا بمرسل عطاء ، إلا أنه رجح وقال بأن مرسل عطاء يشير إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه ( فصلوا صلاة إمامكم ما كان إن صلى قائما فصلوا قياما ، وإن صلى قعودا فصلوا قعودا ) . قال وهذه الزيادة تقوى ما قال ابن حبان أن القصة كانت في موت النبي صلى الله عليه وسلم (٣) .

إلا أنه نازع ابن حبان في الوجوب ، وقال بجواز الأمرين جميعا . والذي يبدو ولى أن ما ذهب إليه ابن حبان قوي راجح . والمسألة تحتاج إلى تدقيق أكثر ليس هذا محله ، وإنما قصدنا بيان طرف من فقه ابن حبان ودقة فهمه وشدة تمسكه بالأثر .

وسأعرض بعد ذلك عدة مسائل من فقهه مشيرا بإيجاز إلى آراء العلماء الآخرين فيها من غير مناقشة ولا استدلال لتتوضح الصورة أكثر .

- 
- (١) فتح الباري (٢: ١٧٦) .
  - (٢) فتح الباري (٢: ١٧٧) .
  - (٣) فتح الباري (٢: ١٧٧) .



(٤) وجوب صلاة الجماعة

أخرج حديث جابر بن عبد الله قال : جاء ابن أم مكتوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : يا رسول الله، إني مكفوف البصر، شاسع الدار فكلمه في الصلاة أن يرخص له أن يصلي في منزله، قال : أسمع الأذان ؟ قال نعم ، قال : فأتيتها ولو حبوا<sup>(١)</sup> .  
وقال بعده :

(في سؤال ابن أم مكتوم، النبي صلى الله عليه وسلم أن يرخص له في ترك إتيان الجماعات، وقوله صلى الله عليه وسلم "إئتتها ولو حبوا"، أعظم الدليل على أن هذا أمر حتم لاندب، إذ لو كان إتيان الجماعات على من يسمع النداء لها غير فرض، لأخبره صلى الله عليه وسلم بالرخصة فيه، لأن هذا جواب خرج على سؤال بعينه، ومحال أن لا يوجد لغير الفريضة رخصة) .<sup>(٢)</sup>

ثم روى حديث ابن عباس (من سمع النداء فلم يجب، فلا صلاة لله إلا من عذر)<sup>(٣)</sup> . وقال : في هذا الخبر دليل أن أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإتيان الجماعات أمر حتم لاندب، إذ لو كان القصد في قوله (فلا صلاة له إلا من عذر) يريد به الفضل، لكان المعذور إذا صلى وحده، كان له فضل الجماعة فلما استحال هذا وطل، ثبت أن الأمر بإتيان الجماعة أمر إيجاب لاندب)<sup>(٤)</sup> .

فالجماعة عند ابن حبان فرض عين على كل مسلم. ولا تسقط الجماعة عن المكف إلا بعذر .

(١) الإحسان (٣: ٣٨٦) . وأخرج أبو داود في الصلاة باب التشديد في ترك الجماعة رقم (٥٥٢-٥٥٣) ، والنسائي في الإمامة بسباب المحافظة على الصلوات (٢: ٨٤-٨٥) وأحمد وابن ماجه رقم (٧٩٢) نحوه من حديث ابن أم مكتوم . وأخرج مسلم نحوه عن أبي هريرة رقم (٦٥٣) . أما هذا الحديث فتفرد به ابن حبان من حديث جابر - فتح الباري (٢: ١٢٨) .

(٢) الإحسان (٣: ٣٨٧) .

(٣) الإحسان (٣: ٣٨٧) . وأخرجه ابن ماجه في المساجد والجماعات باب التفليظ في التخلف عن الجماعات رقم (٧٩٣) قال الحافظ:

إسناده على شرط مسلم . كذا في نيل الأوطار (٣: ١٤٣) .

(٤) الإحسان (٣: ٣٨٧-٣٨٨) .

قال : (وأما العذر الذي يكون للتخلف عن إتيان الجماعات بسببه معذورا ، فقد تتبعته في السنن كلها ، فوجدتها تدل على أن العذر عشرة أشياء - ملخصا - :

- (١) العذر الأول : المرض الذي لا يقدر معه المرء أن يأتي الجماعات .
  - (٢) العذر الثاني : حضور الطعام عند صلاة المغرب .
  - (٣) العذر الثالث : النسيان الذي يعرض في بعض الأحوال .
  - (٤) العذر الرابع : السمن المفرط الذي يمنع المرء من حضور الجماعات .
  - (٥) العذر الخامس : وجود المرء حاجة الإنسان في نفسه - الغائط أو البول .
  - (٦) العذر السادس : خوف الإنسان على نفسه وماله في طريقه إلى المسجد .
  - (٧) العذر السابع : وجود البرد الشديد المؤلم .
  - (٨) وجود المطر المؤذي .
  - (٩) وجود العلة التي يخاف المرء على نفسه العثر منها .
  - (١٠) أكل الإنسان الثوم والبصل إلى أن يذهب ريحها .
- وذكر لكل واحد من هذه الأعذار حديثا يثبتها ويدل عليها<sup>(١)</sup> . ثم قال :
- هذه الأشياء التي وصفناها هي العذر الذي في خبر ابن عباس ، الذي لا حرج على من به حالة منها في تخلفه عن أداء فوضه جماعة ، (وليس<sup>(٢)</sup> عليه إثم ترك الجماعة وأداء الغرض . ومن أدى الغرض وهو يسمع النداء ، فقد سقط عنه فرض أداء الصلاة ، وعليه إثم ترك إتيان الجماعة .
- وقوله صلى الله عليه وسلم (من سمع النداء فلم يجب ، فلا صلاة له إلا من عذر) أراد به : فلا صلاة له من غير إثم يرتكبه في تخلفه عن إتيان الجماعة إذا كان القصد فيه ارتكاب النهي لأن صلواته غير مجزئة ، وإن لم يكن بمعذور إذا لم يجب داعي الله .

(١) انظر هذه الأعذار وأدلتها مرتبة فيما يأتي من الإحسان (٣ : ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١) .  
(٢) في الكلام سقط لا يستقيم معه المعنى فأثبت هذه الكلمة لعله يستقيم .

وهذا كقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (من لفا فلا جمعة له) <sup>(١)</sup> . يريد بسبه  
فلا جمعة له من غير إثم يرتكبه بلغوه) <sup>(٢)</sup> .  
وظاهر كلام الشافعي في الأم <sup>(٣)</sup> أنها فرض كفاية ، وطيه جمهور المتقدمين  
من أصحابه ، وقال به كثير من الحنفية والمالكية . والمشهور عند الباقيين أنها  
سنة مؤكدة .

والى القيل بأنها فرض عين ذهب عطاء والأوزاعي وأحمد وجماعة  
من محدثي الشافعية كأبي ثور وابن خزيمة وابن المنذر وابن حبان .  
وبالغ داود فجعلها شرطا في صحة الصلاة . . . ولما كان الوجوب قد  
ينفك عن الشرط فقد قال أحمد : إنها واجبة غير شرط . . . هـ

---

(١) الإحسان (٤٠٧: ٣) ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٣: ١) وأبو  
داود في الصلاة باب فضل الجمعة رقم (١٠٥١) من حديث طي . وقد  
ذكره ابن حبان هنا من غير إسناد ، ورجعت إلى كتاب الجمعة فسي  
موارد الظمان فلم أجد للحديث أثرا ، قلعل ابن حبان احتج بمعنى  
حديث أبي هريرة عند الشيخين وانظر زاد المعاد (٣٧٧: ١) . ولم  
يشر الشوكاني في النبيل (٣٠٩: ٣) إلى أن ابن حبان أخرج هذا  
الحديث . وإنما ذكروا أن ابن حبان تكلم في أحد رواه .

(٢) الإحسان (٤٠٧: ٣) .

(٣) الأم (١٣٦: ١) . وانظر تنصيل الموضوع ومناقشته بمرآة في الفتح  
(١٣٥-١٣٠) ، وانظر نبيل الأوطار (١٤٢: ٣) فما بعد .

( ٥ ) حكم تارك الصلّاة

في باب الرهيد على ترك الصلّاة، روى حديث جابر رضى الله عنه  
(ليس بين العبد وبين الكفر إلا ترك الصلّاة) <sup>(١)</sup> . ثم ذكر (لفظة أو همت غير  
المتبحر في صناعة الحديث أن تارك الصلّاة حتى خرج وقتها، كافر بالله  
- جل وعلا - ) وروى حديث بريدة (أن العبد الذى بيننا وبينهم الصلّاة  
فمن تركها فقد كفر) <sup>(٢)</sup> . ثم روى أربعة أحاديث عن ابن عمر وأبى جابر ومعاذ  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدّم الصلّاة عن وقتها أو أخرها، مؤكداً  
على (أن تارك الصلّاة متعمداً لا يكفر به كقرا يخرج عن الملة، أو كقرا يبين به  
امرات، أو كقرا لا يركه فيه ورثته المسلمون، أو مات قبل أن يصلّيها . وروى بعد  
ذلك خبراً يدل على أن تارك الصلّاة بعد أن وجب عليه أدائها وإن ذهب  
وقتها، لا يكون كافراً كقرا، يكون ماله به فيثا للمسلمين، وهو خير أسمى هريسة  
قال: (عرّسنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فلم نستيقظ حتى  
آفتنا الشمس، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: لياخذ كل رجل منكم  
راحلته، ثم تنحى عن هذا المنزل، ثم دعا بالماء فتوضأ فسجد سجدتين ثم  
أقيمت الصلّاة) <sup>(٣)</sup> . وقال بعد ذلك: (في تأخير النّبي صلى الله عليه وسلم

(١) الإحسان (٣: ٩) . وأخرجه مسلم في الإيمان باب بيان إطلاق اسم

الكفر على من ترك الصلّاة رقم (٨٢) . وأبو داود في السنة باب فسى

رد الإرجاء رقم (٤٦٧٨) . والترمذى في الإيمان باب ما جاء في ترك

الصلّاة رقم (٢٦٢٠) وقال: حسن صحيح .

(٢) الإحسان (٣: ١٠) . وأخرجه الترمذى في الإيمان باب ما جاء فسى

ترك الصلّاة رقم (٢٦٢١) وقال: حسن صحيح غريب . والنسائى فى

الصلّاة، باب الحكم فى تارك الصلّاة (١: ١٨٧) . وهو حديث صحيح .

(٣) الإحسان (٣: ١٠) .

(٤) الإحسان (٣: ١١) .

(٥) الإحسان (٣: ١٣) .

(٦) الإحسان (٣: ١٥) . وأخرجه مسلم فى المساجد، باب قضاء الصلّاة

الفائتة رقم (٦٨٠) . وأخرج الموطأ نحوه مرسل عن سعيد (١: ١٣)

(١٤) . وأبو داود فى الصلّاة باب من نام عن الصلّاة أو نسيها رقم (٤٣٥) =

الصَّلَاة عن الوقت الذي أثبتته إلى أن خرج من الوادى ، دليل صحيح على  
أن تارك الصَّلَاة إلى أن يخرج وقتها لا يكون كافرا ، إذ لو كان كذلك ، لأمرهم  
رسول الله صلى الله عليه وسلم بأداء الصَّلَاة في وقت انتباههم من منامهم  
ولم يأمرهم بالتَّخَيُّع عن المنزل الذي ناموا فيه ، والفرض لازم لهم قد جاز وقتها<sup>(١)</sup>  
وذكر عدة أحاديث تؤيد ما ذهب إليه ثم قال : أطلق المصطفى صلى الله  
عليه وسلم اسم الكفر على تارك الصَّلَاة ، إذ ترك الصَّلَاة أول بداية الكفر لأنَّ  
المرء إذا ترك الصَّلَاة واعتاده ، ارتقى منه إلى ترك غيرها من الفرائض ، وإذا  
اعتاد ترك الفرائض ، أداه ذلك إلى الجحد ، فأطلق صلى الله عليه وسلم  
اسم النَّهْيَاة علم التي هي آخر شعب الكفر على البداية التي هي أول شعبها  
وهي ترك الصَّلَاة<sup>(٢)</sup> . إذ ( لو كان تأخير المرء للصَّلَاة عن وقتها إلى  
أن يدخل وقت الصَّلَاة الأخرى يلزمه بذلك اسم الكفر ، لما أمر المصطفى صلى  
الله عليه وسلم أمته بالشئ الذي يكفرون بفعله ، ولعنف فاعل ذلك ، فلمَّا  
لم يعنف فاعله ، دل ذلك على أنه لم يكفر كفرا يشبه الارتداد )<sup>(٣)</sup> .

ويعد : فإليك مذاهب العلماء في هذه المسألة ملخصة مما قاله

ابن قدامة :

( تارك الصَّلَاة لا يخلو : إما أن يكون جايدا لوجوبها ، أو غير جايد .

( ١ ) فإن كان جايدا لوجوبها نظر :

( أ ) فإن كان جاهلا بوجوبها ، وهو ممن يمكن أن يجهل ، كالحديث فسى

الإسلام ، والنَّاسِي في اليدوية ، عرف بوجوبها ، ولم ذلك ، ولم يحكم

بكفره ، لأنه معذور ، فإن علم ثم جحد ، صار مرتدا .

= والترمذى في التفسير باب ومن سورة طه رقم ( ٣١٦٣ ) . والنَّاسِي فسى

المواقيت باب كيف يقضى الغائت الصَّلَاة ( ١ : ٢٣٩ ) . وقد ضعفه

الترمذى من جهة صالح بن أبي الأخرى عن الزهري . إلا أن مسلمنا

رواه من طريق يونس عن الزهري ، والنَّاسِي رواه عن طريق عمرو بن

الزهري ، فلم يتفرد به أبو الأخرى . انظر الترمذى ( ٥ : ٣١٩ ) وقارن .

( ١ ) الإحسان ( ٣ : ١٥ ) .

( ٢ ) الإحسان ( ٣ : ١٩ ) .

( ٣ ) الإحسان ( ٣ : ١٨ ) .

(ب) وان كان ممن لا يجهل ذلك كالنَّاشي في ديار المسلمين ومدتهم لم يعذره ، ولم يقبل منه ادعاء الجهل ، وحكم بكفره ، وصار مرتدا ، حكمه حكم سائر المرتدين في الاستتابة والقتل ، ولا أعظم في ذلك خلافا .

(٢) وان كان غير جاحد لوجوبها : كأن تركها تهاونا وكسلا ، دهمى إلى فعلها ، وقتل له : إن صلَّيت ، وإلا قتلناك ، فإن صلَّى ، حقن دمه ، وإلا قتل ، ولا يقتل حتى يحبس ثلاثا ، ويضيق عليه فيها ويدعى في وقت كل صلاة إلى فعلها ، ويخوف بالقتل ، فإن صلَّى في الأيام الثلاثة ، وإلا قتل بالسيف ، وبهذا قال مالك وحماد بن زيد ووكيع بن الجراح ، والشافعي ، وقال الزهري : يضرب ويسجن . وبه قال أبو حنيفة .

واختلفت الرواية عن أحمد ، هل يقتل كفرا أو حدا ؟

(١) فذهب أحمد في رواية ، والأوزاعي ، وابن المبارك ، وحماد بن زيد وإسحاق بن راهويه ومحمد بن الحسن الشيباني ، وهو مذهب الحسن البصري وأبيوب السخيتاني من المتقدمين ، ذهبوا إلى أنه يقتل كفرا .

(٢) والرواية الثانية عن أحمد أنه يقتل حدا ، وهو مذهب أكثر الفقهاء وهو قول أبي حنيفة <sup>(١)</sup> - كذا - ومالك والشافعي ، وأبو بكر ابن بطينة قول من قال : إنه يكفره ، وذكر أن مذهب الحنابلة أنه يقتل حدا <sup>(٢)</sup> .

---

(١) في هذا النقل عن أبي حنيفة غرابة ، ولعله قول لأبي حنيفة .  
(٢) المعنى مع الشرح (٢ : ٢٩٨ - ٣٠٢) .

(٦) سجود السهو

روى حديث أبي هريرة (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من اثنتين، فقال له ذو اليمين: أقصرت الصلاة أو نسيت يا رسول الله؟ فقال أصدق ذو اليمين؟ فقال الناس نعم. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى اثنتين أخريين ثم سأم، ثم كبر ثم سجد مثل سجوده أو أطول. ثم رفع) من طرق عديدة وبالفاظ مختلفة ثم قال:

هذا خبر أوهم عالما من الناس، أن هذه القصة، كانت حيث كان الكلام مباحا في الصلاة، ثم نسخ هذا الخبر، بتحريم الكلام في الصلاة وليس كذلك، لأن نسخ الكلام في الصلاة كان بعكة عند رجوع ابن مسعود من أرض الحبشة، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وروى هذا الخبر أبو هريرة وأبو هريرة أسلم سنة خيبر، سنة سبع من الهجرة، فذلك ما وصفت على أن قصة ذي اليمين، كانت بعد نسخ الكلام في الصلاة بعشر سنين سواء، فكيف يكون الخبر المتأخر منسوخا بالخبر المتقدم؟<sup>(١)</sup> يرد على من قال بأن حديث أبي هريرة هذا منسوخ بحديث ابن مسعود الآتي.

وقال: أخبر ذي اليمين معناها: أن المصطفى صلى الله عليه وسلم تكلم في صلاته، على أن الصلاة قد تمت له، وأنه قد أدى فرضه الذي عليه وذو اليمين توهم أن الصلاة قد ردت إلى الفريضة الأولى، فتكلم على أنه في غير الصلاة، وأن صلاته قد تمت، فلما استثبت صلى الله عليه وسلم أصحابه كان من استثباته على تعين أنه قد أتم صلاته.

وأما جواب الصحابة رضوان الله عليهم له أن نعم. فكان الواجب عليهم أن يجيبوا، وإن كانوا في نفس الصلاة، لقبل الله - جل وعلا - (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)<sup>(٢)</sup>.

(١) الإحسان (٤: ١٨). وأخرجه البخاري في السهو، باب إذا سأم من ركعتين أو ثلاث (٣: ٩٦) ومواضع أخرى عديدة. ومسلم في المساجد باب السهو في الصلاة رقم (٣٨٩) وثيقة الجماعة.

(٢) الإحسان (٤: ١٨).

(٣)

فأما اليوم فقد انقطع الوحي ، وأقرت الفرائض ، فإن تكلم الإمام ، وعنده  
أن الصلاة قد تمت بعد السلام ، لم تبطل صلاته ، وإن سأل المأمومين  
فأجابوه بطلت صلاتهم ، وإن سأل بعض المأمومين الإمام بطلت صلاته  
لاستحكام الفرائض وانقطاع الوحي .

والعلة في سهو النبي صلى الله عليه وسلم أنه بعث معلماً قولاً وفعلاً  
فكانت الحال التي يطرأ عليه في بعض الأحوال ، والقصد فيه إعلام الأمة  
ما يجب عليهم ، عند حدوث تلك الحالة بهم بعده صلى الله عليه وسلم (١) .

وروي حديث عمران بن حصين في سهو النبي صلى الله عليه وسلم :  
( أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى العصر فسلم في ثلاث ركعات  
ثم دخل منزله فقام إليه رجل يقال له الخرباق فذكر مثل حديث أبي هريرة  
ثم صلى ركعة ثم سأم ثم سجد سجدتين ثم سلم ) . . . الحديث (٢) .

وحديث معاوية بن حديج ، ( أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى  
يوماً ، وقد بقيت من الصلاة ركعة ، وخرج فأدركه رجل فقال : نسيت من  
الصلاة ركعة ، فرجع فدخل المسجد وأمر بلالا فأقام الصلاة فصلى للناس  
ركعة . فأخبرت بذلك الناس ، فقالوا : تعرف الرجل ؟ قلت : لا ، إلا أن أراه  
فسر بي رجل فقلت : هذا هو . فقالوا : هذا طلحة بن عبيد الله ) (٣) .

ثم قال : هذه الأخبار الثلاثة توهم غير المتبحر في صناعة العلم أنها  
متضادة ، لأن في خبر أبي هريرة أن ذا اليمين هو الذي أعلم النبي صلى  
الله عليه وسلم ذلك ، وفي خبر عمران بن حصين أن الخرباق قال للنبي صلى  
الله عليه وسلم ذلك . وفي خبر معاوية بن حديج أن طلحة بن عبيد الله  
قال له ذلك .

- (١) الإحسان (٤ : ١٦٠ - ب - ١٦١) .  
(٢) أخرجه ابن حبان . الإحسان (٤ : ١٥٥ أ) ، ومسلم في المساجد  
باب السهو في الصلاة رقم (٥٢٤) ، وأبو داود في الصلاة باب السهو  
في السجدين رقم (١٠٣٩) ، والنسائي في السهو باب الاختلاف على  
أبي هريرة (٢ : ٢٢) .  
(٣) أخرجه ابن حبان الإحسان (٤ : ١٥٥ أ) ، وأبو داود في الصلاة  
باب إذا صلى خمسا رقم (١٠٢٣) ، والنسائي في الأذان باب الإقامة  
لمن نسي ركعة من الصلاة (٢ : ١٦) ، وإسناده صحيح . وأخرجه  
أحمد في المسند (٦ : ٤٠١) .



وليس بين هذه الأحاديث تضاد ولا تهافت، وذلك أن خبر ذى اليمين  
سلم النبي صلى الله عليه وسلم من الركعتين من صلاة الظهر أو العصر  
وخبر عمران بن حصين أنه سلم من الركعة الثالثة من صلاة الظهر أو العصر  
وخبر معاوية بن حديج أنه سلم من الركعتين من صلاة المغرب . فـ <sup>(١)</sup>  
ما وصفنا على أنها ثلاثة أحوال متباينة في ثلاث صلوات، لافي صلاة واحدة .  
وأخرج حديث ابن مسعود <sup>(٢)</sup> ، وفيه : ( إذا شك أحدكم في صلاته  
فليتحرر الصواب وليبن عليه ، ثم ليسجد سجدتين ) . وهذا التحرى يكون  
بعد السلام الأول ، كما في بعض روايات حديث ابن مسعود نفسه . <sup>(٣)</sup>

أما البانى على اليقين فيسجد قبل السلام بناء على حديث أبى  
سعيد الخدرى <sup>(٤)</sup> ( إذا شك أحدكم في صلاته فليطرح الشك ، وليبن على  
اليقين ) ثم قال :

( قد يتوهم من لم يحكم صناعة الأخبار ، ولا تفقه في صحيح الآثار  
أن التحرى في الصلاة ، والبناء على اليقين واحد ، وليس كذلك ، لأن التحرى  
هو أن يشك المرء في صلاته ، فلا يدري ما صلى ، فإذا كان كذلك فعليه أن  
يتحرى الصواب ، وليبن على الأغلب عنده ، ويسجد سجدتى الشهو بعد  
السلام على خبر ابن مسعود .

والبناء على اليقين : هو أن يشك في الثنتين والثلاث - أو الثلاث  
والأربع ، فإذا كان كذلك ، عليه أن يبني على اليقين ، وهو الأقل ، وليبني  
صلاته ، ثم يسجد سجدتى الشهو قبل السلام على خبر عبد الرحمن بن عوف  
وأبى سعيد الخدرى <sup>(٥)</sup> ، حتى يكون مستعملا للخبرين معا <sup>(٦)</sup> .

- (١) الإحسان (٤: ١٥٥) ب .
- (٢) الإحسان (٤: ١٤٦) ب ، وأخرجه البخارى فى الشهو باب إذا صلى  
خمسا (٣: ٩٣) فمابعد . ومسلم فى المساجد باب الشهو فى الصلاة  
رقم (٥٧٢) وثقة الجماعة .
- (٣) الإحسان (٤: ١٤٧) ب ، (١٤٨) أ .
- (٤) الإحسان (٤: ٤٤٩) ب . وأخرجه مسلم فى المساجد باب الشهو  
فى الصلاة رقم (٥٧١) . وأبو داود فى الصلاة باب إذا صلى خمسا  
رقم (١٠٢٤) ، (١٠٢٦) ، (١٠٢٧) ، (١٠٢٩) . والترمذى فى الصلاة  
باب ما جاء فى الرجل صلى فبشك فى الزيادة والنقص رقم (٣٩٦) وغيرهم .
- (٥) الإحسان (٤: ١٥٠) أ .
- (٦) ماسبق (٤: ١٥٢) ب وذكر نحو من هذا هناك .

فابن حبان - كما ترى - حريص أن يستعمل السنن كلها ، فيعمل كل سنة في الموضوع الذي وردت فيه . فلم يأخذ بحديث ابن مسعود وحده في السجود بعد السلام - كما هو مذهب الحنيفة ، ولم يأخذ بحديث مالك بن يحيى<sup>(١)</sup> ( أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين من بعض الصلوات ثم قام فلم يجلس ، فقام الناس معه ، فلما قضى صلاته ونظرنا تسليمه كبر قبل التسليم فسجد سجدتين وهو جالس . . . ثم سأم ) كما هو مذهب الشافعية قال رحمه الله بعد ذكره حديث أبي هريرة : ( إذا لم يدر الرجل كم صلى فليسجد سجدتين وهو جالس ) .<sup>(٢)</sup> ( أمره صلى الله عليه وسلم لمن شك في صلاته فلم يدر كم صلى ، فليسجد سجدتين وهو جالس ، أمر مجمل تفسره أفعاله التي ذكرناها ، لا يجوز لأحد أن يأخذ الأخبار التي فيها ذكر سجدتي السهو قبل السلام فيستعمله في كل الأحوال ، ويترك سائر الأخبار التي فيها ذكره بعد السلام وكذلك لا يجوز لأحد أن يأخذ الأخبار التي فيها ذكر سجدتي السهو بعد السلام فيستعمله في كل الأحوال ، ويترك الأخبار الأخرى التي فيها ذكره قبل السلام .

ونحن نقول : إن هذه أخبار أربع ، يجب أن تستعمل ، ولا يترك شيء منها ، فيفعل في كل حالة مثل ما وردت السنة فيها سواء :

( ١ ) فإن سأم من اثنتين أو الثلاث من صلاته ساهيا ، أتم صلاته وسجد سجدتي السهو بعد السلام على خير أبي هريرة وعمران بن حصين اللذين ذكرناهما .

( ٢ ) وإن قام من اثنتين ولم يجلس أتم صلاته ، وسجد سجدتي السهو قبل السلام على خير ابن يحيى .

( ٣ ) وإن شك في الثلاث أو الأربع بيني على اليقين على ما وصفنا وسجد سجدتي السهو قبل السلام على خير أبي سعيد الخدري وعبد الرحمن ابن عوف .<sup>(٣)</sup>

( ١ ) أخرجه البخاري في الشهباب ما جاء في السهو إذا قام من ركعتي الفريضة ( ٣ : ٩٢ ) . وسلم في المساجد باب السهو في الصلاة رقم ( ٥٧٠ ) وبقيّة الجماعة .

( ٢ ) طرف من حديث أخرجه ابن حبان ( ١ : ١١٣ ) .

( ٣ ) حديث عبد الرحمن بن عوف أخرجه الترمذي في الصلاة باب ما جاء في الرجل يصلي فيشك رقم ( ٣٩٨ ) . وهو حسن .

(٤) وان شك ولم يدرك صلي أصلا ، يجرى على الأغلّب عنده ، وأتمّ صلاته وسجد سجدة تي السّهو بعد السّلام على خير ابن مسعود ، الّذى ذكرناه ، حتّى يكون مستعملا للأخبار الّتى وصفناها كلها .  
فإن وردت عليه حالة غير هذه الأربع فى صلاته ردها إلى ما يشبهها من الأحوال الأربع الّتى ذكرناها (١) .  
وموجز مذاهب العلماء فى هذه المسألة ما قاله ابن هبيرة فى الإفصاح (٢)  
ثم اختلفوا فى موضعه .

- (١) فقال أبو حنيفة : بعد السّلام على الإطلاق .  
(٢) وقال مالك : إن كان من نقصان فقبل السّلام ، وإن كان عن زيادة فبعد السّلام وإن اجتمع سهوان من زيادة ونقصان فموضعه قبل السّلام أيضا .  
(٣) وقال الشافعى : كلّه قبل السّلام فى المشهور عنه .  
(٤) وقال أحمد فى الرواية المشهورة عنه : كلّه قبل السّلام إلا فى موضعين :  
(أ) أحدهما : أن يسلم من نقصان فى صلاته ساهيا ، فإنّه يقضى ما بقى عليه ويسلم ، ويسجد للسّهو بعد السّلام .  
(ب) والثانى : إذا شك الإمام فى صلاته وقلنا يتحرى ، فإنّه يبنى على غالب فهمه ، ويسجد أيضا بعد السّلام .  
وعنه رواية أخرى كمذهب مالك) . . ا . هـ

---

(١) الإحسان (١: ١١٣-١١٤) .  
(٢) الإفصاح (١: ١٤٨-١٤٩) .

## الفصل الخامس

عقيدة الإمام ابن حبان

تمهيد :

تحدثت - فيما سبق - عن الحياة الفكرية والعقدية في عصر الإمام ابن حبان ، وذكرت هناك أن الفرق الكلامية من الأشاعرة والمعتزلة كانت لهم مواقف خالفوا فيها الحنابلة وأهل الحديث في كثير من الجوانب العقدية ، كما أنهم هم أنفسهم اختلفوا فيما بينهم إلى شيع وأحزاب ، وأوصات إلى أن ردة الفعل - عند الحنابلة - كانت عنيفة ، حتى إنهم لم يقبلوا من أبي الحسن الأشعري كتاب " الإبانة " مع أنه على مذهبهم ، وقالوا : لانعرف إلا ما قاله الإمام أحمد ، كما قال بعضهم : إن اعتقاد البدعة لا يتاب عنه ولا يتصور الرجوع عنه ، ولا يعتقد البدعي أنه كان على باطل .

والمحت إلى أن جمهرة من علماء الحنابلة وأهل الحديث قد بالغوا في إثبات الصفات للباري تعالى حتى إنهم أشبهوا الله تعالى الجلوس على العرش ، وأنه يجلس نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم معه عليه ودافعوا عن هذه العقيدة دفاعهم عن وحدانية الله تعالى ، وقد رموا من لا يؤمن بها بالزندقة والرفض والإلحاد .

أما جمهور أهل الحديث من غير الحنابلة ، وبعض أكابر علماء الحنابلة - بعد الإمام أحمد - فإنهم نظروا إلى أحاديث الصفات نظرة أخرى تختلف اختلافا كبيرا عن الإفراط والتفريط الذي تجاذبه الأشاعرة والمعتزلة وجمهور الحنابلة في ذلك العصر ، فاستبعدوا من هذه الأحاديث ما لم يكن صحيحا ، ثم جاءوا إلى الصحيح من الحديث ، قرأوا فيه من الأحاديث المشكلة ما جعلهم يفسرون هذه الأحاديث تفسيرا يتناسب مع جلال الله تعالى ، ولا يبعد في التأويل .

(١) انظر الفصل الخامس من الباب الأول . من الجزء الذي طلبه الطالب انجرام بالله .

فحديث الصورة<sup>(١)</sup> (إذا ضرب أحدكم فليجنب الوجه ، ولا يمل قبح الله وجهك ، ووجه من أشبه وجهك ، فإن الله خلق آدم على صورته ) ، فيه إشكال كبير في عود الضمير فقد رواه ابن خزيمة في التوحيد ثم قال :

( توهم بعض من لم يتحر العلم أن قوله " على صورته" يريد : صورة الرحمن ، عز ربنا عز وجل من أن يكون هذا معنى الخبر ، بل معنى قوله " خلق آدم على صورته" الراء في هذا الموضع كناية عن اسم المضروب والمشتوم . أراد صلى الله عليه وسلم أن الله خلق آدم على صورة هذا الذي أمر الضارب باجتناب وجهه بالضرب ، والذي قبح وجهه .

فجزى صلى الله عليه وسلم أن يقبل : ووجه من أشبه وجهك لأن وجه آدم شبيه وجه نبي ، فإذا قال الشاتم لبعض بني آدم : قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك كان مقبحا وجه آدم صلوات الله وسلامه عليه . . . ) .

وروى حديث ( لا تتقحوا الوجه فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن ) ثم قال : قد أفتحن بهذه اللفظة . . . عالم من لم يتحر العلم ، وتوهموا أن إضافة الصورة إلى الرحمن في هذا الخبر من إضافة صفات الذات فغلطوا في هذا ظلما بيانا ، وقالوا مقالة شنيعة مضاهية لنقل المشبهة ، أعادنا الله وكل المسلمين من قولهم ) ثم ضعف الحديث وبين علمه . . .

فهذا ابن خزيمة زعيم أهل الإثبات والمعدود من المغالين فيه أول هذا الحديث ، ورفض أن يكون على ظاهره من عود الضمير إلى الله تعالى كي لا تقع في التشبيه ، وموضع التشبيه هو ( الصورة ) . قال الذهبي في ترجمة ابن خزيمة :

( وكتابه في " التوحيد" مجلد كبير وقد تأول في ذلك حديث الصورة فليعذر من تأول بعض الصنات .  
وأما السلف فما خاضوا في التأويل ، بل آمنوا وكفوا ، وقوضوا علم ذلك

( ١ ) حديث الصورة أخرجه البخاري في الاستئذان باب بدء السلام رقم ( ٥٨٧٣ ) ورقم ( ٣١٤٨ ) . وأخرجه مسلم في الجنة باب يدخل الجنة أقوام أفشدتهم مثل أفشدة الطير رقم ( ٢٨٤١ ) . وابن خزيمة في التوحيد ( ص ٣٦ - ٤١ ) فانظره لزاما .  
( ٢ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ٣٧٤ - ٣٧٦ ) .

إلى الله ورسوله .

ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوحيه لاتباع الحق  
أهدرناه وبدعناه ، لقل من يسلم من الأثمة معنا ، رحم الله الجميع بمنّاه  
وكرمه . . ا . هـ

وبعد هذا فإنهم انقسموا في موقفهم من صفات الباري تعالى إلى  
قسمين :

( ١ ) فمنهم من قبله وآمن به ، ولم يؤوله ، ووكل علمه إلى الله ، ونفى الكيفية  
والتشبيه عنه .

( ٢ ) ومنهم من قبله وآمن به ، وحمله على وجه يصح استعماله في اللغة  
ولا يناقض التوحيد <sup>(١)</sup> .

فالذين لم يؤولوه ، قبلوه لأنه صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
ونفوا الكيفية والتشبيه لئلا يقع في الأذهان التخييل والتشيل ، وفوضوا حقيقة  
المراد إلى الله تعالى . وإن كان قد ورد في كلام كثير من السلف الإثبات  
مع التفويض .

والإمام أبو حاتم بن حبان - رحمه الله تعالى - من الفريق الثاني  
الذين حملوه على وجه يصح استعماله في اللغة ، مبالغة في تغزبه الله تعالى  
وحملا للألفاظ على مدلولاتها اللغوية المعروفة عند العرب ، ولأنه يسرى  
أن ليس في سنن المصطفى شيء لا يعرف معناه <sup>(٢)</sup> .

وقد ذكرت أن مذهب هؤلاء ليس التأويل المطبق في كل صفة  
واردة ، وإنما هو في الصفات التي وردت في أخبار الآحاد مما ليس له أصل  
في الكتاب والسنة المتواترة بلفظه أو بمعناه . كالضحك ، والعجب ، والتبشيش  
والقدم ، والأصابع ونحو ذلك .

وسأحاول أن أعرض بعض المباحث التي تجلّى عقيدة ابن حبان أمام  
ناظرينا .

( ١ ) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للمبيهقي (ص ١١٧-١١٨) .

( ٢ ) الإحسان ( ٢١٩ : ١ ) .

المبحث الأول : مذهبه في الإيمان

( ١ ) مفهوم الإيمان :

يذهب ابن حبان في الإيمان مذهب أهل الحديث ، فالإيمان عنده قول باللسان ، وعمل بالأركان ، وتصديق بالقلب ، وهو يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، وأن له شعبا وأجزاء منها ما هو فرض ، ومنها ما هو نقل ، وهذا من أعظم الأدلة على أن الإيمان يزيد وينقص .

أخرج حديث أبي هريرة مرفوعا<sup>(١)</sup> : (الإيمان بضع وستون شعبا أو بضع وسبعون شعبا فأرفعها لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ) وقال :

(أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى الشيء الذي هو فرض على المخاطبين في جميع الأحوال فجعله أعلى الإيمان ، ثم أشار إلى الشيء الذي هو نقل للمخاطبين في كل الأوقات فجعله أدنى الإيمان ، فدل ذلك على أن كل شيء فرض على المخاطبين في كل الأحوال ، وكل شيء فرض على المخاطبين في بعض الأحوال ، وكل شيء هو نقل للمخاطبين في كل الأحوال ، كونه من الإيمان )<sup>(٣)</sup>

فالصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، والصدقات ، والبر ، والإحسان والعفو كله من الإيمان .

وقال<sup>(٤)</sup> : (وأما قوله صلى الله عليه وسلم " الحياة شعبة من الإيمان فهو لفظة أطلقت على شيء بكناية سببه ، وذلك أن الحياة جبلية في الإنسان

- 
- ( ١ ) الإحسان ( ١ : ٢٥١ ) .  
( ٢ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( ١ : ٢١٧ ، ٢١٨ ) . وأخرجه البخاري في الإيمان باب أمور الإيمان رقم ( ٩ ) ومسلم في الإيمان باب بيان عدد شعب الإيمان رقم ( ٣٥ ) وغيرهم .  
( ٣ ) الإحسان ( ١ : ٢١٧ - ٢١٨ ) .  
( ٤ ) الإحسان ( ١ : ٢٢٠ ) .

فمن النَّاس من يكثر ذلك فيه ، ومنهم من يقل ذلك فيه ، وهذا دليل صحيح على زيادة الإيمان ، ونقصانه ، لأنَّ النَّاس ليسوا كلهم على مرتبة واحدة فسى الحياء .

فلما استحال استوائهم على مرتبة واحدة ، فقد صح أن من وجد فيه البر كان إيمانه أزيد ، ومن وجد فيه منه أقل ، كان إيمانه أنقص .  
والحياء في نفسه : هو الشىء الحائل بين المرء ، وبين ما يباعده من ربه عن المحظورات ، فكأنه صلى الله عليه وسلم جعل ترك المحظورات شعيرة من الإيمان بإطلاق اسم الحياء عليه ) . ا . هـ

### ( ٢ ) عدد شعب الإيمان :

قال رحمه الله : ( والخبر في بضع وسبعين ، خبر متقصى صحيح لا ارتياب في ثبوته ، وخبر سليمان بن بلال ، خبر مختصر غير متقصى ) .  
( وأما الشك في أحد العددين فهو من سهيل بن أبي صالح فسى الخبر ، كذلك قاله معمر عن سهيل ) .  
( ٢ )

( وأما البضع فهو اسم يقع على أحد أجزاء الأعداد ، لأنَّ الحسب بناءه على ثلاثة أشياء على الأعداد والفصول والتركيب .  
فالأعداد من الواحد إلى التسعة ، والفصول هي العشرات والمئون والألوف ، والتركيب ما عدا ما ذكرنا . وقد تتبعت معنى الخبر مدة - وذلك أن مذهبنا ، أنَّ النَّبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتكلم قط إلا بفائدة ولا من سننه شىء لا يعلم معناه ، فجعلت أعد الطامات من الإيمان ، فإذا هى تزيد على هذا العدد شيئاً كثيراً ، فرجعت إلى السنين فعددت كل طاعة عدّها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان ، فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين ، فرجعت إلى ما بين الدفتين من كلام ربنا وتلوته آيئة آية بالتدبير ، وعددت كل طاعة عدّها الله جل وعلا من الإيمان ، فإذا هى تنقص عن البضع والسبعين .

( ١ ) الإحسان ( ٢١٩ : ١ ) .

( ٢ ) ما سبق ( ٢١٨ : ١ ) .



فضممت الكتاب إلى السنن ، وأسقطت المعاد منها ، فإذا كل شيء  
عده الله جل وعلا من الإيمان في كتابه ، وكل طاعة جعلها رسول الله صلى  
الله عليه وسلم من الإيمان في سننه ، تسع وسبعون شعبة ، لا يزيد عليها  
ولا ينقص منها شيء ، فعلمت أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان في الخبر  
أن الإيمان بضع وسبعون شعبة في الكتاب والسنن .  
فذكرت هذه المسألة بكاملها بذكرها شعبة شعبة في كتاب " وصف  
الإيمان وشعبه " (١) .

### ( ٣ ) اسم الإيمان ومسامه :

حين يقول ابن حبان بأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية  
فإنه يفرق بين الاسم والمسمى ، فالاسم يدل على مسمى له شعب كثيرة  
فإذا أخل المرء بشيء منها فإنه يسلب اسم الإيمان ، لا الإيمان كله . (٢)

### ( ٤ ) تفاوت الجزاء في الآخرة مترتب على تفاوت الإيمان :

يرى ابن حبان أن الجنة جنان كثيرة ، ( فمن أتى بالإقرار الذي هو  
أعلى شعب الإيمان ، ولم يدرك العطل ، ثم مات ، أدخل الجنة .  
ومن أتى بعد الإقرار من الأعمال - قل أو أكثر - أدخل الجنة ، جننة  
فوق تلك الجنة ، لأن من كثر عمله ، طلت درجته ، وارتفعت جنته ، لأن الكسل  
من المسلمين يدخلون الجنة واحدة ، وإن تفاوتت أعمالهم وتباينت ، لأنها  
جنان كثيرة ، لاجنة واحدة ) (٣) .

( وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر رضي الله عنه : " من  
مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة " ) (٤) يريد به إلا أن يرتكب شيئاً أوعده عليه

- ( ١ ) الإحسان ( ١ : ٢١٩ ) ، وقارن بفتح الباري ( ١ : ٥١ - ٥٢ ) وقد قال ابن حجر : ولم يتفق علي عد هذه الشعب .
- ( ٢ ) الإحسان ( ٢ : ٧٤ ) علي نمط واحد وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان . لكن لم نقف على بيانها من كلامه .
- ( ٣ ) الإحسان ( ١ : ٢٤٤ ) ، وأنظر ( ١ : ٢٥١ ، ٢٥٤ ) .
- ( ٤ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( ١ : ٢٥٤ ) ، ( ٥ : ١٢١ ) ، وأخرجه البخاري في الجنائز رقم ( ١١٨٠ ) ومسلم في الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئاً رقم ( ٩٤ ) .

دخول النار .

وله معنى آخر : وهو أن من لم يشرك بالله شيئاً ومات ، دخل الجنة  
لامحالة ، وإن عذب قبل دخوله إياها مدة معلومة (١) .  
أو يقال : (أضمر في هذا الخبر شرطان :

(١) أحدهما : أن من مات لا يشرك بالله شيئاً ، دخل الجنة إن تفضل  
الله جل وعلا عليه بالعفو عن جناياته التي له في دار الدنيا ، لأن المرء  
لا يخلو من ارتكاب بعض ما حظر عليه في الدنيا . أضمر في هذا  
الخبر هذا الشرط .

(٢) والشرط الثاني : (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة) يريد :  
بعد تعذبه إياه في النار ، نعوذ بالله منها ، إن لم يتفضل عليه  
بالعفو قبل ذلك ، لئلا يبقى في النار مع من أشرك به في الدنيا .  
فهذان الشرطان مضموران في الخبر ، لا أن كل من مات ولم يشرك بالله  
شيئاً ، دخل الجنة لامحالة (٢) .

(٥) الكبائر لا تخرج صاحبها من الإيمان :

والكبائر لا تخرج مرتكبها من الإيمان ، وإن سلبته اسمه .  
روى ابن حبان حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه وفيه  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( لا تقتله فإنك إن قتته ، فإنك  
بمنزلة من قبل أن تقتله ، وأنت بمنزلة من قبل أن يقول كلمته التي قال ) . ثم قال  
ابن حبان (٤) :

( يريد به أنك تقتل قوداً ، لأنه كان قبل أن أسلم حلال الدم ، وإن

- 
- (١) الإحسان (١: ٢٥٤) .  
(٢) الإحسان (٥: ١٢١ب) .  
(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١: ٢١٥-٢١٦) ، وأخرجه البخاري  
في الدييات ، في أوته رقم (٦٤٧٢) ، ومسلم في الإيمان ، باب تحريم  
قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله رقم (٩٥) وغيرهم .  
(٤) الإحسان (١: ٢١٦) .

قتلته بعد إسلامه ، صرت بحالة تقتل مثله قودا به ، لأنَّ قتل المسلم لا يوجب  
كفراً يخرج من الطقة . إذ الله قال : ( يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم  
القصاص في القتل )<sup>(١)</sup> .

( ٦ ) الاستثناء في الإيمان :

حدد ابن حبان معنى الاستثناء ، فقال<sup>(٢)</sup> :

(الاستثناء في المستقبل من الأشياء ، ويستحيل في الشيء الماضي  
وإنما يجوز الاستثناء في المستقبل من الإنشاء .

وحال الإنسان في الاستثناء على ضربين ، إذا استثنى في إيمانه :

فضرب يطلق مباح له ذلك ، وضرب آخر إذا استثنى فيه الإنسان كفرة .

( ١ ) أما الضرب الذي لا يجوز ذلك ، فهو أن يقال للرجل : أنت مؤمن

بالله وملائكته وكتبه ورسوله ، والجنة والنار ، والبعث والميزان ، وما يشبه

هذه الحالة ، فالواجب عليه أن يقول : أنا مؤمن بالله حقاً ، مؤمن

بهذه الأشياء حقاً ، فمتى ما استثنى في هذا كفر .

( ٢ ) والضرب الثاني : إذا سئل الرجل : إنك من المؤمنين الذين يقيمون

الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم فيها خاشعون ، وعن اللغو معرضون

فيقول : أرجو أن أكون منهم إن شاء الله .

أو يقال : أنت من أهل الجنة ؟ فيستثنى أن يكون منهم . . . على

أنَّ اللغة تسوغ إباحة الاستثناء في الشيء المستقبل ، وإن لم يشك في

كونه ، لقوله عز وجل : ( لن تدخلنَّ المسجد الحرام - إن شاء الله - آمنين )<sup>(٣)</sup> .

( ٧ ) الوسوسة ليست صريح الإيمان :

أخرج ابن حبان<sup>(٤)</sup> حديث أبي هريرة رضي الله عنه : ( أتتني قالوا

( ١ ) البقرة : ١٧٨

( ٢ ) الإحسان ( ٢ : ٢٧٢ ) .

( ٣ ) الفتح : ٢٧

( ٤ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( ١ : ٢٠٣ ) ، وأخرجه مسلم في الإيمان

باب بيان الوسوسة رقم ( ١٣٢ ) .

يارسول الله ، إِنَّا لَنَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا شَيْئًا ، لَأَنْ يَكُونَ أَحَدُنَا هَمَّةً ، أَحَبَّ إِلَيْهِ  
مَنْ أَنْ يَتَكَبَّرَ بِهِ ، قَالَ : ذَلِكَ مُحَضُّ الْإِيمَانِ ) .  
وقال تعقيباً عليه :

( إذا وجد المسلم في قلبه ، أو خطر بباله من الأشياء التي لا يحلُّ  
له النطق بها من كيفية الباري - جل وعلا - أو ما يشبه هذه ، فرد ذلك على  
قلبه بالإيمان الصريح ، وترك العزم على شيء منها ، كان رده إياها من  
الإيمان ، بل هو من صريح الإيمان ، لأنَّ خطرات مثلها من الإيمان )<sup>(١)</sup> .

### (٨) الفطرة عند ابن حبان :

أخرج ابن حبان حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً :<sup>(٢)</sup>  
( كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه  
وقال :<sup>(٣)</sup> ( أراد به الفطرة التي فطره الله عليها - جل وعلا - يوم أخرجهم  
من صلب آدم ، لقوله جل وعلا " فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل  
لخلق الله )<sup>(٤)</sup> .

( يقول : لا تبديل لتلك الخلقة التي خلقهم لها إما الجنة ، وإما  
النار ، حيث أخرجهم من صلب آدم ، فقال : هؤلاء للجنة ، وهؤلاء للنار  
الأتري أن غلام الخضر ، قال صلى الله عليه وسلم " طبعه الله يوم طبعه  
كافراً ، وهو من أبوين مؤمنين ، فأعلم ذلك عبده الخضر ، ولم يعلم ذلك كليمه  
موسى صلى الله عليه وسلم )<sup>(٥)</sup> - أ . هـ .

أو يقال عن التهود والتنصير والتمجيس : ( إنَّ العرب تضيف الفعل

- 
- (١) الإحسان (١ : ٢٠٣ - ٢٠٤) .  
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١ : ١٩٠) ، وأخرجه البخاري في  
الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي رقم (١٢٩٢) ، ومسلم في القدر  
باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم (٢٦٥٨) .  
(٣) الإحسان (١ : ١٩٠ - ١٩١) .  
(٤) سورة الروم : ٣٠ .  
(٥) الإحسان (١ : ١٩١ - ١٩٢) .

إلى الأمر، كما تضيفه إلى الفاعل، فأطلق صلى الله عليه وسلم اسم التهود  
والتنصر والتمجس على من أمر ولده بشيء منها بلفظ الفعل، لأنَّ المشركين  
هم الذين يهودون أولادهم أو ينصرونهم، أو يمجسونهم، دون قضاء الله  
عز وجل في سابق ظمه في عبده..... (١)

---

(١) الإحسان (١: ١٩١-١٩٢).

## المبحث الثاني : مذهبه في القرآن

لم يختلف موقف ابن حبان في مسألة "خلق القرآن" عن موقف أكثر المحدثين تشدداً ، فالقرآن عنده كلام الله تعالى ، ليس بمجعول ولا مريب ولا مخلوق ، وقال ذلك كافر .

أخرج حديث جابر <sup>(١)</sup> رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (القرآن شافع مشفع ، وما حل مصدق ، من جعله إمامه ، قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ، قاده إلى النار) .

وعقب عليه فقال <sup>(٢)</sup> : ( هذا خبر يوهم لنظمه من جهل صناعة العليم أن القرآن مجعول مريب ، وليس كذلك ، لكن لفظه مما نقول في كتبنا : إن العرب في لفظها تطلق اسم الشيء على سببه ، كما تطلق اسم السبب على الشيء ، فلما كان العطف بالقرآن ، قاد صاحبه إلى الجنة ، أطلق اسم ذلك الشيء الذي هو العمل بالقرآن على سببه الذي هو القرآن ، لأن القرآن يكون مخلوقاً ) . ا . هـ .

وقال في ترجمته <sup>(٣)</sup> الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - : ( كان حافظاً متقناً ، ورعاً ، فقيهاً ، لازماً للورع الخفي ، مواظفاً على العبادة الدائمة ، به أمان الله عز وجل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه ثبت في المحنة وبذل نفسه لله عز وجل ، حتى ضرب بالسياط للقتل ، فعصمه الله عن الكفر وجعله علماً يقتدى به ) . ا . هـ .

كما يرى ابن حبان أن القرآن كله بمنزلة واحدة في الفضل ، وقوله صلى الله عليه وسلم <sup>(٤)</sup> : ( ألا أخبرك بأفضل القرآن ؟ قال : فتلا عليه

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١ : ١٨٧) ، والبيهقي في شعب الإيمان عن جابر ، وأخرجه الطبراني والبيهقي عن ابن مسعود ، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني في صحيح الجامع رقم (٤٣١٩) .

(٢) الإحسان (١ : ١٨٧) .

(٣) الثقات (٨ : ٤٤) .

(٤) أخرجه ابن حبان من حديث أنس بن مالك (٢ : ١٠٤) . ولم أجده عن أنس لغير ابن حبان . وقد روى الترمذي حديث أبي هريرة بنحوه ثم قال : وفي الباب عن أنس وفيه عن أبي سعيد بن المعلى (٥ : ١٥٦) وللحديث شواهد كثيرة منها الحديث الآتي وانظر تفسير ابن كثير (١ : ١١) .

"الحمد لله رب العالمين" : أراد به بأفضل القرآن لك ، لأنَّ بعض القرآن  
 يكون أفضل من بعض ، لأنَّ كلام الله يستحيل أن يكون فيه تفاوت التفاضل (١) .  
 وفى قوله صلى الله عليه وسلم : (ألا أعلمك سورة هي أعظم سورة فى  
 القرآن ؟ فتلت بلى . فقال : الحمد لله رب العالمين ، هي السبع المثانى  
 والقرآن العظيم الذى أوتيته) .  
 (أراد به : هي أعظم سورة فى الأجر ، لأنَّ بعض القرآن أفضل من  
 بعض) (٢)

- 
- (١) الإحسان (١٠٤: ٢) .  
 (٢) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (١٠٧: ٢) ، وأخرجه البخارى فى  
 تفسير سورة الفاتحة رقم (٤٢٠٤) وغير موضع ، وأخرجه أبو داود فى  
 الصلاة باب فاتحة الكتاب رقم (١٤٥٨) وغيرهم . وهو شاهد قوى  
 لحديث أنس .  
 (٣) الإحسان (١٠٧: ٢) .

### المبحث الثالث : رؤية الله تعالى

لقد تواترت الأحاديث في رؤية الله تعالى في الآخرة، وابن حبان يشنّع على من ينكرها أو يشكك في مؤداها فيقول :<sup>(١)</sup>

(الأخبار في الرؤية يدفعها من ليس العلم صناعته ، وغير مستحيل أن الله - جل وعلا - يمكن المؤمنين المختارين من عباده ، من النظر إليه ، جعلنا الله منهم بفضله ، حتى يكون - ذلك - فرقا بين الكفار والمؤمنين .  
والكتاب ينطق بمثل السنن التي ذكرناها سواء .

كقوله - جل وعلا - ( كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ) قلمنا أثبت الحجاب عنه للكفار ، دل ذلك على أن غير الكفار لا يحجبون عنه .  
أما في هذه الدنيا ، فإن الله جل وعلا خلق الخلق فيها للبقاء فمستحيل أن يرى بالعين الفانية الشيء الباقي .

فإذا أنشأ الله الخلق ، وبعضهم من قبورهم للبقاء في الدارين فغير مستحيل أن يرى حينئذ بالعين التي خلقت للبقاء في الدار الباقية الشيء الباقي .

لا ينكر هذا الأمر إلا من جهل صنعة العلم ، وقنع بالرأي المنكوس والقياس المعكوس) . . أ . هـ

أما الرؤية في الدنيا فهي مستحيلة على البشر ، والرسول صلى الله عليه وسلم لم ير ربه بعيني رأسه وإنما رآه بقلبه في الموضع الذي لم يصعبه أحد من البشر ، ارتفاعا في الشرف<sup>(٢)</sup> ولا يدركه أحد في الدنيا في النوم ولا في اليقظة ، وقوله تعالى ( لا تدركه الأبصار ) فإنما معناه : يرى في القيامة ولا تدركه الأبصار إذا رآته ، لأن الإدراك هو الإحاطة والرؤية هي النظر والله يرى ، ولا يدرك كنهه ، لأن الإدراك يكون على المخلوقين والنظر يكون من من العبد ربه .<sup>(٤)</sup>

(١) الإحسان (٩ : ٢٥٩) .

(٢) سورة المطففين : ١٥

(٣) الإحسان (١ : ١٤٧) .

(٤) الإحسان (١ : ١٤٩ - ١٥٠) .



### المبحث الرابع : الصّفات

لقد كان لابن حبان رأيه المتميز في العديد من أحكام الشريعة الإسلامية ، فله منهجه المستقل في الجرح والتعديل ، وله مذهبه الخاص في الفقه ، وله نظريته الخاصة إلى مشكل الحديث ، كما كان صحيحه منفرداً بأسلوبه البديع ، فلم يسبقه بمثله أحد ، ولا تبعه على منواله مصنف .  
وابن حبان من الذين تعاطوا علم الكلام<sup>(١)</sup> ، وعرفوا مزالقه ، وقرأ الفلسفة والطب وعرف علم الفلك والهندسة ، ناهيك عن العلوم الشرعية واللغوية .  
لكلّ هذا كانت لابن حبان نظريته الخاصة في مسألة صفات الباري تبارك وتعالى ، فهو مع نهجه فيها منهج السلف الصالح من حيث إثبات الصفة - غالباً - إلا أنه - وهو اللغوي الضليع - رأى لكثير من هذه الصّفات محامل لغوية صحيحة ، فلماذا الجمود على النصوص ، والوقوف أمامها وكأنّها شبح رهيب لا يجوز مساسه ؟ وما هي بالطلاسم ولا المشابهات ، اللهم إلا ما كان متعلقاً بكيفيات الصّفات ، فهذا مما لا يجوز تخطيه بحال .  
وابن حبان محدّث من أعظم محدّثي عصره ، ويعتز بنسبته إلى أهل الحديث ، وكان يتألم من جمود بعض المحدّثين على ظواهر النصوص ، ويتحرّق على ما يرمى به أهل الحديث من نعوت لا تليق بحطة سنة رسلي الله صلّى الله عليه وسلّم .

قال رحمه الله تعالى :

( زعموا أنّ أصحاب الحديث خشوية ، يروون ما يدفعه العيان والحس ، ويصححونه . فإن سئلوا عن وصف ذلك ، قالوا : تؤمن به ولا نفسره .  
ولسنا - بحمد الله ومثته - مما رمينا به في شيء ، بل نقول : إنّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم ما خاطب أمته قطُّ بشيء لم يعقل عنه ، ولا في سنننا شيء لا يعلم معناه . ومن زعم أنّ السنن إذا صحت ، يجب أن تروى ويؤ من

( ١ ) وإن كان ابن تيمية رحمه الله يشكك في معرفة ابن حبان بعلم الكلام كما مر سابقاً .

بها من غير أن تفسر ويعقل معناها ، فقد قدح في الرسالة .  
اللهم إلا أن تكون السنن من الأخبار التي فيها صفات الله - جل  
وعلا - التي لا يقع فيها التكيف ، بل على الناس الإيمان بها <sup>(١)</sup> .  
وقد تناول ابن حبان في صحيحه كثيرا من أحاديث الصفات ، وعلق  
عليها حسب منهجه فكان تارة يثبت الصفة ، ويسكت عليها ، وتارة يؤولها  
بما تقتضيه من معنى لغوي .  
ولقد جمعت المواضع التي تكلم فيها على صفات الباري تعالى  
وعرضتها على ما في معالم السنن للخطابي ، وما نقله البيهقي عنه ، فوجدت  
المنهج واحدا وكان الخطابي قد اعتمد منهج ابن حبان في الصفات ، وأوضحه  
بشيء يسير من الشرح ، أو لعل لابن حبان كتابا ، أو كتباً في العقيدة ، اهتمد  
عليها الخطابي في كتبه .  
وهناك بعض المواضع التي خالف فيها الخطابي شيخه ابن حبان  
فجنح فيها نحو التأويل أكثر منه وإن كانا - ومن معهما من أهل الحديث -  
يتفان على أن كل صفة إذا وجدت في المخلوقين ، كان لهم بها التقسيم  
غير جائز إضافة مثلها إلى الباري - جل وعلا - بل يجب إثبات ما يليق من  
صفات الكمال <sup>(٢)</sup> .

---

(١) الإحسان (٢٣١:٨) .  
(٢) الإحسان (٢٨٥:١) . وانظر كلام الخطابي في الأسماء والصفات  
للبيهقي (ص ٣٥١-٣٥٣) وسيأتي تفصيل كلامه في صفة الرجل  
والقدم .

( ١ ) صفة النفس

لقد جاءت عدة آيات في القرآن الكريم تشير إلى صفة النفس الملهمة عز وجل ، منها قوله تعالى : ( ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير )<sup>(١)</sup> . وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام : ( إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ، ولا أعلم ما فى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب )<sup>(٢)</sup> . وقوله تعالى مخاطباً موسى عليه السلام : ( واصطفتك لنفسى )<sup>(٣)</sup> .

وقد جاءت أحاديث كثيرة تثبت صفة النفس لله عز وجل . سأقتصر منها على الحديث الذى علق عليه ابن حبان . وهو حديث أبى هريرة ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ، ذكرته فى ملاء خير منه ، وإن تقرب منى شبراً ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب منى ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإن أتانى يمشى ، أتيت به هرولة )<sup>(٤)</sup> .

قال البيهقى : ومعنى قول من قال : الله سبحانه وتعالى نفس ، أنه موجود ثابت غير منتف ولا معدوم ، وكل موجود نفس ، وكل معدوم ليس بنفس . والنفس فى كلام العرب على وجه :

- ( ١ ) فمنها نفس منقوسة مجسمة مروحة .
- ( ٢ ) ومنها : مجسمة غير مروحة . تعالى الله عن هذين علواً كبيراً .

( ١ ) آل عمران : ٢٨

( ٢ ) المائدة : ١١٦

( ٣ ) طه : ٤١

( ٤ ) أخرجه ابن حبان فى صحيحه . انظر الإحسان ( ٢ : ١٢٦ ) والبخارى فى التوحيد باب ( ويحذركم الله نفسه ) وغير موضع ( ١٣ : ٣٨٤ ) ومسلم فى الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر الله تعالى رقم ( ٢٦٧٥ ) ، والترمذى فى الدعوات ، باب حسن الظن بالله رقم ( ٣٦٠٣ ) وقال حديث حسن صحيح . وانظر الأحاديث التى تثبت النفس للبخارى تعالى فى فتح البارى ( ١٣ : ٣٨٢ ) فمابعد ، والاسماء والصفات للبيهقى ( ص ٢٨٣ ) فما بعد فقد وفى .

( ٣ ) ومنها : نفس بمعنى إثبات الذات ، كما تقول في الكلام : هـذا نفس الأمر ، تريد إثبات الأمر لأن له نفساً متفوسة ، أو جسماً مروحياً فعلى هذا المعنى يقال في الله سبحانه : إنه نفس<sup>(١)</sup> .  
وابن حبان يرى أن الذكر أهم من كونه تمجيد الله باللسان ، فهو يرى أن الذكر معناه المعرفة والمراقبة ، ومعنى ذكره الله في نفسه ، أي : ذكره في ملكوته . قال - رحمه الله - :

( قوله - جل وهلا - " إن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي " يريد به إن ذكرني في نفسه بالدوام على المعرفة التي وهبتها له ، وجعلتني أهلاً لها ، ذكرته في نفسي ، يريد : في ملكوتي ، بقبول تلك المعرفة منه مع غفران ما تقدمه من الذنوب .

ثم قال : ( وإن ذكرني في ملأ ) يريد : وإن ذكرني بلسانه ، يريد به الإقرار الذي هو علامة تلك المعرفة ، في ملأ من الناس ليعلموا إسلامه ( ذكرته في ملأ خير منه ) . يريد به : ذكرته في ملأ خير منه ، من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين في الجنة بما أتى من الإحسان في الدنيا ، الذي هو الإيمان ، إلى أن استوجب به التمكن من الجنان<sup>(٢)</sup> .

فظاهر أن ابن حبان قال : ( ذكرته في نفسي ) يريد : في ملكوتي والملكوت : هو الملك . والتناء للمبالغة كالرغبوت من الرغبة ، والرهبوت : من الرهبة<sup>(٣)</sup> .

وكان ابن حبان ترك التعبير بالملزوم ، وعبر باللازم ، وهو إعمال خواص خلقه بذلك . . زيادة في تعزبه الله تعالى ، ولأنه رأى أن المقصود هو الإثابة على هذه المعرفة وذاك الذكر ، ولا فائدة من كتم ذلك وإسراؤه .

( ١ ) الأسماء والصفات ( ص ٢٨٦ ) .  
( ٢ ) الإحسان ( ٢ : ١٢٨ ) .  
( ٣ ) التفسير الكبير للرازي ( ١٣ : ٤٢ ) .

الإلتئى أرى أنه قد أبعد النجعة ، وأسرف فى التأويل ، والصواب  
أن نقف فى آيات الصفات وأحادِيثها عندما وقف سلف هذه الأمة ، وكما  
ذكره فيما سبق .

غير أنه يبدو لى أن ابن حبان لم يتعرض للصفة بإثبات أو نفي  
إذ هو قد أثبت الصفات عموماً ، وسكت عن تأويل كيفياتها ، وهو هنا تكلم  
على المثوبة والجزاء ، والله أعلم .

( ٢ ) السمع والبصر

لقد وردت آيات كثيرة تصف الله تعالى بأنه " سميع بصير " منها قوله تعالى : ( فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير )<sup>(١)</sup> وقال : ( إن الله سميع بصير )<sup>(٢)</sup> وقال : ( إنني معكما أسمع وأرى )<sup>(٣)</sup> وقال : ( ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير )<sup>(٤)</sup> .

وقد وردت عدة أحاديث تثبت أن الله سميع بصير ، أقتصر منها على حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : ( كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فكننا إذا طونا ، كبرنا . فقال : اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، تدعون سميعا بصيرا قريبا )<sup>(٥)</sup> .

وأخرج ابن حبان حديث أبي هريرة أنه قال في هذه الآية : ( إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها - إلى قوله - إن الله كان سميعا بصيرا ) . رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضع إبهامه على أذنه ، وأصبعه الدعاء على عينه )<sup>(٦)</sup> . ثم قال - رحمه الله - :

أراد صلى الله عليه وسلم بوضعه أصبعه على أذنه وعينه تعريف الناس أن الله جل وعلا ، لا يسمع بالأذن التي لها سماخ والتواء ، ولا يبصر بالعين التي لها أشفاسر وحدق وبياض - جل ربنا وتعالى عن أن يشبهه بخلقه في شيء من الأشياء - بل يسمع ويبصر بلا آلة ، كيف يشاء )<sup>(٧)</sup> .

- 
- ( ١ ) غافر : ٥٦  
( ٢ ) لقمان : ٢٨ وفيهما  
( ٣ ) طه : ٤٦  
( ٤ ) الشورى : ١١  
( ٥ ) أخرجه البخاري في التوحيد باب ( وكان الله سميعا بصيرا ) ( ١٣ ) :  
٣٧٢ ) ومسلم في الذكر والدعاء رقم ( ٢٧٠٤ ) .  
( ٦ ) أخرجه ابن حبان في نثار الإحسان ( ١ : ٢٨٤ ) . وأخرجه أبو داود في السنة باب في الجهمية رقم ( ٤٧٢٨ ) وقال ابن حجر في الفتوح ( ١٣ : ٣٧٣ ) سنده قوى على شرط مسلم .  
( ٧ ) الإحسان ( ١ : ٢٨٤ ) .

فقد أثبت ابن حبان صفة السمع والبصر، ونفى الكيفية المعهودة في  
البشر .  
أما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد بفعله هذا تعريف  
الناس أنه - تعالى - لا يسمع بالأذن . . . الخ ) ففيه شيء من التكلف  
أو قس هو تعبير باللازم، وترك الملزوم، وما أكثر استعمال ابن حبان لهذا  
الأسلوب .

قال الخطابي : معناه إثبات السمع والبصر لله سبحانه ، لإثبات الأذن  
والعين لأنهما جارحتان ، والله سبحانه موصوف بصفاته ، منفي عنه ما لا يليق  
به من صفات الآدميين ونعوتهم . . . (١) .

وقال البيهقي : والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق  
الوصف لله عز وجل بالسمع والبصر ، فأشار إلى محلى السمع والبصر من  
إثبات صفة السمع والبصر لله تعالى . . . وأفاد هذا الخبر أنه سمع بصيرته  
سمع وبصر ، لا على معنى أنه عليم ، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه  
إلى القلب ، لأنه محل العلوم من (٢) . ولا يخفى أن كلام البيهقي أقرب من  
كلام ابن حبان .

---

(١) معالم السنن (٥ : ٩٧) . ونفى الخطابي صفة العين غريب ، فقد وردت  
عدة أثار في ذلك قال البيهقي بعد ذكرها : والذي يدل عليه ظاهر  
الكتاب والسنة إثبات العين له صفة لا من حيث الحدقة أولى . والله  
أعلم . الأسماء والصفات (ص ٢١٣) .

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٧٩ - ٢٨٠) .

( ٣ ) صفة اليد

ذكر ابن حبان عدة أحاديث فيها ذكر "اليد" لله تعالى . منها  
حديث أبي هريرة (يمين الله ملأى لا يفيضها نفقة، سحاً بالليل والنهار  
أرأيت ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يفيض ما في يمينه، واليد  
الأخرى : القبض، يرفع ويخفض وعرشه على الماء<sup>(١)</sup> . وفي لفظ للبخاري (يد  
الله ملأى . . . . . ويبد الأخرى الميزان يخفض ويرفع ) .

قال ابن حبان : ( هذه أخبار أطلقت من هذا النوع، توهم من لم  
يحكم صناعة العلم أن أصحاب الحديث مشبهة، عائد بالله أن يخطر ذلك  
ببال أحد من أصحاب الحديث ولكن أطلق هذه الأخبار بالفاظ التشميل  
لصفات، على حسب ما يتعارفه الناس فيما بينهم دون تكييف صفات الله - جل  
ربنا عن أن يشبه بشي من المخلوقين أو يكييف بشي من صفاته، إذ (ليس  
كمثل شي<sup>(٢)</sup> ) .

فهذه الأخبار عند ابن حبان وما يشبهها أطلقت ( حسب ما يتعارفه  
الناس بينهم، لا على الحقيقة لعدم وقوفهم على المراد منه، إلا بهـذا  
الخطاب المذكور<sup>(٣)</sup> ) .

وهنا أتوقف مع ابن حبان لأتفرس عباراته السابقة، وأرى : هل  
يريد ابن حبان إثبات صفات لله تعالى - بالجملة - ، أما أفراد هذه  
الصفات فلا يريد ها ؟

أم أنه يريد إثبات أفراد هذه الصفات، وإنما يحاول الهروب من كل  
لفظ يشتم منه راحة التجسيم، وإن لم يكن في حقيقته يدل على التجسيم .

( ١ ) أخرجه ابن حبان . الإحسان ( ٢ : ٧٣ ) ، وانظر من الإحسان  
( ٥ : ١١٨ ب ) ، ( ٧ : ٢ ب ) فالكلام في جميعها متقارب . وأخرج  
الحديث البخاري في التوحيد باب قول الله تعالى ( لما خلقت  
بيدي ) ( ١٢ : ٣٩٢ ) . وانظر هناك عدة أحاديث في إثبات اليد .

( ٢ ) الإحسان ( ٢ : ٧٣ - ٧٤ ) .

( ٣ ) الإحسان ( ٧ : ٢ ب ) .



يترجح لدى أن ابن حبان يريد إثبات الصفات للباري - جل وهلا - بعيدا عن الخوض في كل صفة من الصفات، حتى لا يتوارد على الخواطر مظان الجسمية .

قال ابن بطال حول قوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) (١) في هذه الآية إثبات يدين لله تعالى، وهما صفتان من صفات ذاته، وليستا بجارحتين خلافا للمشبهة من المشبهة، وللجهمية من المعطلة (٢) .  
وعلى أي حال (ليس معنى اليد عندنا الجارحة، وإنما هي صفة جاء بها التوقيف، فنحن نطلقها على ما جاءت ولا نكيفها، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار المأثورة الصحيحة، وهو مذهب أهل السنة والجماعة (٣) .

(١) سورة ص : ٧٥

(٢) فتح الباري (١٣ : ٣٩٣) .

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٣٣٢) نقلا عن الخطابي .

( ٤ ) صفة القدم والرجل

جاءت عدة أحاديث تشير إلى ذكر القدم . منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :  
(تحتاج الجنة والنار، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة مالي لا يد خلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم . قال الله تبارك وتعالى للجنة :

أنت رحمتي أرجم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : إنما أنت عذاب أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منهما ملؤها .  
فأما النار فلا تمتلي حتى يضع رجله ، فتقول : قط ، قط ، قط . فهناك تمتلي ، ويزوي بعضها إلى بعض ، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا .  
وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا آخر) .  
وفي رواية أخرى للبخاري فيضع الجبار تبارك وتعالى قدمه عليهما فتقول : قط ، قط .

وعند البخاري من حديث أنس مرفوعا (يلقى في النار وتقول هل من مزيد ، حتى يضع قدمه فتقول قط قط )<sup>(١)</sup> .  
قال في القاموس : القدم محرك : السابقة في الأمر . . . . . وفي الحديث (حتى يضع رب العزة فيها قدمه) أي : الذين قدمهم من الأشرار ، فهم قدم الله للنار ، كما أن الأختيار قدمه إلى الجنة .  
قال ابن حبان : (هذا الخبر من الأخبار التي أطلقت بتمثيل المجاورة ، وذلك أن يوم القيامة ، يلقي في النار من الأمم والأمكنة التي عصي الله عليها ، فلا تزال تستزيد حتى يضع الرب جل وعلا موضعا من الكفار

(١) هذه الآثار أخرجهما البخاري في التفسير باب وتقول هل من مزيد (سورة ق) (٨ : ٥٩٤) فعابعد . وسلم في كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون ، الأرقام (٢٨٤٦ - ٢٨٤٨) . وأخرجها ابن حبان انظر الإحسان (١ : ٢٨٧) ، (٩ : ٢٦١) ، (ب) .  
(٢) القاموس المحيط مادة (قدم) (٤ : ١٦١) .

والأمكنة في النار فتمتلي<sup>١</sup>، فتقول : قط، قط، تريد : حسي، حسي ، لأنَّ العرب تطلق في لغتها اسم القدم على الموضع . قال الله جل وعسلا (لهم قدم صدق عند ربهم) . يريد : موضع صدق ، لأنَّ الله جل وعسلا يضع قدمه في النار . جل ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه .<sup>(٢)</sup>

وقال في موضع آخر : (القدم : مواضع الكفار التي عبدوا فيها دون الله تعالى) .<sup>(٣)</sup>

وهذا الحديث قد روي بالفاظ متعددة ، فروى مرفوعاً حتى يضع الجبار فيها قدمه) .

ومرة (حتى يضع الجبار عليها قدمه) ومرة (حتى يضع الجبار قدمه) ومرة (حتى يضع الجبار فيها قدما) وهذه الأخيرة أحال عليها مسلم إجابة ولم يذكر لفظها .

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله تعالى : (فيشبه أن يكون من ذكر القدم والرجل ، وترك الإضافة ، إنما تركها تهيئاً لها ، وطلباً للمسألة من خطأ التأويل فيها ، وكان أبو عبيد ، وهو أحد أئمة أهل العلم يقول نحن نروي هذه الأحاديث ، ولا نزيغ لها المعاني) .

قال الخطابي :

(ونحن أحرى بأن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر علماً وأقدم زمناً وسناً ، ولكن الزمان الذي نحن فيه ، قد صار أهله حزينين . منكر لما يروى من نوع هذه الأحاديث رأساً ، ومكذب به أصلاً ، وفي ذلك تكذيب العلماء الذين رَووا هذه الأحاديث وهم أئمة الدين ، ونقلة السنن ، والواسطة بيننا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم والطائفة الأخرى مسلّمة للرواية فيها ، ذاهبة في تحقيق الظاهر منها مذهباً يكاد يفضي بهم إلى القول بالتشبيه ، ونحن نرغب عن الأمرين معاً ، ولا نرضى بواحد منهما مذهباً

(١) يونس : ٢

(٢) الإحسان (١ : ٢٨٦) .

(٣) مآسقب (٩ : ٢٦١) .

وذكر القدم ههنا يحتمل :

( ١ ) أن يكون المراد به من قدمهم الله للنار من أهلها ، فيقع بهم استيفاء عدد أهل النار . وكل شيء قدمته فهو قدم . . . . وقد روى معنى هذا عن الحسن .

( ٢ ) وعن النضر بن شميل أن معنى قول ( حتى يضع الجبار فيها قدمه ) أى : من سبق فى علمه أنه من أهل النار .

( ٣ ) وفيه وجه آخر ، وهو أن هذه الأسماء مثال يراد بها إثبات معان لاحظ لظاهر الأسماء فيها من طريق الحقيقة ، وإنما أريد بوضع الرجل عليها نوع من الزجر لها والتسكين من غيرها .

فإن قيل : فهلا تأولت اليد والوجه على هذا النوع من التأويل وجعلت الأسماء فيها أمثالا كذلك ؟

قيل : إن هذه الصفات المذكورة فى كتاب الله عز وجل بأسمائها وهى صفات مدح ، والأصل أن كل صفة جاء بها الكتاب ، أوصحت بأخبار التواتر ، أو رويت من طريق الآحاد ، وكان لها أصل فى الكتاب ، أو خرجت على بعض معانيه ، فإننا نقول بها ، ونجربها على ظاهرها من غير تكييف ومالم يكن له فى الكتاب ذكر ، ولا فى التواتر أصل ، ولاله بمعانى الكتاب تعلق وكان مجيئه من طريق الآحاد ، وأفضى بنا القول إذا أجريناه على ظاهره إلى التشبيه ، فإننا نتأوله على معنى يحتمله الكلام ، ويزول معه معنى التشبيه وهنا هو الفرق بين ما جاء من ذكر القدم والرجل والساق ، وبين الوجود<sup>(١)</sup> واليد والعين ، وبالله العصمة ، ونسأله التوفيق لصواب القول . . . . ( ١ )

وهذه المقارقات إنما جاءت نتيجة التفرقة بين خبر التواتر ، وخبر الواحد الصحيح فى إثبات العقيدة . ولا فرق من حيث النتيجة عند التحقيق .

( ١ ) الأسماء والصفات للبيهقى ( ص ٣٥١ - ٣٥٣ ) .

أما عن هذه التأويلات وأمثالها ، فقد قال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي : ولا ريب أن السلف قد تصوروا في نفوسهم مثل هذه الأجوبة فرأوها متناقضة متهافنة فسكتوا عنها ، ولم يتفوهوا بها لعلمهم بفسادها ، وقوضوا العلم فيها إلى الله مع أنهم أكثر علما منا بيقين (١) .  
والذي أراه أن الحديث ثابت صحيح ، وكل هذه التأويلات يرد عليها ما ينقضها ، فالحق إثبات ما أثبتته الحديث ولا شغل لنا بالكيفيات ، إذ هي غيب من غيب ذاته تعالى لا يعلمها إلا هو . والله أعلم .

---

( ١ ) أقاميل الثقات في تأويل الأسماء والصفات للكرمي (ص ٢٥٩) .  
رسالة ماجستير تحقيق الأستاذ جميل عبيد قرارة .

( ٥ ) النزول

روى ابن حبان حديث أبي هريرة مرفوعا :  
( ينزل ربنا - جل وعلا - كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حتى يبقى ثلث  
الليل الآخر ، فيقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من  
يستغفرني ، فأغفر له <sup>(١)</sup> .  
وعقب عليه بقوله :

صفات الله جل وعلا لا تكيف ولا تقاس إلى صفات المخلوقين ، فكما أن  
الله متكلم من غير آلة بأسنان ولسنان وشفة كالمخلوقين - جل ربنا  
عن مثل هذا وأشباهه - ولم يجوز أن يقاس كلامه إلى كلامنا ، لأن كلام  
المخلوقين لا يوجد إلا بآلات ، والله جل وعلا يتكلم كما يشاء بلا آلة ، كذلك  
ينزل بلا آلة ولا تحرك ولا انتقال من مكان إلى مكان .

وكذلك السمع والبصر ، فكما لم يجوز أن يقال : يبصر كبصرنا بالأشفار  
والحدق والبياض بل يبصر كيف يشاء بلا آلة ، ويسمع من غير أذنين وسماخين  
والتواء وغضاريف فيها بل يسمع كيف يشاء بلا آلة .

وكذلك ينزل كيف يشاء بلا آلة من غير أن يقاس نزوله إلى نزول  
المخلوقين كما يكيف نزولهم ، جل ربنا وتقدس من أن تشبه صفاته بشيء من  
صفات المخلوقين <sup>(١)</sup> .

فالنزول صفة من صفات الخالق تبارك وتعالى نثبتها لله تعالى  
ونفوض كقيمتها وهذا هو الاعتقاد الصحيح والمريح . والله أعلم .

---

( ١ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه . انظر الإحسان ( ٢ : ١٩٥ ) . وأخرجه  
البخارى في التوحيد ، باب يريدون أن يبدلوا كلام الله ( ١٣ : ٤٦٤ ) ،  
ومسلم في صلاة المسافرين باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل  
رقم ( ٧٥٨ ) .

(٦) الضحك

روى ابن حبان حديث أبي هريرة (ضحك الله من رجلين قتل أحدهما صاحبه، وكلاهما في الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد<sup>(١)</sup>) ثم قال: (هذا الخبر مما نقول في كتبنا: إن العرب تضيف الفعل إلى الأمر كما تضيفه إلى الفاعل، وكذلك تضيف الشيء إلى السدى هو من حركات المخلوقين، إلى الباري - جل وعلا - كما تضيف ذلك الشيء إليهم .

فقوله صلى الله عليه وسلم (ضحك الله من رجلين) يريد: ضحك الله ملائكته وعبيدهم من الكافر القاتل المسلم، ثم توفيق الله الكافر وهدايته إياه إلى الإسلام، وتفضله عليه بالشهادة بعد ذلك حتى يدخل الجنة جميعا .

فيعجب الله ملائكته ويضحكهم من موجود ما قد قضى وقدر .

فنسب الضحك الذي كان من الملائكة إلى الله جل وعلا على سبيل الأمر والإرادة . . . . .<sup>(٢)</sup>

وهذا الذي قاله ابن حبان بعيد غريب . وقد تأول البخاري الضحك<sup>(٣)</sup> بمعنى الرحمة .

قال ابن حجر: ولم أر ذلك في النسخ التي وقعت لنا من البخاري . قال الخطابي: (قد تأول البخاري الضحك في موضع آخر على معنى الرحمة، وهو قريب، وتأويله على معنى الرضا أقرب، فإن الضحك يدل على الرضا والقبول . . . وقد يكون معنى ذلك أن يعجب الله ملائكته ويضحكهم من صنيعهما، وهذا يتخرج على المجاز، ومثله في الكلام كثير)<sup>(٥)</sup> . اهـ .

- 
- (١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه . انظر الاحسان (٧: ٣٠٠ أ) . وأخرجه البخاري في الجهاد، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم (٦: ٣٩٠) ، ومسلم في الأمانة باب الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة رقم (٤٩١) .
- (٢) الاحسان (٧: ٣٠٠ أ) .
- (٣) فتح الباري (٨: ٦٣٢) .
- (٤) وهذا الذي قاله الخطابي هو مذهب شيخه ابن حبان، وما أكثر ما ينقل آراءه دون ذكر اسمه فما السر؟
- (٥) فتح الباري (٦: ٤٠٠) .

وقال ابن الجوزى : ( أكثر السلف يمتنعون من تأويل مثل هذا ويمرونه كما جاء وينبغي أن يراعى فى مثل هذا الإمرار اعتقاد أنه لا تشبهه صفات الله صفات الخلق ، ومعنى الإمرار : عدم العلم مع اعتقاد التنزيه )<sup>(١)</sup> .  
 ويشكى قول ابن الجوزى (عدم العلم مع اعتقاد التنزيه) هل يريد به التفويض فى العلم والكيفية ؟ أم إثبات صفة الضحك مع اعتقاد التنزيه —  
 وتفويض الكيفية إلى الله ؟ أما الثانى فهو مذهب السلف ، وهو الحق فى نظرى . والله أعلم .

---

(١) فتح البارى (٦ : ٤٠) . وانظر فى هذا المبحث الأسماء والصفات للبيهقى (ص ٤٦٩) .



(٧) العجب

روى ابن حبان حديث أبي هريرة مرفوعاً (عجب ربنا من أقوام يقادون إلى الجنة في السلاسل<sup>(١)</sup>) . ثم قال :

قوله صلى الله عليه وسلم (عجب ربنا) من ألفاظ التعارف التي لا يتبها علم المخاطب بما يخاطب به في القصد إلا بهذه الألفاظ التي استعملها الناس فيما بينهم .

والقصد في هذا الخبر : الذين يسببهم المسلمون من دار الشرك مكتفين بالسلاسل يقادون بها إلى دور الإسلام حتى يسلموا فيدخلوا الجنة . . . . (٢)

قال البيهقي : ( قد يكون العجب بمعنى الرضا ، وقد يكون العجب بمعنى وقوع ذلك العمل عظيماً فيكون معنى قوله بل عجت ، أى بل عظم فعلهم عندي ) .<sup>(٣)</sup>

والذى يترجح لدى ، وعندى أكثر من ثلاثة أحاديث صحيحة ففى ذكر صفة العجب لله تعالى أن أقول : إن اثبات صفة العجب لله مع تنزيهه - تقدست ذاته - عن مشابهة عباده فى صفاتهم ، ومع تفويض الكيفية إلى الله تبارك وتعالى ، هو الأصوب والأسلم ، وقوفاً عندما جاءت به السنة الصحيحة ، وخروجاً من اختلاف العقول والقرائح فى فهم معنى العجب أو الضحك . إذ كل تأويل نذهب إليه لا بد وأن يكون مقبلاً على الشاهد

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه . الاحسان (١ : ١٩٥) . وأخرجه البخارى فى الجهاد باب الأسارى فى السلاسل (٦ : ١٤٥) . وأبو داود فى الجهاد ، باب الأسير يوثق رقم (٢٦٧٧) . وأخرج البخارى حديث الضيافة فى التفسير باب ومن سورة الحشر . قوله ويؤثرون على أنفسهم (٨ : ٦٣٢) وفيه أن الله (عجب من صنعكم) وأخرج أبو داود بإسناد حسن حديث ابن مسعود : وعجب ربنا تبارك وتعالى من رجل غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهرق دمه . . . . الحديث . أخرجه فى الجهاد باب فى الرجل الذى يشرى نفسه رقم (٢٥٣٦) .

(٢) الاحسان (١ : ١٩٥) .

(٣) الأسماء والصفات (ص ٤٧٦) .

وهذا خطأ فمن أول العجب بمعنى الرضا ، فقد أبعد ، ومن فسره بمعنى اعظام الشيء فقد فسره بالشاهد ومن فسّر الضحك بالرحمة فقد حرف معنى الضحك حتى في الشاهد .

أوليس أحسن من هذا كله أن نقول ما جاء في كتاب الله ، وصح في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقله على الرأس والعين ، من غير تحريف ولا تأويل ولا تمثيل ولا تعطيل ؟ ونقول مثل ذلك في الفرح والسمرور والتبشيش ، والشكر والنظر وسائر ما جاء في السنة المطهرة الصحيحة ؟ يعيدون عن تكفير من ذهب إلى التأويل من أسلافنا السابقين أو يتدبرهم أو تضليلهم ، لأن لهم عذرهم فيما ذهبوا إليه - كما تبين لك من كلام الخطابي قبل قليل . ومسقطين للتشجات والانتماءات الحزبية والمذهبية التي تصي البصائر إن لم تعمى الأبصار .

وإن اعتقدنا هذا - في صفات الباري هذه - هو الحق في نظرنا وقد نكون مخطئين في بعض ما نذهب إليه لولا تسليمنا الكامل لكتاب الله وسنة رسوله ، وتفويض كيفية هذه الصفات إلى الله تباركت صفاته ، وتقدست ذاته .

### الفصل السادس

#### أخلاق الإمام ابن حبان ومكانته العلمية

تمهيد :

ليس بين أيدينا من النصوص الخارجية<sup>(١)</sup> ما يسعف في بيان شخصية ابن حبان وأخلاقه وإن كنا لانعدم شذرات متناثرة تدل على معان كسيرة في شخصية هذا الرجل .

قال الحاكم النيسابوري : ( كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال ) . وقال أبو حاتم كبير فسي العلوم ، وكان يحسد لفضله وتقدمه . وقال الخطيب البغدادي : ( كان ثقة نبلا فيما فاضلا ) .

وقال الإدريسي : ( كان على قضاء سمرقند زمانا ، وكان من فقهاء الدّين وحفاظ الآثار عالما بالطب والنجوم وفنون العلم . . . وفقه الناس بسمرقند ، وبنى له الأمير أبو المظفر بن أحمد بن نصر بن أحمد بن سامان صفة لأهل العلم ، خصوصا لأهل الحديث .

وقال الحاكم أيضا أقام بنيسابور ، وبنى " الخانقاه " وصارت الرحلة إليه وقرى عليه جملة من مصنفاة .

وذكر أنه بنى مدرسة لأصحابه ومسكنا للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقه منهم ولهم جرايات يستنشقونها ، وأوقف داره وفيها خزانة كتبه ، وجعلها في يدي وصى سلمها إليه ، ليبدلها لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجها منها<sup>(٢)</sup> .

وعلى قلة المادة الموفرة فيما يتعلق بأخلاقه نجد أن الجميع يصفونه بالإمامة والحفظ والفقه ، وهذا لا دخل لنا فيه لأنه يتعلق بعلمه ، إلا أن ثمة

( ١ ) قصدت بالنصوص الخارجية : أقوال الآخرين فيه .

( ٢ ) وهذه النصوص جميعها من تاريخ دمشق ( ١٠ : ٥٠٢ ) ، أعلام النبلاء

( ١٠ : ٣ : ٣٣٣ ) فما بعد ، تذكرة الحفاظ ( ص ٩٢ ) .

صفات ذكروها هي التي ستكون محور بحثنا حول أخلاق ابن حبان .  
فقد وصفه الخطيب بأنه :

( ١ ) ثقة .

( ٢ ) نبيل .

( ٣ ) فاضل .

( ٤ ) فهم .

ووصفه الكثيرون بأنه :

( ٥ ) قاض تولى القضاء زمانا طويلا في كثير من البلاد الإسلامية .

ووصفه الحاكم النيسابوري تلميذه بأنه فاضل يحسد لفضله .

( ٦ ) وتقدمه .

( ٧ ) عاقل من عقلاء الرجال .

وقال الإدريسي :

( ٨ ) فقه الناس بسمرقند .

( ٩ ) وبنى له أميرها صفة لطلابه .

( ١٠ ) وبنى خانقاه في نيسابور وعلم الناس بها ، كما بنى مدرسة في بسنت

وبجانبها سكن للغرباء ، ولهم رواتب ينفقها عليهم .

( ١١ ) وأوقف المدرسة والمسكن وداره وخزانة كتبه ، وسلمها لوصي .

( ١٢ ) وهو واعظ .

فابن حبان إمام حافظ رأس في معرفة الحديث كثير التصرف فيه ، إمام

في الفقه ، واللغة ، ثقة ، نبيل ، فاضل ، فهم ، متقدم ، كريم سخي ، ورع تقسى

مقدّر لدى أمير سمرقند ، عاقل من عقلاء الرجال ، محسود ، حريص على تعليم

الناس وإفادتهم .

هذه جملة الصفات التي وصف بها الإمام ابن حبان رحمه الله تعالى

من الآخرين ، وهي على وجازة ألفاظها ذات مدلولات كبيرة نجد آثارها في مصنفاته .

وإنني لن أتحدث عن إمامته في الحديث والفقه والكلام واللغة ، فلهذا

مواضع أخرى ، تقدم بعضها ، ويأتي بعضها الآخر في الباب الثالث إن شاء

الله تعالى . وسأقصر الحديث في هذا الفصل على أخلاقه الشخصية وسلوكه

ليس غير .

المبحث الأول : ابن حبان العاقل

مهما حاول الإنسان أن يستبعد شخصيته من آثاره العلمية، فإنّه يعجز عن هذا بولا خلاف في أنّ الكتاب صورة عن نفسية كاتبه إلى حدّ كبير. وابن حبان الذى وصف بأنه من عقلاء الرجال، قد صنّف كتاباً<sup>(١)</sup> كاملاً عن العقل واعتبر العقل أول خصال الخير للمرء<sup>(٢)</sup> في الدنيا، وهو من أفضل ما وهب الله لعباده .

وللعقل خمسون شعبة<sup>(٣)</sup> بنى عليها ابن حبان كتابه هذا . والعقل عند ابن حبان : اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب، والعلم باجتنب الخطأ . . . . . وإنّ محبة المرء مكارم الأخلاق وكرهه سفافها، هى نفس العقل<sup>(٤)</sup> .

أما الذين يدعون التمكن من العقل فيستعملون ضد ما يوجبه العقل من شهوات صدورهم ويتركون نفس ما يوجبه العقل بهجسات قلوبهم، فهؤلاء ليسوا بعقلاء .

أولئك جعلوا أساس العقل الذى يعقدون عليه عند المعضلات: النفاق والمداهنة، وفروعه عند ورود النائيات : حسن اللباس والقصاحة، وزعموا أنّ من أحكم هذه الأشياء الأربعة - النفاق والمداهنة وحسن اللباس والقصاحة - فهو العاقل<sup>(٥)</sup> . . .

ويرى ابن حبان أنّ "التقلب فى الأمصار، والاعتبار بخلق الله ممسماً يزيد المرء عقلاً، وإنّ عدم المال فى تقلبه"<sup>(٦)</sup> . ولذلك رأينا ابن حبان يتقلب

- 
- (١) هو كتابه روضة العقلاء ونزهة الفضلاء .  
(٢) روضة العقلاء (ص ٢٥) .  
(٣) ماسبق (ص ٢٦) .  
(٤) ماسبق (ص ١٦) .  
(٥) ماسبق (ص ١٤ - ١٥) .  
(٦) ماسبق (ص ١٨) .

في الأمصار، ويتفكر في مخلوقات الله تعالى ويرى أن (من حسن عقله  
وقبح وجهه، فقد أفقد فضائل نفسه قبائح وجهه . ومن حسن وجهه  
وقل عقله فقد أذهب محاسن وجهه نقائص نفسه فلا يجب للعاقل أن يفتن  
إذا كان معدوماً، لأن العاقل قد يرجي له الغنى، ولا يوثق للجاهل  
المكثر بيقاً ماله، ومال العاقل عقله، وما قدم من صالح عمله) (١).

أليس هذا كلام عقلاء الرجال وحكمائهم ؟ وانظر إليه وهو يقول :  
(آفة العقل الصلف، واليلاء المردى، والرخاء المفرط، لأن البلياً  
إذا تواترت عليه أهلك عقله، والرخاء إذا تواتر عليه أبطره، والعدو والعاقل  
خير للمرء من الصديق الجاهل) (٢).

(ولا ينفع الاجتهاد بغير توفيق، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا السرور  
بغير أمن، كذلك لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عمل .  
وعقول كل قوم على قدر زمانهم، فالعاقل يختار من العمر أحسنه  
- وإن قل - فإنه خير من الحياة النكدية وإن طالت، والعقل الموعى - غير  
المنتفع به - كالأرض الطيبة الخراب . . .

والعاقل لا يستحقر أحداً، لأن من استحقر السلطان، أفسد دنياه  
ومن استحقر الأتقياء، أهلك دينه، ومن استحقر الإخوان، أفنى مروءته  
ومن استحقر العام، أذهب صيانتة) (٣).

والعاقل (لا يستعين إلا بمن يجب أن يظفر بحاجته، ولا يحدث إلا من  
يرى حديثه مغنماً، إلا أن يغلبه الاضطرار عليه، ولا يدعى ما يحسن من العلم  
لأن فضائل الرجال، ليست ما ادعوها، ولكن ما نسبها الناس إليهم، ولا يبالي  
بما فاته من حطام الدنيا، مع ما رزق من الحظ في العقل) (٤).

(١) روضة العقلاء (ص ٢٠) .

(٢) ماسبق (ص ٢١) .

(٣) ماسبق (ص ٢٢) .

(٤) ماسبق (ص ٢٣) .

( وعلى العاقل أن يجتنب ثلاثة أشياء ، فإنها أسرع في إفساد العقل

من النار في بيس العوسج :

( ١ ) الاستغراق في الضحك .

( ٢ ) كثرة التمني .

( ٣ ) سوء التثبث (١)

( ولو كان للعقل أبوان ، لكان أحدهما الصبر والآخر التثبث ) (٢)

هذه كلمات من ابن حبان جعلها - وغيرها - كمقدمة لكتابه روضة

العقلاء ذكرتها ، لتكون دليلا عطيا على قول الحاكم بأن ابن حبان من

عقلاء الرجال .

وكيف لا يكون من عقلائهم ، وهو الذي كتب لهم كتابا لو تأدبوا بما

فيه وطبقوه ، لنالوا سعادة الدنيا والآخرة .

بل كيف لا يكون من كبار العقلاء ، وقد كتب عشرة مصنفات في الأخلاق

والآداب والسلوك (٣) ؟

( ١ ) روضة العقلاء ( ص ٢٣ ) .

( ٢ ) ما سبق ( ص ٢٦ ) .

( ٣ ) سيأتي الحديث عليها في الباب الثالث إن شاء الله .

المبحث الثاني : وفاة ابن حبان

لقد تلقن ابن حبان العلم على أكثر من ألفي شيخ ، إلا أنه اصطفى منهم عددا ، جعل اعتماده في تحصيل العلم والمعرفة عليهم - بتوفيق الله وعنايته - فانظره ، وهو بين يدي شيخه ابن خزيمة يسأله ويلح عليه ، فيتأذى ابن خزيمة من كثرة أسئلته ، فيقول له : تنح عني يا بارد ، لا تؤذني ، فيسارع ابن حبان ويكتب ما قال شيخه ، إمعانا منه في الأدب وإشعارا منه بالتقدير والاحترام .

ولا يقف الأمر عند هذا ، بل يسجل له في كتابه وصفا لم ينل مثله ابن خزيمة من غيره ، كما لم ينله أحد من ابن حبان سوى ابن خزيمة . قال :<sup>(١)</sup>  
( مارأيت على أديم الأرض من كان يحسن صناعة السنن ، ويحفظ الصحاح بالفاظها ، ويقوم بزيادة كل لفظة تزداد في الخبر ، ثقة ، حتى كأن السنن كلها نصب عينيه إلا محمد بن إسحاق بن خزيمة ، - رحمة الله عليه - فقط ) .

وقال في شيخه الحسن بن سفيان الشيباني ( كان ممن رحل وصنف وحدث على تيقظ ، مع صحة الديانة ، والصلابة في السنة ) .<sup>(٢)</sup>  
فابن حبان وفي ودود ، وهو القائل :<sup>(٣)</sup>

( على العاقل إذا رزقه الله ود امرئ مسلم صحيح الوداد ، محافظ عليه ، أن يتمسك به ، ثم يوطن نفسه على صلته إن صرمه ، وعلى الإقبال عليه إن صد عنه ، وعلى البذل له إن حرمه ، وعلى الدنومه إذا باعده ، حتى كأنه ركن من أركانه ، وإن من أعظم عيب المرء تلونه في الوداد .  
العاقل لا يقصر في تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين ، وذا قلبين بل يوافق سره علانيته ، وقوله فعله ، ولا خير في متأخين ينمو بينهما الخلل

( ١ ) المجروحين ( ١ : ٩٣ ) .

( ٢ ) أعلام النبلاء ( ١٤ : ١٥٧ ) .

( ٣ ) الروضة ( ص ١٠٣ ) .



ويزيد في حالتهما الخلل ) . ا . هـ

( وأن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه ، ملاحظة العين إذا لحظت ، فإنها لا تكاد تبدى إلا ما يضر القلب من الود ، ولا تكاد تخفى ما يجنه الضمير من الصد ، فالعاطل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه ويجعل له بينهما مسلكاً ، لا يرده عن معرفة صحته شيء تخيله . . . (١) . فإذا تأكد الإنسان من حب أخيه ووداده فعليه أن يتعاهده بالزيارة وأن قلست لأن تعاهد الزيارة من الوداد والوفاء .

(من صحح الحال بينه وبين الإخوان ، لم يضره قلبه الاجتماع  
(٢)  
لاستحكام الحال بينهما ، والمودة إذا ضربها قلبه الالتقاء تكون مدخولة . . )

---

( ١ ) الروضة ( ص ١٠٦ ) .

( ٢ ) ماسبق ( ص ١١٧ ) .

المبحث الثالث : سخاء ابن حبان وكرمه  
~~~~~

قال رحمه الله :^(١)

(ما رأيت أحدا من الشرق إلى الغرب ارتدى برداء الجود ، واتسزر بإزار ترك الأذى ، إلا رأس أشكاله وأضداده ، وخضع له الخاص والعام ، فمن أراد الرفعة العالية في العقبى ، والمرتبة الجليلة في الدنيا ، فليلزم الجود بما ملك ، وترك الأذى إلى الخاص والعام ، ومن أراد أن يهتك عرضه ، ويثلم دينه ، ويغته إخوانه ، ويستتقله جيرانه ، فليلزم البخل ، ولقد ذم البخل أهل العقل في الجاهلية والإسلام إلى يومنا هذا) .

(فالواجب على العاقل إذا لم يعرف بالسماحة ، أن لا يعرف بالبخل وإذا لم يعرف بالشجاعة أن لا يعرف بالجبن ، وإذا لم يعرف بالشهامنة أن لا يعرف بالمهانة ، وإذا لم يعرف بالأمانة ، أن لا يعرف بالخيانة إذا البخل بشئ الشعار في الدنيا والآخرة)^(٢) .

ومن دلائل الكرم قبول الهدية والإهداء (فالواجب على العاقل إذا أهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردّها ، ثم يثيب عليها إذا قدر ويشكر عنها) .

وإنني لأستحب للناس بعث الهدايا للإخوان بينهم ، إذ الهدية تورث المحبة ، وتذهب الضغينة)^(٣) .

فمن مكته الله من حطام هذه الدنيا الفانية ، ولم زوالها عنه وانقلابها إلى غيره ، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله ، والقيام بالواجب في أسبابه ، ميتفيسا بذلك الثواب في العقبى ، والذكر الجميل في الدنيا ، إذ السخاء محببة ومحمدة ، كما أن البخل مذمة ومبغضة ، ولا خير في المال إلا مع الجود ، كما

(١) الروضة (ص ٢٤١) .
(٢) ما سبق (ص ٢٤٢) .
(٣) الموضوع السابق .

لا خير في المنطق إلا مع المخبر) (١) .

(على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رزق ذلك وضم به في إقامة مروءته فهو الذي خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريها ، وتودعه قبرا وحيدا ، ثم يرث المال بعده من يأكله ولا يحمده ، وينفقه ولا يشكره . . .) (٢) .
والسخاء كلمة كبيرة تتفرع عنها فروع كثيرة فالإهداء إلى الإخوان من الكرم ، وصلة الرحم من السخاء ، وإعطاء السائل ، وقضاء حوائج الناس ، وإطعام الطعام ، والمجازاة على المعروف . . .

(فحقيق على من علم ثواب الله تعالى في قضاء حوائج الناس وتنفيس كربهم أن لا يمنع ماملوك من جاه أو مال ، إن وجد السبيل إليه قبل حطول المنية . . . والعاقل يعلم أن من سحب النعمة في دار الزوال ، لم يخل من فقدانها ، وأن من تمام الصنائع وأهنأها إذا كان ابتداء من غير سؤال . . .) (٣) .
(ومن تحرى قضاء حاجة أخيه ولم يقض قضاؤها على يديه ، فكأنه لم يقصر في قضاؤها وأيسر ما يكون في قضاء الحوائج استحقاق الثناء .

والإخوان يعرفون عند الحوائج ، كما أن الأهل تختبر عند الفقر ، لأن كل الناس في الرخاء أصدقاء ، وشر الإخوان الخاذل لإخوانه عند الشدة والحاجة ، كما أن شر بلدة ليس فيها خصب ولا أمن) (٤) .
وقال (٥) : (إنني لأستحب للمرء طلب المعالي من الأخلاق ، مع ترك رد السؤال لأن عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق ، والتدامة موكمة بترك مطالعة الفرصة .

وإن الحر - حق الحر - من أعتقه الأخلاق الكريمة ، كما أن أسوأ العبيد ، من استعبده الأخلاق الدنية . . . وليس يستحق المرء اسم الكرم

-
- (١) الروضة (ص ١٣٥) .
 - (٢) ماسبق (ص ٢٣٣) .
 - (٣) ماسبق (ص ٢٤٨) .
 - (٤) ماسبق (ص ٢٤٧) .
 - (٥) ماسبق (ص ٢٥٢ - ٢٥٣) .

بالكف عن الأذى، إلا أن يقترنه بالإحسان . . . فمن كثر في الخير رغبته
وكان اصطناع المعروف همته، قصده الراجون، وتأمله المتأملون .
ومن كان عيشه وحده، ولم يعيش بعيشه غيره، فهو - وإن طال
عمره - قليل العمر، والبائس من طال عمره في غير الخير، ومن لم يتأس بغيره
في الخير كان عاجزا كما أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره، كان
كالغاش لمن تجب عليه النصيحة، ومن لم يكن له همة إلا بطنه وفرج -
عد من البهائم . . .)

ألا ترى حرارة هذه الأقوال، وشدة وقعها في النفس، أليست تعبيرا
صحيحا عن نضراين حبان؟

أما عن إكرام الضيف، وإطعام الطعام فيقول ابن حبان :
(كل من ساد في الجاهلية والإسلام، حتى عرف بالسؤدد، وانقاد
إليه قومه، ورحل إليه القريب والقاصي، لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام
الطعام، وإكرام الضيف . والعرب لم تكن تعد الجود إلا قرى الضيف
وإطعام الطعام، ولا تعد السخى من لم يكن فيه ذلك، حتى إن أحدهم
ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين) (١)

ويروى ابن حبان عن عمرو بن هاني قال : كان رافع بن عميرة بن
عمرو العنبي - فخذ من طي - يفتدي أهل ثلاثة مساجد ويعشيهم يوما
بثرائد، ويوما برطوبة - يعني الحيس - وماله قميص إلا قميص، هو لجمعته
وهو للبيت . . . فيجيب على العاقل ابتغاء الأضياف وبذل الكسر، لأن نعمة
الله إذا لم تصن بالقيام في حقوقها، ترجع من حيث بدأت، ثم لا ينفع من
زالت عنه الطهف عليها، ولا الأفكار في الظفر بها، وإذا أدى حق الله
فيها استجلب النماء والزيادة، واستذخر الأجر في القيامة .

وعنصر قرى الضيف هو ترك استحقاق الثليل وتقديم ما حضر للأضياف
لأن من حقر منع إكرام الضيف بما قدر عليه .
وإن أبخل البخل من بخل بإطعام الطعام، كما أن من أجود الجود

بذله ، ومن ضنّ بما لا بدّ للحجّة منه ، ولا تربوا النفس الا عليه ، كان بفـيـره
أبخلٍ وعليه أشح .

ومن إكرام الضيف طيب الكلام ، وطلاقة الوجه ، والخدمة بالنفس ، فإنّه
لا يذل من من خدم أضيافه ، كما لا يعز من استخدمهم ، أو طلب لقراه أجرا .^(١)
هذا ما يقوله ابن حبان عن السخاء والكرم ، ولعلك تلاحظ حرارة
أقواله وقوتها ، لكن ما الدليل على أنّ قوله هذا ، ليس كقول الوعاظ الذين
يحثون الناس على البذل والإنفاق وهم أبعد الناس عن ذلك .

أقول : إنّ ابن حبان رحل من مدينة بست سنة ثلاثمائة للهجرة
ورجع إلى موطنه (بست) بعد أربعين سنة ، وقد تولى منصب القضاء في
سمرقند ونسا وغيرهما دهرًا من الزمان ، كما كان مقربا لدى أمير سمرقند
وعزيزا لديه ، ولا يبعد أن يكون لابن حبان إرث في بست ورثه عن والده
حبان بن أحمد التميمي أرضا ودارا ، - كما قدّمت - ولاربيب أنّ ابن حبان
بنى مدرسة في نيسابور تعرف باسمه ، وهذا يعني أنه بناها من ماله
الخاص ، إذ هذا ما يوحيه ظاهر اللفظ (بنى) وكونها تعرف باسمه
ولا صارف عن هذا الظاهر . كما أنه بنى مدرسة ومسكنا للفقراء في (بست)
وأوقف لها جرايات - رواتب - تنفق على الطلبة المقيمين بها ، ثم أوقف
داره وفيها خزانة كتبه وسلمها لوصى .

وهذا يعني أنه خرج من الدنيا بعد أن قدّم كلّ ماله في سبيل
الله تعالى ، وهل الكرم سوى الإنفاق فيما يرضى الله .

ولاربيب أنّ هؤلاء الطلبة يحتاجون إلى جانب العلم والمأوى إلى
المطعم والملبس وهذا كله كان يقوم به ابن حبان ويقدمه لهم . فهل بعد
هذا من كرم ؟

(١) الروضة (ص ٢٦١) ، وانظر (ص ٢٤٤) .

المبحث الرابع : زهد ابن حبان وتقواه

(على العاقل ألا يفتر بالدنيا وزهرتها ، وحسنها وبهجتها
فيشتغل بها عن الآخرة الباقية ، والنعم الدائمة ، بل ينزلها حيث أنزلها
الله ، لأن عاقبتها لامحالة تصير إلى الفناء ، يخرب عمرانها ، ويموت سكانها
وتذهب بهجتها ، وتبيد خضرتها ، فلا يبقى رئيس متكبر مؤمر ، ولا فقير مسكين
محتقر إلا ويجرى عليهم كأس الضايا ، ثم يصيرون إلى التراب . . . فالعاقل
لا يركن إلى دار هذا نعمتها ، ولا يطعن إلى دنيا هذه صفتها ، وقد
أدخر له مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيض
يترك هذا القليل ، ويرضى بفوت ذلك الكثير . . .)^(١)

(والسبب المؤدى للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ، ترك الركسون
إيها ، مع تقديم ما قدر منها للعيش الدائم ، والنعيم المقيم هو ترك طول
الآمل ، ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطرفة ، لأن طول الآمال ، قطعت
أعناق الرجال . . .)^(٢)

(العاقل لا ينسى ذكر شىء هو مترقب له ، ومنتظر وقوعه ، من قدم
إلى قدم ، ومن لحظة إلى شجرة ، فكم من مكرم في أهله ، معظم في قومهم
مبجل فيهم ، لا يخاف الضيق في المعيشة ، ولا الضنك في المصيبة
إذ ورد عليه مذل الملوك وقاهر الجبابرة ، وقاصم الطغاة ، فألقاه صريعا
بين الأحبة وجيرانه ، مفارقا لأهل بيته وإخوانه ، لا يملكون له نفعا
ولا يستطيعون عنه دفعا)^(٣)

فإذا كان هذا حال الدنيا ، وتلك نهايتها ، فما عسى المرء
أن يفعل فيها ، ويقدم لأخراه .
إن أول ما ينبغي للمرء فعله هو (الاعتزال عن عامة الناس ، إذ لو

-
- (١) الروضة (ص ٢٧٨) .
(٢) ماسبق (ص ٢٨١) .
(٣) ماسبق (ص ٢٨٥) .

لم يكن فيه خصلة تحمد إلا السلامة من مقارفة الإثم، لكان حقيقا بالمسرة
أن لا يكدر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدى إلى المناقشة) .
(و) السبب الذى يوجب الاعتزال عن العالم كافة، فهو ما عرفتهم به
من وجود دفين الخير، ونشر الشريد فنون الحسنة، ويظهرون السيئة، فإن
كان المرء عالما بدعوه، وإن كان جاهلا غيروه، وإن كان فوقهم حسده
وإن كان دونهم حقروه، وإن نطق، قالوا : مهذار، وإن سكت، قالوا
عسى، وإن قدر، قالوا : مقترة، وإن سمع قالوا : مبدّر، فالنادم فى
العواقب المحطوط عن المراتب، من اغتر بقوم هذا نعمتهم، وغيره ناس هذه
(١)
صفتهم) .

وثانى الصفات التى تميز الزاهد عن غيره عدم الحرص على ما فى هذه
الدنيا إذ (أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرا، وأفقر الفقراء، من كان
الحرص عليه أميرا، لأنَّ الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه، والحرص
مومة . كما أن الجبن مقتلة .

ولو لم يكن فى الحرص خصلة تدم، إلا طول المناقشة بالحساب يوم
القيامة على ما جمع، لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط فى الحرص)
(٢)
الحرص علامة الفقر، كما أن البخل جناب المسكنة، والبخل لقاح
الحرص، كما أن الحمية لقاح الجبل، والمنع أخو الحرص، كما أن الأنفة
توأم السفه)
(٣)

ويرى ابن حبان أنَّ الحرص المذموم غير السعى فى اكتساب الرزق
والعمل لعمارة الدنيا فقد (ركب الله جلي وعز - فى البشر الحرص والرغبة
فى الدنيا الفانية لئلا تخرب، إذ هى دار الأبرار، ومكسب الأتقياء
وموضع زاد المؤمنين، واستجلاب الميرة للصالحين، ولو تعرى الناس عن
الحرص فيها، بطلت وخربت، فلم يجد المرء ما يستعين به على أداء فرائض
الله، فضلا عن اكتساب ما يجدى عليه النفع فى الآخرة نفلا . والإفراط فى

-
- (١) الروضة (ص ٨٣) .
(٢) ماسبق (ص ١٣٠) .
(٣) ماسبق (ص ١٣١) .

(١) لأن الإفراط فيه تابع عن ضعف الثقة بالله تعالى .
 (وقد ذكرت مايشاكل هذه الحكايات بعلمها في كتاب " الثقة بالله"
 بما أرجو أن يكون فيه غنية ، لمن أراد الوقوف على معرفتها) .^(٢)
 كما يجب على الزاهد أن يبتعد عن الحسد ، لأن (أهون خصال
 الحسد هو ترك الرضا بالقضاء وإرادة ضد ما حكم الله جل وعلا لعباده ، ثم
 انطواء الضمير على إرادة زوال النعم عن المسلم ، والحاسد لا تهدأ روحه
 ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه وهيئات أن يساعد القضاء
 ما للحساد في الأحشاء)^(٣) .
 (الحسد من أخلاق اللئام ، وتركه من أفعال الكرام ، ولكل حريص
 مطفى ، ونار الحسد لا تطفأ . ومن الحسد يتولد الحقد ، والحقد أصل
 الشر ، ومن أضر الشرف في قلبه ، أنبت له نباتا مرا مذاقه ، نماؤه الغيظ
 وثمرته الندم .
) والحسد اسم يقع على إرادة زوال النعم عن غيره وحاولها فيه
 فأما من رأى الخير في أخيه ، وتمنى التوفيق لمثله ، أو الظفر بحاله ، وهو غير
 مرید لزوال ما فيه أخوه ، فليس هذا بالحسد الذي ذم ونهى عنه .
 ولا يكاد يوجد الحسد إلا لمن عظمت نعمة الله عليه ، فكما أتخفسه
 الله بترداد النعم ، ازداد الحاسدون له بالمكروه والنقم)^(٤) .
 وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران ، أو من تقارب الشكلى
 يبلغ الإنسان مرتبة من مراتب الدنيا ، إلا وجد فيها من يحسده عليها
 أو يبغضه فيها فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه ، وجيرانه
 وبنى أعمامه)^(٥) .
 وخصلة الطمع تقيض الرضى بما عند الله (وأشرف المنى ترك الطمع إلى

(١) الروضة (ص ١٢٩) .

(٢) ماسبق (ص ١٣١) .

(٣) ماسبق (ص ١٣٣) .

(٤) ماسبق (ص ١٣٤) .

(٥) ماسبق (ص ١٣٦-١٣٧) .

الناس إذ لا غنى لدى طمع، وتارك الطمع يجمع به غاية الشرف، فطوبى لمن كان شعار قلبه الورع، ولم يعم بصره الطمع ومن أحب أن يكون حرا فلا يهوى ماليس له، لأن الطمع فقر، كما أن اليأس غنى، ومن طمع ذل وخضع، كما أن من قنع عفا واستغنى . . . (١)

(ودواء زوال الطمع عن القلب هو رؤية الأشياء من كونها بدوام الخلوة وترك الناس) (٢)

(وليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء، والثقة بالقسم) ، (القناعة تكون بالقلب فمن غنى قلبه غنيت يده، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناؤه ومن قنع لم يتسخط، وعاش آمنا مطمئنا، ومن لم يقنع، لم يكن له في الفوائد نهاية لرغبته . . .) (٤)

(والعاقل يعلم أن الأرزاق قد فرغ منها، وتضمنها العلى الوفى على أن يوفرها على عباده فى وقت حاجتهم إليها، والاشتغال بالسعى لما تضمنه وتكفل، ليس من أخلاق أهل الحزم إلا مع انطواء صحة الضمير، على أنه وإن لم يسع فى قصده، أتاه رزقه من حيث لم يحتسب) (٥)

ومن أراد رضوان الله تعالى لزم التقوى وتدرع بالورع، (والعاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويمضى لسانه بلزوم التقوى، لأن ذلك أول شعب العقل، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب . . .) (٦)

فالعاقق يفش قلبه فى ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن جميع المزجورات، ويأخذها بالقيام فى أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه عند ورود الفترة فى الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا قائما، حتى يوجد منه صحة التثبت فى الأفعال) (٧)

-
- (١) الروضة (ص ١٤٢) .
 - (٢) ماسبق (ص ١٤٣) .
 - (٣) ماسبق (ص ١٥٠) .
 - (٤) ماسبق (ص ١٥١) .
 - (٥) ماسبق (ص ١٥٥) .
 - (٦) ماسبق (ص ٣٠) .
 - (٧) ماسبق (ص ٢٩) .

وقسوة القلب من أكبر أسباب البعد عن الله ، والمؤمن العاقل (لا ينسى
تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه ، لأن بصـلاح
الملك تصلح الجنود ، ويفساده تفسد الجنود . . .)^(١)
(ومثل قلب العاقل إذا لزم رعاية العقل . . . كأن قلبه شـرح
بسكاكين التقية ، ثم ملح بملح الخشية ثم جفف بريح العظمة ، ثم أحى بماء
القرية ، فلا يوجد فيه إلا ما يرضى المولى - جل وعلا - ولا يئنى المرء إذا كان
بهذا النعت ، أن يتضح عند الناس ، ومحال أن يكون ذلك أبداً)^(٢)
ومن دلائل صلاح المرء وتقواه ، خوفه من الله تعالى بوجاهته رضوانه
والتثبت في أحكامه على الناس ، وعدم اتباع الهوى ، والموافقة للمذهب .

(١) الروضة (ص ٣١) .

(٢) ما سبق (ص ٣٠) .

المبحث الخامس : مكانة الإمام ابن حبان بين العلماء

تمهيد :

ان اهتمام أهل العلم بأحد العلماء من دراسة آثاره ، وتتبع أقواله واعتماد أحكامه ، وتوجيه الانتقادات إليه ، ثم إطلاق ألقاب المدح والثناء والإشادة ، أو غمز بعض الحاسدين ، كل هذه من الأدلة الواضحة على مكانة الرجل بين العلماء ، وعلو كعبه في العلوم التي طرقها .
ويحسن أن أعرض نماذج من عناية العلماء بابن حبان ومصنفاته ثم أذكر بعض أقوال أهل العلم في اعتماده ، وتوثيقه ، والثناء عليه .

المطلب الأول : عناية العلماء بآثار ابن حبان

فقدت معظم آثار ابن حبان العلمية - فيما يرجح لدى - خلال القرن الخامس الهجري ، يشير إلى هذا قول مسعود بن ناصر السجزي ، عصى الخطيب من أنه لا يوجد من كتب ابن حبان إلا النزر اليسير ، نتيجة ضعف السلطان ، وعدم تقدير أهل تلك البلاد للعلم وأهله ، وكثرة الحروب ، وتتابع الدول ، وسطو اللصوص ، والغزو وماشاكل ذلك مما ساد هناك في القرن الرابع والخامس الهجريين .

وماتبقى من كتب ابن حبان - بعد ذلك - هو صححه "التناسيم والأنواع" ، و"الثقات" و"المجروحين" و"مشاهير علماء الأمصار" و"روضة العقلاء" وبعض الكتب الأخرى .

إلا أن عناية العلماء انصرفت إلى كتبه الثلاثة الأولى . فقام الأمير علاء الدين الفارسي ، ورتب الصحيح على الأبواب الفقهية ، كما قام الحافظ زين الدين العراقي بإفراد رجال صحيح ابن حبان في مصنف مستقل ، وتكلم على كل واحد منهم بما فيه من جرح أو تعديل^(١) ، كما رتب أحاديث الكتاب على الأطراف .

(١) ظم التاريخ عند المسلمين (ص ٦٠١) .

(١) واختصر الكتاب الإمام سراج الدين بن الملقن (٨٠٤) وترجم لرواية ابن حبان في كتابه (إكمال تهذيب الكمال) الذي ترجم فيه لرجال ستين كتاب هي : رجال مسند أحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والدارقطني والحاكم .

(٢) كما قام الإمام الهيثمي وأفرد زوائده على الصحيحين في كتاب "موارد الظمان في زوائد ابن حبان" .

(٣) أما كتاب "الثقات" فقد قال فيه السخاوي : هو أحفل كتب الثقات وهي على الطبقات وقد عمل له الهيثمي معجماً ، فرتبه على حروف المعجم وقد نقحه السخاوي وضمنه كتابه الكبير كما أفرد الحافظ ابن حجر الثقات ممن ليسوا في التهذيب ولم يكمله .

(٤) وأما كتاب "المجروحين" فقد نقحه السخاوي كله وضمنه تاريخه الكبير أيضاً .

هذا ما وقفت عليه من خدمة لهذه الكتب الثلاثة .

الآن الأهم من هذا هو احتفاء علماء الأمة بها ، فقد اعتنى الدارقطني بكتاب المجروحين وله على ابن حبان استدراكات فيه ، وقد رواه عنه الاجازة ، ولا يعرف كتاب "المجروحين" إلا من طريق الدارقطني عن ابن حبان . واعتنى به أيضاً الإمام إبراهيم بن أحمد المعروف بابن شاقلا البغدادي .

كما ضمن ابن الجوزي ما في هذا الكتاب من أحاديث ، وأحكام فسي الجرح والتعديل ، كتابه : الموضوعات والعلل المتناهية ، وقد روى مسن طريق الدارقطني عن ابن حبان في المجروحين أكثر من ستين حديثاً ونقل

(١) كشف الظنون (٢: ٧٧ ، ١٠٢٥) . وانظر مقدمة العلامة أحمد

شاكر للصحيح (١: ١٩-٢٠) .

(٢) انظر مقدمة موارد الظمان للهيثمي .

(٣) علماء التاريخ عند المسلمين (ص ٥٨٥) .

(٤) ماسبق (ص ٥٨٦) .

(٥) ماسبق (ص ٥٩٠) .

عنه أقواله في أكثر من مائتي موضع .

أما في الموضوعات فقد روى عنه جل أحاديث المجروحين ، وآراءه في

الجرح والتعديل .

ثم ضمن الذهبي خلاصة هذا الكتاب في كتابه الكبير "ميزان الاعتدال"

وارتضى أقوال ابن حبان في الأعم الأغلب . وقد شنع على ابن حبان في

خمسة مواضع ستأتي مناقشته فيها إن شاء الله .

كما اعتمد هذا الكتاب الحافظ ابن حجر في تهذيبه ، واللسان

وتعجيل المنفعة ، وتعقبه في مواضع كثيرة في هدى السارى والفتح .

وأما كتاب الثقات ، فلا تكاد تجد ترجمة في الميزان أو لسانه

أو التهذيب أو تهذيبه إلا ولا ابن حبان فيها قول معتمد ، أو متوقف فيسه

أو مردود عليه .

ولورحت أستعرض المواضع التي اعتمد الذهبي وابن حجر فيها كلام

ابن حبان ، ولم يكن لهما مستند سوى كلامه ، لطال بي المقام ، ولخرجت عن

الغرض ، وسيأتي كثير من ذلك في موضعه .

وأما صحيح ابن حبان ، فقد عده علماء الحديث من الكتب الصحيحة

ووجود الحديث فيه مشعرا بالصحة ، والأحاديث التي تنزل عن درجة

الحسن لغبره ، قليلة جدا ، وسببها شرط ابن حبان في الرجال ، وليس قصوره

في المعركة .

وكم من حديث اكتفى أئمة التخريج في الحكم عليه أن قالوا : أخرجـه

ابن حبان في صحيحه .

وأما أقوال ابن حبان العقديّة والفقهية ، فتراها مبثوثة في فتح الباري

الذي عني فيها أيما عناية . وقد قدمت أطرافاً من ذلك كله .

المطلب الثاني : ثناء العلماء عليه

لا شك أن تجد كتاباً من الكتب التي عنيت بتراجم العلماء والأعيان إلا ولا بد حين ترجمة فيه اللقب إلا بعض المؤلفات التي عنيت بتراجم كتسبب معينة كالتهذيب وتهذيبه والكشاف حيث عنيت بتراجم الكتب الستة . وبعض المؤلفات التي عنيت بالتراجم المذهبية ، إلا ما قدمته سابقاً من إعراض بعضهم عن ذكر ابن حبان في كتابه إما عصبية أو لغرض آخر .

قال الحافظ أبو سعيد الإدريسي : (١) كان ابن حبان على قضائه سمرقند زماناً ، وكان من فقهاء الدين ، وحفاظ الآثار ، عالماً بالطب والنجوم وفنون العلم ، صنف المسند الصحيح والتاريخ ، وكتاب الضعفاء ، وفقسه الناس بسمرقند .

وقال الحاكم أبو عبد الله : (٢) كان ابن حبان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال . . . صنف فجمع له من التصنيف في الحديث ما لم يسبق إليه وولى القضاء بسمرقند وغيرها . . . وكان است الرحلة بخراسان إليه لسماع مصنفاة . . . وقال : كان أبو حاتم كبير القدر في العلوم ، وكان يحسد لفضله وتقدمه .

وقال الخطيب : (٣) كان قد سافر الكثير ، وصنف كتاباً واسعة ، وكان ثقة ثباتاً ، فاضلاً ، فهما . ولما تكلم عن الكتب التي يستحب لمحب الحديث أن يخرج عليها قال :

ومن الكتب التي تكثر منافعتها - إن كانت على قدر ما ترجمها بسنده وأضعها - مصنفاة أبي حاتم محمد بن حبان البستي . . . مثل هذه الكتب الجليلة ، كان يجب أن تكثر منها النسخ ، ويتنافس فيها أهل العلم ويحطدونها اجرازا لها . . . إن أزهت الناس في العالم أهله . . .

(١) تاريخ دمشق لابن عساکر (١٠: ٥٠١-٥٠٣) ، أعلام النبلاء

(١٦: ٩٣) .

(٢) ماسبق نفس المواضع .

(٣) ماسبق المواضع نفسها . والجامع للخطيب (٢: ٣٦١-٣٦٣) .

وقال فيه ابن عساکر^(١) : أبو حاتم البستي ، أحد الأئمة الرحالين

والمصنفين المحسنين .

وقال الذهبي^(٢) : الحافظ الإمام العلامة . . . المجود ، شيخ خراسان .

وقال اليافعي^(٣) : العلامة الحبر ، الحافظ صاحب التصانيف .

وقال ابن حجر^(٤) : الحافظ صاحب الأنواع ، ومؤلف كتابي الجسر

والتعديل . . . كان من أئمة زمانه .

هذه بعض النقول التي أردت إثباتها اختصاراً ، وإلا فقد ترجم لابن

حنان أكثر من خمسين مصنفاً فلورحت أسرد أقوالهم لسؤدت صفحات عديدة

وأظن في أقوال هؤلاء غنى عن غيرهم .

-
- (١) التاريخ (١٠: ٥٠١) .
 (٢) أعلام النبلاء (١٠: ٣: ٣٣١) ، تذكرة الحفاظ (ص ٩٢) ، الميزان
 (٣: ٥٠٧) .
 (٣) مرآة الحنان لليافعي (٢: ٣٥٧) .
 (٤) لسان الميزان (٥: ١١١) .

الفصل السابع

الاتهامات العقديّة والسلوكية
التي وجهت إلى ابن حبان

تمهيد :

لقد وجهت إلى ابن حبان عدة اتهامات عقديّة وسلوكية ، نوجزهما
فيما يأتي :

وسأتناولها بالتفصيل والمناقشة فيما بعد إن شاء الله .

(١) القول بأن النبوة مكتسبة : فقد نقل المؤرخون أن معاصريه من الأئمة
أنكروا عليه قوله (النبوة العلم والعمل) فحكموا عليه بالزندقة
وكتب فيه إلى الخليفة ، فكتب بقطه ،^(١) إلا أن الخطاب لم يصل
إلا بعد وفاة ابن حبان .^(٢)

وقيل : لهذا القول أخرج من سمرقند .^(٣)

(٢) انكار الحد لله تعالى : قال أبو إسماعيل الهروري : سألت يحيى^(٤)
ابن عمار فقلت : رأيت أبا حاتم بن حبان البستي ؟ قال : وكيف
لم أراه ؟ ونحن أخرجناه من سجستان ، كان له علم كثير ، ولم يكن له
كبير دين ، قدم علينا ، فأنكر الحد لله عز وجل ، فأخرجناه من
سجستان .^(٥)

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٠: ٥٠٢) ، أعلام النبلاء (١٠: ٣: ٣٣٢)

تذكرة الحفاظ (ص ٩٢٢) .

(٢) عيون التواريخ لابن شاكر الكتبي . ميكروفيلم في مكتبة مركز البحوث
العلمي حوادث (٣٥٤) .

(٣) تاريخ ابن عساكر (١٠: ٥٠٢) .

(٤) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروري . ترجمته

في تذكرة الحفاظ (ص ١١٨٢) فمابعد ، والمنهج الأحمد (٢: ١٨١)

فمابعد ، وطبقات المفسرين للدأودي (٢: ٢٤٩) . توفي سنة (٤٨١) .

(٥) هو يحيى بن عمار أبو زكريا السجستاني الواعظ نزيل (هراة) توفي

سنة ٤٢٢ وله تسعون سنة . ترجمته في شذرات الذهب (٣: ٢٢٦) .

وله ذكر في المنهج الأحمد (١: ١٨١، ١٨٢) ، تاريخ جرجان (ص ٤٧٣) .

(٦) ابن عساكر (١٠: ٥٠٢) ، النبلاء (١٠: ٣: ٣٣٢) ، تذكرة الحفاظ

(ص ٩٢٢) .

- (٣) معارضة القرامطة : ذكر ياقوت^(١) أنه نقل من خط الحافظ ابن النفيس وأن ابن النفيس، نقل من خط الحافظ أبي الفضل السليماني البيكندی قال : قدم علينا أبو حاتم بن حبان البستي سمرقند سنة ٣٢٠ ، أو ٣٢٩ . . . وقد صنف كتابا في القرامطة لأبي الطيب المصعبي حتى قلده قضاء سمرقند ، فلما علم أهل سمرقند بذلك أرادوا أن يقتلوه فهرب ودخل بخارى .
- ونقل عن أبي علي الحافظ^(٢) بنيسابور، أنه قدم عليهم نيسابور، ثم إنته خرج إلى سجستان بكتابه في القرامطة إلى (ابن بابو) حتى قبضه وقلده أعمال سجستان فمات بها . ١٠ هـ .
- (٤) الكذب : نقل ابن النفيس من خط الحافظ البيكندی من كتاب شيوخي وكان قد ذكر فيه ألف شيخ في باب الكذابين ، قال : وأبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي قدم علينا سمرقند . . . فقال لسي أبو حاتم سهل بن السري^(٤) الحافظ : لا تكتب عنه فإنه كذاب . . . فرأيت وجهه وجه الكذابين ، وكلامه كلام الكذابين^(٥) .
- (٥) سرقة الحديث : أسند ابن عساكر إلى أبي عبد الله الحاكم فقال سمعت أبا علي الحافظ وذكر كتاب المجروحين لأبي حاتم البستي

- (١) معجم البلدان (٤١٩:١) .
- (٢) ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص ١٠٣٦) ، ولد سنة ٣١١ وتوفي سنة ٤٠٤
- (٣) في معجم البلدان قال : وسمعت السليماني الحافظ بنيسابور . وهو خطأ قطعاً ، والصواب أبو علي الحسين بن علي الحافظ شيخ الحاكم ، قرين ابن حبان ، وقد كان يحمده ابن حبان . انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ (ص ٩٠٢) ، ولا يستقيم الكلام إلا بما ذكرت ، لأن السليماني تلميذه ، فكيف يقول : كتب مصنفاتي ، وروي عن شيوخي ؟ وقد سبق نقل الحاكم عن أبي علي الخط من ابن حبان .
- (٤) لم أجد لهذا الحافظ ترجمة قطع الاسم مصحف ، ولكن له ذكر في معجم البلدان (٤١٩:١) . ووصفه البيكندی - كما عند ياقوت - بالحفظ ووجد في إسناد دند الشهمي (ص ٣٥٧) وعند تمام في فوائده ولكن محقق الكتاب بيض له .
- (٥) معجم البلدان (٤١٩:١) .

فقال : كان لعمر بن سعيد بن سنان المنبجي ، ابن رجل في الحديث وأدرك الشيوخ ، وهذا تصنيفه وأساء القول في أبي حاتم .^(١)

ومن كتاب شيخ الحافظ البيهقي نقل ابن النفيس عنه أنه قال سمعت أبا علي الحافظ بنيسابور ، قال لي : كتبت عن أبي حاتم البستي ؟ فقلت نعم . فقال : إياك أن تروى عنه ، فإنه جاءني

فكتب مصنفاً ، وروى عن مشايخي .^(٢)

(٦) العجب والغرور : قال البيهقي^(٣) فيما روى عنه : (كان يقول لي ، يا بني

اكتب : أبو حاتم محمد بن حبان البستي إمام الأئمة ، حتى كتبت بسين يديه ، ثم محوته) .

هذه جمة الاتهامات التي وجهها معاصرو ابن حبان إليه ، وسأتناول

في قضية منها على انفراد ، سائلاً الله أن يوفقني إلى الصواب .

-
- (١) تاريخ دمشق (١٠: ٥٠٢) .
 (٢) معجم البلدان (١: ٤١٩) .
 (٣) معجم البلدان (١: ٤١٩) .

المبحث الأول : حول اكتساب النبوة

ومفادها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يهين نفسه لمشغل هذا المقام الخطير، أما بملاحظته بعض الغرائب التي حدثت له، كحادثة شق صدره الشريف، وهو طفل عند حليلة السعدية، وقول الراهب لعمسسه ارجع فإنه سيكون لابنك شأن، وعدم تمكنه من مقارفة اللهو والعبث، وتسليم الحجر عليه، أو سماعه أن رسولا سيبعث فنشط لذلك لكي هذا فإنه راح يتعلم ويتعبد لله تعالى حتى صفت روحه، وعلا في العلم كعبه، حتى أتاه الوحي في غار حراء، فأعطاه النبوة.

ولا أريد أن أناقش هذه الفكرة في هذا المقام، لأن مناقشتها خارجة (١) من مقصودنا ويكفي أن أبطل هذه الفكرة بما قاله الله تعالى :

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب، إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيرا للكافرين) (٢) . وقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) (٣) الآية . وقوله : (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) (٤) . في آيات كثيرة أخرى .

وإنما غرضي مناقشة هذه التهمة، وهل ابن حبان اعترف إثم القول بها ؟ وإذا كانت قد صدرت منه كلمة (النبوة : العلم والعمل) فهل تؤدي مفهوم اكتساب النبوة ؟

قال الذهبي (٥) : هذه حكاية غريبة، وابن حبان من كبار الأئمة، ولسنا ندعى فيه العصمة من الخطأ، ولكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق .

(١) قد ناقشت هذه الفرية في بحث سابق بعنوان " القرآن الكريم ونعاوي

النسخ فيه" (ص ٥٦ - ٦٥) .

(٢) القصص : ٨٦

(٣) الشورى : ٥٢

(٤) الحج : ٧٥

(٥) أعلام النبلاء للذهبي (١٦ : ٩٦) .

(١) فأطلاق المسلم لها لا ينبغي ، لكن نعتذر عنه فنقول :
 (لم يرد حصر المبتدأ في الخير، ونظير ذلك قوله عليه الصلاة والسلام
 "الحج عرفة" ومعلوم أن الحاج لا يعتبر بمجرد الوقوف بعرفة حاجاً ، بل بقى
 عليه فروض وواجبات وإنما ذكر مهم الحج .
 وكذا ذكر مهم النبوة ، إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل
 فلا يكون أحد نبياً إلا بوجودهما ، وليس كل من برز فيهما نبياً ، لأن النبوة
 موهبة من الحق تعالى ، لا حيلة للعبد في اكتسابها ، بل بها متولد العلم
 اللدني والعمل الصالح .

(٢) وأما الفيلسوف فيقول : النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل ، فهذا
 كفر ، ولا يريد أبو حاتم أصلاً ، وحاشاه . . .) .
 أو يقال : (عماد النبوة : العلم والعمل ، لأن الله لم يعز النبوة
 والوحي إلا من اتصف بهذين النعتين ، وذلك لأن النبي - صلى الله عليه
 وسلم - يصير بالوحي عالماً ، ويلزم من وجود العلم الإلهي العمل الصالح
 فصدق بهذا الاعتبار قوله : النبوة العلم اللدني والعمل المقرب إلى الله
 فالنبوة إذا : تفسر بوجود هذين الوصفين الكاملين ولا سبيل إلى تحصيل
 هذين الوصفين بكاملهما إلا بالوحي الإلهي ، وهو علم يقيني مافيه ظن
 وطم غير الأنبياء منه يقيني وأكثره ظني ، ثم النبوة ملازمة للعصمة ولا عصمة
 لغيرهم ولو بلغ في العلم ما بلغ ، والخبر عن الشيء يصدق ببعض أركانه
 وأهم مقاصده ، غير أننا لا نسوخ لأحد إطلاق هذا إلا بقريئة^(١) . اهـ .
 هذا ما أجاب به الإمام الذهبي في الاعتذار عن ابن حبان ، إن كان
 قد قالها .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي :
 (إن صح هذا عنه ، فهو قول مجمل ، وابن حبان معروف عنه فسي
 جميع تصانيفه ، أنه يعظم النبوة حسب تعظيمها ، ولعله أراد : أن المقصود من
 إباحة الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم هو ويعمل ، ثم

(١) ميزان الاعتدال للذهبي (٥ : ٥٠٧ ، ٥٠٨) .

يبين للناس، فيعلموا ويعملوا)^(١) .

ويحسن أن ننتقل الآن لغرى ماذا يقول ابن حبان في هذا الصدد ؟
قال في خطبه^(٢) صحيحة : (وأشهد أن لا إله إلا الذي بهد أيتسه
سعد من اهتدى ، وبتأبيده رشد من اتعظ وأرعوى . . . وأشهد أن محمدا
عبده المصطفى ، ورسوله المرتضى بعثه الله داعيا ، وإلى جنانه هاديا
فصلى الله عليه وأزلفه في الحشر إليه . . .)

أما بعد : فإن الله - جلَّ وعلا - انتخب محمدا صلى الله عليه وسلم
لنفسه وليا ، وبعثه إلى خلقه نبيا . . . فبلغ صلى الله عليه وسلم عنه رسالاته
وحيِّ المراد من آياته) . ا . هـ

وقال في مقدمة الثقات : (. . .)^(٣) وأشهد أن محمدا عبده المجتبي
ورسوله المرتضى . . . أما بعد : فإن الله اختار محمدا صلى الله عليه وسلم
من عباده ، واستخلصه لنفسه من بلاده . . .)

وإذا تركنا مقدمات كتبه ، وتعمقنا في بحارها ، رأيناها لا يذكر رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا باسم "المصطفى" . وإذا شئت أن تقرب عليك الشقة
فأمسك الجزء الثامن من ترتيب صحيح ابن حبان ، وهو الخاص بأحاديث
المصطفى صلى الله عليه وسلم وشؤونه ، فإنك ستجد ذكر المصطفى عشرات
المرات في تراجم الأحاديث والتعليق عليها .

وقد روى ابن حبان^(٤) في صحيحه عن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت بقبيح مما
يهم به أهل الجاهلية إلا مرتين ، كتأهما عصمى الله منها . . . الحديث .
أوليس في روايته "عصمى الله منها" تعنى أن الله كان يتعهد ويرعاه ؟

-
- (١) التنكيل بها في تأنيب الكوثري من الأباطيل (١ : ٤٢٧) .
(٢) الإحسان (١ : ٢٢ - ٢٣) ، وانظره مقدمة المجروحين (١ : ٣) ، مقدمة
المشاهير (ص ١) ، مقدمة روضة العقلاء (ص ١٤) ، وقد كرر جملته
"عبده المجتبي ونبيه المرتضى" في كل مقدمات كتبه .
(٣) الثقات (١ : ٢) .
(٤) الإحسان (٨ : ٥٦ ب) .

وكان ابن حبان رحمه الله تعالى ، أطلق مثل هذه العبارة ، وراح يشرحها ، إلا أن عوام الناس ، أو الحساد حطلوا كلامه ما لا يحتسب ، واتهموه بالزندقة ، وكانت تهمة العالم بها آنئذ أسهل من الشراب .

ولكن أين أطلق ابن حبان هذه العبارة - إن كان قد أطلقها ؟ بين أيدينا نصان متعارضان ، أحدهما يقول : بأنه تفوه بذلك فسى سمرقند ، والآخر يقول : بل كان ذلك في بست ، لأن كتاب الخليفة السدي جاء بقتله ، وصل بعد وفاة ابن حبان - رحمه الله تعالى . والذي يترجح عندي أن ذلك كان منه في بست لافي سمرقند ولا غيرها إن ثبت أنه قاله لاعتبارات عديدة :

(١) أولها : أن كل المصادر تنص على أن الخليفة كتب بقتله ، وشكت عما وراء ذلك ، إلا ابن شاکر الکتبی فإنه يوضح هذا الإبهام ، فيقول إن كتاب الخليفة وصل إلى بست بعد وفاة ابن حبان . وهذا يعنى أن الكتابة بالقتل كانت بعد كلامه قريبا .

(٢) والثاني : أن ابن حبان خرج من سمرقند إلى نيسابور سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، ثم تولى قضاء نساء ، ثم عاد وأقام بنيسابور حتى سنة أربعين ، ثم عاد سنة أربعين إلى بست مارا بسجستان القريبة منها ، فامتحنوه ، فأنكر الحد لله تعالى فأخرجوه من العام نفسه - كما سبق - فاستقر في بست إلى حين وفاته فهل استغرق كتاب أهل سمرقند عشرين سنة ، حتى جاء جوابه ؟

(٣) الثالث : أن مدينة بست في ذلك الحين ، لم تكن مستقرة ، وكانست تتنازعها الأهواء والأفكار ، وليس فيها أمن ولا استقرار بسبب الحروب الطاحنة التي كانت تنشب بين أمراء الولايات في تلك البلاد ، وبسبب جموح الشيعة ، وردود الفعل من خصومهم .

ولا يخفى أن أزهد الناس بالعالم أهله وجيرانه ، فلا يبعد أن يكون قد حسده بعض مشايخ بست ، وأهروا عليه صدر الخليفة بكتاب فيه عدد من الاتهامات هذه منها .

قال الإمام الخطابي البستي : (وفي العزلة ببلد بست خاصة من

دواهي الكنف الشارعة، والمناعب السائلة . فإن جنابيتها عند أهلها جنابية
 لأرسلها ، ودما قتلها مطلوبة ، لا عقل ولا قود فيها^(١) ، وقال :
 (ولولم يربح الإنسان في العزلة والتخلي عن الناس ، ومن مساوئهم
 والانتقاع عن محاورتهم إلا ما يكفاه من فضل مؤنة التحرز منهم ، وما يستفيد
 من الأمان : أن يرفعوا عليه قولا يسمعونه يتكلم به في حال غفلة واسترسال
 أو يتأولوا عليه كلما لا تبلغ عقولهم كنهه فيوجهوه إلى غير وجهته ، وينحلوه
 غير صفته ، لكان فيه كفاية كافية . . .)^(٢) .
 ألا ترى معنى هذا النص ، وكأنه ينطق بواقعة ابن حبان ، وبأسس
 لعصاب هذا العالم الجليل ؟

(١) العزلة للمخطابي (ص ٣٣) .
 (٢) ماسبق (ص ٢٧) .

المبحث الثاني : إنكار الحدّ لله تعالى

سبق أنّ أهل سجستان طردوا الإمام ابن حبان لأنه أنكر الحدّ لله تعالى .

قال الذهبي^(١) : (كلاهما مخطيء ، إذ لم يأت نص بإثبات الحدّ ولا بنفيه ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .
وقال أيضا^(٢) : (إنكاركم عليه بدعة أيضا وتعالى الله أن يحدّ أو يوصف إلا بما وصف به نفسه ، أو طمّعه رسله بالمعنى الذى أراد بلا مثل ولا كيف) .

(فمن أثبت - أى الحدّ - قال له خصمه : جعلت لله حدا برأيتك ولا نص معك بالحدّ ، والمحدود مخلوق ، تعالى الله عن ذلك .
وقال هوللنفاي : ساويت ربك بالشئ المعدوم ، إذ المعدوم لا حدّ له فمن نزه الله وسكت ، وتابع السلف سلم .) .

ولا أدرى كيف يوفق المرء بين كلام الذهبي ، فمرة يقول : على المرء السكوت والتزبه وأخرى يقول : تعالى الله أن يحد ، وثالثة يقول بأنّ إثبات الحدّ ونفيه بدعة .

ويجب ألا يخيب من أذهاننا أنّ عصر ابن حبان قد أفرط فيه كثير من الحنابلة في الإثبات ، وبالغوا في ذلك حتى قال بعضهم بالجلوس والمشى والاستناد إلى صخرة ، وأنّه يجلس ويستقر على العرش ويضع قدميه على الكرسي . وابن حبان مطلع على هذا كله ، ومن مذهبه الذى ارتضاه اجتهادا وفهما لروح الشريعة ونصوصها ، يأبى أن يثبت لله تعالى صفات لم تنطق بها نصوص هذه الشريعة فلا ريب - والحالة هذه - أن ينكر ابن حبان الحدّ لله تعالى .

أما أنّ الله تعالى قد استوى على عرشه ، وأنّه يائن عن خلقه ، وأنّه نسي السماء ، فهذا ما لا ينكره ابن حبان ، بل روى أحاديثه كلها في صحيحه .

(١) تذكرة الحفاظ (ص ٩٢١) .
(٢) أعلام النبلاء (١٠: ٣: ٣٣٤) .
(٣) ميزان الاعتدال (٣: ٥٠٧) .

قال ابن تيمية رحمه الله : (الواجب أن ينظر في هذا الباب فما أثبتته الله ورسوله أثبتناه ، وما نفاه الله ورسوله نفينا ، والألفاظ التي ورد بها النص في الإثبات والنفي ، يعتصم بها ، فنثبت ما أثبتته النصوص من الألفاظ والمعاني ، وننفي ما نفته النصوص من الألفاظ والمعاني .

وأما الألفاظ التي تنازع فيها من ابتدئها من المتأخرين مثل : لفظ الجوهر والعرض والتمحيض والجهة ونحو ذلك ، فلا تطلق نفيًا ولا إثباتًا ، حتى ينظر في مقصود قائلها ، فإن كان قد أراد بالنفي والإثبات معنى صحيحًا موافقًا لما أخبر به الرسل صلى الله عليه وسلم ، صوب المعنى الذي قصده بلفظه ، ولكن ينبغي أن يعبر عنه بالألفاظ النصوص ، لا يعدل إلى هــ (١) الألفاظ المبتدعة المجعلة إلا عند الحاجة ، مع قرائن تبين المراد بها . . . (١)

فابن تيمية رحمه الله يرى أن لفظ الجهة والحد والتحيض من الألفاظ المبتدعة ، فماذا على ابن حبان الحافظ للسنة والسابر لأغوارها إذا أنكر هذا اللفظ واستشنعه ؟

قال الذهبي (٢) : (وقد بدت من ابن حبان هفوة فطعنوا فيه لها) .
وقال ابن حجر تعليقًا على هذا : (إن أراد القصة الأولى - قصة الحد - فليست هذه بهفوة ، والحق أن الحق مع ابن حبان فيها .
وإن أراد الثانية - قصة كسب النبوة - فقد اعتذر هو عنها ، فكيف يحكم عليه بأنه هفا ؟ ماذا إلا تعصب زائد على المتأولين .
وابن حبان قد كان صاحب فنون وذكاء مفرط ، وحفظ واسع إلى الغاية رحمه الله) .

ولارهب أن الإمام الذهبي عنى مسألة النبوة ، والذي يبدولى - والله أعلم - أن ابن حبان قد صدر منه كلام في هذا المعنى فهمه المفرضون

-
- (١) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية (١ : ٣٣٣) ، وانظر (١ : ٣٣٤-٣٣٥) ، وانظر تمام البحث في مجموع الفتاوى (٣ : ٤١ - ٤٣) ، (٥ : ٢٦٢-٢٦٥) ، (٦ : ٣٨-٤٠) ، (١٧ : ٢٢٦-٢٢٧) .
وانظر الكلام على الحد في (٥ : ٥٦٠٥٣) .
(٢) ميزان الاعتدال (٣ : ٥٠٧) .
(٣) لسان الميزان (٥ : ١١٤) .

أو حلو بما يؤذى ابن حبان ويسىء إليه . وليس مثل هذا بهفومنته
لأنَّ الإنسان قاصر، ويجب أن ينتظر ليشرح مراده ويوضحه، وحتى لو صحَّت
هذه الحكاية، فالمعاني التي أوردها الذهبي هي مقصود ابن حبان
بدليل النصوص التي سقتها من كتبه . والله أعلم .

على أنَّ ما يحسن ذكره في ختام هذا المبحث أنَّ يحيى بن عمار
الذي نسب إليه قول : (وكيف لم أره ؟ ونحن أخرجناه من سجستان
أنكر الحدَّ لله) قد ولد سنة (٢٣٢ هـ) وكان قدوم ابن حبان سنة أربعين
فيكون عمر يحيى سبع سنين أو ثمان ؟؟

المبحث الثالث : مؤازرة القرامطة

رأيت أن هذه القصة قد نطقت عن حافظين جليلين أحدهما : أبو الفضل البيكندی والثاني : أبو علي النيسابوري الحافظ .
أما البيكندی فيقول بأن ابن حبان تزلف إلى أبي الطيب المصمعي فصنف له كتابا في القرامطة ، حتى ولاء قضاء سمرقند ، وكان ذلك بين سنتي ٣٢٩ - ٣٣٠ هـ بينما يقول أبو علي الحافظ بأنه صنف الكتاب حين خرج من نيسابور إلى سجستان فصنف الكتاب وأعطاه لابن بابو القرمطي . . . حتى ولاء قضاء سجستان . .

وهناك قصتان متعارضتان في ظاهر الأمر ، فإحداهما تدعى أنه صنف الكتاب لأبي الطيب المصمعي ، وكان هذا ذا نفوذ في سمرقند ، والأخرى تقول : بل كان تصنيف الكتاب تقريبا لابن بابو المتنفذ في سجستان .
وهذه القصة مردودة من أساسها للأمر التالية :

(١) أن مدينة سمرقند كانت عاصمة مملكة آل سامان الثانية بعد بخارى وكان أميرها أبو المظفر أحمد بن نصر الساماني من أهل الفضل والصلاح ، ومحب العلم والعلماء وكانت دولة السامانيين في عام ٣٣٠ هـ في أحسن أحوالها ، ولم يكن لقرمطي من السطوة أن يدنو منها فضلا عن أن يعين فيها قضاة يتزلفون إليه بتصنيف مصنفات يؤيدون بها باطلهم .

أما مقولة أبي علي الحافظ - إن صحت عنه - فهزيلة جدا ، لأن سجستان كانت في تلك الفترة تحت حكم السامانيين أيضا ، إلا أنه كان يحكمها أمير من آل الصفار يدين بالولاء لآل سامان ، فيكون بمثابة نائب الملك .
ولقد كانت آل الصفار شوكة وكرامة حتى في نهاية القرن الرابع الهجري والدرجة أن سبكتكين احتاج إلى معاونة الأمير خلف بن أحمد الصفار

(١) تاريخ بخارى (ص ٩٨) ، وفيها : وهند بحكومة سمرقند إلى أحد أبناء

نصر

(٢) تاريخ بخارى (ص ١١٢) ، أبو الفتح (ص ٦٢، ٦٣) ، النبلاء (١٧ : ١١٦) .

أمير سجستان في حربه ضد أبي علي بن سيمجود .
وقد كان خلف هذا مكرما للعلم والعلماء ، كما كان أسلافه من قبيل
ولقد قال فيهم تلميذ ابن حبان الشاهر أبو الفتح البستي :
خلف بن أحمد أحمد الأخلاق أربي بسودده علي الآلاف
أضحى لآل الليث أعلام الهدى مثل النبي لآل عبد مناف^(١)
فأين كان ابن بابو هذا ، وما هي قدرة القرامطة في سجستان ، حتى
يمكنوا ابن حبان من قضائها ؟

أضف إلى هذا أن ابن حبان لم يتول قضاء سجستان ، وإنما دخلها
سنة أربعين مارا من نيسابور إلى بست ؟
فإن قيل : إن المقصود قضاء بست ، وإنما أطلق اسم الإقليم ، كما
أطلقوه حين ذكروا وفاته ، قلنا : إن هذا مردود ، لأن المصادر أجمعت على
أن ابن حبان تفرغ في بست للعطاء العلمي ، ولم ينقل أنه تولى مناصبا في
بست .

إذا كيف نفسر عمل الحافظ أبي علي النيسابوري ، والحافظ السليمانبي
البيكندي ؟ - إن صح هذا النقل عنهما - ؟
أقول : قدمت أن الحافظ البيكندي نقل عن سهل بن النسيبوري
الحذاء ، ونقل عن أبي علي النيسابوري .
أما سهل الحذاء هذا فرغم أن ياقوت وصفه بالحفظ ، إلا أنني لم أجد
له ترجمة ولا أدري حاله ، ودرجة الاعتماد على أقواله .
أما أبو علي النيسابوري ، فقد كان بينه وبين ابن حبان جفوة ، وكان
ابن حبان يحسده لفضله ، كما قال تلميذها الحاكم أبو عبد الله .
أما كيف يقول مثل هذا الكلام ، ففعل ابن حبان صنف كتابا في آداب
السُّلوك ، أو الزهد ، أو العقل ، أو كان فيه ذكر لبعض مظالم العباسيين وولاتهم
فهذا عند من يحمل شيئا في نفسه على آخر ، كلف لتفسيره بآراء القرامطة الذين
كانوا يعيشون بدار الخلافة وأقاليم كثيرة في ذلك العصر . والله أعلم .

(١) أبو الفتح البستي (ص ٦٢) ، التلخيص (١٢ : ١١٦) فما بعد .

المبحث الرابع : تهمة الكذب

وتهمة الكذب وجهها إليه - إن صح النقل - الحافظ البيهقي ، وسهل
ابن السري الحذاء . أما سهل بن السري - شيخ الحافظ البيهقي - فهو من
أقران ابن حبان وعصريه وقد ادعى دعوى ، لم يأت عليها بدليل ، ومعلوم
أن من اشتهرت عدالته ، وشرف بالحفظ ، لا يلتفت إلى قول قائل فيه ، مالم
يبين أسباب الجرح ، حتى ينظر فيها أجارحة هي أم غير جارحة .
قال ابن السبكي^(١) ، رحمه الله :

(الصواب عندنا أن من ثبتت عدالته وإمامته ، وكثر ما دحوه ومزكوه
وتدر جارحوه وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي
أو غيره ، فإننا لا نلتفت إلى الجرح فيه ، ونعمل فيه بالعدالة ، وإلا لو فتحنا
هذا الباب ، وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقه ، لما سلم لنا أحد من الأئمة
إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيه طاعنون ، وهلك فيه هالكون) . ونقل مشل
ذلك عن ابن عبد البر .

وما ذلك إلا (لأن السلف تكلم بعضهم في بعض بكلام ، منه ما حمل
عليه التعصب أو الحسد ، ومنه ما دعا إليه التأويل ، واختلاف الاجتهاد ، مما
لا يلزم المقول فيه ، ما قال القائل فيه وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف
تأويلا واجتهادا)^(٢) .

وقال ابن السبكي^(٣) :

(ومما ينبغي أن يتفقد عند الجرح حال العقائد ، واختلافها بالنسبة
إلى الجراح والمجروح فربما خالف الجراح المجروح في العقيدة فجرحه
لذلك . . . ومن ذلك قبل بعض المجسمة^(٤) في أبي حاتم بن حبان : لم يكن
له كبير دين نحن أخرجناه من سجستان لأنه أنكر الحد لله . . .) .

(١) قاعدة في الجرح والتعديل لابن السبكي مع كتاب الرفع والتكيسل

(ص ٦) ، وانظر طبقات ابن السبكي (١ : ١٨٨) .

(٢) ماسبق (ص ٧) ، الطبقات (١ : ١٨٨) .

(٣) قاعدة في الجرح (ص ١٢) ، الطبقات (١ : ١٩٠) .

(٤) يقصد ابن السبكي بالمجسمة هنا يحيى بن عمار ومن معه ممن يبالغون
في الإثبات .

وأما قول أبي الفضل السليمانى البيكندى (فرأيت وجهه وجسده
الكذابين ، وكلامه كلام الكذابين - إن صح عنه -) ، فهو كقول مالك فسسى
محمد بن إسحاق : رجال من الدجاجة يروى عن اليهود ؟ فلم يلتفت أحد
إلى قول مالك فى محمد بن إسحاق وللسليمانى هفوات كثيرة ، فقد ^(١) عدَّ
الإمام عبدالرحمن بن أبى حاتم الرازى من الشيعة ، كما عدَّ أبى حنيفة منهم
أيضا ، وماهما من الشيعة بحال .

وما أحسن قول ابن جرير الطبرى (لو كان كل من ادعى عليه مذهب
من المذاهب الرديئة ثبت عليه ما ادعى به ، وسقطت عدالته ، وبطلت شهادته
بذلك ، للزم ترك أكثر محدثى الأمصار ، لأنه ما منهم إلا وقد نسيه قوم السسى
ما يرغب به عنه) ^(٢) .

ولاريب أن الحافظ أبى الفضل السليمانى من حنابلة القرن الرابع
الهجرى الذين كانوا يعيلون إلى الاتيات ميلا عظيما ، فيكفى أن يقول ابن
حيان صفة من الصفات التى يشتهها السليمانى ، ليحكم عليه بأن كلامه كسلام
الكذابين - المؤولة - ووجهه بالتالى وجههم .

(١) كما فى ميزان الاعتدال (٢ : ١١٦) .

(٢) الرقع والتكميل (ص ٣٣٥) .

المبحث الخاص : اتهامه بسرقة الحديث

وملخص هذه التهمة ينحصر في شقين :

الأول : أنه لقي ابن شيخه عمر بن سعيد بن سنان المنبجى - وهو من أقرانه - وكان قد كتب كتاب "المجروحين" فانتسخه ابن حبان ونسبه لنفسه .

والثانى : أن ابن حبان قدم إلى نيسابور، فكتب مصنفاً أبى على النيسابورى ، وحدّث عن مشايخه .

وأبو على النيسابورى عصرى ابن حبان ونده . وقد كان مولده سنة سبع وسبعين ومائتين ووفاته سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ، وقد رحل ابن حبان إلى نيسابور هاراً ، وصحب ابن خزيمة وغيره حتى توفى ، وإذا كان سماع أبى على سنة خمس وتسعين ومائتين وأول رحلات ابن حبان على رأس الثلاثمائة فاتنى لم أعثر لابن حبان على شيخ تقدّم وفاته على سنة ثلاثمائة ، ولئن كان أبو على - رحمه الله - رحالة ، فلقد جاب ابن حبان أطراف الأرض أربعين سنة ؟ ولا يستطيع أبو على ولا غيره أن يدعى بأن ابن حبان لم يلق هؤلاء الشيوخ .

ولقد رأيت من سلوك ابن حبان أنه كان يسمّى مكان سماعه من الشيوخ ، وقد تعدد سماعه من الشيوخ فى أماكن مختلفة نتيجة تنقلات الشيوخ فيذكر ذلك كله .

أضف إلى ذلك أن الذين عنوا بالتراجم ذكروا مشاهير شيوخ ابن حبان ، ومشاهير شيوخ أبى على ، فرأيت أنّهما قد اشتركا فى عدد من أكابر الشيوخ ، وانفرد كل منهما عن الآخر ببعض الشيوخ ، فقد انفرد أبو على بالرواية عن إبراهيم بن أبى طالب دون ابن حبان ، فلم أر ابن حبان قد روى عنه فى شيء من كتبه ، وكلّ مشايخ ابن حبان وفياتهم بعد الثلاثمائة .

(١) هو الحافظ إبراهيم بن محمد بن نوح الإمام الحافظ شيخ خراسان وفاته سنة خمس وتسعين ومائتين . التذكرة (ص ٦٣٨) .

فيكون قول أبي علي ، كتب مصنفاتي ، وروى عن شيوخى ، من كلام الحسد والنفاسة إذ لا مانع أن يكتب ابن حبان كتب قريبه ، بل هذا ممن كمال فضل العالم ليزداد علما وفهما وليقارن بين ما عنده ، وما عند غيره وما أظن مثل ابن حبان بحاجة إلى أن يروى عن مثل أبي علي .
وأما دعواه بأن كتاب "المجروحين" سرقة ابن حبان من ابن شيخه فكلام ساقط. الاعتبار لأن شيوخ ابن حبان فى المجروحين ، هم شيوخه فى الثقات والصحيح والروضة ؟

كما أن كثيرا من الرواة ذكرهم فى الثقات والمجروحين ، وبعضهم علق أمرهم على الاستخارة فذكرهم مرة هنا ، ومرة أيضا هناك .
كما أن هؤلاء الشيوخ روى عن كثيرين منهم فى صحيحه أحاديث كثيرة ليس شىء منها فى كتابه المجروحين ، فمن أين أتى بها ، وأبو علي لم يذكر أنه سرق من ابن شيخه كتابا أخرى .

ثم إذا كانت رحلات ابن حبان لم تقده سوى سرقة كتب أبي علي ، وابن شيخه فكيف غفل عن هذا علما عصره وتلامذته كالحاكم وعتجار وابن مندة ؟ ولم تسمع عن أحد منهم شيئا من هذا ؟

أضف إلى هذا كله أن ابن حبان قد صرح فى مقدمة ثقاته ، وفلسفه آخره أن له مؤلفا كبيرا اسمه "التاريخ الكبير" اختصر منه كتابى الثقات والمجروحين ، والذي يطالع الكتابين يتيقن أنهما لابن حبان ، وأنهما من مصدر واحد .

ولقد نقل الحاكم عبارة شيخه أبي علي حول كتاب المجروحين - وأغفل حكاية أن ابن حبان كتب كتبه وحدث عن مشايخه لسقوطها فى نثره - ثم قال أبو حاتم كبير فى العلوم وكان يحسد لفضله وتقديره .
فالحسد والنفاسة ، والمخالفة فى الاعتقاد هما سبب هذه التوقيف
بابن حبان رحمه الله .

المبحث السادس : تهمة العجب والغرور

سبق عند الحديث عن حياة ابن حبان أن الرجل كان إماماً ففى الجرح والتعديل ، إماماً فى الحديث ، إماماً فى الفقه ، مقدماً فى اللغة والزهد والطب والهندسة والفلك والوعظ ، صنف فى كل فن من فنون العلم وكان قاضياً على سمرقند ونسا وغيرهما من بلاد ما وراء النهر وخراسان ، وكان مقدماً على علماء عصره فى العلوم والمعارف وقد عرف له فضله فىنى لـــــــ أمير سمرقند داراً لطلاب الحديث والمتفقهة الذين يرحلون إليه لطلب العلم والرواية عنه ، كما أنه هو بنى "خانقاه" فى نيسابور وأقام بها لإفادة الناس من سنة سبع وثلاثين إلى سنة أربعين وثلاثمائة فالرجل عارف بأهل عصره ، فهم إمام فقيه جمد على نصوص إمامه ولم يتعرف على أدلته ويتبع الحق فيما علم وأما محدث عنى بجمع الألفاظ والطرق والروايات وهو لا يفقه إلا اليسير ، وأما امرؤ سلك سبيل الزهد فتبع العزلة وانزوى فضيع الفقه والحديث والمعرفة والناس فى العقائد ، أما نافع للمصنفات معطل لها أو مثبت لها إثباتاً فظيماً .

وابن حبان قد جمع أطراف هذه العلوم جميعاً ، وصنف فيها مصنفاً كثيرة ، ولأعلم أحداً فى عصره جمع من العلوم ما جمع ، أو صنف ما صنف وإنما وجدت أقرانه قد برزوا فى زاوية من زوايا العلم ، وهم لم يلحقوا فيها ابن حبان فضلاً عن سبقه غالباً فافرض أن ابن حبان أراد أن يمكن ثقة هذا الطالب بشيخه ، ويزيده تمسكاً به ، والتقى عليه ، التحصل له الفائدة ويزداد به رغبة ، فقال له : اكتب يا بنى حدثنى أبو حاتم بن حبان البستي إمام الأئمة .

فقد يكون ابن حبان قال هذا - إن صحَّت الرواية - كما قال ابن مسعود مؤكداً معرفته بكتاب الله (ما من آية فى كتاب الله ، إلا وأنا أعلم قسم نزلت ، وأين أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم بكتاب الله منى ، تبلغه المطايا لركبت إليه) ، ألم يقل هذا ابن مسعود رضى الله عنه ، وهناك جيب العلم ابن أبى طالب ؟ فهل قيل عنه : إنه معجب مغرور ؟ أم حمى الناس كلامه على توثيق ما يسطيه على الناس ، حتى لا يتشككوا فيه ؟

أن يطمع في حسن الثناء، ولا تكاد ترى تائها إلا وضيعا .
 فالعاقل إذا رأى من هو أكبر منه سنا تواضع له وقال : سبقني إلى
 الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر سنا تواضع له، وقال : سبقته الذنوب
 وإذا رأى من هو مثله عدّه أخا، فكيف يحسن تكبر المرء على أخيه؟
 وما رأيت أحدا تكبر على من دونه إلا ابتلاه الله بالذلة لمن فوقه) .

ويقول^(١) : (التواضع لله عز وجل على ضربين :

(١) أحدهما : تواضع العبد لربه، عندما يأتي من الطاعات، غير معجب
 بفعله، ولا راء له عنده حالة يوجب بها أسباب الولاية، إلا أن يكون
 المولى جلّ وعز هو الذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب
 الدافع لنفس العجب عن الطاعات .

(٢) والتواضع الآخر : هو ازدراء المرء نفسه، واستحقاقه إياها عند ذكره
 ما قارف من المآثم، حتى لا يرى أحدا من العالم إلا ويرى نفسه دونه
 في الطاعات، وفوقه في الجنايات) . . . هـ

كيف يتصور مثل هذه الخصال من صاحب روضة العقلاء ؟ بل صاحب
 عدة مصنفات في الآداب والسلوك ؟

وهو القائل : (والعاقل . . . لا يدعى ما يحسن من العلم، لأن فضائل
 الرجال ليست ما ادّعواها، ولكن مانسبها الناس إليهم)^(٢) أقائل هذا الكلام
 يقول ذاك الكلام ؟

(١) روضة العقلاء (ص ٦٠) .

(٢) ما سبق (ص ٢٣) .

البَابُ الثَّلَاثُ

مؤلفات الإمام ابن حبان

« حصرة ودراسة »

الباب الثالث

آثار ابن حبان العلمية

الفصل الأول : المصنفات المنسوبة إلى ابن حبان وليست له .

- (١) المبحث الأول : مانسب إليه من الكتب نتيجة تصحيف أو تحريف أو وهم في اسم المصنف .
- (٢) المبحث الثاني : ماتستبعد نسبه إلى ابن حبان .

الفصل الثاني : كتب ابن حبان في التربية والسلوك .

- (١) المبحث الأول : كتب التربية والاجتماع والسلوك التي ذكرها في كتابه روضة العقلاء .
- (٢) المبحث الثاني : كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى .
- (٣) المبحث الثالث : كتاب روضة العقلاء .

الفصل الثالث : كتب ابن حبان المفقودة في الفقه والحديث والتراجم .

- (١) المبحث الأول : كتب ابن حبان الفقهية .
- (٢) المبحث الثاني : كتب ابن حبان في علوم الحديث .
- (٣) المبحث الثالث : كتب ابن حبان في التراجم .
- (٤) المبحث الرابع : كتب ابن حبان في الحديث والعلل .

الفصل الرابع : كتاب الأنواع والتفاسيم .

- (١) المبحث الأول : اسم الكتاب وتحقيق نسبه إلى ابن حبان .
- (٢) المبحث الثاني : طريقة ابن حبان في تصنيف الكتاب .
- (٣) المبحث الثالث : شرط ابن حبان في رجال كتابه .
- (٤) المبحث الرابع : مصادر ابن حبان في صحيحه .

- (٥) المبحث الخامس : العلاقة بين صحيح ابن حبان وصحيح ابن خزيمة .
(٦) المبحث السادس : بعض الرجال المنتقدين على ابن حبان في صحيحه .
(٧) المبحث السابع : أوهام ابن حبان في صحيحه .

الفصل الخامس : كتب التراجم الموجودة لابن حبان .

- (١) المبحث الأول : كتاب مشاهير علماء الأمصار .
(٢) المبحث الثاني : كتاب الثقات .
(٣) المبحث الثالث : كتاب معرفة المجروحين .

الفصل الأول

المصنفات المنسوبة إلى ابن حبان وليست له

تمهيد :

تحدثت سابقاً عن تعدد معارف ابن حبان ، وتلون ثقافته ، وأنّه جمع بين علوم كثيرة ، شرعية وبلغوية وأدبية ، إلى جانب الطب والفلك .
وذكرت أنّ مدينة (بست) قد خرّجت عدداً من أعلام الفكر الإسلامى وقد كان من رجالها محمد بن حبان البستى ، بل لعلّه أشهر وأكبر شخصية علمية أخرجتها (بست) ، كما أنّ من رجالها أبو جعفر محمد بن حبان البستى . وكان فى المصنفين من اشتهر بابن حبان .

كى هذا وذاك بالاضافة إلى عدم تمكن كثير من مفرسى المخطوطات من تراجع الأعلام ، كان سبباً فى نسبة عدد من المؤلفات إلى ابن حبان خطأ .

ومن هذه المصنفات ما هو واضح بأنّه ليس لابن حبان لشهرة نسبته إلى مصنف آخر ، ومنها ما يحتاج إلى شيء من البحث والتنقيب ، ومنها ما يغلب على الظن خطأ نسبته .

المبحث الأول : مانسب إليه من كتب نتيجة تصحيف
في اسم المؤلف أو تحريف أو وهم

(١) وأول هذه المصنفات : مختصر في الحدود ، وهو كتاب يتناول تعريفات
في أصول الدين .

جاء في تاريخ الأدب العربي^(١) : وهناك شك في نسبة هذا الكتاب

إلى ابن حبان .

وقال في تاريخ التراث العربي^(٢) : ونسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان

موضع نظر .

ولم يتسن لي الوقوف على هذا الكتاب ، ولا أعرف أحدا من المتقدمين

ذكره له ، كما لم يشر إليه في شيء من كتبه الموجودة بين أيدينا .

(٢) والكتاب الثاني : كتاب عظمة الخالق^(٣) وعظمة مخلوقاته فوق سبع سموات

لابن حبان البستي المتوفى سنة ٣١٩ هـ .

كذا جاء على الورقة الأولى من مصورة هذه المخطوطة الموجودة في

مكتبة الجامعة الإسلامية .

إلا أن م فهرس المخطوطات قال : والصحيح أنه لابن عربي المتوفى

سنة (٦٣٨ هـ) .

ولاريب أن هذا الكتاب ليس لابن حبان ، كما أن ناسخ الكتاب أخطأ

في ذكر وفاة ابن حبان كما هو ملاحظ . والذي ألف في العظمة مـ

المتقدمين الإمام أبو الشيخ بن حبان^(٤) الأصفهاني ، وهو كتاب مشهور نقل

عنه الأئمة الذين جاءوا بعده .

ومصورة الجامعة الإسلامية هذه ، ليست كتاب العظمة لأبي الشيخ

(١) لبروكلمان (٣: ٢٠٥-٢٠٧) .

(٢) لسزكين (١: ٤٧١-٤٧٥) وأشار إلى أن مرجعه ملحق باتانفيسا

رقم ١٧٠ .

(٣) منه صورة في الجامعة الإسلامية رقم (٤٧٤) حديث .

(٤) منه نسخة مصورة في مكتبة الجامعة الإسلامية ، ونسخة في مكتبة

عارف حكمت . انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق (٨: ٧٥٨) ومجمع

الظاهرية (١: ٤٢) .

بل هي كتاب آخر، إذ جاء في آخرها مانصه : (ومن اختلج في باطنه شيء من الإنكار لمثل ماتقدم، فلينظر في كتاب العظمة لأبي الشيخ بن حيَّان الأصفهاني، فإنه روى فيه أشياء عجيبة) (١) . ا. هـ .

(٣) كتاب الطبقات الأصفهانية، أو كتاب طبقات محدثي أصبهان . وقد نسه إليه صاحب^(٢) كشف الظنون . والصواب أن هذا الكتاب لأبي الشيخ بن حيَّان الأصفهاني . ولهذا الكتاب نسخ عديدة ومنه نسخة مصورة في الجامعة الإسلامية .

(٤) البحث عن أدلة التكفير والتفسيق للبستي .^(٣) قد نسب إلى ابن حيَّان خطأ ، ومنه نسخة في المكتبة الغربية للجامع الكبير في صنعاء .

والصواب أن هذا الكتاب لأبي القاسم إسماعيل بن أحمد البستي . قال الدكتور عبد الكريم عثمان رحمه الله في ترجمة أبي القاسم البستي : (وقد اطلعنا من كتبه على كتاب " البحث عن أدلة التكفير والتفسيق " وفيه يظهر تعصبه الشديد على المخالفين ، ومغالاته في رمي الناس بالكفر) وقد وهم من نسه لابن حيَّان البستي .

(١) كتاب عظمة الخالق وعظمة مخلوقاته (ق ٨٣) .

(٢) كشف الظنون (ص ١٠٩٦) .

(٣) منه نسخة مصورة في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء رقم (٢٣٩) علم كلام

في (٤١) ورقة .

المبحث الثاني : ما استبعد نسبه إلى ابن حبان

جاء في كتاب هدية العارفين^(١) ، وتاريخ آداب العرب أن لابن حبان تفسيرا للقرآن الكريم ، وذكر صاحب التاريخ أن منه نسخة في المدينة المنورة .

وبعد الاطلاع على هذه المصورة^(٢) ، وجدتها تقع في إحدى وستين ومائة ورقة ، وهي تشتمل على تفسير الثلث الأخير من القرآن الكريم ، حيث تبدأ بتفسير سورة الزمر ، وتنتهي بتفسير سورة الناس . وعلى الورقة الأولى خطوط وأبيات شعرية ، وكلام طويل بالفارسية ، ومن الأبيات الشعرية الواضحة على ظهر الورقة الأولى :

لا تقطن رجائي منك ياسنـدى ياغافر الذنب للراجين بالكـرم
ارحم بفضلك لا تنظر إلى عملى إنَّ الكريم كثير العفو عن خدم
ولم يذكر اسم المؤلف ولا النَّاسخ ، في أول هذا المخطوط ، ولا فى آخره ، وإنما جاء على الطرف الأيسر من الورقة الأولى بخط ناعم واضح مانصه "تفسير جعفر البستى" .

وقد تبين لى بعد الاطلاع على هذا التفسير أنه تفسير بالرأى ، وهو بعيد كل البعد عن مناهج أهل الأثر فى التفسير . كما وجدت مصنفه ذا عناية بالعربية والقراءات ، وأسباب النزول ، وفضايا السور .

ولم أجد له إسنادا واحدا فى هذا القسم كله ، وإليك بعض النماذج من هذا التفسير .

(١) ذكر فى أول تفسير سورة الزمر أنها (سبعون آية كلها مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة قوله تعالى "قل يا عبـادى الذين أسرفوا على أنفسهم" إلى قوله " وأنتم لا تشعرون" .

(١) هدية العارفين للبغدادى (٢ : ٤٤ - ٤٥) ، تاريخ آداب العرب لبروكلمان (٣ : ٢٠٧) .
(٢) مكروفيلم عند الأخ الدكتور أحمد العمارى أعارنى إياها . فجزاه الله خيرا .

ثم بدأ يفسر السورة فقال :
 (قوله تعالى : "تنزيل الكتاب" يعني القرآن ، صار رفعا بالابتداء
 وخبره : من الله ، يعني : نزل الكتاب من عند الله . "العزیز" يعني
 المنيع بالنعمة . "الحكيم" في أمره .

معناه : نزل جبريل بهذا الكتاب من عند الله العزيز الحكيم .
 وقال بعضهم : صار رفعا لمضمر فيه ، ومعناه : هذا الكتاب تنزيل .
 ثم ذكر قوله تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ
 مَخْلَصًا لَهُ الدِّينَ) يعني : استقم على التوحيد وعلى عبادة الله تعالى .^(١)

(٢) وقال مفسرا صدر سورة المؤمن "غافر" :^(٢)
 روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الحواميم كلها مكيمة
 وهكذا روى عن محمد بن الحنفية .

وقال ابن مسعود : ^(٤) "إن حم" ديباج القرآن ، وروى عن النبي صلى
 الله عليه وسلم أنه قال : (من أراد أن يرتع في الجنة ، فليقرأ الحواميم)^(٥)
 وقال قتادة : "حم" اسم من أسماء القرآن الكريم .^(٦)
 (٣) وقال في صدر سورة الشورى :^(٧)

(روى عن ابن عباس : الحاء حكم الله ، والميم ملك الله ، والعين
 علو الله ، والسين سناء الله ، والقاف قدرة الله ، فكانه يقول : فحكى وملكى
 وعلوى وسنائى ، وقد رتى ، أن لا أعذب عبدا قال : لا إله إلا الله مخلصا)^(٨) .

-
- (١) التفسير (١ / أ) .
 (٢) ماسبق (١ : ١٠ ب) .
 (٣) في الدر المنثور (٥ : ٣٤٤) نحوه عن ابن عباس ، عند ابن مردويه في
 تفسيره . وانظر (٦ : ٢) أيضا .
 (٤) في الدر المنثور (٥ : ٣٤٤) . عزاه موقفا على ابن مسعود ، ومرفوعا
 من حديث أنس عن أبي الشيخ . وأبى نعيم والديلمى .
 (٥) في الدر المنثور (٥ : ٣٤٤) بآتم منه من حديث ابن مسعود مرفوعا
 وعزاه إلى ابن الضريس .
 (٦) في الدر المنثور (٥ : ٣٤٥) أن ذلك من قول أبي أمامة ، وأبى
 عباس في (٦ : ٢) .
 (٧) المخطوطة (ق / ٢٤ ب) .
 (٨) في كتاب المقياس في تفسير ابن عباس على هامش الدر المنثور (٥ : ٨٩)
 فمابعد (الحاء حله ، والميم ملكه والعين علمه ، والسين سناؤه . . .) .

ولا يخفى أنّ ابن حبان - رحمه الله تعالى - من أئمة المحدثين فكيف يكتب مثل هذا التفسير ؟

الحقيقة أنّي تشككت في صحة نسبة هذا التفسير إلى ابن حبان منذ اللحظة الأولى ، وما انتهيت من الاطلاع عليه حتى أيقنت أنّ هذا الكتاب لا يمكن أن يكون لابن حبان للأمر التالية :

(١) الأول : أنّ الكتاب لا يشير من قريب ولا بعيد إلى شيوخ ابن حبان أو تلامذته ، وبالتالي فلا ذكر لابن حبان لا باسمه ولا بكنيته ولا بنسبته لا على ظهر الكتاب ، ولا في داخله .

ولا بن حبان أسلوب خاص في الكتابة ، سواء أراد التعبير بعبارة أو أراد نقل الأحاديث والآثار ، وليس في هذا التفسير أي أثر لأسلوب ابن حبان في الكتابة .

(٢) والثاني : أنّ ابن حبان لا يجيز الرواية من الضعفاء إلا على سبيل

التعجب ، فكيف يسوق متون أحاديث بدون أسانيد ولا يعقب عليها ؟
 روى ابن حبان في روضة العقلاء^(١) حديثا في معنى العقل ثم قال (لست أحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم خبرا صحيحا في العقل ، لأنّ أبان ابن أبي عياش ، وسلمة بن وردان ، وعمير بن عمران وطى بن زيد . . . ليسوا ممن احتجّ بأخبارهم ، فأخرج ما عندهم من الأحاديث في العقل) . ١ . هـ
 ويقول أيضا^(٢) : (ولسنا نستجيز أن نحتج بخبر لا يصح من جهة النقل في شيء من كتبنا ، ولأنّ فيما صح من الأخبار - بحمد الله ومنه - ما يفرضني عن الاحتجاج في الدين بما لا يصح منها) . ١ . هـ

وقال في ترجمة مأمون السلمي^(٣) بعد أن سرد له عددا من الأحاديث المرسوخة :

(فمن حثّ بهذه الأحاديث ، أو ببعضها يجب ألا يذكر في جملة أهل العلم ، وإنما ذكرته لأنّ الأحداث بخراسان قد كتبوا عنه ، ليعرف كذبه

(١) روضة العقلاء لابن حبان (ص ١٦) .

(٢) في المجروحين (١ : ٢٥) .

(٣) ماسبق (٣ : ٤٦) .

في الحديث وتعتمده في الإفك على أهل العلم .
والجرح لازم لمن روى عنى هذه الأحاديث، أو ذكرها ذكراً ، ففى
غير كتاب المجروحين على الشرائط التي ذكرناها من القدرح فى واضعها) .
فالرجل لا يحتج بالأحاديث الضعيفة بله الموضوعه ، ولا يجوز لأحد أن
يروى شيئاً من الأحاديث التي أخرجها فى كتابه "المجروحين" إلا مقرونة
بتضعيف رواتها ، وكتاب التفسير هذا على " بالموضوعات على سبيل
الاحتجاج والتفسير، من غير بيان لذلك الضعف أو الوضع .

(٣) الثالث : أن صاحب هذا التفسير يكثر النقل عن الكلبى ، وأبو حاتم بن
حَبَّان يقول فى ترجمته الطويلة ^(١) : (لا يحل ذكره فى الكتب فكيف
الاحتجاج به ؟) .

(٤) الرابع : أن هذا التفسير قد كتب على ورقة غلافه " تفسير جعفر البستى "
ولعل الاشتباه وقع فى النسبة . على أننى لولا ذكر صاحب كشف
الظنون له ، لما أطلت فى تفنيد هذه النسبة وكلامى هذا لا ينفى أن يكون
ابن حَبَّان قد كتب فى التفسير . غير أننى لأعرف عن هذا التفسير شيئاً
ولعل من نافلة القول أن أجيب على التساؤل الآتى : إذا نفيت أن يكون
هذا التفسير لابن حَبَّان ، فلمن هو إذا ؟

الحقيقة أننى لم أجد لهذا البستى ذكراً فى كتب التراجم ، سوى
أن الذهبى ذكره عرضاً فى تذكرة الحفاظ وقال بأنه من تلامذة الحسن بن
سفيان الشيبانى وهذا يعنى أنه من أقران ابن حَبَّان ورفقائه إلا أنسى
أستبعد أن يكون هذا التفسير لتلميذ الحسن بن سفيان : جعفر بن
محمد البستى ، لأن الرجل محدث ، والمحدثون ينفرون من الروايات الباطلة
وإذا رووا شيئاً منها لاعتبارات عندهم فإنهم يذكرون أسانيدها ، كما
أن جعفر هذا لم يذكر فى طبقات المفسرين .

بيد أننى وجدت عالمين من المفسرين ، كل منهما يسمى جعفرًا .

(١) المجروحين (٣ : ٢٥٥) .

- (١) أولهما : جعفر^(١) بن محمد الرازي الزعفراني ، ويعرف بالتفسيري ، إلا أنه كان مسجداً مفسراً صادقاً ، متقدماً الوفاة ، توفي سنة تسع وسبعين ومائتين وهو من شيوخ ابن أبي حاتم .
ويبعد أن يكون مثل هذا التفسير له ، بل لعلّ التفسير بالرأى ، لم يكن قد صنف فيه تفاسير كاملة . والله أعلم .
- (٢) والثاني : جعفر بن محمد^(٢) بن المعتز الحافظ المستفري النسفي كان صدوقاً في نفسه لكنه يروي الموضوعات في الأبواب ولا يوهيها توفي بنسف سنة ثنتين وثلاثين وأربعمائة .
ولا أستبعد أن يكون هذا التفسير له ، خاصة وأنّ تحريف البسنتي إلى النسفي أو العكس ليس صعباً . والله أعلم .

(١) تاريخ بغداد (٧ : ١٨٤) فمابعد ها ، طبقات المفسرين للداودي (١ : ١٢٥) .
(٢) تذكرة الحفاظ (ص ١١٠٢) ، شذرات الذهب (٣ : ٢٤٩) ، طبقات المفسرين للداودي (١ : ١٢٥) .

الفصل الثانيكتب ابن حبان في التربية والسلوكتمهيد :

ذكرت عند الحديث عن أخلاق ابن حبان أنه ممن عني بالتربية والزهد ، وتهذيب النفس، وقد ألف ابن حبان كتبا كثيرة في هذا الشأن غير أنه لم يصلنا إلا أسماء عدد من هذه الكتب، وصورة وجيزة عن محتوى كل منها، وكان كتاب " روضة العقلاء " لابن حبان هو الذى احتفظ بها ولولا حفظ الله له، لما عرفنا عن هذه المؤلفات شيئا، ولما سمعنا بأن له مثل هذه المؤلفات إذ المصدر الوحيد لمعرفة هذه المصنفات هو كتاب الروضة هذا .

وقد نسب إلى ابن حبان كتاب آخر فى التربية والسلوك، وبعض المصطلحات الصوفية التى سادت فى أواخر القرن الثالث والقرن الرابع الهجريين هو كتاب " المحبة والشوق والأنس والرضى " .
وسأعرض لهذه الكتب جميعا مشيرا إلى محتواها بإيجاز .

المبحث الأول : كتب التربية والاجتماع والسلوك
التي ذكرها ابن حبان في الروضة
.....

ذكر ابن حبان في روضة العقلاء عدة مصنفات، نقل منها في كتاب
الروضة ما يدل على محتواها، ويعرف بها .

(١) الكتاب الأول : محجة المبتدئين .

يرى ابن حبان أن أول ما يجب على المرء التحقق به إذا أراد القرب
من الله تعالى هو تقوى الله وإصلاح سريرته .

ولما كانت التقوى غاية المؤمن التي يتحقق ببلوغها كمال عبوديته
لله تعالى، ولا يمكن أن يتم هذا دفعة واحدة، فقد قام ابن حبان بوضع
كتاب " محجة المبتدئين " يوضح لهم فيه الطريق الواضحة الدلول التي
يسيرونها فيها، ليتحققوا بالتقوى . ومادامت التقوى في القلب، فإن هذا
الكتاب بين أمرا في القلب وكيفية علاجها .

(العقل يفتش قلبه في ورود الأوقات، ويكبح نفسه عن جميع
المزجورات، ويأخذها بالقيام في أنواع المأمورات، ولزوم الانتباه، عند
ورود الفترة في الحالات، ولا يكون المرء يشاهد ما قلنا، قائما، حتى يوجد منه
صحة التثبت في الأفعال) .

(ولن تصفو القلوب من وجود الدرن فيها حتى تكون السهم في اللسه
هنا واحدا، فإذا كان كذلك، كفى السهم في السهموم إلا السهم الذي يسؤول
متعبه إلى رضا الباري جل وعز بلزوم التقوى في الخلوة والملا . . .) .

وقد ذكرت هذا الباب بكامله بالعلل والحكايات في كتاب " محجسة
المبتدئين ^(٣) .

(١) روضة العقلاء (ص ٣٣) .

(٢) ما سبق (ص ٢٩) .

(٣) ما سبق (ص ٣٢ - ٣٣) .

(٢) الكتاب الثاني : العالم والمتعلم (١) .

إنَّ التقوى مراتب، إلا أن مجموع التقوى، وجزئياتها لا يتحصّل إلا إذا كان سلوك المرء موافقا لمراد الله، وهدى رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ومن هنا كان على مرید تقوى الله تعالى أن يسعى لتحصيل العلم النَّافع، ليسير في مراده على هدى وليطبق ما تعلم من هذا العلم الموصول إلى رضوان الله تعالى، ولذلك قال أبو الدرداء: (لا تكون عالما، حتى تكون متعلما، ولا تكون بالعلم عالما، حتى تكون به عاملا) وعلى العالم حين يتحقق بالعلم أن يراقب الله تعالى في علمه، وألا يكون قصده أعراض الدنيا وسفاسفها. (٢)

قال ابن حبان : قد ذكرت أسباب المتعلمين وأخلاق العلماء بعينها في كتاب " العالم والمتعلم " بما أرجو أن يكون فيه غنية لمن أراد الوقوف على معرفتها، فأغنى ذلك عن تكرارها، لأننا شرطنا في هذا الكتاب الاختصار. (٣)

(٣) الكتاب الثالث : حفظ اللسان (٤) .

بعد أن يحصل المرء إصلاح السريرة والعلم، يصبح لديه وازع، وخوف من التضييع، فالواجب أن يلزم الصمت ما استطاع، وأن يقلل الكلام ويحفظ لسانه عن الكذب والثرثرة واللفظ (ولولم يكن في الصمت خصلّة تحمد إلا تزين العاقل، وتشين الجاهل به، لكان الواجب على المرء ألا يفارقه الصمت ما وجد إليه سبيلا، ومن أحب السلامة من الآثام، فليقل ما يقل منه (٥) .

(١) الروضة (ص ٤١) .

(٢) ماسبق (ص ٣٥) .

(٣) ماسبق (ص ٤١) .

(٤) ماسبق (ص ٥٠) .

(٥) ماسبق (ص ٤٦ - ٤٧) .

قال أبو حاتم : قد ذكرت ماشاكي هذه الحكايات في كتاب " حفظ
اللسان " فأغني عن تكرارها في هذا الكتاب .^(١)

(٤) الكتاب الرابع : مراعاة العشرة^(٢) ، أو مراعاة الإخوان .

ذكر ابن حبان هذا الكتاب في ثلاثة مواضع من كتابه " روضة العقلاء " فذكره في باب " استحباب المؤاخاة للمرء مع الخاص " ، وذكره في باب " الزجر عن قبول قول الوشاة^(٤) " وفي باب " استحباب قبول الاعتذار من المعتذر^(٥) " .
إلا أنه ذكره في الموضع الثاني باسم " مراعاة الإخوان " .

والذي دعاني إلى جعل العنوانين اسمين لكتاب واحد ، هو وحدة موضوعهما ، فاستحباب المؤاخاة إنما يكون مع خاصة الإخوان ، وعدم قبول الوشاية ، إنما يكون لدوام الأخوة ، وقبول الاعتذار أساس دوام المحبة والصدقة بين الناس .

وهذه المعاني ، هي التي طرقها ابن حبان ، وذكر أنه تكلم عليها بالتفصيل في كتابه " مراعاة الإخوة " أو مراعاة العشرة .

(٥) الكتاب الخامس : الوداع والفراق^(٦) .

تحت باب " اختلاف الناس واختلافهم^(٧) " ذكر ابن حبان هذا الكتاب وما دام الفراق يكون حسياً ويكون معنوياً ، فإن الفراق قد يكون مع بعد الدار كما يكون مع بعد الوصول إلى الصديق مع قرب داره واختلاف الناس في مقاصد الصحبة قد يكثر الوداع والفراق ، كما أن تقاربهم في القصد ، ولزوم أسباب الوداد قد يديم الألفة ، ويزيد المحبة ، بيد أن هؤلاء الأحياء لا يبد

(١) الروضة (ص ٥٠) .

(٢) ماسبق (ص ٩٢ ، ١٨٢ ، ١٨٧) .

(٣) ماسبق (ص ٩٥) .

(٤) ماسبق (ص ١٧٦) .

(٥) ماسبق (ص ١٨٢) .

(٦) ماسبق (ص ١١٤) .

(٧) ماسبق (ص ١٠٧) .

أن يفترقوا إما لشغل أو سفر، أو موت، وأيا ما كان سبب الفراق، فهو عذاب للنفس والم وحسرة . وحرى بابن حبان مرهف الحس أن يخص كتاب لذلك .

(٦) الكتاب السادس : الثقة بالله (١)

ذكر هذا الكتاب في باب "الحث على مجانبة الحرص للعاقب" (٢) ، إذ الحرص المفرط في الدنيا يكون مذموماً في الدارين ، أما العاقب فيكون همه إقامة فرائض الله .

والحرص نوعان ، حرص يذم وحرص يحمده . فالحرص المذموم هو الوليه في الدنيا ، وإيثارها على ما عند الله ، والحرص المحمود ، هو حرص المؤمن على ما يستعين به على أداء فرائض الله تعالى .

فالأول ناتج عن ضعف الثقة بالله تعالى ، والثاني امتثال لأمر الله تعالى باتخاذ الأسباب لعمارة الكون واستمرار الحياة إلى أجل معلوم عند الله تعالى . وقد بين ذلك كله ابن حبان - كما يقول - في كتاب "الثقة بالله" (٣) .

(٧) الكتاب السابع : التوكل (٤)

لما كان الواجب على العاقب (لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق ، إذ التوكل هو نظام الإيمان ، وقرين التوحيد ، وهو السبب المؤدى إلى نفسى الفقر، ووجود الراحة . . .) (٥) . فحرى بأهل العلم أن يولوه عنايتهم وأن يفردوه بمصنف يخصه ذاكرين فيه ما جاء عن الشارع ، وما حكى من قصص عن المتوكلين ، حتى ينشط المرء ليعلق كل آماله بالله ، ولا ينوطها بأحد سواه .

(١) الروضة (ص ١٣٢) .

(٢) ماسبق (ص ١٢٩) .

(٣) ماسبق (ص ١٢٩ - ١٣٣) .

(٤) ذكره في الروضة (ص ١٥٧) تحت باب الحث على لزوم التوكل (ص ١٥٣)

فما بعد .

(٥) ماسبق (ص ١٥٣) .

وقد قام الإمام ابن حبان بإفراد التوكلي بكتاب مستقل ذكر فيه العلل والأسباب والحكايات على التقصى (١) .

(٨) الكتاب الثامن : الفضل بين الغنى والفقير .

اختلف العلماء والزهاد هل الفقر أفضل عند الله أم الغنى ، هل الفقير الصابر خير أم الغنى الشاكر ؟
أما ابن حبان فإنه يرى أنَّ الغنى المجموع من موارد الحلال مع القيام بحقه وشكر الله تعالى عليه أفضل ، وإلا فالفقر والشظف مع الصبر أفضل ممن كلى مال جمع من غير مستحقه . لأنَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباح جمع المال الذى لا يكون بمحرم على جامعته ، ثم يكون الجامع له ، قائما بحقوق الله فيه . قال : ولقد ذكرت هذه المسألة بتمامها بالعلل والحكايات فى كتاب "الفضل بين الغنى والفقير" (٢) .

(٩) الكتاب التاسع : السَّخَاءُ والبذل .

إنَّ جمع المال ليس غاية ، وإنما هو وسيلة لبلوغ مآرب أخرى ، والمسلم العاقل لا يعتمد على مجاورة نعم الله عنده ، فلا يقضى منها حقوقه — لأنَّ من أساء مجاورة نعم الله ، أساءت مجاورته ، وتحولت عنه إلى غيره . وإنَّ شرَّ المال ما لا يخرج منه حقوقه . وإنَّ المال إنما وجد لإصلاح المعيشة وقضاء حاجات الناس (٣) .

ومثل هذا الأدب الاجتماعى فى التكافل خليق بأن يفرد بمصنّف وقد قام ابن حبان بذلك ، فكتب كتاب "السَّخَاءُ والبذل" (٤) .
وهذه المصنفات جميعها مفقودة لانعلم عن وجود شىء منها .

(١) الروضة (ص ١٥٣ - ١٥٧) .

(٢) ماسبق (ص ٢٢٤) .

(٣) انظر ذلك كله فى الروضة (ص ٢٢٦ - ٢٢٨) .

(٤) ماسبق (ص ٢٢٩) .

المبحث الأول : كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى

المطلب الأول : حول نسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان

لم أر لهذا الكتاب ذكرا في كتب ابن حبان الموجودة كلها ، رغم التقصى التام ، كما لم أجد من ذكر هذا الكتاب من بين كتب ابن حبان الموجودة ، أو المفقودة .

بيد أنني لا أستغرب أن يكون ابن حبان قد ألف في المصطلحات السائدة في عصره ، ليزنها بميزان الكتاب والسنة ، الذي ينتهجه في كل ما كتب .

وقد حصلت على صورة لمخطوطة هذا الكتاب ^(١) واطلعت عليها بواسطة العدسة المكبرة ، إلا أنه يتعذر على في هذه العجالة أن أقدم دراسة متكاملة عن هذا المخطوط لضيق الوقت ، وسعة الموضوع ، وصعوبة الوصول إلى رأى قاطع حول نسبة هذا الكتاب لابن حبان مالم أستطلع فهراس المكتبات ، وأراسل المكتبة الزيدانية في المغرب ، وأعرف مستندهم في هذه الدعوى ، إذ لم يذكر ابن حبان في أول هذه المخطوطة ولا درجها ولا آخرها ، مع أن كتب ابن حبان الأخرى يذكر ذكر " قال أبو حاتم" .

كما أن كتب ابن حبان التي تعنى بالأمور الشرعية عامرة بالأسانيد وهذا الكتاب لم أجد في صلبه إسنادا واحدا على كثرة الأحاديث والآثار والأخبار التي أوردتها فيه .

غير أنني من خلال اطلاعى على كتب ابن حبان جميعها ، لم أجد فارق بين أسلوب ابن حبان في هذا الكتاب وسائر كتبه الأخرى وإن وجدت فارقا ملحوظا في مقدمة هذا الكتاب ، إذ أن مقدمات ابن حبان في كتبه جميعا تتشابه ، بما فيها روضة العقلاء ، أما هذا الكتاب

(١) مخطوطات مكتبة جامعة الرياض المركزية ف ٣ / ٣٨١ . وهي صورة عن نسخة الخزانة الملكية بالرباط "الزيدانية" ٣٣ / ٤٠٣ . وتقع فى ثلاثين ورقة .

فمقدمته مختلفة توحى بأن كاتبه غير كاتب تلك . كما أن نفس "الزهد" فى هذا الكتاب، له مثيله فى كتب ابن حبان الأخرى، إذ الرجل داعية إلى الزهد فى سائر كتبه، ولاغرو أن يقوى نفس الزهد فى هذا الكتاب المتخصص لولا وجود بعض الألفاظ الصوفية التى لم يستعملها ابن حبان فى روضة العقلاء، رغم حديثه عن الزهد والعزلة والقناعة والتوكل .

ولم أجد لمصنف هذا الكتاب مخالفة شرعية ظاهرة كما اعتدنا أن نلمسه فى كتب المتصوفة فى ذلك العصر وما تلاه، فلاشطح، ولاشطط ولا مبالغات، ولا إشارات، وإنما وجدت دراسة عميقة لمعانى المحببة وأسبابها وأركانها ومظاهرها - كما سيأتى - مع بعض الملاحظات الأخرى .

ومما يرجح أن هذا الكتاب لابن حبان - رحمه الله - أنه جاء على هامش الورقة الأولى منه مانصه (حدثنا محمد بن عمر بن سلم، قال: أخبرنا إبراهيم بن أيوب، حدثني السري، قال: سمعت بشر بن الحارث يقول عز المؤمن استغناؤه عن الناس، وشرفه قيامه بالليل مع الحليم) (١) .

ومحمد بن عمر بن سلم من شيوخ ابن حبان، وقد روى ابن حبان أمثال هذه الحكايات فى روضة العقلاء والثقات وغيرهما من كتبه .

وقد وجدت فى فهرسة ابن خبير أن لابن الأعرابي - شيخ ابن حبان (٢) كتابا فى المحبة . وقد وصفه الذهبي بأنه لا يقبل شيئا من اصطلاحات القوم إلا بحجة .

وأيا ما كان فإن أياى قد عملت فى هذا المخطوط اختصارا وغيره مما يصعب معه تحديد هوية الكتاب الآن .

والذى يشير إلى هذا أيضا ما جاء فى آخر هذه المخطوطة: (كمل كتاب المحبة والشوق والأنس والرضى والحمد لله وحده، وصلى الله على

(١) كتاب المحبة والشوق (ق ١/أ) على الهامش الأيمن، كتب بالعرض .

(٢) فهرسة ابن خبير (ص ٢٨٤) .

(٣) هو أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن الأعرابي ولد سنة نيف وأربعين ومائتين وتوفى سنة أربعين وثلاثمائة وله أربع وتسعون سنة وأشهر . النبلاء (١٥: ٤٠٩)، الحلية (١٠: ٣٧٥) .

من لاني بعده . ويتلوه - إن شاء الله - كتاب النية والإخلاص والصدق) .
 مع الإشارة إلى أن كتاب المحبة هذا وجد ضمن مجموع بقلم مغربي
 قديم من القرن الثامن الهجري ، كما أشار إلى ذلك كاتب المعلومات عن
 المخطوط .

وقد أطلعت على هذا المجموع بكامله ، فلم أر أي فارق في الخط بين
 هذا الكتاب ، وسائر ما يضمه المجموع من كتب مما يدل على أن هذه الكتب
 جميعا قد انتقاها كاتب ، أو عالم واحد ونسخها أو وكل نسخها إلى قلم
 واحد فلا أدري أتصرف الناسخ المجهول بشيء مما في الكتاب ، أم أن مختار
 هذا المجموع هو المتصرف ، وإلى أن يثبت أن هذا الكتاب لابن حبان
 أو ينتفى ، فإنني ألتزم الصمت الآن .

المطلب الثاني : ذكر مضامين الكتاب

ينقسم هذا الكتاب إلى أربعة أقسام رئيسية، لم يطلق عليها المؤلف أية تسمية، ويمكننا أن نسمي كلا منها فصلاً، لأنَّ ما بقى يتشابه في التقسيم .
وهذه الفصول الأربعة هي : فصل في المحبة، وفصل في الشُّوق

وفصل في الأُنس، وفصل في الرضى . ثم الخاتمة .

أما الفصل الأول : المحبة . ففيه مباحث :

- (١) الأول : بيان شواهد الشُّوع في المحبة .
 - (٢) الثاني : بيان حقيقة المحبة وأسبابها .
 - (٣) بيان أنَّه لا يستحق المحبة على الحقيقة إلا الله .
 - (٤) بيان أنَّ أعظم اللذات لذة النَّظر إلى وجه الله تعالى .
 - (٥) بيان سبب زيادة لذة النَّظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا .
 - (٦) بيان الأسباب المقوية لحب الله تعالى .
 - (٧) بيان السَّبب في تفاوت النَّاس في الحب .
 - (٨) بيان السَّبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى .
- وقد جاء هذا الفصل في سبع وعشرين صفحة ونصف الصفحة .^(١)
الفصل الثاني : الشُّوق . وفيه المباحث التالية :

- (١) بيان معنى الشُّوق .
 - (٢) بيان محبة الله تعالى للعبد .
 - (٣) القبول في علامات محبة العبد لله تعالى .
- الفصل الثالث : الأُنس . وفيه مبحثان :
- (١) بيان معنى الأُنس بالله تعالى .
 - (٢) بيان معنى الانبساط في الأُنس .

(١) جاء ذلك في الورقات من ١ - ١٤ ، وكل ورقة تتضمن صفتين . واقرأ سرد هذه المباحث كلها في (ق ١ / أ) .

الفصل الرابع : الرضى . وفيه مباحث :

- (١) بيان معنى الرضى .
 - (٢) بيان فضيلته .
 - (٣) بيان حقيقته .
 - (٤) بيان أن الدعاء غير مناقض للرضى ، ولا يخرج صاحبه من مقام الرضى .
 - (٥) بيان أن الفرار من البلاد التى هى مظان المعاصى لا يقدر فى الرضى .
- وختم الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة وينتفع بها .
- وقد استغرق الفصل الثانى أربع عشرة صفحة ونصف الصفحة تبيداً بالورقة الرابعة عشر وتنتهى فى نهاية الورقة الحادية والعشرين .
- أما الفصل الثالث وهو الأوس فقد استغرق أربع صفحات ابتداءً من أول الورقة الثانية والعشرين وانتهى فى نهاية الورقة الثالثة والعشرين .
- وأما الفصل الرابع فقد كان نصيبه اثنتا عشرة صفحة ونصف الصفحة ابتداءً من الورقة الرابعة والعشرين ، وانتهى فى الثلث الأول من الورقة الثلاثين .

وكانت الورقة الأخيرة الثلاثون خاتمة البحث .

ويحسن أن أختتم هذا الفصل بذكر مقدمة هذا الكتاب ليقارن القارئ

بينها وبين مقدمات كتب ابن حبان الأخرى .

قال المصنف :

(الحمد لله الذى نزه قلب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدنيا
وصرفهم ، وصفى أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على
بساط عزته ، ثم تجلّى لها بأسمائه وصفاته ، حتى أشرقت بأنوار معرفته ثم
كشف لهم عن سبحات وجهه ، حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنسه
جلاله ، حتى تاهت فى بيده كبريائه وعظمته ، فكما اهتزت لها . . . الحلال
غشيها من الدهشة ما غير وجه العقل وبصيرته ، وكما همت بالانصراف ، نوديت
من سرادات الجمال : إلى أيها الآيس عن نيل الحق بجهله وعجلته ، فبقيت
بين الرد والصد والوصول غارقة فى بحر معرفته ومحرقة بنار محبته .

والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء بكامل نبوته ، وعلى آله
وصحبه ، سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق ، وأزمته .

أما بعد : فإنَّ المحبة لله تعالى ، هي الغاية القصوى من المقامات
والنزوة العليا من الدرجات فما بعد إدراك المحبة لله تعالى مقام
إلا وهو ثمرة من ثمارها ، وتابع من توابعها ، كالشوق والأنس والرضى
وأخواتها ، وما قبل المحبة مقام ، إلا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة
والصبر والزهد وسائر المقامات إن عز وجودها ، فلم تخل القلوب عن الإيمان
بإمكانها .

أما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها ، حتى إنَّ بعض العلماء
أنكر إمكانها وقال : لا معنى لها إلا المواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما
حقيقة المحبة فمحال إلا مع الجنس والمثال ، وكما أنكروا المحبة أنكروا
الأنس والشوق ولذة المناجاة ، وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ولا بد من كشف
الغطاء عن هذا الأمر ^(١) .

(١) (ق ١ / أ) .

المبحث الثالث : كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء

ولعلَّ هذا الكتاب من أهم كتب ابن حبان التي يتوجه التعريف بها ودراسة صحَّة نسبتها إليه ، ذلك لأنَّ الكتب التسعة سالفة الذكر انما تستمد وثاقتها منه ، حيث كان هذا الكتاب هو المصدر الوحيد الذي ذكرها .

المطلب الأول : إثبات نسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان

جاء على صدر الورقة الأولى مانصه : أخبرنا الشَّيخ الإمام الحافظ أبو محمد عبد القادر بن عبد الله الرهاوي أدام الله تأييده ، وأجزل من كسل خير مزیده ، فى شهر سنة اثنتين وستمئة .

قال : حدثنا الأمير القاضى الإمام عمدة الدين معين الإسلام ناصر السنة أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحسين بن محمد بن سعيد بن محمد بن سعيد بن محمد البوسنجى من لفظه ببوسنج فى شهر سنة اثنتين وستين وخمسمائة .

قال : أخبرنا الشَّيخ الإمام العالم الزاهد عفيف الدين أبو جعفر حنبل بن على بن الحسين البخارى الصوفى السننى رحمه الله .

قال : أخبرنا الشَّيخ أبو محمد أحمد بن محمد بن أحمد التونى سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

قال : أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله الشروطى .

قال : أخبرنا أبو حاتم محمد بن حبان البستى رضى الله عنه قال (١) .

وقائل هذا الكلام هو أحمد بن محمد بن سالم بن جنان المنبجى الذى فرغ من نسخ هذا الكتاب فى مدينة الرها يوم الثلاثاء حادى عشر محررم سنة ثمان وعشرين وستمئة (٢) .

(١) روضة العقلاء (ص ١٣) .

(٢) ما سبق (ص ٢٨٩) .

فالكتاب إذا متصل الإسناد من منتصف القرن السادس الهجري إلى مؤلفه ، وجاء ياقوت المتوفى عام ستة وعشرين وستمئة فنقل عن الإمام تاج الإسلام أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني التميمي الحافظ أنه قال وحصل عندي من كتبه بالإسناد المتصل سماعا . . . وكتاب روضة العقلاء قرأت على حنبل السجزي عن أبي محمد التوني عن أبي عبد الله الشروطسي عنه ، فهذا يوحى بأن الكتاب كان معروفا حتى ذلك العصر .^(١)

وأما في عصرنا فقد وجد للكتاب عدة نسخ مخطوطة يرجع تاريخ نسخها إلى ذلك العصر . كما أن إحدى طبعات هذا الكتاب والمحققة من قبل الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد وزميليه ، قد طبعت على مخطوطة منسوخة سنة ثمان وعشرين وستمئة .

ومن ذكر هذا الكتاب وأشار إلى أماكن وجود مخطوطاته ، صاحب كتاب (تاريخ الأدب العربي)^(٢) وصاحب كتاب (تاريخ التراث العربي)^(٣) . إضافة إلى أنني وقفت على ثلاث مصورات لهذا الكتاب في جامعة الرياض^(٤) .

هذا عن الإثبات الخارجي لنسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان .

أما عن الإثبات الداخلي ، فأقول :

- (أ) إن خطبة كتاب (روضة العقلاء) تشبه إلى حد بعيد ، خطب كتبه الأخرى كالأنواع والتقسيم ، والثقات ، والمجروحين ، والمشاهير .
- (ب) إن الأحاديث التي احتج بها في روضة العقلاء موجودة في صحيحه بالإسناد ذاته واللفظ هو . وإليك بعض الأمثلة :

- (١) معجم البلدان لياقوت (١ : ٤١٨) .
- (٢) طي أن مما ينبغي التذكير به أنني جهدت في الحصول على تراجم لبعض رجال السند فلم أفلح إلا أنني اعتمدت على قول السمعاني هذا .
- (٣) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (٣ : ٢٠٥ - ٢٠٧) .
- (٤) تاريخ التراث العربي لسزكين (١ : ٤٧٤) .
- (٥) مكتبة جامعة الرياض المركزية قسم المخطوطات : ف ٦ / ٢ السعودية ف ١٢ / ١٠ السعودية ، ف ١٣ / ١٠ السعودية .

(١) قال في الروضة :

أخبرنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار ببغداد ، حدثنا يحيى بن معين ، حدثنا عبدة بن سليمان عن هشام بن عروة عن موسى بن عقبة ، عن عبد الله بن عمرو الأودي عن ابن مسعود ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (يحرم على النار، كل هينٍ لينٍ قريب سهل) . وهو بإسناده ولفظه في صحيحه أيضاً^(٢) .

(٢) قال في الروضة :

أنبأنا محمد بن الحسن بن قتيبة ، حدثنا يزيد بن خالد بن موهب الرملي قال : حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث عن دراج - أبي السَّمْح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا حليم إلا ذو عشرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة) . والحديث نفسه وإسناده إياه في صحيحه^(٤) . اللهم إلا أنه أوضح بعض مبهمات الإسناد في الصحيح .

(٣) وقال في الروضة أيضاً :

حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل القاضي ، وعبد الله بن محمد بن سليمان السَّعْدِي قالا : حدثنا عبد الوارث بن عبيد الله العتكي حدثنا مسلم بن خالد الزنجي ، عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة ، قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :

(كرم الرجل دينه ، ومروته عقله ، وحسبه خلقه) . وهو في صحيحه بلفظه وسنده .

(ج) إنَّ الشُّيوخ الذين روى عنهم في الروضة ، قد روى عن كثيرين منهم في كتبه الأخرى كما ستراه في معجم شيوخه .

(١) (٢) انظر موارد الظمان رقم (١٠٩٦) ، والروضة (ص ٦٣) .
 (٣) (٤) انظر روضة العقلاء (ص ٢٠٨) ، وقارن بموارد الظمان رقم (٢٠٧٨) .
 (٥) روضة العقلاء (ص ٢٢٩) ، وقارن بالموارد رقم (١٩٢٨) .

(د) قال في الروضة مانصه : (لست أحفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم خيرا صحيحا في العقل ، لأنَّ أبان بن أبي عياش وسلمة بن وردان وهميرة بن عمران وطلح بن زيد والحسن بن دينار وعباد بن كثير وميسرة بن عبد ربه وداود بن المحبر ومنصور بن صفر وذويهمم ليسوا ممن احتجوا بأخبارهم فأخرج ما عندهم من الأحاديث في العقل ^(١) . وهؤلاء المجروحون جميعا ذكرهم في كتابه (المجروحين) وذكر هناك أنَّ لبعضهم أحاديث في العقل .

(هـ) في سائر كتب ابن حبان تتكرر جملة قال أبو حاتم رضى الله عنه قبل بدايته الكلام ، وهذا كثير مطرد في كتابه (روضة العقلاء) .

(و) اعتاد ابن حبان أن يلتزم ذكر الروايات بالأسانيد إلى قائلها سواء كانت أحاديث متصلة أو موقوفة أو مقاطيع أو أخبارا ، وهذا أيضا مطرد في كتاب (روضة العقلاء) .

(ز) اعتاد أبو حاتم بن حبان أن يعقب على بعض الأحاديث المعلَّمة ليدفع عطفها إذا احتجَّ بها ، وقد فعل ذلك بأسلوبه المعتاد في عدة مواضع من الروضة كما سيأتي عند الحديث عن الجرح والتعديل إن شاء الله .

(ح) أشار ابن حبان إلى كتابه (فصول السنن) في الروضة ^(٢) كما أشار إليه في الصحيح .

مما سبق كنه يتضح أنَّ هذا الكتاب صحيح النسبة إلى الإمام ابن حبان ، وأنَّ نفس ابن حبان وطريقته في المناقشة والتعليق واضحة كسل الوضوح في هذا الكتاب .

(١) روضة العقلاء (ص ١٦) .

(٢) روضة العقلاء (ص ٢٠٨) ، وقارن بالصحيح (١ : ٩٧) ، (٣ : ٤٧٥) .

المطلب الثالث : بيان مضامين الكتاب ومحتواه

لقد انتشرت الزندقة والإلحاد في القرن الرابع الهجري أيما انتشار كما كانت المعتزلة والروافض تنفخ بكبير العقل وتعطيه من الأهمية وتولييه من الاختصاص ما يرفعه كثيرا فوق القدر الذي خصَّ الله به العقل البشري وقد وجد أيضا أناس من الفلاسفة حكموا العقل في كلِّ شيء . فما قبله العقل أثبتوه على طرائقهم الخاصة ومالم تصل عقولهم إليه رفضوه .

أضف إلى هذا وذاك أنَّ جمهرة من المتصوفة وغيرهم أزروا بالعقل شأنه وحدوا من قدراته حتى غدا العقل الإنساني عندهم ليس ذا إبداع وتجديد وجعلوا الإنسان مجرد آلة تتحرك وفق ما هو مرسوم دون أن يكون لها أدنى إرادة أو معرفة بما تسير إليه .

ولا يخفى ما لهذا الإفراط وذاك التفريط من أثر على الحياة الإنسانية الخاصة والعامة ، فكان ابن حبان ساءه ذلك التفكير وهالته تلك الآثار السيئة التي نجمت عن وضع العقل في غير موضعه ، فكتب هذا الكتاب ليدل على العقل السليم وآثاره في الحياة الإنسانية وما ينبغي للعاقل فعله وما يتعين عليه تركه . وجعل محور هذا الكتاب هو العقل وجعل للعقل خمسين شعبة ذكر كل شعبة بباب بناء على حديث صحيح عنده ثم تكلم على كل حديث بما يستفاد منه في السلوك الإنساني والتربية الاجتماعية والتعايش الإسلامي . ويمكن أن نقسم هذه الشعب الخمسين إلى باين رئيسيين (الباب الأول) : دور العقل في التربية الفردية ، وتحتة فصول عدة .

الفصل الأول : دور العقل في العلم وضرورة طلب العلم للعقلاء .

الفصل الثاني : دور العقل في آداب العالم العاقل الروحية والنفسية

وتحتة مباحث عدة :

تقوى الله ، التوكل على الله ، الصبر ، اعتزال الناس فترة الترويح عن

النفس بما هو مباح .

الفصل الثالث : دور العقل في الأخلاق الفردية ، وفيه مباحث :

الصمت وحفظ اللسان ، الرفق في الأمور ، الصدق ، الحياء ، التواضع .

بدلوهم فيه .

وبما أنّ للعقيدة دوراً أساسياً في التربية والسلوك ، فلا بأس أن أذكر بأنّ ابن حبان أول من كتب كتاباً في شعب الإيمان ، فكتب كتاب " وصف الإيمان وشعبه " جمع فيه طرق الحديث المعروف حول شعب الإيمان ، ثم استوفى الحديث على كل شعبة بالتفصيل^(١) ، ولا أعلم أحداً سبقه إلى هذا .

(١) ترتيب الصحيح (٢١٩:١) .

الفصل الثالث

مصنّفات ابن حبان المفقودة في الفقه والحديث والتراجم

ولعلّ أحدا يتساءل عن سبب إفراد الكتب السابقة بفصل مستقل وحشد كتب ابن حبان الكثيرة الأخرى بفصل ، والجامع بينها جميعاً هو الضياع .

وأجيب على ذلك فأقول : إنّ كتب ابن حبان سالفه الذكر ، بسبب أيدينا ما يعرّف بها بعض الشيء ، كما أنّ منها ما هو موجود بتمامه ، ومن خطتي أن أعرف بكلّ كتاب من كتب ابن حبان الموجودة بما يوضح صورته أمام قارئ هذا البحث .



المبحث الأول : كتب ابن حبان الفقهية

يبدو أنّ عناية ابن حبان بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم شغلته عن العلوم الأخرى التي يحسنها ، وأن ابن حبان يرى أنّ مافى السنة الصحيحة هو كلّ الفقه .

والحقيقة أنّ مبنى كتابه " التقاسيم والأنواع " على الأحكام الفقهية ومن يقرؤه - كما وضعه مصنفه - تصيح لديه ملكة فقهية عظيمة ، وسيأتى الحديث عليه في مبحث مستقلّ إن شاء الله تعالى .
ومع هذا فإن ابن حبان - رحمه الله - قد صنّف كتباً عديدة بديعة في الفقه . تعرف بكل واحد منها على قدر الطاقة .

المطلب الأول : كتاب صفة الصلاة

قال رحمه الله تعالى :
(في أربع ركعات يصلّيها الإنسان ، ستمائة سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخرجناها بفصولها في كتاب " صفة الصلاة " ، فأغنى ذلك عن نظرها في هذا الكتاب)^(١) .
ولعلّ في هذا بيانا واضحا على إحاطة ابن حبان بالمباحث الفقهية ، مع أدلتها الشرعية .

(١) ترتيب صحيح ابن حبان (٣ : ٢٦٠) .

المطلب الثاني : كتاب "فصول السنن"

الذى بيدولى أن هذا الكتاب بمثابة (تخريج الفروع على الأصول) أو قل هو (تفسير النصوص النبوية) واستخلاص الأحكام الشرعية منها .
وقد ذكر ابن حبان هذا الكتاب في عدة مواضع من صحيحه ، كما ذكره في روضة العقلاء أيضا .

ومما جاء عن مضمين هذا الكتاب قوله :

(فأما المجلد من الأخبار، فهو الخبر الذى يرويه صحابى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظة مستقلة بنصها استعمالها على عموم الخطاب والمفسر هو رواية صحابى آخر، ذلك الخبر بعينه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بزيادة بيان، ليس فى خبر ذلك الصحابى، ذلك البيان، حتى لا يتهدأ استعمال تلك اللفظة المستقلة بنصها، إلا باستعمال هذه الزيادة التى هى البيان لتلك اللفظة التى ليست فى خبر ذلك الصحابى وقد ذكرنا كفى خبر مجمل، ومفسر له فى السنن، فى كتاب "فصول السنن"، فأغنى ذلك عن الاستقصاء فى هذا النوع من هذا الكتاب . . .)^(٢)

وقال فى روضة العقلاء تعقيبا على حديث صدر به الباب :

(هذا الخبر من الضرب الذى ذكرت فى كتاب "فصول السنن" بشأن العرب تضيف الاسم إلى الشئ ، للقرب من التمام، وتنفى الاسم عن الشئ^(٣) للنقص من الكمال) .

وفى موضع آخر من صحيحه قال :^(٤) (هذا الخبر من الضرب الذى ذكرت فى كتاب فصول السنن ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد ينهى عن شئ فى فعل معلوم ، ويكون مرتكب ذلك الشئ المنهى عنه مأثوما بفعله ذلك إذا كان عالما بنهى المصطفى صلى الله عليه وسلم عنه ، والفعل

(١) (٢) ترتيب ابن حبان (١ : ١٩٧) ، (٣ : ٤٧٥) ، (٧ : ١٤٦ ب) .

(٣) روضة العقلاء (ص ٢٠٨) .

(٤) الترتيب (٣ : ٤٧٤ - ٤٧٥) .

جائز على ما فعله كنهيه صلى الله عليه وسلم عن أن يخطب الرجل على
خطبة أخيه ، أو يستام على سوم أخيه ، فإن خطب امرؤ على خطبة أخيه
بعد علمه بالنهي ، كان مأثوماً والنكاح صحيح) . ا . هـ
فمضمون هذا الكتاب - كما هو واضح - هو استخراج الأحكام
الشرعية من النصوص النبوية ، وهذا هو الفقه عينه .

المطلب الثالث : كتاب الهداية إلى علم السنن

قال الخطيب البغدادي نقلا عن مسعود بن ناصر السجزي : (ومن آخر ما صنف كتاب " الهداية إلى علم السنن " . قصد فيه إظهار الصناعتين اللتين هما صناعة الحديث والفقه .

يذكر حديثا ، ويترجم له ، ثم يذكر من ينفرد بذلك الحديث ، ومن مفاريد أي بلد هو ، ثم يذكر تاريخ كل اسم في إسناده ، من الصحابة إلى شيخه ، بما يعرف من نسبه ومولده ، وموته ، وكنيته ، وقبيلته ، وتيقظه .

ثم يذكر ما في ذلك الحديث من الفقه والحكمة . فإن عارضه خبير آخر ، ذكره ، وجمع بينهما وإن تضاد لفظه في خبر آخر ، تلطف للجمع بينهما حتى يعلم ما في كل خبر من صناعة الفقه والحديث . وهذا من أعز كتبها (١) وأنبليها) .

وقد ذكر ياقوت عن السمعاني قوله : (وحصل عندي من تصانيفه غير مسندة عدة كتب مثل : كتاب الهداية إلى علم السنن من أوله قسدر مجلدين) (٢) .

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢ : ٣٦٣) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٨) .

المطلب الرابع : كتاب الإجماع والاختلاف

وعنوانه يوحي بأن الكتاب جمعه ليبين فيه ما اجتمعت عليه الأمة وما اختلفت فيه ، بيد أن ابن حبان - كعادته - لا يذكر الفقه بغير دليل فكأنه في هذا الكتاب عرض المسائل المتفق عليها عرضا سريعا ، ثم راح يناقش مسائل الخلاف ، وأتته قد احتج لهذه ، وتلك ، إن كان هذا ، أو ذاك فالكتاب - فيما يبدو - ضخم جدا ، لأن المسائل المختلف فيها ليست بالقليلة خاصة إذا راح العالم يستعرض أدلة الأطراف المختلفة فيها .

قال في الثقات بعد أن روى حديثا من طريق رباح بن عبد الرحمن ابن أبي سفيان بن حويطب عن جدته بنت سعيد بن زيد عن أبيها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)^(١) . في القلب من هذا الحديث ، لأنه اختلف على أبيه فقال فيه .

قال حماد بن سلمة عن صدقة عن أبي ثفال عن أبي بكر بن حويطب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال . . . الحديث . وابنة سعيد بن زيد ليس يدري ما اسمها .

قد ذكرت طريق هذا الخبر باختلافه في كتاب "الإجماع والاختلاف"^(٢) . ولا يرد على اختياري أن الكتاب في الفقه ما يمكن أن يقال : مادام ابن حبان سيذكر طريق الخبر وطله فيمكن أن يكون هذا الكتاب في اختلاف الحديث ، لأن مثل هذه التسمية لم تعهد في علوم الحديث ، ولأنه لا مانع في كتب الفقه المدللة من ذكر الدليل وطله كما هو معروف .

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة باب ما جاء في التسمية عند الوضوء رقم (٢٥) وإسناده ضعيف وقال الترمذي : قال أحمد بن حنبل : لا أعلم

في هذا الباب حديثا له إسناد جيد (١ : ٣٨) .

(٢) الثقات لابن حبان (٨ : ٢٨ / ١) .

المبحث الثاني : كتب ابن حبان في علوم الحديث

إنَّ كلمة علوم الحديث، تطلق ويراد منها القواعد النظرية الكلية لعلم رواية الحديث ودرأيته، وتطلق ويراد منها تفصيل كلِّ علم من هذه العلوم، وإظهاره بثوب عملي .

فالكنى والأسماء يبحث في كتب مصطلح الحديث بحثاً نظرياً مع بعض الشواهد للإيضاح، كما يبحث تفصيلاً في كتب الأسماء والكنى، وتجمع هذه الأسماء والكنى، وتجرى عليها دراسات علم الرجال . وهذا المبحث خصصته لما رأيت أنه أقرب إلى القواعد الكلية منسبته

إلى تطبيق الفروع .

ثم أعقد مبحثاً آخر أسرد فيه العلوم التطبيقية التي فصلها ابن حبان، وصنّف فيها .

وقد وجدت له في هذا المبحث النظري كتب : شرائط الأخصار الفصل بين النقطة، آداب الرحلة، وصف المعدل والمعدل، الفصل بين حدثنا وأخبرنا .

المطلب الأول : كتاب شرائط الأخبار

كتب ابن حبان هذا الكتاب ليبين فيه منهجه في قبول الأحاديث وردّها ، والشرائط التي ينبغي توافرها في الراوي والعمري كي يصبح صالحا للاحتجاج .

قال في ترجمة فضيل بن مرزوق^(١) : (والذى عندي أن كلّ مـاروى فضيل - عن عطية من المناكير يلزق ذلك كلّ بعطية ، ويبرأ فضيل منها وفيما وافق الثقات من الروايات عن الأثبات يكون محتجا به ، وفيما انفرد عن الثقات ما لم يتابع عليه يتنكب عنها في الاحتجاج بها على حسب ما ذكرنا من هذا الجنس في كتاب " شرائط الأخبار " . .

وقال في ترجمة يزيد بن ربيعة الرحبي الصنعاني^(٢) :

(الجرح والعدالة ضدّان ، فمتى كان الرجل مجروحا لا يخرج عن حدّ الجرح إلى العدالة إلاّ ظهور أمارات العدالة عليه ، فإذا كان أكثر أحواله أمارات العدالة ، صار من العدل ، كذلك إذا كان الرجل معروفا بالعدالة ، يكون جائز الشّهادة ، فهو كذلك حتى تظهر منه أمارات الجرح فإذا صار أكثر أحواله أسباب الجرح ، خرج عن حدّ العدالة إلى الجرح وصار في عداد من لا تجوز شهادته ، وإن كان صدوقا فيما يقوّل وتبطل أخباره الصّحاح التي لم يخلط فيها .

وكذلك الشّاهد إذا لم يكن بعدل ، فشهد عند الحاكم بشهادة وهو صادق فيها شاهد آخر عدل ، يعلم الحاكم صدقه في قبول تلك الشّهادة بعينها ، وإن كان مجروحا في غيرها ، لا يجوز بإجماع المسلمين قبول شهادته وإن كان صادقا فيها ، حتى يكون عدلا .

وهذه مسألة طويلة ، قد ذكرناها بالشّواهد في كتاب " شرائط

الأخبار " .

(١) المجروحين (٢ : ٢٠٩) .

(٢) المجروحين (٣ : ١٠٤) .

ولعل في هذين المثالين ما يبين أنّ هذا الكتاب يبحث في أحوال
 الرواة ومروياتهم والشرائط التي ينبغي توافرها في كلٍّ منهما ^(١) .
 ولا يعترض علىّ بما ذكرته سابقا من أنّ هذا الكتاب بمثابة قواعد أصولية
 إذ هناك قواعد مشتركة بين أصول الفقه وأصول الحديث بالنسبة للسنة
 المطهّرة إذ السنة الدليل الثاني من الأدلة التي يبحث كثيرا من جوانبها
 الأصوليون .

(١) وانظر مقدمة كتاب الثقات (١: ١٢) .

المطلب الثاني : كتاب الفصل بين النقلة

ظهر لي أنّ هذا الكتاب صنّفه ابن حبان للفصل في شأن الرواة الذين اختلف أئمة الحديث فيهم ما بين موثّق ومضعّف .

قال : (وإنما أذكر في هذا الكتاب "الثقات" الشيخ بعد الشيخ وقد ضعّفه بعض أئمتنا ووثّقه بعضهم . فمن صحّ عندي منهم أنّه ثقة بالدلائل النيرة التي بينتها في كتاب "الفصل بين النقلة" أدخلته في هذا الكتاب لأنّه يجوز الاحتجاج بخبره ، ومن صحّ عندي منهم أنّه ضعيف بالبراهين الواضحة التي ذكرتها في كتاب "الفصل بين النقلة" لم أذكره في هذا الكتاب ، لكني أدخلته في كتاب "الضعفاء بالعلل" (١) .

وقال في ترجمة محمد بن إسحاق : (كان محمد بن إسحاق يكتب عن فوّه ومثله ودونه لرغبته في العلم وحرصه عليه ، وربما يروى عن رجل قد رآه ويروى عن آخر عنه في موضع آخر ، ويروى عن رجل عن رجل عنه ، فلو كان ممن يستحل الكذب ، لم يحتج إلى الإنزال ، بل كان يحدث عن رآه ، ويقتصر عليه فهذا مما يدل على صدقه وشهرة عدالته في الروايات وإنما نعمن الكلام في هذا الفصل عند ذكرنا إياه في كتاب "الفصل بين النقلة" إن قضى الله ذلك وشاء) (٢) .

ولا يخفى أنّ كتاب الثقات قد اختصره من كتابه "التاريخ الكبير" وكذلك كتاب المجروحين وكتاب الفصل بين النقلة ، خصّه للرواة المختلف فيهم والمتنازع حول عدالتهم ، وهو جزء من كتاب الثقات هذا ، درسه ابن حبان بعلمه وشواهد ووضعه قواعد وضوابط .

وسيتضح عند الحديث عن الثقات والمجروحين - إن شاء الله - أنّ ابن حبان قد وضع خطة لحياته العلمية في التصنيف ، فكان يضع كل حكاية في موضعها ، وكل فائدة فيما يخصها .

(١) الثقات (١ : ١٣) .

(٢) الثقات (٧ : ٣٨٤ - ٣٨٥) .

وإذا كان قد صرح - كما سيأتي - بأنه كتب كتاب الثقات أولاً، ثم
المجروحين ثانياً، وقد انتهى من تصنيف كتاب المجروحين سنة أربع
وثلاثين وثلاثمائة، وأن مادة كتاب "الفصل بين النقلة" كانت بين يديه
والسنة نصب عينيه، ترجّح لدينا أن الرجل قد أنهى كتابه "الفصل بين
النتلة" بعد كتاب المجروحين بقليل .

قال في ترجمة داود بن الزبرقان من المجروحين : (١) (وداود بن
الزبرقان عندي صدوق فيما وافق الثقات، إلا أنه لا يحتج به إذا انفرد .
وإنما نطلى بعد هذا الكتاب، كتاب "الفصل بين النقلة" ونذكر فيه
كلّ شيخ اختلف فيه أئمتنا، ممن ضعفه بعضهم، ووثقه البعض، ونذكر
السبب الداعي لهم إلى ذلك، ونحتج لكلّ واحد منهم، ونذكر الصواب فيه
لئلا نطلق على مسلم الجرح بغير علم، ولا يقال فيه أكثر مما فيه) .

(١) المجروحين (١: ٢٩٢)، وأ نظر (٢: ٧٣، ٢٤٩) .

المطلب الثالث : كتاب آداب الرحلة^(١)

إن حياة ابن حبان كلها رحلة. وقد زار ما بين اسفيجاب والاسكندرية أكثر من تسعين بلداً، ومن هذه البلدان مارحل إليه مرات عديدة .
وكأن رحلات طلبه العلم، والعلماء، كان لها نمط خاص، ولم تكن عفوية كما لم يكن كل واحد يرحل بمفرده - والله اعلم . وإنما كانت رحلات جماعية منظمة، وإلا لما كانت تحتاج إلى آداب في الطريق، وآداب في البسلاط المرتحل إليها .

ومما يشير إلى هذا ما ذكره ياقوت عن أبي سعيد الإدريسي صاحب تاريخ سمرقند أنه قال : سمعت أبا حامد أحمد بن محمد بن سعيد بن النيسابوري الرجل الصالح بسمرقند يقول :

(كنا مع أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة في بعض الطريق من نيسابور، وكان معنا أبو حاتم البستي، وكان يسأله ويؤذيه، فقال له محمد بن إسحاق بن خزيمة : يا بارد، تنح عني، لا تؤذني . أو كلمة نحوها، فكتب أبو حاتم مقالته، فقبل له : تكتب هذا ؟ فقال : نعم، أكتب كل شيء يقوله)^(٢) .

فهذا النص يشير إشارة ضمنية إلى ما ذكرت، كما يشير إلى شيء من طبيعة الكتاب الذي نحن بصدده التعريف به . وشيء من الآداب التي يعينها أبو حاتم بن حبان - رحمه الله تعالى - .

(١) ذكر الكتاب الخطيب البغدادي في الجامع (٢ : ٣٦٢) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٩) .

المطلب الرابع : الفصل بين حدثنا وأخبرنا

من عنوان هذا الكتاب يتبين أن ابن حبان يفرق بين قول المحدث حدثنا بقوله : أخبرنا ، ونحو ذلك من ألفاظ الأداء .
قال القاضي عياض في الإلماع : (١) (لا خلاف بين أحد من الفقهاء والمحدثين والأصوليين بجواز إطلاق " حدثنا ، وأخبرنا ، وأنبأنا ، ونبأنا ، وأخبرنا " فيما سمع من قول المحدث ولفظه وقراءته وإملائه وكذلك " سمعته " يقول ، أو قال لنا ، وذكر لنا ، وحكى لنا " وغير ذلك من العبارة عن التبليغ إلا شيء حكى عن إسحاق بن راهويه أنه اختار " أخبرنا " في السماع والقراءة على " حدثنا " وأنها أعم من " حدثنا " . وتابعه على ذلك طائفة من أصحاب الحديث الخراسانيين .

وقال أبو عبد الله الحاكم^(٢) تلميذ ابن حبان : (والذى اختاره فى الرواية ، وعهدت عليه أكثر مشايخي وأئمة عصرى أن يقول فى الذى يأخذه من المحدث لفظا ، وليس معه أحد " حدثنى فلان " . وما يأخذه من المحدث لفظا مع غيره " حدثنا فلان " ، وما قرأ على المحدث بنفسه " أخبرنى فلان " وما قرئ عن المحدث وهو حاضر " أخبرنا فلان " ، وما عرض على المحدث فأجاز له روايته شفاها يقول فيه " أنبأنى فلان " ، وما كتب إليه المحدث من مدينة ولم يشافهه بالإجازة يقول : " كتب إلى فلان " وصنيع ابن حبان فى مصنفاته يدل على أنه يذهب إلى التمييز بين صيغ الأداء^(٣) ، لاسيما وأنه مذهب الشافعى إلا أن هذا الكتاب من جملة ما ضاع من كتب هذا الإمام الجليل ، وقد ذكر الخطيب أنه كتاب صغير فى جزء حديثى واحد .^(٤)

-
- (١) الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع (ص ١٢٢) .
(٢) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص ٢٦٠) ، وانظر الاقتراح لابن دقيق العيد (ص ٢٢٦) فما بعد .
(٣) انظر على سبيل المثال المجروحين (١ : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٨٢ ، ٨٤) فقد استعمل من صيغ الأداء حدثنى ، حدثنا سمعت ، أخبرنا ، أخبرنى ، أنبأنا وانظر الجامع للخطيب (٢ : ١٠٨) .
(٤) ذكره الخطيب فى الجامع (٢ : ٣٦٢) ، وياقوت فى معجم البلدان (١ : ٤١٨) .

المطلب الخامس : كتب متفرقة أخرى

ومن هذه الكتب التي ذكرها الخطيب كتاب الفصل والوصل ، وكتاب وصف المعدل^(١) والمعدّل - بكسر الدال في الأولى ، وفتحها في الثانية - وكتاب وصف العلوم وأنواعها .

أما عن الأخير فأخشى أن يكون بمثابة كشاف للعلوم العامة ، وبيان أنواعها ، لأنَّ عنوانه يوحي بهذا ، وإنما أدرجته في هذا المكان لأنَّه مما يرجح لدى أنه يتناول الجانب النظري للعلوم ولا ريب أنه سيتناول علوم الحديث النظرية ، والقواعد الكلية العامة ، فيكون ذكرنا إياه هنا لا يبعد بنا عن الغرض ، ولا يخفى أنَّ الكتاب كبير يقع في ثلاثين جزءاً حديثياً أي ما يعادل المجروحين مرة ونصف المرة .

وكتاب وصف المعدل والمعدّل يبحث كما هو ظاهر في الصفات التي ينبغي توافرها فيمن يقبل قوله في تعديل الرواة ، كما يتحدث عن الصفات التي ينبغي توافرها في رواية الحديث ويقع في جزئين حديثيين .
وأما كتاب " الفصل والوصل"^(٢) فيقع في عشرة أجزاء حديثية أي ما يعادل نصف كتاب المجروحين .

(١) جاء في الجامع : المعدل بالمعدل وهو تحريف من المحقق الغاضل .
(٢) ذكر هذه الكتب جميعاً الخطيب البغدادي في الجامع (٢ : ٣٦٢) .

المبحث الثالث : كتب ابن حبان في التراجم

لقد صنّف ابن حبان في التراجم المفردة ، فكتب " مناقب مالك" ^(١) في جزئين ، و "مناقب الشافعي" ^(٢) في جزئين أيضا ، وذكر أنه أخرج مناقب الشافعي في كتاب "المدبر" ^(٣) كما صنّف كتاب "الميزان" - فيما يبدو للموازنة بين الأئمة المشهورين ، حيث قال : (وهذا مما ذكرناه في كتاب "الميزان" للشافعي - رحمه الله ثلاث كلمات ماتكم بها أحد في الإسلام قبله . . .) ^(٤)

والحقيقة أنني في شك من اسم كتاب الميزان الذي ذكره في صحيحه وكتاب "المدبر" الذي ذكر في الثقات ، أما كتابان اثنان ، أم هما كتاب واحد .

والسبب في هذا الشك أن المخطوطة التي بين يدي من الثقات لا تظن من تصحيف وتحريف ، كما أن المطبوع من الأنواع والتقسيم لم يصب بالتصحيف والتحريف ، وقد أشار محققه الفاضل إلى أنه لم يتبين كمنصة "الميزان" وقال : لعلها "العين أن . . ." ^(٥)

وأيا ما كان الأمر فإن ابن حبان حفي بالإمام الشافعي ، ولا أستبعد أن يكون قد صنّف فيه عدة مصنّفات ، كلّ مصنّف يتناوله فيه من ناحية والله أعلم .

كما أنه كتب كتابا لبيان التمويه ، والتطبيع على الناس ، وإظهار المناقب الصحيحة من غيرها - كما يراها هو - وسماه "التنبيه على التمويه" ^(٦) ومن تناولهم فيه : الإمام أبو حنيفة رحمه الله .

(١) الجامع (٢ : ٣٦٢) .

(٢) ما سبق الموضوع نفسه .

(٣) الثقات (٨ : ١٠٣ ب) .

(٤) ترتيب الصحيح (٣ : ٤٣٦) .

(٥) حاشية الموضوع السابق نفسه .

(٦) المجروحين (٣ : ٦٤) .

وكتب في تصحيف الأسماء كتابين : أحدهما ما جعل عبد الله بن عمر، عبيد الله بن عمر في جزئين ، وما جعل شيبان سفيان ، أو سفيان شيبان ثلاثة أجزاء .

إلا أنه يبدو لي أنهما كتابان يتناولان الأسماء المصحفة ، والمرويات التي صُحِّفَتْ فيها هذه الأسماء ، فإذا صحَّ هذا فيكون هذان الكتابان أقرب إلى علم العلل والأوهام .

وكتب " المقلِّين من الشَّاميين " و " المقلِّين من أهل الحجاز " كتاباً منهُما في عشرة أجزاء ، كما كتب " المقلِّين من أهل العراق " في عشرين جزءاً .

ولعلَّ من أهم كتبه في هذا المجال كتاب " علل أوهام أصحاب التواريخ " في عشرة أجزاء وعنوانه يدل على أنه يتحدَّث عن أوهام أصحاب كتب الجرح والتعديل وأسباب هذه الأوهام وإيضاح عللها . وقد صنَّف ابن حبان أيضاً في تاريخ الخلفاء من لدن أبي بكر الصديق إلى خلافة المطيع بن المقدر ذكر ذلك في كتابه " الثقات ، ومشاهير علماء الأمصار (١) .

وكتب كتاباً سماه " فضائل سجستان " (٢) تحدَّث فيه عن بنائها ومناخها ومن ورد لها من العلماء . ومك ضاع بضائع مثل هذا الكتاب من علم ، وجهل من علم .

(١) الثقات لابن حبان (٢: ٣٣٧) ، مشاهير علماء الأمصار (ص ٤) .
(٢) الثقات (٤: ٢٢٥) .

المبحث الرابع : كتب ابن حبان في الحديث وطله

ولعل كتب ابن حبان في هذا الجانب أكثر كتبه عدداً ، وأغزرها فائدة ، ولقد حرمتنا بفقدانها خيراً كبيراً ، لعل بعضه في كتاب " العليل الكبير للدارقطني " . أولعل الدارقطني اعتمد عليه واستفاد منه . والذى يجعلني أثير هذا الظن أن كتاب المجروحين إنما يروى من طريق الحافظ الدارقطني أجازته بروايته عنه الإمام ابن حبان . فما الذى يمنع أن يكون كتاب العلل قد وصل إلى الدارقطني فاستدرك عليه وروى أحاديثه وطله من غير طريق ابن حبان ، وصنّفه على المسانيد ؟ والعلل أنواع عديدة منها القادح ، ومنها غير القادح ، ومنها ما هو قادح في حال دون حال ومن أشكال العلل المخالفة والتفرد والشذوذ ، والإغراب ، ووصل الموقوف . وقد صنّف ابن حبان في طل أشخاص معينين من مشاهير العلماء فصنّف كتاب " طل حديث الزهري " في عشرين جزءاً ، وكتاب " طل حديث مالك بن أنس " عشرة أجزاء ، وكتاب " طل مناقب أبي حنيفة ومثاليه " عشرة أجزاء ، وكتاب " طل ما أسند أبو حنيفة " عشرة أجزاء ، ويبدو لى أن هذه الكتب كلها كتاب واحد وصنّف في " ما خالف الثوري شعبة " في ثلاثة أجزاء و " ما خالف شعبة الثوري " في جزئين .

وصنّف " ما عند شعبة عن قتادة ، وليس عند سعيد عن قتادة " و " ما عند سعيد عن قتادة ، وليس عند شعبة عن قتادة " وكلّ منهما في جزئين . وما يمكن أن يلتحق بعلم العلل كتاب " ما أغرب الكوفيون على البصريين " عشرة أجزاء ، وكتاب " ما أغرب البصريون على الكوفيين " ثمانية أجزاء .

(١) قال في المجروحين (٤٠ : ١) : (وقد ذكرنا مناقب الزهري وأخباره وشماله في كتاب " العلل " بما أرجو الغنية فيها) . فالنص محتمل العموم والخصوص . وذكر في الصحيح (٩٤ : ١) أنه سيكتب بعده كتاب " طل الأخبار " .

وكتاب " التَّمييز بين حديث النَّضْرِ الحَدَانِي (١) والنَّضْرِ الخَزَازِي (٢) جزءان .
وكتاب " الفصل بين حديث منصور بن المعتمر و منصور بن زاذان (٤) ثلاثة

أجزاء .

وكتاب " الفصل بين حديث مكحول الشَّامِي (٥) ومكحول الأزدِي (٦) جزء واحد .
وكتاب " الفصل بين حديث أشعث بن مالك (٧) وأشعث بن سوار (٨) جزءان .
وكتاب " الفصل بين حديث ثور بن يزيد (٩) وثور بن زيد (١٠) جزء واحد .
وكتاب " موقوف مارفع " عشرة أجزاء .

وقد صنَّف ابن حَبَّان في الأحاديث التي انفردت بها الأمصار الإسلامية ، فكتب " ما انفرد به أهل مكة من السُّنن " عشرة أجزاء ، وكتاب " ما انفرد به أهل المدينة من السُّنن " عشرة أجزاء ، و " ما انفرد به أهل العراق من السُّنن " عشرة أجزاء ، وكتاب " ما انفرد به أهل خراسان من السُّنن " خمسة أجزاء . وكتاب " ما أسند جنادة عن عبادة " يتعلَّق بجمع حديث رجل واحد عن رجل . وهو في جزء حديثي واحد . وكتب أيضا " حديث الأقران (١١) .

وكتب كتاب " الأبواب المتفرقة " في ثلاثين جزءا حديثيا .
كما كتب كتاب " الجمع بين الأخبار ونفي التضاد عن الآثار (١٢) وطرق

-
- (١) هو النَّضْر بن شيبان الحداني . قال ابن حجر في التَّقريب (٣٠١: ٢)
لين الحديث من السادسة .
(٢) هو النَّضْر بن عبد الرحمن الخزاز ، متروك من السادسة (٣٠٢: ٢)
التَّقريب .
(٣) ثقة ثبت من طبقة الأعمش (٢٧٧: ٢) التَّقريب .
(٤) ثقة ثبت عابد من السادسة . التَّقريب (٢٧٥: ٢) .
(٥) ثقة فقيه كثير الإرسال . التَّقريب (٢٧٣: ٢) .
(٦) صدوق من الرابعة . التَّقريب (٢٧٣: ٢) .
(٧) أخشى أن يكون أشعث بن عبد الملك الحمزاني من السادسة أيضا
ثقة فقيه . التَّقريب (٨٠: ١) . ولم أجد أشعث بن مالك .
(٨) ضعيف من السادسة . التَّقريب (٧٩: ١) .
(٩) ثقة ثبت إلا أنه يرى القدر من السابعة . التَّقريب (١٢١: ١) .
(١٠) ثقة من السادسة . التَّقريب (١٢٠: ١) .
(١١) مخطوطات الظاهرية مجمع (١: ٥٢) تاريخ التراث لسزكين (ص ٤٧١) -
(٤٧٥) وإنما ذكرته لاتساق موضوعه مع ما هنا .
(١٢) ترتيب الصحيح (١: ١٩٣) ، (٣: ٤٧٥) .

شرح

ذلك وكيفيته في جزئين حديثيين .

كما كتب في "غرائب الأخبار" عشرين جزءاً^(١) .

وهذه الجمهرة العجيبة من المصنّفات قد ضاع معظمها منذ القرنين الرابع والخامس، ولم يبق إلى أوائل القرن السابع إلا النزر اليسير، على أن لابن حبان كتباً أخرى لم تسم . قال الخطيب : (ومن الكتب التي تكثر منافعتها، إن كانت على قدر ما ترجمها - أي عنون لها - به وأضعفها مصنّفات أبي حاتم محمد بن حبان البستي، التي ذكرها لي مسعود بن ناصر السجزي، وأوقفني على تذكرة بأساميها، ولم يقدر لي الوصول إلى النظر إليها لأنها غير موجودة بيننا، ولا معروفة عندنا .

وأنا أذكر منها ما استحسنته، سوى ما عدلت عنه، وأطرحته) .

ولعلك تتساءل عن سبب ضياع هذه الكتب، وغيرها من كتب ابن

حبان الأخرى ؟

ويجيب الخطيب قائلاً : (سألت مسعود بن ناصر فقلت له : أكلت هذه الكتب موجودة عندكم، ومقدور عليها في بلادكم ؟ فقال : لا . إنما يوجد منها الشيء اليسير، والنزر الحقيق، قال : وكان أبو حاتم بن حبان سبّل كتبه ووقفها، وجمعها في دار رسمها بها، فكان السبب في ضياعها - مع تطاول الزمان - ضعف أمر السلطان، واستيلاء ذوي العيب والفساد على أهل تلك البلاد) .

وقال الخطيب : (مثل هذه الكتب الجليّة كان يجب أن تكثر منها النسخ، ويتنافس فيها أهل العلم ويكتبوها، ويجلّدوها إحراراً لها ولا أحسب المانع من ذلك، إلا قلة معرفة أهل تلك البلاد بمحلّ العلم وفضله، وزهدهم فيه، ورغبتهم عنه، وعدم بصيرتهم به . والله أعلم)^(٢) .

وكل ما يعرف لابن حبان من الكتب اليوم :

(١) أنظر هذه الكتب كلها في الجامع للخطيب (٢ : ٣٦١-٣٦٣) .

(٢) ما سبق (٢ : ٣٦١) .

(٣) الجامع (٢ : ٣٦٣) .

كتاب "روضة العقلاء"، وقد تحدّث عنه سابقاً . وكتاب "المحبّة والشوق
والأنس والرضى" ويحتاج إلى دراسة طويلة حتى نتمكن من إثبات نسبه إلى
ابن حبان، أو نفيها .
وكتاب " مشاهير علماء الأمصار " فى أسماء المشاهير من العلماء على
الأقاليم الإسلامية المشهورة .
وكتاب " كنى من يعرف بالأسماء " . وكتاب " الثقات " . وكتاب
"المجروحين" وكتاب " التقاسيم والأنواع " وكتاب " حديث الأقران " .
وسأعرف بكل كتاب تعكنت من الاطلاع عليه ، حتى الآن ، وعسى
أن أحصل على كتاب الكنى وكتاب حديث الأقران ، فأعرف بهما إن شاء
الله تعالى .

الفصل الرابع

كتاب التقاسيم والأنواع

لا يوجد لابن حبان من الكتب الحديثية التي صنّفها سوى هذا الكتاب الذي عُرف بصحيح ابن حبان ، كما عُرف بالأنواع والتقسيم .
وبما أن هذا الكتاب لن نعود إلى التوسع بدراسته فيحسن أن نعرّف به تعريفاً يكشف عن مضامينه مع القصد وعدم التطويل ، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

المبحث الأول : اسم الكتاب وتحقيق نسبه إلى ابن حبان

لقد ذكر هذا الكتاب كلُّ من ترجم لابن حبان - تقريباً - من القدماء والمحدثين ، كما أعطى فكرة وجيزة عن مضامينه مؤلفو كتب مصطلح الحديث في بحث " الكلام على الحديث الصحيح وماصنّف في الصحيح من الكتب " . كما قام عدد من العلماء بدراسته والتعليق عليه .
قال صاحب كشف الظنون^(١) : صحيح ابن حبان ، اختصره ابن الملقّن ورثه على الأبواب العلاء الفارسي الحنفي .
(وقال أبو سعد الإدريسي : صنّف المسند الصحيح . . . وقال الذهبي : قال ابن حبان في كتاب الأنواع ، لعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ)^(٢)
وقال السيوطي في تدريب الراوي^(٣) : (صحيح ابن حبان ترتيبه - - - - -
مخترع ، ليس على الأبواب ولا على المسانيد ولهذا سماه "التقسيم والأنواع"
وسببه أنه كان عارفاً بالكلام والنحو والفلسفة . . . والكشف من كتابه

(١) كشف الظنون (ص ٤٦٣ ، ١٠٧٥ ، ١٤٠٠) وسماه مرة : صحيح ابن

حبان ، ومرة التقاسيم والأنواع ، ومرة ثالثة سماه كتاب الأنواع والتقسيم .

(٢) تذكرة الحفاظ (ص ٩٢١) .

(٣) تدريب الراوي (١ : ١٠٩) وكذلك سماه العراقي في شرح الألفية

(١ : ٥٤) .

عسر جدا ، وقد رتبته بعض المتأخرين على الأبواب ، وعمل له الحافظ أبو الفضل العراقي أطرافا ، وجرد الحافظ أبو الحسن الهيثمي زوائده على الصحيحين في مجلد) .

وهذا التعدد في التسمية مرده إما إلى ذكر بعض الاسم الذي سماه به مؤلفه ، أو إلى الوصفالذين قالوا بأنه "صحيح ابن حبان" نظروا إلى وصف الكتاب ، واشترط ابن حبان الصّحة فيه فسموه صحيحا ، وربما كان ذلك أيضا نتيجة دراستهم لهذا الكتاب فترجّح لديهم أنه صحيح باستثناء أحاديث ليست بالكثيرة ، مما اختلف في رجالها العلماء قديما وحديثا .

والذين قالوا كتاب " الأنواع " كما ذكر الذهبي في تذكرة الحفاظ فإنما اقتصر على طرف منه يدل عليه ، بدليل أنه هو نقل عن الإدريسي قوله "صنّف المسند الصحيح" فالمسند الصحيح هو " الأنواع " كما ذكر الذهبي في النبلاء^(١) ما أخذ على كتابه فقال : في تقاسيمه من الأقوال والتأويلات البعيدة ، والأحاديث المنكرة عجائب

فقد صار لهذا الكتاب عدة أسماء : " الأنواع ، التقاسيم ، المسند الصحيح ، صحيح ابن حبان ، فما هو الاسم الكامل الصحيح لهذا الكتاب كما سماه مؤلفه ؟

قال ابن حبان في مقدمة صحيحه^(٢) :

(لما كانت الأجزاء من القرآن كلّ جزء يشتمل على سور ، جعلنا كلّ قسم من أقسام السنن يشتمل على أنواع ، فأنواع السنن بإزاء سور القرآن . . .) . وقال أيضا^(٣) : (إنّي لما رأيت الأخبار طرقها كثرت ، ومعرفة الناس بالصحيح منها قلت . . . تدبرت الصحاح ، لأسهل حفظها على المتعلمين) . وقال^(٤) : (ثم نطى الأخبار بالفاظ الخطاب ، بأشهرها إسنادا وأوثقها عمادا ، من غير وجود قطع في سندها ، ولا ثبت جرح في ناقلها . . .) .

(١) النبلاء (١٠ : ٣ : ٣٣٢) .

(٢) ترتيب الصحيح (١ : ٨٠ : ٩١) .

(٣) ماسبق (١ : ٢٤) .

(٤) ماسبق (١ : ٢٥) .

وذكر الفارسي مرتب الكتاب أن ابن حبان سَمَّاهُ كتاب التَّقاسيم والأَنْواع، ومثله نقل ياقوت عن الإمام تاج الإسلام السَّمْعاني، وذكر أَنَّهُ^(١) وصله بالسَّماع المتصل في خمسة مجلِّدات،^(٢) وحكى مثله في زوائد الهيثمي.^(٣) وقد وقفت على ثلاثة مجلِّدات من "الأَنْواع والتَّقاسيم" كما وضعه مؤلفه، فوجدت على ورقة الغلاف مانصه: (. . . المسند الصَّحيح على التَّقاسيم والأَنْواع من غير وجود قطع في سندها، ولا ثبوت جرح في ناقلها) . وهذا النصُّ يفيد أن ما ذكر سابقاً مفرقاً يشكُّ بمجموعه اسم الكتاب كاملاً .

فالإدريسي قال: صَنَّفَ المسند الصَّحيح . . . والدَّهبي وغيره قالوا صَنَّفَ الأَنْواع والتَّقاسيم، وقال هو بأنَّه صَنَّفَهُ على التَّقاسيم والأَنْواع . . . من غير وجود قطع في سندها، ولا وجود جرح في ناقلها . . . فيكون عنوان الكتاب كما جاء على صفحة غلاف المخطوطة المليئة بالتَّمَلكات والسَّماعات الوثائقية .

وأما عن تحقيق نسبه إلى ابن حبان، فقد أشرت في مباحث سابقة إلى أن ابن حبان ذكر في صحيحه كتاب المجروحين، والثَّقَات، والهدااية إلى علم السُّنن، وشرائط الأخبار، أضف إلى هذا ما نقلته عن ابن حجر وغيره مما نسبوه إلى ابن حبان وناقشوه فيه - كما مرَّ سابقاً في المباحث الفقهية والعقدية . إلى جانب وجود ترتيب الفارسي، وموارد الظَّمَان شاهد يبين حين يثبت أولهما - وهو الترتيب - كلُّ ما جاء في الأَنْواع والتَّقاسيم مرتباً على الأبواب الفقهية . ويثبت الثَّاني ما زاده ابن حبان من الصَّحيح عنده على

(١) الترتيب (١ : ١٥)، وقد ذكر الوادي آشي في برنامجه أنه تَلَقَّى

التَّقاسيم والأَنْواع بالسُّنْد المتصل وسَمَّاهُ المسند أيضاً (ص ٢٠٤) .

(٢) معجم البلدان (١ : ٤١٨) . وذكر التجيبي أنه تلقى بعضه شفاهاً

وبعضه إجازة . برنامج التجيبي (ص ١٢٧) .

(٣) موارد الظَّمَان (ص ٢٩) . وانظر مقدمة العلامة أحمد شاكر

لصحيح ابن حبان (١ : ١١) فما بعد، فقد رأيت وصل قريباً

مما وصلت إليه .

(٤) أعارني هذه الأجزاء الثلاثة الأخ الدكتور أحمد العماري، شكر الله

له وأحسن إليه .

البخارى ومسلم، وهذا موجود فى الترتيب بحروفه وأسانيده، كما هو موجود أيضا فى الأنواع والتقسيم الأسمى .
وسياتى حين دراسة الكتاب بعض المآخذ التى وجدت بها بحروفها فى صحيحه مما أخذه عليه العلماء .
وأحسب أننى لو أردت كتابة خمسين دليلا داخليا وخارجيا على صحة نسبة هذا الكتاب لفعلت . ولكن لا حاجة بنا إلى الإطالة فكتاب ابن حبان أشهر من أن يوثق .

المبحث الثاني : طريقة ابن حبان في تصنيف كتابه

قال ابن حبان يصف طريقته في تأليف تقاسيمه وأنواعه :
 (وإني لما رأيت الأخبار طرقها كثرت ، ومعرفة الناس بالصحيح منها
 قلت ، لاشتغالهم بكتابة الموضوعات ، وحفظ الخطأ والمقولات ، حتى صار
 الخبر الصحيح مهجورا لا يكتب ، والمنكر المقلوب عزيزا يستغرب .
 وأن من جمع السنن من الأئمة المرضيين ، وتكلم عليها من أهل
 الفقه والدين ، أمعنوا في ذكر الطرق للأخبار ، وأكثروا من تكرار المعاد
 للآثار ، قصدا منهم لتحصيل الألفاظ ، على من رام حفظها من الحفاظ ، فكان
 ذلك سبب اعتماد المعلم على ما في الكتاب ، وترك المقتبس التحصيل للخطاب .
 فتدبرت الصحاح ، لأسهل حفظها على المتعلمين ، وأمعنت الفكر
 فيها ، لئلا يصعب وعيها على المقتسبين ، فرأيتها تنقسم خمسة أقسام متفصلة
 التقسيم ، غير متنافية .

فأولها : الأوامر التي أمر الله عباده بها ، والثاني : النواهي التي
 نهى الله عباده عنها ، والثالث : إخباره عما احتج إلى معرفتها ، والرابع
 الإباحات التي أبيح ارتكابها ، والخامس : أفعال النبي صلى الله عليه
 وسلم التي انفرد بفعلها .

ثم رأيت كل قسم منها يتنوع أنواعا كثيرة ، ومن كل نوع تحته علوم
 خطيرة ، ليس يعقلها إلا العالمون الذين هم في العلم راسخون ، دون من
 اشتغل في الأصول بالقياس المنكوس وأمعن في الفروع بالرأى المنحوس .
 وإنما نطى كل قسم بما فيه من الأنواع ، وكل نوع بما فيه من الاختراع
 الذي لا يخفى تحضيره على ذوي الحجى ، ولا تتعذر كلفه على أولي
 النوى^(١)

ما مرّ يتضح أن ابن حبان - رحمه الله - يرى أن السنن إنما
 جاءت خطايا تكليفيا على كل مسلم يمكن أن يتوجه إليه الخطاب أن يتصرف
 عليها ليعمل بما فيها ، وليس المقصود الأهم من السنن جمعها وتكثير طرقها .

(١) الترتيب (١ : ٢٣ - ٢٤) ، المسند على التقاسيم (١ : ٣ : أ) .

فصحيح الإمام البخارى عنى فيه بزيادات الأحاديث وتكثير الطرق إلى جانب عنايته بتراجم الأبواب وعنى الإمام مسلم بجمع طرق الحديث وانتقاء أوضح المتنون ، وترتيب الكتاب على الطبقات التى ذكرها فى مقدمته .
وقد كان لكل من السابقين عناية بجانب معين ، أو عدة جوانب مما يتعلق بالسُّنن من علوم . فنظر ابن حبان - مما لاشك فيه - فى كلِّ هذه الكتب ، فأخذ على مؤلفيها بعض ما أخذ فى الأسانيد أو المتنون ، واختط لنفسه طريقا متميزة فى الرجال تختلف عن أنظار كثيرين ممن تقدموه فأراد أن يظهر طريقه هذه ، وطمه ، بمصنّف يجمع فيه أصل صحيح السُّنّة ، أسوة بغيره ممن صنّف فى هذا العلم .

بيد أنه شاهد انصراف النَّاس عن السُّنن ، وعدم معرفة أكثرهم كيفية التفريع عليها ، والاستنباط منها ، ففكر فى طريقة متميزة عن كلِّ من سبقه يصنّف فيها السُّنن تصنيفا أصوليا يعتمد على الاستنباط الصحيح من السُّنن دون الاعتماد على القياس المعكوس والرأى المنحوس ، وفى السُّنن غنى عن كلِّ هذا ، ولم يلتفت إلى سهولة الكشف على الأحاديث ، وإنما صنّفه ليحفظه طلبة العلم ، ويطبقون ما فيه ، لأنه هو المقصود من السُّنن .

فإذا وقف المرء على تفصيل ما ذكرنا ، وقصد ، قصد الحفظ لها سهل عليه ما يريد من ذلك ، كما يصعب عليه الوقوف على كلِّ حديث منها إذا لم يقصد قصد الحفظ له ، ألا ترى أن المرء إذا كان عنده مصحّف وهو غير حافظ لكتاب الله - جل وعلا - فإذا أحب أن يعلم آية من القرآن فى أى موضع هى ، صعب عليه ذلك ، فإذا حفظه ، صارت الآى كلها نصب عينيه . وإذا كان عنده هذا الكتاب ، وهو لا يحفظه ، ولا يتدبر تقاسيمه وأنواعه ، وأحب إخراج حديث منه ، صعب عليه ذلك ، فإذا رام حفظه أحاط طمه بالكلِّ ، حتى لا ينخرم منه حديث أصلا .

وهذا هو الحيلة التى احتلنا ليحفظ النَّاس السُّنن ، ولئلا يعرجوا على الكتب والجمع ، إلا عند الحاجة ، دون الحفظ أو العلم به . (١) .

(١) الترتيب (١ : ٨٠ - ٨١) ، المسند الصحيح على التقاسيم (١ : ١٨) ،

وقد تنوع قسم الأوامر عند ابن حبان إلى مائة وعشرة أنواع . قال :
 (تدبّرت خطاب الأوامر عن المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لاستكشاف
 ما طواه في جوامع كلمه ، فرأيتها تدور على مائة وعشرة أنواع ، يجب على كلِّ
 منحلِّ للسُنن أن يعرف فصولها ، وكلِّ منسوب إلى العلم ، أن يقف على
 جوامعها ، لئلا يضع السُنن إلا في مواضعها ، ولا يزيلها عن موضع القصد في
 سننها . . .) .

وقد كان من أنواع الأوامر هذه (لفظ الأمر الذي هو فرض على
 المخاطبين كافة في جميع الأحوال وفي كلِّ الأوقات ، حتى لا يسع أحدا منهم
 الخروج منه بحال) وذكر أحكام الإيمان ^(١) وشعبه .
 وكان النوع الثاني : ألقاظ الوعد التي مرادها الأوامر باستعمال
 تلك الأشياء المذكورة .

وهكذا إلى تمام مائة نوع وعشرة أنواع ، كان الأخير منها : (الأمر
 بالشئ الذي مراده الإعلام بنفى جواز استعمال ذلك الشئ ، لا الأمر به . . .) ^(٢)
 أما قسم النواهي فوصف ابن حبان مارآه فيه بقوله : ^(٣)
 (وقد تتبععت النواهي عن المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتدبّرت
 جوامع فصولها ، وأنواع ورودها لأن مجراها في تشعب الفصول مجرى الأوامر
 في الأصول ، فرأيتها تدور على مائة نوع وعشرة أنواع .
 النوع الأول : الزجر عن الاتكال على الكتاب ، وترك الأوامر والنواهي
 عن المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

النوع الثاني عشر : الزجر عن الشئ بلفظ العموم من أجل علة للم
 تذكر في نفس الخطاب ، قد ذكرت في خبر ثان ، فمتى كانت تلك العلة
 موجودة ، كان استعماله مزجورا عنه ، ومتى عدمت تلك العلة ، جاز استعماله .
 وقد يباح هذا الشئ المرجور عنه في حالتين أخريين ، وإن كانت
 تلك العلة أيضا موجودة ، والزجر قائم) . .

(١) التقاسيم والأنواع (١ : ٢٢ - ١ : ٢٥) .

(٢) التقاسيم (١ : ٣ - ١ : ٨) .

(٣) ما سبق (١ : ٨ - ١ : ٢) .

النوع العاشر والمائة : الأشياء التي كان يكرهها رسول الله صَلَّى
الله عليه وسلّم ، يستحب مجانبتها ، وإن لم يكن في ظاهر الخطاب النهي
عنها مطلقاً .

وعن قسم الأخبار قال :

(وأما أخبار النبي صَلَّى الله عليه وسلّم عما احتيج إلى معرفتها
فقد تأملت جوامع فصولها ، وأنواع ورودها ، لأسهل إدراكها على من
رام حفظها ، فرأيتها تدور على ثمانين نوعاً .

الأول : إخباره صَلَّى الله عليه وسلّم عن بدء الوحي وكيفيته .

الخامس والخمسون : إخباره صَلَّى الله عليه وسلّم عن الشيء بإطلاق
اسم العصيان على الفاعل فعلاً بلفظ العموم ، وله تخصيصان اثنان من
خبرين آخرين .

... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى الله عليه
وسلّم أنه قال :^(١)

(من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن
أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني) .

ذكر أحد المخصصين الذي يخص عموم الخطاب الذي في خبر أبي
هريرة : ... عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : كنا إذا بايعنا
رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم على السمع والطاعة ، يقول لنا : فيمنا
استطعتم .

ذكر التخصيص الثاني الذي يخص عموم الخطاب الذي ذكرناه قبلاً

(١) أخرجه البخاري في الأحكام باب قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا
الرسول وأولى الأمر منكم) رقم (٦٧١٩) ، وأخرجه في الجهاد بأسم
منه رقم (٢٧٩٧) ، ومسلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في
غير معصية رقم (١٨٣٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام باب كيف يبایع الإمام الناس رقم (٦٧٧٦)
ومسلم في الإمارة باب البيعة على السمع والطاعة فيما استطاع رقم
(١٨٦٧) .

(١) عن أبي سعيد الخدري قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علقمة بن مجزز المدلجي على بعث أنا فيهم ، فخرجنا حتى إذا كنا على رأس غزاتنسا أوفى بعض الطريق ، استأذنته طائفة من الجيش ، فأذن لهم وأمر عليهم عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان من أصحاب بدر ، وكانت فيه دعابة وكنت فيمن بعث معه ، فلما كان ببعض الطريق ، أوقد القوم نارا ليصطلوا أوليصنعوا صنيعا لهم ، إذ قال لهم عبد الله بن حذافة : أليس لي عليكم السمع والطاعة ، قالوا : بلى ، قال : فما أنا بأمركم بشيء ، إلا صنعتموه ؟ قالوا بلى . قال : فإني أعزم عليكم إلا توابتم في هذه النار ، فقام ناس فتحجزوا ، فلما ظن أنهم واثبون قال : أمسكوا عليكم أنفسكم إنما كنت أضحك معكم . .

فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أمركم بمعصية فلا تطيعوه) . (٢)

وكان القسم الرابع من أقسام السنن ، قسم الإباحات التي أبيع ارتكابها قال رحمه الله : (٣)

(وقد تفقدت الإباحات التي أبيع ارتكابها ، ليحيط العلم بكيفية أنواعها ، وجوامع تفصيلها بأحوالها ، ويسهل وعيها على المتعلمين ولا يصعب حفظها على المقتبسين ، فرأيتها تدور على خمسين نوعا : النوع الأول : الأشياء التي فعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤدي إلى إباحة استعمال مثلها .

النوع الحادي والثلاثون : إباحة فعل عند وجود شرط معلوم مع حظره عند شرط ثان ، قد حظر مرة أخرى عند الشرط الأول الذي أبيع ذلك عند وجوده ، فأبيع مرة أخرى عند وجود الشرط الذي حصر من أجله

(١) أخرجه ابن حبان في التقاسيم (٣ ق ٨١) ، وانظر الموارد رقم (١٥٥٢) ، وابن ماجه في الجهاد باب لاطاعة في معصية الله رقم (٢٨٦٣) ، وأخرجه البخاري ترجمة : باب سرية عبد الله بن حذافة السهمي . . . الخ . وقال ابن حجر : أشار بأصل الترجمة التي مارواه أحمد وابن ماجه ، وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وأقرهم . انظر الفتح (٨ : ٥٨) ، وانظر (١٣ : ١٢٣) ففيهما كلام نفيس .

(٢) التقاسيم (٣ ق ٨١ أ ، ب) .

(٣) ما سبق (١ : ١٥٥ ب - ١٧ أ) .

المرة الأولى .

النوع الخمسون : الأشياء التي شاهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فعلت في حياته فلم ينكر على فاطمها ، تلك مباح للمسلمين استعمال مثلها) .

أما القسم الخامس من أقسام السنن فهو قسم الأفعال التي انفرد بها النبي صلى الله عليه وسلم .

قال رحمه الله ^(١) : (وأما أفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، فإتسبى تأملت تفصيل أنواعها ، وتدبرت تقسيم أحوالها ، لئلا يتعذر على الفقهاء حفظها ، ولا يصعب على الحفاظ وعيها فرأيتها تدور على خمسين نوعاً :
الأولى : الفعل الذي فرض عليه صلى الله عليه وسلم مدة ثم جعل ذلك نفلاً .

الرابع والثلاثون : الأفعال التي فيها تضاد وتهاثر في الظاهر ، وهي من اختلاف المباح من غير أن يكون بينها تضاد أو تهاثر .
النوع الخمسون : وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته .

قال ابن حبان رحمه الله : فجميع أنواع السنن أربعمائة نوع على حسب ما ذكرناها ، ولو أردنا أن نزيد على هذه الأنواع التي نوعناها للسنن أنواعاً كثيرة لفعلنا ، وإنما اقتصرنا على هذه الأنواع دون سواها وإن تهيأ ذلك لو تكلفناه ، لأن قصدنا في تنويع السنن ، الكشف عن شيءين أحدهما خبر تنازع الأئمة فيه ، وفي تأويله ، والآخر عموم خطاب صعب على أكثر الناس الوقوف على معناه ، فقصدنا إلى تقسيم السنن وأنواعها لنكشف عن هذه الأخبار) .

ولقد عيب على ابن حبان - رحمه الله - صعوبة الكشف في صحيحه وتعذر إخراج الحديث منه . قال الذهبي ^(٢) - رحمه الله - : (وقد اعترف - يعني ابن حبان - أن صحيحه لا يقدر على الكشف منه إلا من حفظه ، كمن

(١) التيسير (١: ١٧ - أ - ١٨ ب) .

(٢) النبلاء (١٦: ٩٧) .

عنده مصحف لا يقدر على موضع آية يزيد لها منه إلا من يحفظه . . .) .
 وجاء الأمير علاء الدين الفارسي فرتب الأنواع والتقسيم على أبواب
 الفقه ، ووصف الكتاب بقوله ^(١) : (لكنه لبديع صنعه ، ومنيع وضعه ، قد عز جانبه
 فكثرت مجانبه ، تعسر اقتناص شوارده فتعذر الاقتباس من فوائده وموارده) .
 وأما السيوطي فإنه قال ^(٢) : (والكشف من كتابه عسير جدا)
 وقال الشيخ أحمد شاکر ^(٣) : (وقد قصد بهذا الترتيب الذي اخترعه
 وتفنن فيه ، إلى مقصد لم يتحقق قط، وصار الكشف من كتابه عسرا جدا
 - كما قال السيوطي - بل هو الذي رمى إلى ذلك ، فلم يتحقق مقصوده
 الأول ، ووقع الناس في حرج التصعيب الذي رمى إليه . . . ولكن حيلته
 للحفاظ لم تفلح ، ثم نجح أيما نجاح في تصعيب الكشف من كتابه ، ولعل هذا
 أحد العوامل في ندرة نسخه) .

وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط ^(٤) : (وهنا نسأل هل العسر الذي
 وضعت به طريقة ابن حبان منفي عن الطرق التي ألفها الناس واعتادوها ؟
 إن كل من مارس هذا الفن ، يدرك الصعوبة الجسيمة التي يلقاها
 الباحث عن حديث في (المسند) . يعني مسند الإمام أحمد ، وخاصّة
 إذا كان الحديث في مسند أبي هريرة مثلا ، أوفى مسند عبد الله بن
 عمر ، أو عبد الله بن عباس ، دون استخدام الفهارس . . . ولنتصور الأمر على
 شكل قريب من الواقع ، بالنسبة إلى أسلوب الكتب والأبواب ، لا بد لنا من
 إجراء الموازنة التالية :

من المعلوم أن صحيح البخاري يتألف من (٩٧) كتابا ، مجموع أبوابها
 (٣٧٣١) بابا .

أما صحيح ابن حبان فهو مبني على خمسة تقاسيم تنطوي على
 أربع مائة نوع ، فهل يتصور عقلا أن البحث عن حديث في الأول ، أيسر من

(١) الإحسان (٧٩:١) .

(٢) تدريب الراوي (١٠١:١) .

(٣) مقدمة الشيخ أحمد للإحسان (١٦:١) .

(٤) مقدمة الشيخ الأرنؤوط للإحسان (٣٠:١ - ٣٢) .

وأسهل منه في الثاني ، لمن لم يتمرس أي الأسلوبين سابقا ؟
الجواب النظري ليس لصالح الأسلوب الأول ، أسلوب الكتب والأبواب

فلماذا إذن وصفت بالعسر ؟

ولو عدنا إلى عبارة الحافظ الذهبي ، وأمعنا النظر فيها ، لوجدنا
أن الحكم الذي أطلقه على هذا الأسلوب حكم مستنبط من المقدمة ، وليس
حكما قائما على التجربة والاختيار .

فالخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٣هـ) والزمن بينه وبين ابن حبان
قريب نسبيا ، لم يطلع على كتب ابن حبان ، وإنما تحدثت عنها بأسف
لضياعتها ، ففي أي ميان جريت بعد ذلك ، ومن مارسها وطبقها فظهر له
نجاحها أو عدهه ؟

وفي رأينا أن هذا الحكم غير صحيح ، وإنما هو تسويغ لموقف غير عظمي
من جديد قد يكون مفيدا . . . لقد حكموا على هذه الطريقة دون أية
ممارسة . ووصفوها بالعسر دون اختبار وتجريب ، ولم يتبعها أحد بعد ابن
حبان ، فماتت بعده . . . ا . هـ

قلت : لقد دافع الشيخ شعيب - حفظه الله - عن طريقة ابن حبان
أيما دفاع ، ودفاعه أيضا نظري . ومحال أن يكون الشيخ شعيب أعرف من
ابن حبان بكتابه ، وابن حبان نفسه يقول^(١) : (فإذا وقف المرء على تفصيل
ما ذكرنا ، وقصد قصد الحفظ لها ، سهل عليه ما يريد من ذلك ، كما
يصعب عليه الوقوف على كل حديث منها ، إذا لم يقصد قصد الحفظ له) .

وقال^(٢) : (وإذا كان عنده هذا الكتاب ، وهو لا يحفظه ، ولا يتدبر
تقاسيمه وأنواعه ، وأحب إخراج حديث منه ، صعب عليه ذلك . فإذا رام حفظه
أحاط علمه بالكل) .

وهذا يعني أن الشيخ شعيبا نفسه يدافع عن منهج ابن حبان
دفاعا نظريا ، كالذي اتهم به الذهبي والسيوطي وشاكر .
والذي يبذل ولي أن ثمة اختلافا في النظرة بين الذين استصعبوا

(١) الإحسان (١ : ١٣٩) .

طريقة ابن حبان وبين الذى يدافع عنه .

فالذهبي ومن معه استصعبوا طريقة الكشف عن حديث ما ، ولم يسم
ينتقدوا طريقة التصنيف البارعة ، والشيخ شعيب يريد أن يدافع عن
الصحيح جملة وتفصيلا وهذا غير مسلم .

والمثال الذى ضربه للموازنة بين البخارى وصحيح ابن حبان ، لا يسلم
له نتيجة ، إذ ربما كانت كثرة أبواب الكتاب تيسيرا على المطالع فيسه
والكاشف عن أحاديثه بل هى كذلك فعلا . ثم إن ممارسة بساطة
للبخارى تعرّف الباحث على مظان الحديث عنده فى أغلب الأحيان .

أما (الأنواع والتقسيم) فلا يستطيع الإنسان معرفة الحديث فيسه
مالم يحفظ الأنواع الأربعمئة - على الأقل - ثم يطالع الصحيح مرات حتى
يتحسس مواضع الأحاديث فيه .

إن تصنيف (الأنواع والتقسيم) مستقى ترتيبه من أصول الفقه ، فما لم
يتمكن الإنسان من معرفة أنواع الأوامر والنواهي والإباحات والأفعال
والأخبار ، ودلالاتها على الأحكام ، فمن العسير أن يكشف عن حديث ما فى
هذا الكتاب مالم يمارسه طويلا .

لكل هذا أرى دفاع الشيخ شعيب فى غير موضعه . على أننى
لا أرى هذا طعنا فى ابن حبان - رحمه الله - ولا منقصة لصحيحه ، بل هو كما
وصفه الأمير : (عز جانبه) .

المبحث الثالث : شرط ابن حبان في رجال كتابه

المشهور بين الناس أنَّ ابن حبان متساهل في التوثيق ، وعلـى هذا فرجاله في الصحيح منهم الثَّقة ، ومنهم الصدوق ، ومنهم الضَّعيف .
 إلا أنني أقرر ابتداءً أنَّ الرجل قد اجتهد في الرجال ، فأداه اجتهاده إلى منهج اختطه لنفسه ، وبنى كتابه عليه . قال :

(وأما شرطنا في نقطة ما أودعناه كتابنا هذا السنن ، فإننا لم نحتج فيه إلا بحديث اجتمع في كلِّ شيخ من رواه خمسة أشياء :

الأول : العدالة في الدِّين بالستر الجميل : . . . والعدالة في الإنسان : هو أن يكون أكثر أحواله طاعة لله ، لأنَّ متى ما لم نجعل العدل إلا من لم يوجد منه معصية بحال ، أدانا ذلك إلى أن ليس في الدنيا عدل ، إذ النَّاس لا تخلو أحوالهم من ورود ظل الشَّيطان فيها بل العدل من كان ظاهر أحواله طاعة لله تعالى .

والذي يخالف العدل من كان أكثر أحواله معصية الله . . . (١) .

الثاني : الصُّق في الحديث بالشُّهرة فيه ، فلا يكفي مجرد العدالة الشرعية في الإنسان من أن تكون أكثر أحواله طاعة لله ، بل هناك عدالة خاصَّة هي تزكية المعدلين من أهل الحديث . (وقد يكون العدل الذي يشهد له جيرانه وعدول بلده به ، وهو غير صادق فيما يروى من الحديث لأنَّ هذا شيء ليس يعرفه إلا من صناعته الحديث ، وليس كلُّ معدِّل - بكسر الدال - يعرف صناعة الحديث ، حتى يعدِّل العدل على الحقيقة ، في الرواية والدين معا) (٢) . فواضح أنَّ عدالة الرواية أخص من عدالة الدين والصَّلاح .

الثالث : العقل بما يحدث من الحديث : وهو أن يعقل من اللغة بمقدار ما لا يزيل معاني الأخبار عن سننها ، ويعقل من صناعة الحديث ما لا يسند موقوفا ، أو يرفع مرسلا ، أو يصحِّف اسما .

(١) مقدمة الصحيح (١ : ٨١) .

(٢) ما سبق (١ : ٨٢) .

الرابع : العلم بما يحيل من معانى ما يروى وهو أن يعلم من الفقه بمقارنا إذا أدى خبرا ، أو رواه من حفظه ، أو اختصره ، لم يحله عن معناه الذى أطلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معنى آخر^(١) .

وهذان الشرطان اشترطهما ابن حبان لأنه يقبل زيادة الثقة . قال : (وأما زيادة الألفاظ فى الروايات ، فإننا لانقبل شيئا إلا عن كنان الغالب عليه الفقه - إلى جانب العدالة والحفظ طبعاً - حتى يعلم أنه كنان يروى الشيء ويعلمه ، حتى لا يشك فيه أنه أزاله عن سنده ، أو غيره عن معناه أم لا ، لأن أصحاب الحديث الغالب عليهم حفظ الأسماء والأسانيد دون المتن ، والفقهاء الغالب عليهم حفظ المتن وأحكامها وأدائها بالمعنى دون حفظ الأسماء والمحدثين .

فإذا رفع محدث خبرا ، وكان الغالب عليه الفقه ، لم أقبل رفعه إلا من كتابه ، لأنه لا يعلم المسند من المرسل ، ولا الموقوف من المنقطع ، وإنما سمته أحكام المتن فقط . وكذلك لا أقبل عن صاحب حديث حافظ متقن أتى بزيادة لفظة فى الخبر ، لأن الغالب عليه أحكام الإسناد ، وحفظ الأسماء والأغضاء عن المتن ، وما فيها من الألفاظ ، إلا من كتابه . هذا هو الاحتياط فى قبول الزيادات فى الألفاظ)^(٢) .

الخامس : المتعزى خبره عن التدليس : وهو أن يكون الخبر عن مثل من وصفنا نعتة بهذه الخصال الخمس ، فيرويه عن مثله سماعا ، حتى يفتهم ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) .

فالمدلسون الذين هم ثقات وعدول ، فإننا لانحتج بأخبارهم إلا ما بينوا السماع فيما رووا مثل الثورى والأعمش وأبى إسحاق وأضرابهم من الأئمة المتقين ، وأهل الورع فى الدين . لأننا متى قبلنا خبر مدلس لسم يبين السماع فيه ، وإن كان ثقة ، لزمنا قبول المقاطيع والمراسيل كلها ، لأنه لا يدري ، لعل هذا المدلس دلس هذا الخبر عن ضعيف يهوى الخبر بذكره

(١) الترتيب (١ : ٨٢) .

(٢) ماسبق (١ : ٨٧ - ٨٨) .

(٣) الصحيح (١ : ٨١) فما بعد .

إذا عرف ؟ اللهم إلا أن يكون المدلس يعلم أنه مدلس قط إلا عن ثقة
فإذا كان كذلك ، قبلت روايته ، وإن لم يبين السماع .

فإذا صح عندي خبر من رواية مدلس أنه بين السماع فيه ، لا أبالي
أن أذكره من غير بيان السماع في خبره ، بعد صحته عندي من طريق آخر^(١) .

هذه هي الصفات التي يجب توافرها في الراوي ، وهناك صفات
أخرى يجب أن يتعري عنها الثقة العدل الذي اجتمعت فيه هذه الخصال .

فمن هذه الصفات العدمية كثرة الخطأ^(٢) ومخالفة الثقة لمن هو أوثق^(٣)
منه ، والتفرد الموجب للتوقف في خبر المتفرد ، ومجانبة الابتداع^(٤) ، فإن

وجدت البدعة ، فلا يجوز بحال أن يكون الراوي داعية إليها . ومجانبة
حديث المختلط بعد اختلاطه^(٦) إن علم ، وإلا اجتنب حديثه كله .

على أن ابن حبان - رحمه الله - لم يفته التذكير ، بأنه قد احتج
بجماعة من الرواة الذين اختلف فيهم الأئمة ما بين موثق ومضعف . قال : (فمن
صح عندي منهم بالبراهين الواضحة ، وصحة الاعتبار على سبيل الدين أنه
ثقة ، احتججت به ، ولم أخرج على قول من قدح فيه .

ومن صح عندي بالدلائل النيرة ، والاعتبار الواضح على سبيل الدين
أنه غير عدل ، لم أحتج بخبره ، وإن وثقه بعض أئمتنا^(٧)) .

وقال في آخر صحيحه : (وقد احتجنا في كتابنا هذا بجماعة

قد قدح فيهم بعض أئمتنا ، فمن أحب الوقوف على تفصيل أسمائهم ، فلينظر في

الكتاب المختصر من تاريخ " الثقات " يجد فيه الأصول التي بنينا ذلك

الكتاب عليها ، حتى لا يعرج على قدح قادح في محدث على الإطلاق ممن

غير كشف عن حقيقته .

(١) الصحيح (١ : ٨٧ - ٨٨) .

(٢) ماسبق (١ : ٨٤) .

(٣) ماسبق (١ : ٨٣) .

(٤) ماسبق (١ : ٨٥) .

(٥) ماسبق (١ : ٨٨) .

(٦) ماسبق (١ : ٨٩) .

(٧) الصحيح (١ : ٨٣) .

وقد تركنا من الأخبار المشاهير التي نقلها عدول ثقات، لعل تبين لنا منها الخفاء على عالم من الناس . . . (١)

والنص الأخير يكشف لنا أن رجاله الذين أخرج لهم في صحيحه كتبهم ترجم لهم في الثقات، وأن شرطه في كتاب الثقات هو نفس شرطه في هذا الصحيح . مع ملاحظة الاختيار والانتقاء .

والنص الأول يشير إلى أن ابن حبان قد أعرض عن أحاديث رجال وثقهم بعض الأئمة السابقين بل وأخرج البخاري ومسلم لبعضهم، وأخرج أحاديث رواة أعرض عنهم البخاري ومسلم ومن دونهما، لاعتباراته الخاصة وتتبعه أحوال هؤلاء الرواة، وموازنة مروياتهم، وهو ما عبر عنه بلفظ "الاعتبار الواضح، على سبيل الدين" .

ولا يسعني أن أستعرض هؤلاء الرجال الذين جرحهم ولم يخرج لهم من أخرج له البخاري ومسلم أو أحدهما . كما لا يمكنني مناقشة المروحين الذين أخرج لهم في صحيحه، لأن هؤلاء وأولئك مبحثا يخصهم في البابين السادس والسابع عند حديثي على منهجه في الجرح والعدالة .

(١) الصحيح (١: ٩٤) .

المبحث الرابع : مصادر ابن حبان في صحيحه

إنَّ مصادر كتاب "التقاسيم والأنواع" كثيرة ومتنوعة منها الحديثي رواية ومنها الفقهي ، ومنها ما يتعلق باللغة والغريب ، وما يختص بالعلل والرجال . بيد أنني سأحدث في هذا المبحث عن مصادر التي استقى منها رواياته في الصحيح ، دون الأمور الأخرى اكتفاءً بشهرة ابن حبان فسي بعضها ، وإحالة على كتبه الأخرى في الموضوعات التي طرقها .

قال ابن حبان : (ولعلنا قد كتبنا عن أكثر من ألفي شيخ مائة وستين أسفيجاب إلى الإسكندرية ولم نرو في كتابنا هذا ، إلا عن مائة وخمسين شيخاً ، أقل أو أكثر .

ولعلَّ معلَّ كتابنا هذا يكون على نحو من عشرين شيخاً ، ممن أدركنا السُّنن عليهم ، واقتنعنا برواياتهم عن رواية غيرهم (١) .

فمصادر ابن حبان المباشرة هم شيوخه ، سواء كانوا من المصنِّفين كابن خزيمة والحسن بن سفيان ، وأبي عوانة ، وغيرهم ، أم كانوا من الرواة الجامعين من غير تصنيف كتاب معين .

غير أنَّ هؤلاء أنفسهم قد تلقوا السُّنن من مصادر أخرى ، وشيوخهم تلقوها من مصادر أعلى ، وهكذا .

وعلى هذا ، فإنَّ مصادر ابن حبان هي كتب السُّنة المتقدمة كالموطأ والمسانيد والصَّاح والجوامع والمصنِّفات التي تلقاها بالأسانيد المتصلة إلى روايتها ومؤلفيها .

لكن انتشار علم الرواية ، وكثرة الشيوخ ، جعل ابن حبان وغيره ممن المصنِّفين لا يلتقون بأسانيدهم مع مؤلفي الكتب الأصلية في كثير من الأحيان وإنما يروون هذه الأحاديث من طرق أخرى يلتقى فيها المصنِّف المتأخر مع المصنِّف المتقدم في شيخه أو شيخ شيخه ، وهذا يشبه المستخرجات من بعض الوجوه ، وإن لم يقصد به تصنيف المستخرج .

ورغم تتبعى الدقيق لصحيح ابن حبان فإننى لا أذكر وقوفى على رواية فيها ذكر الإمام مسلم بن الحجاج ، والسبب فى ذلك - والله أعلم - أن شيخ ابن حبان - الإمام أبا عوانة الإسفراينى ، صنف مستخرجا على صحيح مسلم فكان ابن حبان يلتقط الروايات التى يختارها من صحيح مسلم عن شيخه أبا عوانة فى المستخرج .

بينما وجدت له عدة روايات من طريق الإمام البخارى رحمه الله تعالى ، وعددا غير قليل من الروايات عن الإمام أحمد، ومالك ، وسفيان وعبد الرزاق ، وابن أبى شيبة وغيرهم .

وقد قيل بأن صحيح ابن حبان معظمه منتزع من صحيح ابن خزيمة والذى وجدته أن ابن حبان لم يخرج كثيرا من طريق شيخه ابن خزيمة فهناك كثير من الشيوخ فاقت رواياتهم عند ابن حبان ضعفى روايات ابن خزيمة عنده .

فإن قيل : فهو قد رواها بأسانيد أخرى ، قلت : وما حاجته إلى روايتها بأسانيد أخرى وصاحبها كابن خزيمة طو اسناد ومكانة علمية ، ولصحة مصنفات عظيمة فى الحديث الشريف على أن ابن حبان لم ينكر فضل شيخه فقد صرح فى مقدمة المجروحين - كما ذكرت سابقا - بأنه أعلم من رأى بصناعة السنن والتفقه فيها .

والصواب أن لابن حبان منهجه المستقل فى نظم كتابه ، واصطفاء أحاديثه ، مع الاعتراف بإفادته من شيخه ، وليس فى ذلك ضير .

وهب أن صحيح ابن حبان منتزع من صحيح ابن خزيمة ، فإن ذلك لفضل كبير ، حيث حفظ صحيح ابن حبان ، وضاع صحيح ابن خزيمة إلا أقله .

والنص الذى نقلته فى صدر هذا المبحث يشير إلى أن اعتماد ابن حبان على نحو من عشرين شيئا ، ولقد تتبعت روايات شيخه ابن حبان فى بعض أجزاء الصحيح ، فوجدت الذين أكثر عنهم لا يزيدون على العشرين إلا قليلا . وقد ضاعت مصنفات بعضهم ، ولبعضهم مصنفات تنتظر من ينفس عنها الغبار ، ويخرجها لإفادة طلبة العلم منها .

المبحث الخامس: العلاقة بين صحيح ابن حبان

وصحيح ابن خزيمة

قال في توضيح الأفكار : (غالب صحيح ابن حبان منتزح من
صحيح شيخه إمام الأئمة محمد بن خزيمة)^(١) .
وقال ابن حجر في النكت : (ابن حبان تابع لابن خزيمة ، مغترف من
بحره ، ناسج على منواله)^(٢) .
وإنَّ أَىَّ كلام في هذا الصدد نفيًا أو إثباتًا يحتاج إلى دراسة
الكتابين ، للتعرف على منهج كلٍّ منهما في الترتيب ، والتراجم ، والرجال
والكلام على العلل ، ثم للموازنة بينهما .
وإذا قلت : بأنَّ ابن حبان لم ينكر فضل شيخه ابن خزيمة عليه
فليس ابن خزيمة الشيخ الوحيد لابن حبان ، وكونه اغترف من بحره فليس
أول عمره ، لا يعنى أنَّ ابن حبان لم يزد على ما اغترف شيئًا ، فقد عاش ابن
حبان أكثر من أربعين سنة بعد شيخه ابن خزيمة ، والتقى بأكثر من ألفي
شيخ ، فلا يعقل أن يكون ابن حبان قد بقى على المستوى الذى تركه عليه
شيخه ابن خزيمة . حتى بقى عالة على بحره ، ناسجا على منواله .
وسأعرض مسألة واحدة أنتزعتها من صحيح ابن خزيمة ، وأنقل أقوال
ابن حبان فيها ثم أوازن بينهما . . . مع اعترافى بأنَّ الموازنة بين الكتابين
من خلال مسألة واحدة قليلة الجدوى ، إلا أنَّها تلقى ضوءًا على منهج كل
من الرجلين على أى حال ، مع التذكير بأنَّ تناول هذه المسألة من
ترتيب صحيح ابن حبان يفقدها بعض تعليقات ابن حبان التى قد يطلقها
عقب أحاديث تشترك فى النوع الذى تندرج تحته دون نظر إلى موضوعها .

(١) توضيح الأفكار (١ : ٦٤) .

(٢) النكت على ابن الصلاح لابن حجر (١ : ٨١) .

حكم صلاة الوتر

قال ابن خزيمة رحمه الله :

(جماع أبواب ذكر الوتر وما فيه من السنن . باب ذكر الأختيار المنصوصة ، والدالة على أن الوتر ليس بفرض ، لا على ما زعم من ^(١) لم يفهم العدد ولا فرق بين الفرض والفضيلة ، فزعم أن الوتر فريضة ، فلما سئل عن عدد الفرض من الصلاة ، زعم أن الفرض من الصلاة خمس ، فقل له : والوتر ؟ فقال فريضة ، فقال السائل أنت لا تحسن العدد :

- (١) قال أبو بكر بن خزيمة : قد كنت أملت في أول الكتاب ^(٢) خبر طلحة ابن عبيد الله في مسألة الأعرابي النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام وجواب النبي صلى الله عليه وسلم إياه ، فقال : خمس صلوات في اليوم والليلة ، فقال : هل طي غيرهما ؟ قال : لا ، إلا أن تطوع فاطم النبي صلى الله عليه وسلم أن ما زاد من الصلاة على الخمس ، فهو تطوع .
- (٢) قال ابن خزيمة : أخبرنا يعقوب بن إبراهيم الدوري ، وصدا الله بن سعيد الأشج ومحمد بن هشام ، قالوا : حدثنا أبو بكر بن عيَّاش أخبرنا أبو إسحاق بن عاصم بن ضمرة ، قال ، قال طي : إن الوتر ليس بحتم ، ولا كصلاتكم المكتوبة ، ولكن رسل الله صلى الله عليه وسلم أوتر ثم قال :
- (يا أهل القرآن ، أوتروا ، فإن الله وتر يحب الوتر) .

- (١) قال الدكتور الأعظمي : المراد به أبو حنيفة رحمه الله ، علما بأنه لا يقول بفريضة الوتر .
- قلت : قد ثبت بالإسناد الصحيح عند ابن حبان في الثقات أنه سئل - كما هو النص هنا فأجاب بفريضة الوتر . دون قول السائل أنت لا تحسن العدد . الثقات (٨ : ١٠ / ب) فإذا صح هذا فما القول في مذهب الحنفية بأن الوتر واجب عملي ؟ والجواب : إما أن يكون هناك روايتان عن أبي حنيفة ، أو أن أصحابه قالوا بالوجوب وأيا ما كان الأمر فالواجب عند الحنفية كالغرض من حيث إن تاركه يأثم ويعاقب ، فهل يقول الدكتور الأعظمي غير هذا ؟
- (٢) انظر صحيح ابن خزيمة حديث رقم (٣٠٦) وترجم له باب فرض الصلوات الخمس ، والدليل على أن لا فرض من الصلاة إلا الخمس . وأخرج عنه البخاري ومسلم .

قال ابن خزيمة : غير أن الأشج لم يذكر : يا أهل القرآن أوتروا . وقال محمد بن هشام عن أبي إسحاق وحدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي ، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق ، نحو حديث الدورقسي بإسناده ومثله (١) .

(٣) حدثنا بندار ، أخبرنا عبد الله بن حمران ، نا عبد الحميد بن جعفر بن عبد الله ، حدثني أبي - جعفر بن عبد الله - عن عبد الرحمن بن أبي عمرة البخاري أنه سأل عبادة بن الصامت - رضی الله عنه - عن الوتر قال : أمر حسن جميل ، عمل به النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من بعده ، وليس بواجب (٢) .

(٤) قال أبو بكر : قد خرجت في كتاب " الكبير " أخبار النبي صلى الله عليه وسلم في إغلاق ، أن الله فرض عليه وعلى أمته خمس صلوات في اليوم والليلة ، فدلّت تلك الأخبار على أن الموجب للوتر فرضاً على العباد موجب عليهم ست صلوات في اليوم والليلة ، وهذه المقالة خلاف أخبار النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلاف ما يفهمه المسلمون عالمهم وجاهلهم وخلاف ما تفهمه النساء في الخدور ، والصبيان في الكتائب ، والعبيد والإماء ، إذ جميعهم يعلمون أن الفرض من الصلاة خمس لا ست .

(١) قال الشيخ الألباني : إسناده ضعيف لاختلاف أبي إسحاق السبيعي وعننته ، وفي ابن ضمرة كلام يسير ، لكن الحديث حسن بل صحيح ، له ما يشهد له ، وليلك أوردته في صحيح أبي داود رقم (١٢٧٤) . انظر حاشية ابن خزيمة (٢ : ١٣٦) .

والحديث أخرجه أبو داود في الصلاة باب استحباب الوتر رقم (١٤١٦) والترمذي في الوتر ، باب الوتر ليس يحتم رقم (٤٥٣) ، والنسائي في قيام الليل باب الأمر بالوتر (٣ : ١٨٧) . وابن ماجه في إقامة الصلاة باب في الوتر رقم (١١٦٩) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٢ : ٤٦٨) . (٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢ : ٤٦٧) ، ويشهد هذان الحديثان ببعضهما لبعض .

(٥) حدثنا أيوب بن إسحاق ، أخبرنا أبو معمر عن عبد الوارث بن سعيد قال :

سألت أبا حنيفة ، أو سئل أبو حنيفة عن الوتر ، فقال : فريضة فقطت - أو فقليل له - : فكم الغرض ؟ قال : خمس صلوات . فقليل له : فما تقول في الوتر ؟ قال فريضة . فقطت : - أو فقليل له - أنت لاتحسن الحساب .

(٦) باب ذكر الدليل على أن الوتر ليس بفرض .

أخبرنا محمد بن العلاء بن كريب ، أخبرنا مالك - يعني ابن - إسماعيل ، أخبرنا يعقوب ح وحدثنا محمد بن عثمان العجلي ، أخبرنا عبيد الله - يعني ابن موسى - أخبرنا يعقوب - وهو محمد بن عبيد الله القمي - عن عيسى بن جارية ، عن جابر بن عبد الله قال :

صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ، ثمان ركعات والوتر ، فلما كان من القابلة اجتمعنا في المسجد ، ورجونا أن يخرج إلينا فلم نزل في المسجد ، حتى أصبحنا ، فدخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلنا : يا رسول الله ، رجونا أن تخرج إلينا فتصلي بنا ، فقال كرهت أن يكتب عليكم الوتر^(١) .

وقال ابن حبان رحمه الله تعالى يعرض أدلة عدم إيجاب فرضية الوتر :

- ذكر الخبر الدال على أن الوتر ليس بفرض :

(١) أخبرنا عبد الله بن محمد الأزدي ، قال حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال : أخبرنا أبو الربيع الزهراني ، قال : حدثنا يعقوب القمي ، قال حدثنا عيسى بن جارية عن جابر بن عبد الله قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان . . . وساق مثل حديث ابن

(١) قال الشيخ الأعظمي : أخرجه المروزي في كتاب الوتر (ص ١٩٦-١٩٧) من طريق يعقوب ، وعيسى بن جارية فيه لين . وحسن إسناد الحديث حاشية ابن خزيمة (٢ : ١٣٨) وانظر قيام الليل للمروزي (ص ٢٥٢) . وانظر نصب الراية (٢ : ١١٤) ، وانظر فيما سبق كله صحيح ابن خزيمة (٢ : ١٣٦-١٣٨) .

خزيمة، إلا أنه قال في آخره : فقال : إني خشيت، أو كرهت أن يكتب عليكم الوتر . قال أبو حاتم : هذان خبران لفظاهما مختلفان ومعناهما متباينان، إذ هما في حالتين في شهر رمضان، لافسى حالة واحدة، في شهر واحد .

(٢) ذكر الخبر الدال على أن الوتر ليس بفرض :

أخبرنا عبد الله بن محمد بن سلم، قال : ثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال : ثنا الوليد بن الأوزاعي عن الزهري عن عطاء بن يزيد الليثي عن أبي أيوب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ^(١) الوتر حق، فمن شاء فليوتر بخمس، ومن شاء فليوتر بثلاث، ومن شاء فليوتر بواحدة .

(٣) ذكر خبر ثان يدل على أن الوتر ليس بفرض :

أخبرنا محمد بن الحسن بن قتيبة، قال حدثنا حرمة بن يحيى قال حدثنا ابن وهب، قال : أخبرنا يونس بن ابن شهاب، قال : أخبرني عطاء بن يزيد الليثي أنه سمع أبا أيوب الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

الوتر حق، فمن أحب أن يوتر بخمس فليوتر، ومن أحب أن يوتر بثلاث فليوتر، ومن أحب أن يوتر بواحدة فليوتر، ومن غلبه ذلك فليومي إيماء وهذا التخيير مع إباحة الإيماء للقادر على القيام يدل على أنها ليست بفرض، فالغريضة لا يصح فيها الإيماء مع القدرة على القيام .

(٤) ذكر خبر ثالث يدل على أن الوتر غير فرض :

أخبرنا الحسن بن محمد بن أبي معشر - بحرّان - قال : حدثنا عبد الرحمن بن عمرو البجلي، قال حدثنا زهير بن معاوية عن الحسن بن الحر عن نافع عن ابن عمر أنه كان يوتر على البعير ويذكر أن رسول الله

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة باب كم الوتر رقم (١٤٢٢)، والنسائي في صلاة الليل باب ذكر الاختلاف على الزهري في حديث أبي أيوب في الوتر (٣ : ١٩٦ - ١٩٧)، والحاكم في المستدرک (١ : ٣٠٢) - (٣٠٣) صححه .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَفْعَلُ ذَلِكَ^(١) وَوَجْهَ الْاِسْتِدْلَالِ أَنَّ الْفَرِيضَةَ لَا تَجُوزُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، وَلَا إِلَى غَيْرِ الْقِبْلَةِ أَمَا النَّاقِلَةُ فَتَجُوزُ، فَصَحَّ أَنَّ الْوَتْرَ نَاقِلَةٌ وَلَا يَمْنَعُ أَنَّهَا مُؤَكَّدَةٌ .

(٥) ذَكَرَ خَيْرٌ رَابِعٌ يَصْرَحُ بِأَنَّ الْوَتْرَ غَيْرُ فَرْضٍ :

أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ سَنَانَ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَنْ مَالِكٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّهُ قَالَ : كُنْتُ أَسِيرُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ بِطَرِيقِ مَكَّةَ فَلَمَّا خَشِيتُ الصُّبْحَ نَزَلْتُ، فَأَوْتَرْتُ، ثُمَّ أَدْرَكْتَهُ فَقَالَ لِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : أَيْنَ كُنْتَ ؟ فَظَلْتُ : خَشِيتُ الْفَجْرَ فَنَزَلْتُ فَأَوْتَرْتُ فَقَالَ : أَلَيْسَ لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْوَةٌ ؟ فَظَلْتُ : بَلَى، قَالَ : فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْتِرُ عَلَى الْبَعِيرِ^(٢) .

(٦) ذَكَرَ خَيْرٌ خَامِسٌ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَتْرَ لَيْسَ بِفَرْضٍ :

أَخْبَرَنَا ابْنُ خَزِيمَةَ، قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْخَزَاعِيُّ، قَالَ حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا هِشَامُ الدِّسْتَوَائِيُّ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَبِي نُضْرَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : مَنْ أَدْرَكَ الصُّبْحَ فَلَمْ يَوْتِرْ فَلَا وَتِرْ لَهُ^(٣) .

وَوَجْهَ الْاِسْتِدْلَالِ : أَنَّ لَوْ كَانَ الْوَتْرُ فَرِيضَةً لِأَثَمِ الْمَرْءِ بِتَأْخِيرِهِ، وَلَوْ جَبَّ عَلَيْهِ قِضَاؤُهُ فَوَزَّ ذَكَرَهُ وَقَدَّرْتَهُ - حَسَبَ الطَّاقَةِ - فَلَمَّا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فَلَا وَتِرْ لَهُ) دَلَّ عَلَى أَنَّهُ نَاقِلَةٌ مَحْدَدَةٌ بِزَمَنِ هُوَ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَطُلُوعِ الْفَجْرِ، كَمَا فِي حَدِيثٍ آخَرَ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ صَحَّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ غَيْرُ هَذَا^(٤) .

-
- (١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْوَتْرِ بَابِ الْوَتْرِ فِي السَّفَرِ رَقْمَ (٩٥٥) وَمُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ بَابِ جَوَازِ صَلَاةِ النَّاقِلَةِ عَلَى الدَّابَّةِ فِي السَّفَرِ رَقْمَ (٧٠٠) (ص ٣٨ - ٣٩) .
- (٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْوَتْرِ بَابِ الْوَتْرِ عَلَى الدَّابَّةِ رَقْمَ (٩٥٤) ، وَمُسْلِمٌ فِي صَلَاةِ الْمَسَافِرِينَ بَابِ جَوَازِ صَلَاةِ النَّاقِلَةِ عَلَى الدَّابَّةِ فِي السَّفَرِ رَقْمَ (٧٠٠) (٣٦) وَالتِّرْمِذِيُّ فِي أَبْوَابِ الصَّلَاةِ بَابِ مَا جَاءَ فِي الْوَتْرِ عَلَى الدَّابَّةِ رَقْمَ (٤٧٢) ، وَمَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ بَابِ الْأَمْرِ بِالْوَتْرِ (١٢٤:١) .
- (٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ خَزِيمَةَ فِي صَحِيحِهِ بَابِ النَّائِمِ عَنِ الْوَتْرِ أَوْ النَّاسِي رَقْمَ (١٠٩٢) ، وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١ : ٣٠١ - ٣٠٢) وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .
- (٤) انْظُرْ جَامِعَ التِّرْمِذِيِّ (٢ : ٣٣٠) فَمَا بَعْدَهَا وَتَعْلِيقَ الشَّيْخِ أَحْمَدَ شَاكِرَ عَلَى الْحَدِيثِ .

(٧) ذكر خبر سادس يدل على أنَّ الوتر غير فرض :
أخبرنا أبو يعلى ، قال : حدثنا أبو الربيع الزهراني ، قال : حدثنا
يعقوب القمي . . بإسناده ولفظه مثل الخبر الأول .

(٨) ذكر خبر سابع يدل على أنَّ الوتر غير فرض :
أخبرنا طي بن أحمد الجرجاني - بحلب - قال : حدثنا علي بن
نصر الجهضمي ، ثنا نوح بن قيس عن قتادة عن أنس ، أنَّ رجلاً قال : يا رسول
الله ، كم افترض الله على عباده من الصلوة ؟ قال : خمس صلوات ، قال : هل
قبلهن أو بعدهن شيئاً ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : افترض الله على
عباده صلوات خمساً ، قال : فحلف الرجل بالله لا يزيد عليهن ولا ينقص ففسال
النبي صلى الله عليه وسلم : (إن صدق دخل الجنة)^(١) وليس الوتر من هذه
الصلوات قطعاً .

(٩) ذكر خبر ثامن يدل على أنَّ الوتر غير فرض :
أخبرنا عمر بن محمد الهمداني ، قال : حدثنا محمد بن بشار ، قال
حدثنا ابن أبي عدي عن شعبة ، عن عبد ربه بن سعيد ، عن محمد بن
يحيى بن حبان عن ابن محيريز عن المحدث جى قال : سألت رجلاً أبا محمد
- رجلاً من الأنصار - عن الوتر ، فقال الوتر واجب كوجوب الصلوة فأتى عبادة
ابن الصامت ، فذكر ذلك له ، فقال : كذب أبو محمد ، سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : (خمس صلوات افترضهن الله على عباده فمن لم
ينتقص منهن شيئاً استخفافاً بحقهن ، فإنَّ الله - جل وعلا - جاعل له يوم
القيامة عهداً أن يدخله الجنة .

ومن جاء بهن وقد انتقص منهن شيئاً استخفافاً بحقهن لم يكن له
عند الله عهد ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له)^(٢) .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان باب السؤال عن أركان الإسلام رقم (١٢) .
والترمذي في الزكاة باب ما جاء : إذا أدت الزكاة فقد قضيت ما عليك
رقم (٦١٩) . وأخرج البخاري نحوه في العلم باب ما جاء في العلم
رقم (٦٣) .

(٢) أخرجه مالك في صلاة الليل باب الأمر بالوتر (١ : ١٢٣) وأبو داود في
الصلوة باب في المحافظة على وقت الصلاة رقم (٤٢٥) ورقم (١٤٢٠) .
والنسائي في الصلاة باب المحافظة على الصلوات الخمس (١ : ١٨٦)
وغيرهم .

(١٠) ذكر خبر تاسع يدل على أن الوتر ليس بفرض :
أخبرنا الفضل بن الحباب الجمحي ، قال : حدثنا موسى بن إسماعيل
قال : حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة أن النبي
صلى الله عليه وسلم قال :

(الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ما لم
تغش الكبائر)^(١) .

(١١) ذكر خبر عاشر يدل على أن الوتر غير فرض على أحد من المسلمين :
أخبرنا الحسن بن سفيان ، قال : حدثنا أمية بن بسطام ، قال : حدثنا
يزيد بن زريع ، قال : حدثنا روح بن القاسم عن إسماعيل بن أمية عن يحيى
ابن عبد الله بن صيفي ، عن أبي معبد عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى
الله عليه وسلم لما بعث معاذًا إلى اليمن قال : (إنك تقدم على قوم من أهل
الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله ، فأخبرهم
أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوه فأخبرهم
أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أموالهم فتد على فقرائهم ، فإذا
أطاعوا بهذا ، فخذ منهم ، وتوق كرائم أموال الناس)^(٢) .

قال أبو حاتم^(٣) : الاستدلال بمثل هذه الأخبار على أن الوتر ليس
بفرض يكثر ، وفيما ذكرنا منها غنية لمن وفقه الله السداد ، وهداه لسلك
الرشاد ، أن الوتر ليس بفرض وكان بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم
معاذ بن جبل ، قبل خروجه من الدنيا بأيام يسيرة وأمره صلى الله عليه وسلم
أن يخبرهم بأن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ولو كان
الوتر فرضاً ، أو شيئاً زاده الله - جل وعلا - للناس على صلواتهم ، كما زعم من

(١) أخرجه مسلم في الطهارة باب الصلوات الخمس رقم (٢٣٣) والترمذي
في الصلاة باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس رقم (٢١٤) . وقال

حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة باب وجوب الزكاة رقم (١٣٣١) ومواضع عدة
ومسلم في الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين رقم (١٩) ، وأبو داود

في الزكاة باب ما تجب فيه الزكاة رقم (١٥٨٤) وغيرهم .

(٣) صحيح ابن حبان (٢ : ١٦٠ - ١٦٣) .

جهل صناعة الحديث، ولم يميز بين صحيحها وسقيمها، لأمر المصطفى صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل أن يخبرهم أن الله - جل وعلا - فرض عليهم ست صلوات لا خمسا، ففيما وصفنا أبين البيان بأن الوتر ليس بفرض وبالله التوفيق^(١) . ا. هـ .

وان متابعة هذه المسألة ودراستها عند الشيخين ابن خزيمة وابن حبان نخلص منه إلى الأمور التالية :

(١) أن كلا من ابن خزيمة وابن حبان يحمل على الحنفية، بأنهم يخالفون السنن، ويخصون أبا حنيفة بأنه يجهل صناعة الحديث إلا أن ابن خزيمة كان في هذه المسألة أشد من ابن حبان. فقد جعل ابن خزيمة أبا حنيفة دون الصبيان والعبيد والإماء في فهم هذه الشريعة. وقد صرح ابن خزيمة باسم أبي حنيفة فنقل بالإسناد المتصل حكاية إيجاب الوتر، بعد تقريره ذاك. بينما اكتفى ابن حبان بالتعريض دون التصريح. وعلى هذا فيمكننا القول بأن مناقشة ابن حبان للحنفية كانت أكثر موضوعية وتجردا - في هذه المسألة - من شيخه .

(٢) أن ابن خزيمة يحيل على مواضع أخرى من صحيحه لتوضيح ما يريد أو على بعض كتبه الأخرى أيضا، مما يجعل القارىء غير قادر على استجماع أدلته في لحظة الحاضرة، بل عليه أن يستجمع كتبه أولا بينما قال ابن حبان في صحيحه^(٢) : (وأنتكب عن ذكر المعاد فيه إلا في موضعين :

- ١ - إما لزيادة لفظة لا أجد منها بدا .
- ٢ - أو للاستشهاد - بالخبر المعاد - على معنى في خبر ثمان فأما في غير هاتين الحالتين فإني أنتكب عن ذكر المعاد في هذا الكتاب) .

(١) صحيح ابن حبان (٤ : ٥٩ - ٦٣) .

(٢) الترتيب (١ : ٩١) .

وقد كرر ابن حبان بعض طرق الأحاديث في هذه المسألة ، كما
في الحديث الأول والسادس فقد كرره ليرويه من طريق شيخ آخر
وليستدل به بعد حديث أبي سعيد بأن الصحابة لم يعيدوا الوتر .
واستجمع ابن حبان أحاديث المسألة - مع الاختصار وذكر الأهم -
بما يوضح الصورة أمام القارئ مباشرة ، ودون عودة إلى مصادر أخرى
وإن أشار إلى تلك المصادر ، فإنه لا يتوانى بإعطاء صورة وجيزة
واضحة عن تلك المسألة المطروحة .

(٣) أن ابن خزيمة قرر في الترجمة أن أبا حنيفة لا يفهم العدد ، ولا يفرق
بين الفريضة والفضيلة ثم استدل على قوله بالأحاديث ، بينما رأينا
ابن حبان عرض أدلته ، والمخ إلى وجه الاستدلال منها من خلال
ترتيبه وسياقه الأحاديث ، وهب على بعضها بما يفهم منها ثم قرر
حكمه على الحنفية بأنهم يجهلون صناعة السنن دون ذكرهم بالاسم .
ولاريب أن عرض الأدلة أولاً ، والوصول إلى النتيجة من ورائها أقوى
وأحسن علمياً وأدبياً .

(٤) أما عن اختيار المتن فليس ثمة فارق يذكر بين أحاديث هذه المسألة
بينهما ، إضافة إلى أن ابن حبان قد روى أحد هذه الأحاديث
العشرة من طريق شيخه ابن خزيمة .

(٥) وأما الرجال : فقد أخرج ابن خزيمة حديث طي وفي إسناده أبو
إسحاق السبيعي وقد اختلط وعن الحديث ، بينما لم يخرج
ابن حبان لأنه لم يجده من طريق آخر ، كما لم يصرح هو بالسماع
وتصحيح الشيخ ناصر له باعتبار شواهد ، كما أنه لم يخرج حديث
عبادة بن الصامت الذي أخرجه ابن خزيمة للكلام الذي في عبد الله بن
حمران ، وعبد الحميد بن جعفر ، فقد قال ابن حجر عن الأول صدوق
يخطئ قليلاً ، وعن الثاني صدوق ربما وهم ، رمى بالقدر . وهذا
الحديث مما انفرد به عبد الحميد . فالله أعلم بإعراض ابن حبان
عن إخراجه .

ولعلَّ ابن حَبَّان لم يخرِّجه لما سبق ، ولأنه وما قبله موقوفان ، والخصوم
يحتجون بالمرفوعات ، فقارح الحجَّة بمثلها .
والملاحظ أنَّ الأحاديث الثلاثة التي استدل بها ابن خزيمة ، لم
يستدل ابن حَبَّان إلاَّ بحديث جابر منها ، كما لم يستدل بحديث طلحة
ابن عبيد الله الذي أحال عليه ابن خزيمة ، وإنَّما استدل بحديث عبادة .
وهذا يدل على أنَّ لابن حَبَّان استقلالاً تاماً في اختيار أدلته
وتصنيفها ، وكيفية الاستدلال بها وهذا لا يعنى ترجيح صحيح ابن حَبَّان
على صحيح ابن خزيمة ، إلاَّ أنه يبين أنَّ لابن حَبَّان شخصيته المتميزة فيما
يأخذ من الحديث ويترك ، وفيمن يخرج لهم من الرجال ، أو لا يخرج لهم .
على أنَّى لا أنكر وجود رجال خرج لهما الشَّيخان كلاهما من تكلم
فيهم (كمحمد بن إسحاق ، وأسامة بن زيد الليثي ، ومحمد بن عجلان
ومحمد بن عمرو بن علقمة ، وغير هؤلاء) .
وهؤلاء كلهم أخرج لهم مسلم وأخرج البخارى لهم تعليقا ماعدا
الأخيراً فإنه روى له البخارى متابعه^(١) .
والحقيقة أنَّ الترجيح بين الكتابين لا يتأتى بمسألة كهذه ، بل
لابد له من دراسة مستقلة .

(١) انظر التكت على ابن الصَّلاح (١ : ٨١) .

المبحث السادس : بعض الرجال المنتقد يــــن
على ابن حبان في صحيحه
~~~~~

قال ابن حبان<sup>(١)</sup> رحمه الله تعالى : ( وقد احتجنا في كتابنا هذا  
بجماعة قد قدح فيهم بعض أئمتنا ، فمن أحب الوقوف على تفصيل أسمائهم  
فلينظر في الكتاب المختصر في ( تاريخ الثقات ) يجد فيه الأصول التي بنينا  
ذلك الكتاب عليها ، حتى لا يعرج على قدح قادح في محدث على الإطلاق  
من غير كشف عن حقيقته .

وقد تركنا من الأخبار المشاهير التي نظها عدول ثقات ، لعل  
تبين لنا منها على عالم من الناس جوامعها . . . ) .  
ففي هذا النص ثلاثة أمور :

الأول : أن ابن حبان ليس بغافل عن الرواة المنتقدين عليه ، فهو  
يعرف رجاله واحداً واحداً ولكنه عرف أن القدح الموجه إليهم لا يؤثر على  
عدالتهم فأخرج عنهم .

والثاني : أنه ارتضى منهجه في كتابه الثقات لبيان حال الراوي  
ووضعه في ميزان النقد عنده . ومنهجه في كتابه الثقات يتلخص في توثيق  
كل رجل لم يجرح ، وروى عنه رجل ثقة سواء كانت له رواية ، أو لم تكن له رواية  
وسواء كان معروف الحال أو مجهول الحال ، بل ذكر طائفة كبيرة من مجهولي  
العين ، ونص على أنه لا يعرفهم ، كما ذكر في الثقات خلقا ليس لهم  
إلا راو واحد . وفي الباب السادس ان شاء الله بيان ذلك كله .

والذي يعنيننا هنا أن نقول : لا ريب أن ابن حبان قد اصطفى روايته  
في الصحيح من بين عشرين ألف راو ، أو يزيدون ، ذكرهم في الثقات ، بيد  
أن منهجه في صحيحه ينطبق تماما مع المنهج الذي ارتضاه في كتابه  
( الثقات ) .

---

( ١ ) الإحسان ( ١ : ١٥٥ ) .

وسأورد بعض الرجال الذين نزلت مرتبتهم عن درجة الوثاقة - عند الحافظ - ممن أخرج لهم ابن حبان في صحيحه ، مشيراً إلى أرقام الأحاديث في موارد الظمان ، مع ذكر من أخرج لهم من أصحاب الكتب الستة ، معتمداً التقريب في ذلك تاركاً الدراسة التطبيقية إلى موضعها في الباب السادس إن شاء الله تعالى .

ومما ينبغي التذكير به أنّ كثيراً من الرواة المنتقدين قد أخرج لهم البخاري ومسلم أو أحدهما ، وهم مما انتقد عليهم إخراج أحاديثهم وهناك رواية لم يخرج الشيخان لهم ، وأخرج لهم أصحاب السنن ، كما أنّ ثمة رواية لم يخرج لهم أصحاب السنن .

وسأعرض هؤلاء الرواة بدءاً من درجة صدوق فما دونها ، مشيراً إلى الصفة التي جعلت هذا الصدوق غير محتج به بشكل عام .

### المطلب الأول : مرتبة الصدوق

- (١) صدوق سيء الحفظ : ومن هؤلاء الرواة الذين وصفهم الحافظ بذلك :  
 إبراهيم بن عبد الرحمن السكسكى (٤٧٣) (خ د س) ، وإسحاق بن  
 محمد بن إسماعيل الغروي (١١٠٤) (خ ق ت) ، والحكم بن عبد الرحمن بن  
 أبي نعم (٢٢٢٨) (س) ، وموسى بن مسعود النهدي (٢٤٨٩) (خ د ق)  
 والنعمان بن راشد الجزري (١٤٧٠) (خت م ع) .
- (٢) صدوق يهيم - له أوهام - ومن هؤلاء :  
 إبراهيم بن يوسف بن إسحاق السببى (٢١١٤) (خ م ٣) ، أسامة  
 ابن زيد الليثي (٢٧٩ ، ٣٩٣ ومواضع كثيرة) (خت م ع) ، جابر بن عمرو  
 الراسبي (٢٣١٤) (بخ م ت ق) ، جبر بن نوف البكالى (١٠٧٧) (٤م) ،  
 حاتم بن إسماعيل العدنى (٢٤١١ ومواضع) (ع) .
- (٣) صدوق يخطئ : ومن هذه المرتبة :  
 سلمة بن الفضل الأبرشي (٦٠) (د ت فق) ، سليمان بن حيَّان  
 الأزدي (٤٦٨ ومواضع) (ع) ، شداد بن سعيد أبو طلحة الراسبي  
 (١٧٧٨ ومواضع) (م صد ت س) ، عبد الرحمن بن حرمة الأسلمى  
 (٣٧٤) (٤م) ، عبد الرحمن بن أبي الموالي (٥٢) (خ ع) .
- (٤) صدوق تغير بآخرة : من هذه المرتبة :  
 خلف بن خليفة بن صاعد (٥١١ ، ٩٦٠ ومواضع) (بخ م ع) ، سليمان  
 ابن موسى الأموى الأشدق (٦٣٤ ومواضع) (٤م) ، سهيل بن أبي  
 صالح ذكوان السَّمان (٢١٧ ، ٤٤٤ ومواضع) (ع) ، عطاء بن السائب  
 (٣٦ ومواضع) (خ ع) ، عمرو بن عيسى أبو نعمة العدوى (٢٥٨٩) (مق قد تم)
- (٥) صدوق يخالف - ربما خالف : من هذه المرتبة :  
 عبد الرحمن بن ثروان (١٧٦ ومواضع) (خ ع) ، عبد الرحمن بن سليمان  
 الغسيلي (٢٠٣٠) (خ م) ، عبد الرحمن بن عطاء القرشي (١٠٣٩) (د ت)  
 وغيرهم .

### المطلب الثاني : مرتبة الإعتبار

ومرتبة الإعتبار تحتوى ألفاظا كثيرة ، إلا أنَّ قصى هنا مراتب (ليس الحديث ، مقبول ، ليس بالقوى ) .

( ١ ) مرتبة مقبول : وهذه أكثر المراتب رواة فقد زادت عدد الرجال فيها على مائة وعشرين رجلا منهم :

إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ( ١٥ ) ( د ) ، إسماعيل بن عبد الله ابن رفاعة ( ١٠٩٥ ) ( بخ ت ق ) ، ثعلبة بن عباد العبدي البصرى ( ٥٩٧ ) ( ع خ ) ، ثعامة بن شواحيل اليماني ( ١١٤٠ ) ( د ت س ) ، ربيعة بن سليم التجيبى ( ١٦٧٥ ) ( ت ) ، زائدة بن شيط الكوفى ( ٦٥٧ ) ( د ت ق ) .

( ٢ ) لين الحديث : ومن هذه المرتبة :

الحارث بن زياد الشامى ( ٨٨٢ ) ( د س ) ، الزبير بن سعيد بن سليمان النوفلى ( ١٣٢١ ) ( د ت ق ) ، سليمان بن عبد الله بن الزبير بن صالح ( ١٣٨٧ ) ( ق ) ، سويد بن عبدالعزيز السلمى ( ١٦٢٥ ) ( ت ق ) ، صالح ابن يحيى الكندى ( ١٣٤٨ ) ( د س ق ) ، هارم بن شقيق بن جمزة الأسدى ( ١٥٤ ) ( د ت ق ) .

( ٣ ) ليس بالقوى : من هذه المرتبة :

محمد بن عبد الطك أبو جابر الأزدي ( ١٢٨٧ ) قال أبو حاتم : ليس بالقوى . عبيد الله بن عبد الرحمن بن موهب التيمى ( ٢١٢٥ ، ٤١٠ ، ٥٢ ) ( بخ د س ) .

( ١ ) وذكره فى الجروحين ( ١ : ٣٥٠ ) .

المطلب الثالث : مرتبة الضَّعيف

إبراهيم بن إسماعيل الجوهري (١٣٥) (د ت س) ، إبراهيم بن  
 قعيس (٢٥٤٠) (قال أبو حاتم ضعيف) ، أشعث بن سوار الكنـدي  
 (٣٥١) (بخ م ق ت س) ، بشار بن كدام السُّلمي (١١٢٥) (ق) ، داود  
 ابن جميل (٨٠) (د ق) ، عبدالله بن عيسى الخزار (٨١٦) (ز س) .



المطلب الرابع : المجاهيل

- ( ١ ) مرتبة المستور : فمن هذه المرتبة :
- عبد الله بن علي بن السائب المطلبي ( ١٣٠٠ ) ( د س ) ، علي بن يزيد بن ركانة ( ١٣٢١ ) ( د ق ) ، عمارة بن ثوبان الحجازي ( ٣٩٧ ) ( بـ خ د ق ) ، عمرو بن عثمان بن هاني\* المدني ( ١٨٤١ ) ( د ق ) .
- ( ٢ ) مرتبة مجهول الحال : وقفت في هذه العجالة على راو واحد هو :
- عبدالرحمن بن أبي كريمة والد إسماعيل السدي ( ٧٧٧ ) ( د ت ) .
- ( ٣ ) مرتبة المجهول : فمن رجال هذه المرتبة :
- إسماعيل بن عبد الله بن خالد القرشي ( ١٦٦٤ ) قال ابن أبي حاتم : مجهول . ، أعين الخوارزمي ( ٢٤٨٩ ) ( ع ) ، بجير بن أبي بجير ( ٢١١٣ ) ( د ) ، حليج بن حجاج الأسلمي ( ١٢٥٣ ) ( تمييز ) ، حصين الحميري الحبراني ( ١٣٢ ) ( د ق ) .

### المطلب الخامس : مرتبة التترك

إبراهيم بن هانى\* (٢١٦٥) قال أبو حاتم : روى بواطيل  
 إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني (٣٢٢، ٩٤) وموضع ، قال أبو  
 حاتم : شيخ يكذب ، أحمد بن سلمة (١٣٠٥) قال أبو حاتم : كذاب ،  
 الحارث بن سريح النقال (١٥) ، قال ابن عدى : يسرق الحديث ، عبد  
 الله بن هانى\* بن عبد الرحمن (٢٥٠٣) (قال أبو حاتم : شيخ يكذب) .  
 عمران بن حطان السدوسي الخارجي (١٥٦٣) داعية إلى خارجيته  
 وهذان الآخران إنما ذكرتهما ههنا لأنهما دعاة إلى مذهبهما البدعي  
 أما الأول فشيعة محترق ، وأما الآخر فخارجي داعية . ومذهب ابن حبان  
 عدم جواز الرواية عن الداعية إلى البدعة .

وهؤلاء الرجال الذين ذكرتهم ومن هم على شاكلتهم لابد من دراسة  
 مروياتهم عند ابن حبان حتى يمكننا إعطاء تفسير صحيح لإخراج ابن حبان  
 لهم في صحيحه ، وحتى نتمكن من الحكم على منهج ابن حبان بالصواب  
 أو الخطأ . والله الموفق لمرضاته .

### المبحث السابع : أوهام ابن حبان في الصحيح

لقد تعقب الحفاظ الإمام ابن حبان في صحيحه ، كما تعقبوه في الثقات والمجروحين ، وذكر الذهبي أنه قرأ بخط الحافظ الضياء في جزء طقه مأخذ على كتاب ابن حبان .

وقال الذهبي : ( في تقاسيمه من الأقوال ، والتأويلات البعيدة والأحاديث المنكرة عجائب ) .

وقد ذكرت في الباب الثاني أن الحفاظ ابن الصلاح والنووي وابن كثير قد وهموا ابن حبان في بعض ما ذهب إليه في صحيحه ، وقد نقل الذهبي أن ابن الصلاح ترجمه في طبقات الشافعية وقال : غلط الغلط الفاحش في تصرفه . قال الذهبي : وصدق أبو عمرو بن الصلاح : لسه أوهام كثيرة تتبع بعضها الحافظ ضياء الدين ) .

قلت : إن ابن حبان من أوعية العلم ، ومن جبال المعرفة ، وصحيحه بديع فريد في بابه ، ولا يغض من قدره ، ولا يحط من منزلته أن يكون هفا فيه أو أخطأ ، شأنه في ذلك شأن أقرانه من أهل العلم ، فلا يعرف عالم سوى الأنبياء ، لم يخطئ . . . فالبشر لا ينفكون من الخطأ مهما عظموا .

وسأذكر بعض هذه المآخذ ، والملاحظات لنرى هل تتناسب مع قول ابن الصلاح والذهبي ؟

( ١ ) النبلاء ( ١٦ : ٩٨ ) .

( ٢ ) ما سبق ( ١٦ : ٩٧ ) .

( ٣ ) الميزان ( ٣ : ٥٠٧ ) .

المطلب الأول : حديث الوصال

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> في صحيحه حديث أنس بن مالك قال : ( واصل النبي صلى الله عليه وسلم آخر الشهر، وواصل أناس من الناس، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : لو مد بي الشهر، لوصلت وصالا يسعد المتعمقون تعمقهم، إنني لست مثلكم إنني أظل يطعمني ربي ويسقني ) . وعقب عليه بقوله<sup>(٢)</sup> :

( في هذا الخبر دليل على أن الأخبار التي فيها ذكر وضع الحجر على بطنه هي كلها بواطيل ، وإنما معناها الحجز ، لا الحجر ، والحجز طرف الإزار ، إذ الله - جلَّ وعلا - يطعم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويسقيه إذا واصل ، فكيف يتركه جائعا مع عدم الوصال ، حتى يحتاج إلى شـد حجر على بطنه ، وما يغني الحجر من الجوع ؟ ) .

قال الذهبي<sup>(٣)</sup> : ( قلت : فقد ساق في كتابه حديث ابن عباس فسـى خروج أبي بكر وعمر من الجوع فلقيا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبراه ، فقال أخرجني الذي أخرجكما ) فدلَّ على أنه كان يطعم ويسقى في الوصال خاصة ، يريد الذهبي أن ابن حبان قد ناقض نفسه ، فمرة يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطعم في الوصال خاصة ، ومرة يقول : إذا كان يطعم في الوصال ، فكيف يترك جائعا ، ثم ما يغني شد الحجر من الجوع ؟ قال الحافظ<sup>(٤)</sup> تعليقا على قول ابن حبان : ( وأما قوله : وما يغني

- 
- ( ١ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه . انظر الإحسان ( ٥ : ٢١٢ ) وأخرجه البخاري في التمني باب ما يجوز من اللورقم ( ٦٨١٤ ) واختصره في الصوم باب الوصال رقم ( ١٨٦٠ ) وطلقه في باب التنكيل لمن أكثر الوصال . ومسلم في الصوم باب النهي عن الوصل في الصوم رقم ( ١١٠٤ ) ، وقد قصّر الشيخ شعيب الأرنؤوط في حاشية النبلاء ( ٩٨ : ١٦ ) فعزاه لمسلم وحده .
- ( ٢ ) الإحسان ( ٥ : ٢١٢ ب ) .
- ( ٣ ) النبلاء ( ٩٨ : ١٦ ) .
- ( ٤ ) فتح الباري ( ٤ : ٢٠٨ ) .

الحجر من الجوع، فجوابه : أنه يقيم الصُّلب، لأنَّ البطن، إذا خلا ريمسا  
ضعف صاحبه عن القيام، لانتثاء بطنه عليه، فإذا ربط عليه الحجر، اشتد  
وقوى صاحبه على القيام) .

والذى بيدولى أن تناقض ابن حبان هو سبب الاعتراض عليه، ولو أنه  
بقى على رأيه من أن النبي صلى الله عليه وسلم يطعمه ربه ويسقيه، لكان  
لمذهبه وجه قوى .

وللايمام السُّبكي تقي الدين كلام طيب ينظر في طبقات الشافعية<sup>(١)</sup>  
حول هذه المسألة .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٢: ١٤٢) .

### المطلب الثاني : عمر النبي صلى الله عليه وسلم وأزمانها

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث مجاهد قال : دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد، فإذا عبد الله بن عمر جالس إلى حجرة عائشة، وإذا الناس يصلون في المسجد صلاة الضحى، فسألناه عن صلاتهم، فقال بدعة . ثم قال (اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعاً إحداهن في رجب، فكرهننا أن نكذبه)<sup>(٢)</sup>، أو نرد عليه، وسمعنا استئذان عائشة في الحجرة، فقال عسيرة يا أم المؤمنين، ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ قالت: وما يقول؟ قال يقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر إحداهن في رجب فقالت يرحم الله أبا عبد الرحمن . ما اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرة إلا وهو شاهد، وما اعتمر في رجب قط). قال ابن حبان<sup>(٣)</sup> :

(في قول ابن عمر : اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عمر إحداهن في رجب، أبين البيان أن الخير المتقن الفاضل قد ينسى بعض ما يسمع من السنن أو يشهداها، لأن المصطفى صلى الله عليه وسلم ما اعتمر إلا أربع عمر : الأولى : عمرة القضاء بسنة القابل من عام الحديبية وكان ذلك في رمضان . ثم العمرة الثانية حين فتح مكة، وكان فتح مكة في رمضان، ثم خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل هوازن، وكان من أمره ما كان، فلما رجع وبلغ الجعرانة، قسم الفنائم بها، واعتمر منها إلى مكة، وذلك في شوال . واعتمر العمرة الرابعة في حجته، وذلك في ذي الحجة سنة عشر من الهجرة) .

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٦ : ٩٣) من الإحسان . وأخرجه البخاري في العمرة رقم (١٧٧٥) باب كم اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم رقم (١٢٥٥) .  
 (٢) نكذبه : أي نخطئه .  
 (٣) الإحسان (٦ : ٩٣) .

قال الذهبي في النبلاء<sup>(١)</sup> : وهم أبوحاتم كما ترى في أشياء ، ففي  
الصحيحين<sup>(٢)</sup> لأنس : (اعتمر نبي الله أربع عمر، كلهن في ذي القعدة ، إلا  
التي مع حجته : عمرته من الحديبية ، ومن العام المقبل ، ومن الجعرانة  
حيث قسم فنائم حنين ، وعمره من حجته ) .

---

(١) النبلاء<sup>٤</sup> (١٦: ١٠١) وقد وقع تحريف في النبلاء (إلا التي من حجته  
عمره الحديبية) والتصحيح من البخاري .  
(٢) أخرجه البخاري في العمرة . باب كم اعتمر النبي صلى الله عليه وسلم  
رقم (١٦٨٨) ومسلم في الحج باب بيان عدد عمر النبي صلى الله  
عليه وسلم رقم (١٢٥٣) وانظر ما كتبه ابن القيم في الزاد (٢: ٩٢)  
والحافظ في الفتح (٣: ٦٠٠) .

المطلب الثالث : طواف النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى نِسَائِهِ فِي لَيْلَةِ

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث أنس : ( كان النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطوف على نساءه في الليلة الواحدة ، وله تسع نسوة ) وفي رواية الدستوائسي من قتادة ، وهن : إحدى عشرة نسوة .

قال ابن حبان : فحكى أنس ذلك الفعل منه أول قدمه المدينة حيث كان تحته إحدى عشرة امرأة ، والخبر الأول إنما حكاه أنس في آخر قدمه المدينة ، حيث كانت تحته تسع ، لأن هذا الفعل كان منه مرات .

قال الذهبي<sup>(٢)</sup> : أول قدمه فما كان له سوى امرأة ، وهي سودة ، ثم إلى السنة الرابعة من الهجرة لم يكن عنده أكثر من أربع نسوة ، فإنه بسني بحفصة وبأم سلمة في سنة ثلاث ، وقبلهما سودة وعائشة ، ولا نعلم أنس اجتماع عنده في آن إحدى عشرة زوجة .

(١) الإحسان (٢: ٣٧١) ، واللفظ مقارب لما عند الذهبي في التنبلاء

(١٠٠٤١٦) وأخرجه البخاري في الغسل باب إذا جامع ثم عماد

رقم (٢٦٥) ومواضع أخرى .

(٢) التنبلاء (١٠٠: ١٦) وانظر كلام ابن حجر في الفتح (١: ٣٧٨) .



### المطلب الرابع : المدة بين إسماعيل وداود عليهما السلام

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث أبي ذر قال : قلت يا رسول الله ، أى مسجد وضع ؟ فقال : المسجد الحرام ثم المسجد الأقصى ، قلت : كم كان بينهما ؟ قال : كان بينهما أربعون سنة . . . . .

نقل الذهبى وابن حجر وغيرهما عن ابن حبان قال : ذكر الخسبر المدحض قول من زعم أن بين إسماعيل وداود ألف سنة .

قال الحافظ<sup>(٢)</sup> : ( وقد مشى ابن حبان فى صحيحه على ظاهر هذا الحديث . . . . . وقال الحافظ : ( ولو كان كما قال ، لكان بينهما أربعون سنة ؟ وهذا عين المحال لطول الزمان بالاتفاق بين بناء إبراهيم عليه السلام البيت ، وبين موسى عليه السلام ) . ثم إن فى نص القرآن أن قصة داود فى قتل جالوت كانت بعد موسى بمدة ، وقد تعقب الحافظ الضياء بنحو ما أجاب به ابن الجوزى . وكان ابن الجوزى قد قال : فيه إشكال لأن إبراهيم بنى الكعبة وسليمان بنى بيت المقدس ، وبينهما أكثر من ألف سنة ) ووجه الحافظ فى الفتح قول ابن الجوزى .

أما ابن القيم<sup>(٣)</sup> فإنه ذكر بأن سليمان جدد المسجد الأقصى ، والذى بناه هو يعقوب عليه السلام بعد بناء الكعبة المشرقة بأربعين سنة .

(١) الإحسان (٣: ٩٥) . وأخرجه البخارى فى الأنبياء باب (١٠) رقم (٣٣٦٦) من الفتح (٦: ٤٠٧) ، ومسلم فى أول المساجد رقم

(٥٢٠) .

(٢) فتح البارى (٧: ٤٠٩) .

(٣) زاد المعاد (١: ٤٩) .

### المطلب الخامس: أين قبر موسى عليه السّلام

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث أنس في الإسراء، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مررت ليلة أسرى بي على موسى عليه السّلام وهو قائم يصلي في قبره عند الكتيب الأحمر. . .)

ثم قال<sup>(٢)</sup>: (الله جل وعلا قادر على ما يشاء، ربما يعد الشيء لوقت معلوم، ثم يقضى كون بعض ذلك الشيء يأتي قبل مجيء ذلك الوقت كوعده إحياء الموتى يوم القيامة، وجعله محد ودا، ثم قضى أن يحيى بعض الناس، . . . وكإحياء الله جل وعلا لعيسى بن مريم بعض الناس صح وجود كون هذه الحالة في البشر إذا أراد الله جل وعلا قبل يوم القيامة، لم ينكر أن الله جل وعلا أحى موسى في قبره حتى مرّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به، وذلك أن قبر موسى بمدين بسين المدينة وبيت المقدس، فرآه صلى الله عليه وسلم يدعو في قبره إذ الصلاة دعاء).

قال الحافظ<sup>(٣)</sup>: (وزعم ابن حبان أن قبر موسى بمدين بين المدينة وبيت المقدس، وتعقبه الضياء بأن أرض مدين ليست قريبة من المدينة ولان بيت المقدس. وقد اشتهر عن قبر بأريحا عند كتيب أحمر أنه قبر موسى، وأريحا من الأرض المقدسة).

قلت: ولعلّ سبب وهم ابن حبان أن مدين (مدينة تجاه تبوك بسين المدينة والشام على ست مراحل وبها استقى موسى لبنات شعيب)<sup>(٤)</sup> وفات ابن حبان - رحمه الله - أن موسى عليه السّلام توفي في التيه، وأنه طلب من الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر. ومما أخذ على ابن حبان أيضا السهو. قال الذهبي<sup>(٥)</sup>:

- 
- (١) أخرجه ابن حبان في الصحيح (١: ١٣٩). وأخرجه مسلم في الفضائل رقم (٢٣٧٥)، والنسائي (٣: ١٧٥).  
 (٢) الإحسان (١: ١٤٠)، وانظر النبلاء (١٦: ٩٩).  
 (٣) فتح الباري (٦: ٤٤٢).  
 (٤) معجم البلدان (٥: ٧٧).  
 (٥) النبلاء (١٦: ١٠٢).

(وقال : ذكر ما كان يقرأ عليه السَّلام في جلوسه بين الخطبتين  
فما ذكر شيئا) .  
قلت : ولعلَّ هذا وهم من الذهبي رحمه الله ، فقد ترجم ابن حبان  
( ذكر ما كان يقول المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جلوسه بين الخطبتين )  
وأخرج<sup>(١)</sup> حديث جابر بن سمرة أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بين الخطبتين  
يقرأ القرآن ويذكر النَّاس) .

---

(١) صحيح ابن حبان (٤ : ٢٠٣ ، ب ، ٢٠٤ أ) ، وأخرجه مسلم في الجمعة  
باب ذكر الخطبتين قبل الصلاة رقم (٨٦٢) وأبو داود في الصلاة  
باب الخطبة قائما رقم (١٠٩٣ - ١٠٩٥) وغيرهم .

### المطلب السادس : النهى عن صيام السرار

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : ( أصمت من سرر شعبان شيئا ، قال : لا . قال : إذا أفطرت فصم يومين ) . ثم قال : هذه لفظة استخبار يريد بها الإعلام بنفسى جواز ذلك كالمعكر طيه لو فعله ، كقوله لعائشة رضى الله عنها : ( تستريين الجدر ؟ ) وأمره بصوم يومين من شوال أراد به انتهاء السرار ، وذلك فى الشهر الكامل ، والسرار فى الشهر الناقص يوم واحد ) .

قال الذهبي<sup>(٢)</sup> : ( لو كان منكرا عليه لما أمره بالقضاء ) .

وقال الخطابي<sup>(٣)</sup> : ( سر الشهر ، وسر الشهر وسراره ، وسمى آخر الشهر سرا لاسترار القمر فيه ) . ثم قال : ( كان بعض أهل العلم يقول فى هذا أنه سؤال زجر وإنكار لأنه قد نهى أن يستقبل الشهر بيوم أو يومين ) قال الخطابي : يشبه أن يكون هذا الرجل قد أوجبهما على نفسه فاستحب له الوفاء بهما ، وأن يجعل قضاءهما فى شوال ) .

- 
- ( ١ ) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ( ٥ : ٢١٥ ) وانظر ( ٥ : ٢١٤ ب ) .  
 وحديث شعبان أخرجه البخارى تعليقا بعد سياقه حديث جريسر عن مطرف ( أظنه رمضان ) قال البخارى : وقال ثابت عن مطرف عن عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم ( من سرر شعبان ) الفتح ( ٤ : ٢٣٠ ) . وأخرجه مسلم فى الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر رقم ( ١١٦١ ) بلفظ ( من سره ) وهم الشيخ شعيب فى حاشية النبلاء ( ١٦ : ٩٨ ) فعزاه للبخارى دون ذكر التعليق .
- ( ٢ ) النبلاء ( ١٦ : ٩٩ ) .
- ( ٣ ) غريب الحديث للخطابي ( ١ : ١٣٠ - ١٣٢ ) مقتطفات ، وقارن بفتح البارى ( ٤ : ٢٣١ ) .

### المطلب السابع : من الزهرة التي أغوت هاروت وماروت؟

أخرج ابن حبان<sup>(١)</sup> حديث ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ( إنَّ آدمَ لما أهبط إلى الأرض، قالت الملائكة : أي رب . . . (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟ قال : إنني أعلم ما لا تعلمون ) . قالوا : ربنا نحن أطوع لك من بني آدم، قال الله لملائكته : هلّموا ملكين من الملائكة، فننظر كيف يعمران قالوا : ربنا هاروت وماروت، قال : أهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءها فسالها نفسها فقالت : لا والله حتى تتكلم بهذه الكلمة من الإِشراك . فقالا : لا والله لا نشرك بالله أبدا فذهبت عنهما ثم رجعت إليهما ، ومعها صبي تحمله فسالها نفسها ، فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبي ، فقالا : لا والله لا نقتله أبدا . فذهبت ثم رجعت بقدرح من خمر تحمله ، فسالها نفسها ، فقالت : لا والله حتى تشربا هذه الخمر، فشربا فسكرا ، فوقعا عليها ، وقتلا الصبي ، فلما أفاقا قالت المرأة : والله ما تركتما من شيء أبيتماه علي إلا فعلتماه حين سكرتما فخيرًا عند ذلك بين عذاب الدنيا والآخرة ، فاخترنا عذاب الآخرة ) .

ثم قال ابن حبان :

( الزهرة هذه أمواغ كانت في ذلك الزمان ، لأنها الزهرة التي فسى السماء ، التي هي من الخنس ) .

ولم أجد من تكلم على هذا الحديث، إلا أن انتقادي عليه إخراجُه مثل هذا الحديث في صحيحه ثم إنني جهدت لكي أعرف تفسير كلامه

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨: ٢٢-٢٣) وانظر موارد الظمان رقم (١٧١٧) . وأخرجه أحمد في المسند (٢: ١٣٤) بمثل إسناده وفي إسناده موسى بن جبير . قال ابن حبان : يخطئ ويخالف، وقال في التقريب مستور . انظر التهذيب (١٠: ٣٣٩) ونقل عن ابن القطان لا يعرف حاله . التقريب (٢: ٢٨١) . وانظر ترتيب الثقات (٣: ٩٠) ومثل هذا الرجل لا تقوم به حجة والغريب أن ابن كثير لم يذكر هذا في قصة هاروت وماروت، وذكره نحوه ورجح كونه منقولا عن أهل الكتاب (١: ١٣٩) فما بعسده والدر المنثور (١: ٤٦) . وانظر الثقات (٧: ٤٥١) ، والكبير (٧: ٢٨١) وسكت .

الذى شرح به معنى (الزهرة) التى أغوت هاروت وماروت، فلم أفلح .  
 وأيا ما كان ، فإنَّ هذه الاعتراضات ، وأمثالها لا تشكل - فى نظرى -  
 حيزا كبيرا يتناسب مع قول ابن الصلاح : ( غلط الغلط الفاحش فى تصرفه )  
 ولا مع قول الذهبي ( فى تقاسيمه من الأقوال والتأويلات البعيدة ، والأحاديث  
 المنكرة عجائب ) . اللهم إلا إن حطنا ( من ) على التقليل والبعض ، فعسى  
 أن يستقيم لنا هذا .

الفصل الخامس

كتب التراجم الموجودة لابن حبان

لابن حبان في التراجم كتب كثيرة جداً ، إلا أن الموجود منها  
كتاب مشاهير علماء الأمصار ، وكتاب الثقات ، وكتاب المجروحين . أمّا  
كتاب "كنى من يعرف بالأسماء" فلم يصلنا بعد .  
وسأحاول التعريف بكل من هذه الكتب الثلاثة في بحث مستقل  
إن شاء الله تعالى .

المبحث الأول : كتاب مشاهير علماء الأمصار

والحديث عن المشاهير يحتاج إلى دراسة طويلة ، إلا أنني سأكتفى  
بالإيجاز عن الإطناب .

( ١ ) تحقيق نسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان

وفيه مسائل :

( أ ) لقد ذكر الخطيب أن لابن حبان كتاباً في التراجم ، سماه "المعجم  
على المدن" والذي بيدولى أن الخطيب اعتمد معنى مضمون هذا  
الكتاب ، إذ الكتاب مرتب على المدن . قال ابن حبان : (أرت أن  
أملى في مشاهير علماء الأمصار ، وأعلام فقهاء الأقطار ، دون الضعفاء  
والمتروكين وأضداد العدل من المجروحين ، كتاباً لطيفاً  
للمقتبيين ، وأقصد في ترصيفها للمتعلمين قصد تفصيل المدن في  
الأصقاع . . . )<sup>(١)</sup> . فالكتاب إذن يمكن أن يسمى كتاب مشاهير علماء  
الأمصار ، ويمكن أن يسمى " الطبقات على المدن " .

( ١ ) مشاهير علماء الأمصار (ص ١) .

أما تسميته بكتاب "المعجم على المدن" فلعلَّ الخطيب توهم أنَّه مرتب على حروف المعجم، أو أنَّ الخطأ من نقل إليه ذلك .

(ب) إنَّ خطبة المشاهير تشبه إلى حد كبير خطبة الثقات والمجروحين .

قال في المشاهير : (أما بعد : فإني لما رأيت السنن ملجأ المسلمين في الأحوال ، ومقصد الصالحين في الأعمال ، وأنها - وإن كان فيها الفضائل الخطيرة - فقد شابها الأباطيل الكثيرة ، وصعب تخليص الدخيل من الصريح ، مع تمييز السقيم من الصحيح ، إلا بمعرفة تأريخ الثقات بكيفية ما كانوا عليه/الحالات ، أردت أن أظي في مشاهير علماء الأمصار . . . . )<sup>(١)</sup>

وقال في مقدمة المجروحين : (إذ لا يتهاى معرفة السقيم من الصحيح ولا استخراج الدخيل من الصريح ، إلا بمعرفة ضعفاء المحدثين والثقات وكيفية ما كانوا عليه في الحالات . . . . )<sup>(٢)</sup>

وقال في مقدمة "الثقات" : (فلما رأيت معرفة السنن من أعظم أركان الدين ، وأنَّ حفظها يجب على أكثر المسلمين ، وأنه لا سبيل إلى معرفتها السقيم من الصحيح ، ولا صحة إخراج الدخيل من الصريح إلا بمعرفة ضعفاء المحدثين ، وكيفية ما كانوا عليه في الحالات . . . . )<sup>(٣)</sup>

(ج) حين ترجم للخلفاء الراشدين في المشاهير قال في ترجمة أبي بكر رضي الله عنه : ثم بايعه على وأولئك الغر على حسب ما ذكرنا فسي "كتاب الخلفاء" . وفي ترجمة على رضي الله عنه قال :

(حتى كان من أمره ما كان من الحوادث على حسب ما ذكرنا تفصيلاً الأيام في خلافته في "كتاب الخلفاء"<sup>(٥)</sup> وذكر أن له كتاباً في الخلفاء فسي ثقاته أيضاً .<sup>(٦)</sup>

- 
- (١) المشاهير (ص ١) .
  - (٢) المجروحين (٤: ١) .
  - (٣) الثقات (٣: ١) .
  - (٤) المشاهير (ص ٤) .
  - (٥) ما سبق (ص ٦) .
  - (٦) الثقات (٢: ٣٣٧) .



( د ) إنَّ رواية مشاهير علماء الأماصار كَلَّهم ممن ذكرهم في ثقائه ، وتجدد كلامه في التوثيق والتضعيف والثناء واحداً في الغالب .

### ( ٢ ) التعريف بهذا الكتاب

إنَّ كتاب " مشاهير علماء الأماصار " هو أصغر كتب ابن حبان التي وصلتنا حجماً ، ولعلَّ السَّبب في صغر حجمه طبيعة الموضوع الذي تناوله هـذا الكتاب من جهة ، ولأنه أراد أن يتزوده طلبه العلم فاخصره ليسهل حفظه فيحصل الطالب بذلك على معرفة من تدور عليهم الأسانيد ، وعنهم قد تلقى النَّاسُ جلَّ سنة المصطفى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مشاهير العلماء الثَّقَاتِ وفقهاء الأماصار .

قال في ذلك : ( لما رأيت السُّنن ملجأ المسلمين في الأحوال ، ومقصد الصالحين في الأعمال ، وأنها - وإن كان فيها الفضائل الخطيرة ، فقد شابهها الأباطيل الكثيرة ، وصعب تخليص الدخيل من الصَّريح مع تمييز السَّقِيم مسن الصحيح إلا بمعرفة تاريخ الثَّقَاتِ بكيفية ما كانوا عليه في الحالات ، أردت أن أملئ في " مشاهير علماء الأماصار " وأعلام فقهاء الأقطار ، دون الضعفاء والمتروكين وأضداد العدل من المجرورحين ، كتاباً لطيفاً للمقتبسين . . . ) ( ١ ) .

ولما كانت بلاد الإسلام شاسعة ، والعلم ليس مقصوراً على قوم مسن المسلمين دون سواهم ، ولا محبوساً في صقع دون سائر الأصقاع ، فإنَّه قد أوجب كتابه هذا مشاهير العلماء وحملة الحديث النبوي في سائر أقطار الإسلام .

وديار الإسلام ( ستة أصقاع تشطها عمارة الإسلام ، وما وراءها من المدن يسكنها غير أولى الأحلام ، أولها الحجاز بحواليها ، والثاني العراق بنواحيها والثالث الشَّام بأطرافها والرابع مصر بجوانبها ، والخامس اليمن بما والاها والسادس خراسان بما دار عليها .

هذه المدن المشهورة في الإسلام ، المعروفة بعلماء الأيام ، نذكر قسماً

( ١ ) مشاهير علماء الأماصار ( ص ٢ ) .

كل ناحية ذكرناها ، ومدينة وصفناها مشاهير العلماء ، والثقات من الفقهاء من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من أتباع التابعين ، ومن تبعهم من الأئمة والصالحين (١) .

### ( ٣ ) طريقة تأليف هذا الكتاب

رتب أبو حاتم كتاب "المشاهير" على الطبقات فابتدأ بالصحابة رضوان الله عليهم ثم التابعين وأتبعهم بأتباع التابعين ، أما تبع الأتباع الذين أشار إلى أنه يذكر منهم "الأخيار الصالحين" من العلماء ، فلا وجود لهم في الكتاب المطبوع . ويحسن أن نلقى ضوءاً على كل طبقة من هذه الطبقات حتى يتوضح منهج ابن حبان جلياً أمامنا .

#### ( ١ ) طبقة الصحابة :

لقد استعرض ابن حبان مشاهير علماء الصحابة في الأصقاع الستة وابتدأ - بعد أن صدر كتابه بترجمة وجيزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمشاهير علماء الصحابة في المدينة ، لأن المدينة " مهبط الوحي ، ومعادن الرسالة ، وبها نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم كثيرا ، ومنها انتشر الإسلام وظهرت أعلام الدين ، وبها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضجيعيهم أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وإياها قطن جلة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، والذين هم منار الإسلام ، وبهم صان الله دينه عن الانقلام . . . (٢) . قال : ( وأول ما نبداً من الصحابة الذين كانوا بالمدينة بالخلفاء الراشدين المهديين ، على حسب ما استخلفوا واحداً بعد الآخر . ثم يعقبهم الذين شهد لهم المصطفى صلى الله عليه وسلم بالجنة ثم نذكر بعدهم سائر الصحابة الذين استوطنوا المدينة وقطنوها ، سواء حلت المنية بهم فيها أو في غيرها ، إذ الاعتبار استيطانهم إياها وإن دفعتهم

( ١ ) مشاهير علماء الأمصار ( ص ١ - ٢ ) .

( ٢ ) المشاهير ( ص ٣ ) .

الغزوات، والقيام بأمر المسلمين إلى الخروج منها إلى غيرها (١) .  
ثم سرد مشاهير صحابة المدينة المنورة فكان عددهم مائة وواحدًا  
وخمسين صحابياً دون من مات أو قتل في حياة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم (٢) .

ثم ذكر مشاهير الصحابة بمكة رضوان الله عليهم أجمعين فكانوا  
واحدًا وستين صحابياً .

أما عن البصرة فقد ( دخل البصرة جماعة من الصحابة في الغزوات  
والتجارات والسعى في أمور المسلمين والقصد في صلاحهم، فممن  
رجع عنها إلى المدينة، ومنهم من خرج إلى غيرها، حتى حلت العنية بهم  
في غيرها، وإنني لأعتبر من وصفنا نعتهم، ولا أمد من ذكرنا وصفهم فسي  
البصريين، لكني أذكر منهم من استوطن البصرة، وجعلها لنفسه داراً واختط  
بها خططا... (٣) .

ومشاهير الصحابة الذين ذكروهم في البصرة خمسون صحابياً .  
(ومن مشاهير الصحابة بالكوفة الذين كانوا لها قاطنين، وإن كانوا  
يخرجون منها في بعض الأحيان في الغزوات والتجارات، سواء أدركتهم  
العنية بها أو غيرها بعد أن كانوا مستوطنين لها) (٤) ذكر أربعة وخمسين  
صحابياً .

وراج ابن حبان يصف لنا الشام قبل أن يذكر الصحابة الذين كانوا  
فيها فقال :

( والشام صورة رجل مستلق على قفاه، فرأسه فلسطين وعنقه  
الأردن و صدره دمشق و بطنه حمص وسرته حلب، والمدن التي على الفرات  
إلى حدّ العراق رجله اليمنى، والمدن التي على دجلة إلى حدّ العراق  
رجله اليسرى، والمدن التي على أطراف البادية يده اليمنى، والمدن التي  
على السواحل يده اليسرى، يشتمل اسم الشام هذه المدن كلها التي هي

(١) المشاهير (ص ٤) .

(٢) المشاهير (ص ٣٠) .

(٣) المشاهير (ص ٢٧) .

(٤) المشاهير (ص ٤٣) .

من عريش مصر إلى أدنى القرى من السّواد، إلا أنّ حقيقة الشّام من بالس (١) إلى الضمين، وإنّا نطلى مشاهير العلماء طبقة طبقة ما كان منهم في هذه المدن المشتغل عليها كلّها اسم الشّام.

و(الشّام موضع الأنبياء والمرسلين، ومركز الأولياء والصّالحين، وبها آثار المصطفين الأخيار، ومواقع المتحابين من الأبرار).

ثم راج يذكر من مشاهير الصّحابة بالشّام الذين سكنوا الشّام وقطنوها سواء حلّت المنية بهم فيها أو في غيرها، إذ الاعتبار استيطانهم إياها دون مولدهم في غيرها أو إدراك المنية بهم خارجاً عنها (٢).

ثم ذكر من مشاهير الصّحابة الذين سكنوا الشّام وقطنوها، سواء حلّت المنية بهم فيها أو في غيرها - إذ الاعتبار استيطانهم إياها دون مولدهم في غيرها، أو إدراك المنية بهم خارجاً عنها - خمسة وخمسين صحابياً (٣).

أما (مشاهير الصّحابة بمصر الذين قد استوطنوا مدنها، وقطنوها حتى صارت لهم داراً أو مركزاً وإن كانوا يسافرون عنها في الغزوات أو يخرجون لأسبابهم في التجارات بعد أن كانوا مستوطنين بها، وقاطنين إياها سواء ماتوا بها أو بغيرها)، فقد ذكر منهم عشرين صحابياً (٤).

أما مشاهير الصّحابة في اليمن فقد ذكر منهم ستة عشر صحابياً (٥).

وقد أوضح لنا ابن حبان بإيجاز حدود خراسان وما يميزها عن

غيرها فقال :

(أما خراسان فهو اسم يقع على بلدان السعجم جملة، وإن كان كل ناحية منها لها اسم منفصل تعرف به، لأنّ كلّ بلد الغالب على أهله الرطانة فهو داخل في جملة خراسان، كما أنّ كلّ بلد الغالب على أهله العريصة

(١) بالس مدينة بين حلب والرقّة. أمّا الضمين، فلم أجد في معجم البلدان ما يدل عليها، ولعلها محرفة عن الضمير، وهذا أصل ما يسمى بالشّام - وهو مشكل حقا. والمهم أنّ حدود الشّام الكبرى هي ما ذكر أولاً من عريش مصر إلى حد الفرات. وانظر معجم البلدان

(٣) (٣: ٣١٢، ٤٦٣)

(٢) المشاهير (ص ٤٩)

(٣) المشاهير (ص ٤٩ - ٥٤)

(٤) المشاهير (ص ٥٥ - ٥٧)

(٥) المشاهير (ص ٥٧ - ٥٩)

فهو داخل في جملة بلاد العرب، فكما لا يخرج تباين اللغات بين القبائل وبلدان العرب بعضها عن الاسم الواقع عليها، كذلك لا يخرج سائر اللغات في الفارسية من أهل البلدان التي يسكنها العجم عن الاسم المشتمل عليها، وإن كانت خراسان ما بين الجبال إلى النهر في الحقيقة، كما أن حقيقة ديار العرب وسط الإقليم الأول والثاني (١) .

ثم ذكر من مشاهير الصحابة الذين استوطنوا خراسان خمسة من الصحابة (٢) .

فكانت جملة الصحابة الذين ذكروهم في كتابه المشاهير سبعة عشر صحابياً وأربعمئة صحابي . هم المشهورون بالعلم والرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

( ٢ ) طبقة التابعين :

ثم رتب التابعين على نحو ترتيب الصحابة فبدأ بتابعي المدينة ثم تابعي مكة المكرمة ثم تابعي البصرة، ثم تابعي الكوفة، ثم تابعي الشام ثم تابعي مصر، ثم تابعي اليمن، ثم تابعي خراسان، وكان عدد جميع مشاهير من روى العلم من التابعين اثنين وخمسةمئة تابعي (٣) .

( ٣ ) طبقة أتباع التابعين :

أما أتباع التابعين فقد بدأ بذكرهم من كان بالمدينة من مشاهيرهم وأتباع التابعين عندهم هم " الذين لقوا التابعين (٤) .

( ١ ) ذكر القزويني أن بلاد ارم ما بين حضرموت وصنعاء من الإقليم الأول، كما ذكر أن حصن الأبلق بين الحجاز والشام، وأرض الحجـاز والبحرين وبدر من الإقليم الثاني .

انظر آثار البلاد وأخبار البلاد (ص ١٥، ٧٣ - ٧٨) .  
إلا أن ابن خلدون يرى أن بلاد العرب تقع في الإقليم الثالث المقدمة (ص ٧٦ - ٧٩) .

والحقيقة أنه لا منافاة بين قول ابن خلدون وقول ابن حبان إذ أن أصل العرب من اليمن ثم انتشر العرب واستوطنوا أحسن البلاد، وأعد لها والله أعلم .

( ٢ ) المشاهير (ص ٥٩ - ٦١) .

( ٣ ) المشاهير (ص ١٢٧) .

( ٤ ) المشاهير (ص ١٢٧) .

وبعد أن ذكر مشاهير أتباع التابعين بالمدينة قال :

( فهذا آخر مشاهير أتباع التابعين بالمدينة ، فذكرناهم من أسبابهم ولم نعتبر في ترصيف أسمائهم تقدم الموت ولا تأخره ، ولا جلاله الإنساني ولا قدره ، ولا سعة العلم ، ولا وفور الفقه بل اعتمدنا في نظم أسمائهم اللقبى فكأن من كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسان اثنان ففى العدد أدخلناه فى هذه الطبقة ، لأن اللقبى منهم للتابعين يشملهم سواء تأخر موت التابعى ، أو تقدم وذلك أن أبا الطفيل عامر بن واظلمة - وإن تأخر إسلامه وتقدم إسلام أبى بكر الصديق ، لم نخرجه من جملة الصحابة ، إذ اللقبى يشملهما معاً ، وإن عظم الله فضيلة أبى بكر ، لما لسه من السوابق فى الإسلام ، والفضل فى الدين ، وكثرة الصحبة للمصطفى صلى الله عليه وسلم ، وبذله له المال والنفس ، وكذلك اعتبرنا التابعين الذين أملىنا أسمائهم ، سواء تقدم موتهم ، أو تأخر بعد أن يكون اللقبى منهم للصحابة موجوداً ، سواء رأوا جماعة من الصحابة ، أو واحداً منهم وليس يصح التخرىج لأسمائهم فى الطبقات ، إلا على اللقبى الذى أسسنا كتابنا هذا ، لأن المراد قصد أسمائهم ، لا قصد الموت ، فإنه يكاد يتفق له جماعة منهم ، ماتوا فى سنة واحدة ، وإن اتفق منهم اليسير فيه ، تباينت أقدارهم فى العلم ، وأنسابهم فى العمر وعنايتهم فى العلم ، وديانتهم بالحلم فلما رأينا القصد فى نظم أسمائهم لا يتفق اتفاقاً يشملهم كلهم فى الدين ، ولا فى الفقه ، ولا فى العلم ، ولا فى السن ، قصدنا قصد اللقبى منهم .

فكأن من رأى صحابياً ، وسمع منه أدخلناه ، كما أن من صحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن تأخر إسلامه إلى ما بعد الفتح كان من الصحابة وكذلك كل من رأى تابعياً ثقة فأكثر ، أدخلناه فى جملة أتباع التابعين لأن اللقبى يشملهم جميعاً )<sup>(١)</sup>

وقد ذكر فى مشاهير التابعين وأتباعهم الثقات المأمونين

( ١ ) المشاهير ( ص ١٤٣ ) .

دون الضعفاء والمجهولين<sup>(١)</sup> .

ثم استعرض طبقة أتباع التابعين على الأعمار، كما استعرضهم فسي  
التابعين والصحابه . وزاد مصرى بغداد وواسط فهو يرى أن (بغداد  
محدثه لم يكن بها قبل أن مضرت أحد من الصحابة، ولا سكنها أحد من  
التابعين، فلما عمرت سكنها جماعة من أتباع التابعين . . . ) .  
ثم قال : (نحن نذكر أسماءهم، وإن كان فيها قلة على ما أصلنا كتابنا  
هذا عليه من الثقات في الروايات، والمتقين من الأثبات)<sup>(٢)</sup> .  
وكذلك (واسط)<sup>(٣)</sup> محدثه، بعد أن أحدثت لم يسكنها صحابي، وبعد  
أن مضرت ما سكنها تابعي، وإنما قطنها من المصريين اللذين هما البصرة  
والكوفة وغيرهما من المدن المتاخمة لها من أتباع التابعين) .  
أما طبقة تبع أتباع التابعين فقد حذفت من الكتاب، حذفها  
الشيخ الإمام أبو أحمد أسعد بن الحسن المنذرى البوشنجي، كما جاء  
في مقدمة الكتاب<sup>(٤)</sup> .

#### (٤) منهج ابن حبان في اختيار رجال هذا الكتاب

لقد ذكر ابن حبان في مقدمة كتابه - كما أسلفت - أنه قال : (أردت أن  
أطلى في مشاهير طمء الأعمار، وأعلام فقهاء الأقطار، دون الضعفاء  
والمتروكين، وأضداد العدل من المجروحين، كتابا لطيفا للمقتسين)<sup>(٥)</sup> .  
كما ذكر في موضع آخر أنه اختار لكتابه هذا من مشاهير التابعين  
وأتباعهم (الثقات المأمونين، دون الضعفاء والمجهولين)<sup>(٦)</sup> . . . أما عن  
أتباع التابعين فقال (نحن نذكر أسماءهم . . . على ما أصلنا في كتابنا هذا

(١) المشاهير (ص ١٢٧) .

(٢) المشاهير (ص ١٧٤-١٧٥) .

(٣) المشاهير (ص ١٧٦) .

(٤) انظر (ص هـ) .

(٥) المشاهير (ص ١) .

(٦) المشاهير (ص ١٢٧) .

من الثقات في الروايات، والمتقنين من الأثبات<sup>(١)</sup> .  
 وقال : ( وإنما شرطنا أن لا نذكر في هذا الكتاب إلا من صححت  
 عدالته ، وجاز قبل روايته )<sup>(٢)</sup> .

( ٥ ) ألفاظ التوثيق التي استخدمها في كتاب  
 " المشاهير " وما اقترن بها من ألفاظ أخرى

- ( ١ ) لقد تعددت ألفاظ التوثيق المطلق عند أبي حاتم :
- ١ - فهو تارة يقول عن أحد الرواة ( من مستقني أهل المدينة<sup>(٣)</sup> )  
 أو يزيد ( وصالحهم )<sup>(٤)</sup> دون أن يذكر أي لفظ مرادف لهذا التوثيق المطلق  
 وأخرى يقول : ( كان من المتقنين )<sup>(٥)</sup> .
  - ٢ - وتارة يقول عن راو ( من خيار أهل المدينة )<sup>(٦)</sup> أو مكة أو غيرها .
  - ٣ - وأخرى يقول عن راو هو ( من حفاظ أهل المدينة )<sup>(٧)</sup> أو ( من  
 جلة أهل المدينة )<sup>(٨)</sup> .
  - ٤ - أو يقول ( من ثقات أهل المدينة ومتقنيهم )<sup>(٩)</sup> .
  - ٥ - أو يقول ( من سادات أهل المدينة )<sup>(١٠)</sup> أو يزيد ( وجلة التابعين )  
 أو يقول من سادات التابعين ، ومثل ذلك عن بقية البلاد .

- 
- ( ١ ) المشاهير ( ص ١٧٤ ) .
  - ( ٢ ) المشاهير ( ص ١٦٥ ) .
  - ( ٣ ) انظر ترجمة رقم ( ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٧٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ) .
  - ( ٤ ) انظر ( ٥٤٨ ) .
  - ( ٥ ) انظر ( ٥٤٥ ، ٥٤٩ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، ٥٧٩ ) .
  - ( ٦ ) انظر ( ٥٥٠ ، ٥٧٦ ، ٥٩٤ ) .
  - ( ٧ ) انظر ( ٥٨٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ) .
  - ( ٨ ) انظر ( ٥٢٠ ، ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ ) .
  - ( ٩ ) انظر ( ٥١٨ ) .
  - ( ١٠ ) انظر ( ٥٣١ ، ٥٢٧ ، ٥٥٨ ، ٦٠٤ ، ٦١٠ ) .



- ٦ - وربما قال (كان ثبثاً) <sup>(١)</sup> أو قال ثقة وليس له حديث .
- ٧ - أو يقول (كان من فقهاء أهل المدينة أو مكة <sup>(٢)</sup> أو غيرها من البلدان) ونحو ذلك من الألفاظ التي لا يقترن بها ما يوهن حال الرجل أو يشير إلى جرح فيه .
- (٢) وكثيراً ما كان أبو حاتم يترجم للرجل فيسكت <sup>(٣)</sup> عنه فلا يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً ، وهو عنده ثقة وتوثيقه ليس مأخوذاً من سكوته ، وإنما من اشتراطه عدم ذكر أحد سوى الثقات في كتابه هذا .
- (٣) وقد يذكر الرجل الثقة ثم يصفه بالإرسال أو التدلّيس ، أو بهما معاً . <sup>(٤)</sup>
- (٤) أو يذكر الثقة ويقول كان يغرب ، أو عزيز الحديث ، أو يغرب <sup>(٦)</sup> وبهم <sup>(٧)</sup> أو يغرب <sup>(٨)</sup> فيجود . وما تقدم كله لا يخرج الراوي الثقة عن العدالة بالشروط المعتبرة .
- (٥) إلا أن الذي يلفت النظر حقاً استخدامه ألفاظاً تشير إلى نزول درجة الراوي عن الضبط ، أو الحفظ .

- 
- (١) انظر (١١٩٦، ٦٤٧، ١٤٧٩، ١١٥٥، ٥٧١) .
- (٢) انظر (٣١٧، ٥٨٨، ٥٨١) .
- (٣) انظر التراجم : (٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠) .
- وبغيرها كثير .
- (٤) انظر التراجم (٤٦٧، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٢، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٧، ٤٩٨، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٠) .
- (٥) (١٥٤٥، ١٥٣٧) .
- (٥) (١٠٥٧، ٩٦٦، ٩٧٢، ٩٧٨، ٩٧٩، ٩٨٠، ٩٨١، ٩٨٢، ٩٨٣، ٩٨٤، ٩٨٥، ٩٨٦، ٩٨٧، ٩٨٨، ٩٨٩، ٩٩٠، ٩٩١، ٩٩٢، ٩٩٣، ٩٩٤، ٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ٩٩٨، ٩٩٩، ١٠٠٠، ١٠٠١، ١٠٠٢، ١٠٠٣، ١٠٠٤، ١٠٠٥، ١٠٠٦، ١٠٠٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩، ١٠١٠) .
- (٦) (١٤١٩، ١٤٤٤، ١٤٦٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠) .
- (٧) (١٥٢٨، ١٥٣٠، ١٥٤٧، ١٥٥٠، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣، ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٥٧٩، ١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦، ١٥٨٧، ١٥٨٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣، ١٥٩٤، ١٥٩٥، ١٥٩٦، ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ١٦٠٥، ١٦٠٦، ١٦٠٧، ١٦٠٨، ١٦٠٩، ١٦١٠) .
- (٨) (١٤٢٣، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠) .

- ١ - فتارة يصف الراوى بأنه صالح ، أو تقى ، أو خير ، أو لا يذكره بمثل هذه الأوصاف ثم يقول ردى<sup>(١)</sup> الحفظ .
- ٢ - وتارة يقول عن راو بأنه حدث<sup>(٢)</sup> بمناكير ، أو فى سماع المتأخرين<sup>(٣)</sup> عنه مناكير وأوهام كثيرة .
- ٣ - أو يصفه بأنه "كان يرمى بالقدر"<sup>(٤)</sup> .
- ٤ - أو ينعته بأنه "يتشيع ويغلو فيه"<sup>(٥)</sup> .
- ٥ - أو يصفه بالخطأ فيقول "كان يخطئ"<sup>(٦)</sup> .
- ٦ - وأكثر ما اهتم به ابن حبان تركيزه على الوهم :
- أ - فمرة يقول : ربما وهم<sup>(٧)</sup> .
- ب - وأخرى يقول "كان ممن يهيم"<sup>(٨)</sup> .
- ج - ومرة ثالثة يقول "يهيم ويخالف"<sup>(٩)</sup> .
- د - ورابعة يقول "يهيم فى الأحايين"<sup>(١٠)</sup> .
- هـ - ومرة خامسة يقول "يهيم فى الشئ بعد الشئ"<sup>(١١)</sup> .

ولا يخفى على من له خبرة بعلم الحديث، أن من قيل فيه ردى<sup>(١)</sup> الحفظ أو حدث بمناكير، أو كان يغلو فى التشيع، فإنه لا يعد فى مراتب مقبولى الحديث وعدول الرجال ، كما أن من كانت له أوهام فى الأحايين ، أو كان

- (١) انظر التراجم (٥٢٥، ٥٣٥، ٥٧٦، ٦٩٩، ١٢٢٨، ١٢٣١، ١٢٣٤، ١٢٣٧، ١٢٤٨، ١٢٥٢، ١٢٦١) .
- (٢) كما فى (١٢١٥) .
- (٣) كما فى ترجمة (١٢٤٩) .
- (٤) انظر (١٠٨٥) .
- (٥) ترجمة رقم (١٢٦٣) .
- (٦) انظر (١٢٨١) .
- (٧) انظر (١١٦٣، ١٤٨٤) .
- (٨) انظر (١٣١١، ١٣١٣) .
- (٩) انظر (١٣٨٨، ١٤٣٠) .
- (١٠) انظر (٩٣٣، ٩٩٨، ١٠٤٧، ١٠٧٧، ١٠٨٢، ١٠٩٩، ١٥٩٩) .
- (١١) انظر (٦٣٤، ١٠٤٥، ١٠٥٣، ١٠٨٤، ١١٦٩، ١٦٧٥، ١٢٣٢) .



- غالبا - ويذكر بعض شيوخه وبعض تلامذته ، وهل يصح له سماع<sup>(١)</sup> من الصحابة أم لا ، إن كان ممن اختلف فيه ، وسنة وفاته في الأعم<sup>(٢)</sup> الأغلب ، وإذا كان ممن اشتهر بالفضل<sup>(٣)</sup> أو النظم أو الفتوح والجهاد ، أو الورع وقد يذكر صفات الرجل الخلقية والخلقية<sup>(٤)</sup> .

كق ذلك مع الإيجاز الشديد غير المخل بالمقصود .  
وتراه في كتابه " المشاهير " أقرب إلى الإنصاف مع أهل الرأي ، مما يؤكد لك أن الرجل طالب حق ، وأن حملته على أبي حنيفة يحدوها الواجب الشرعي - من وجهة نظره على الأقل - فقد ترجم لزر بن الهذيل ، وأبى يوسف القاضي ، وأثنى عليهما في هذا الكتاب<sup>(٥)</sup> مما يدل على ما ذكرت .

#### ( ٧ ) الاعتراضات على كتاب المشاهير

ويهمني في هذه الدراسة الاعتراضات الحديثية التي تتعلق بالرجال المترجم لهم في هذا الكتاب ، دون غيرها من الانتقادات التي قد تؤخذ عليه فيه .

ولعل مرد هذه الاعتراضات جميعها إلى تساهله في التوثيق - كما يقال - وزجه بكثير من الضعفاء في كتاب سماه " مشاهير طما الأمصار ، وفقهاء الأقطار " مع أنه اشترط فيهم أن يكونوا من الثقات المتقنين ، والحفاظ الأثبات مع الصيانة والدين .

ولعل من نافلة هذا البحث عرض نماذج من أقوال ابن حبان في المشاهير ، على بعض التراجم وذكر آراء بعض العلماء حول تلك التراجم ذاتها .

( ١ ) انظر ( ١٠٦٨ ، ١٠٧٢ ، ١١٢٤ ، ١١٢٨ ، ١١٥٤ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ )

• ( ١١٨٤ ، ١١٨٥ )

( ٢ ) هذه لا تحتاج إلى دليل إذ ظمنا يغفل ذكر سنة الوفاة .

( ٣ ) انظر ما سبق رقم ( ٦١٠٥٩ ) ففيهما غنى عن التطويل . وانظر

• ( ١١٨٢ - ١١٩٢ )

( ٤ ) انظر التراجم : ( ٥٣ ، ٦٣ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ١٦٠ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٥٨٩ )

• وغيرها .

( ٥ ) انظر ترجمتيهما في ( ١٣٥٤ ، ١٣٥٦ )

- ( ١ ) ترجم لعمران بن مسلم المنقرى القصير ووصفه بأنه ( من المتقنين  
ليس فى أحاديثه التى رواها بالبصرة إلا ما فى أحاديث الناس  
وما حدث بمكة فيها مناكير كثيرة كأنه يحدثهم بها من حفظه ، فكان  
يهم فى الشئ بعد الشئ ، سماع يحيى بن سليم ، وسويد بن  
عبد العزيز عنه كان بمكة )<sup>(١)</sup> .
- وترجم له الذهبى فى الميزان<sup>(٢)</sup> فقال : ( ثقة ، إلا أن يحيى بن معين  
قال " كان يرى القدر " وذكره ابن عدى ، واستنكره أحاديث ) .
- وترجم له ابن حجر فى التقريب<sup>(٣)</sup> فقال ( صدوق ربما وهم ) .
- ( ٢ ) وترجم لسعيد بن أبى عروبة وقال فيه ( من فقهاء أهل البصرة  
ومتقنينهم ، فى سماع المتأخرين عنه مناكير ، وأوهام كثيرة )<sup>(٤)</sup> .
- وترجم له الذهبى فى الميزان<sup>(٥)</sup> وقال : ( إمام أهل البصرة فى زمانه  
لكنه تغير بأخرة ، ورمى بالقدر ) .
- وترجم له ابن حجر فى التقريب<sup>(٦)</sup> وقال : ( ثقة حافظ ، له تصانيف ، لكنّه  
كثير التدليس ، واخطط ، وكان من أثبت الناس فى قتادة ) . ا . هـ
- ( ٣ ) وترجم لجعفر بن سليمان<sup>(٧)</sup> الضبعى الجرشى ، وقال : ( كان يتكشف  
ويجالس الصالحين وكان يتشيع ويغلو فيه ) .
- وترجم له الذهبى فى الميزان<sup>(٨)</sup> وقال : ( كان من العلماء الزهاد على  
تشيعه ) ونقل عن ابن معين قوله ( كان يحيى بن سعيد لا يكتب حديثه  
ويستضعفه ) وجعفر ثقة ، وقال أحمد : لا بأس به . وقال البخارى فى

- 
- ( ١ ) المشاهير رقم ( ١٢١٥ ) .  
( ٢ ) الميزان ( ٣ : ٢٤٣ ) .  
( ٣ ) التقريب ( ٢ : ٨٤ ) .  
( ٤ ) المشاهير رقم ( ١٢٤٩ ) .  
( ٥ ) الميزان ( ٢ : ١٥١ ) .  
( ٦ ) التقريب ( ١ : ٣٠٢ ) .  
( ٧ ) المشاهير ( ١٢٦٣ ) .  
( ٨ ) الميزان ( ١ : ٤٠٨ ) .

- الضعفاء : يخالف في بعض حديثه . . . وأورد الذهبي غلوه في التشيع عن كثير من أئمة الجرح والتعديل .
- أما ابن حجر فقد قال <sup>(١)</sup> (صدوق زاهد ، لكنه كان يتشيع) .
- (٤) وترجم لسعد بن سعيد بن قيس الأنصاري ، وزكاه بقوله كان (مسـنـ<sup>(٢)</sup> جلة الأنصار) وكان (ردى الحفظ) .
- أما ابن حجر فقد ترجم له وقال <sup>(٣)</sup> (صدوق سي الحفظ) .
- (٥) وترجم لمطر بن طهمان <sup>(٤)</sup> الوراق ، وقال (كان ردى الحفظ على صلاح فيه) .
- وقال ابن حجر <sup>(٥)</sup> عنه (صدوق كثير الخطأ ، وحديثه عن عطاء ضعيف) .
- (٦) وترجم لبرد بن سنان <sup>(٦)</sup> الشامي أبي العلاء ، وقال عنه (كان ردى الحفظ) بينما قال عنه ابن حجر <sup>(٧)</sup> (صدوق رمى بالقدر) .

- 
- (١) التقريب (١: ١٣١) .
- (٢) المشاهير (٥٣٥) .
- (٣) التقريب (١: ٢٨٧) .
- (٤) المشاهير (٦٩٩) .
- (٥) التقريب (٢: ٢٥٢) .
- (٦) المشاهير (١٢٢٨) .
- (٧) التقريب (١: ٩٥) .

المبحث الثاني : كتاب الثقات

( ١ ) تحقيق نسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان

لا أريد أن أطيل في تحقيق نسبة كتاب "الثقات" إلى ابن حبان فيكفي في إثبات ذلك أن الإمام الذهبي قد استفرغ جُلّه في كتاب الميزان والكاشف، وأعلام النبلاء، وأن الحافظ ابن حجر قد نقل كل ما قاله ابن حبان عن الرواة في كتبه تهذيب التهذيب، ولسان الميزان، وتعجيل المنفعة.

ويمكن أن أضيف إلى هذا أن الخطيب البغدادي فمن بعده ذكروا هذا الكتاب ونسبوه إلى ابن حبان غير أن الخطيب البغدادي، وياقوت<sup>(١)</sup> نقلًا عنه، جعله على طبقات، فجعله كتاب الصحابة، وكتاب التابعين وكتاب أتباع التابعين، وكتاب تبع أتباع التابعين، وزاد طبقة خامسة هي طبقة شيوخ ابن حبان.

وقال في كشف الظنون<sup>(٢)</sup> كتاب الثقات لابن حبان، وهو عمدة المحدثين في هذا الفن.

كما أن أئمة المحدثين اهتموا بهذا الكتاب، فرتبه الذهبي والهيثمى كلٌّ منهما على حروف المعجم ليسهل تناوله.

وتناوله كثير من أئمة النقد في القديم والحديث بالدراسة، والتأييد أو الانتقاد.

أضف إلى هذا أن مقدمة كتاب الثقات تشبه إلى حد كبير مقدمة المجروحين والمشاهير - على ما قدمته في أول الحديث عن المشاهير، كما

(١) الجامع (٢: ٣٦١).

(٢) معجم البلدان (١: ٤١٦).

(٣) كشف الظنون (٥٢١ - ٥٢٢، ١٤٠٧).

أن كتاب المشاهير مضمن في كتاب الثقات كله وسترى تشابه عبارات النقد بين الكتابين من خلال ما قدمته عن المشاهير، وما سأقدمه عن الثقات .  
وأظن في هذا غنية عن التتبع والإثبات . وقد طبع هذا الكتاب في الهند طبعة لا تخلو من السقط والتصحيف والتحريف .

### ( ٢ ) ترتيب كتاب " الثقات "

رتب أبو حاتم بن حبان كتابه الثقات على طبقات أربع هي : طبقة الصحابة ، فالتابعين ، ثم أتباع التابعين ، ثم تبع أتباع التابعين .  
وبدأ كتابه - كما نص - بذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومولده ومبعثه ، وهجرته إلى أن قبضه الله تعالى إلى جنته .  
قال رحمه الله تعالى :

( أول ما بدأ في كتابنا هذا ، ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم ومولده ، ومبعثه ، وهجرته إلى أن قبضه الله تعالى إلى جنته <sup>(١)</sup> .  
ثم نذكر بعده الخلفاء الراشدين المهديين بأيامهم ، إلى أن قتل <sup>(٢)</sup> على ، رحمة الله عليه .

ثم نذكر صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحداً واحداً على المعجم ، إذ هم خير الناس قرناً ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ثم نذكر بعدهم التابعين الذين شافهوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأقاليم ، كلها على المعجم ، إذ هم خير الناس بعد الصحابة قرناً .

ثم نذكر القرن الثالث الذين رأوا التابعين ، فأذكرهم على نحو

( ١ ) وقد استغرقت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم المجلد الأول ،

وطافة وخمسين صفحة من المجلد الثاني من ثقات ابن حبان .

( ٢ ) بدأ ذلك بذكر استخلاف أبي بكر ( ٢ : ١٥١ ) إلى خطبة الحسن بن

علي ( ٢ : ٣٠٤ ) ثم سرد أسماء من ولي الخلافة بعد الحسن بن علي

إلى المطيع بن المعتدر ( ٢ : ٣٣٦ ) ، واعتبرهم جميعاً ملوكاً وليسوا

بخلفاء ، ثم ذكر بقية العشرة المبشرين بالجنة ( ٢ : ٣٣٨ - ٣٤٣ ) .

وبهم ختم المجلد الثاني .



ما ذكرت الطبقتين الأوليين . تبج  
ثم نذكر القرن الرابع الذين هم أتباع التابعين على سبيل من قبلهم  
وهذا القرن ينتهي إلى زماننا هذا .

والصّحابة الذين ذكرهم ابن حبان في ثقاته ، هم الصّحابة الرواة عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، (فأما من لم يرو عنه الأخبار ، وقد ذكر  
بالأفعال والآثار ، فقد تقدم ذكرنا لهم قبل<sup>(١)</sup>) في القسم الذي خصصه  
لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقاته .

وكان عدد هؤلاء الصّحابة الرواة سوى العشرة الكرام تسعة وتسعين  
وخمسةائة وألف صحابي وصحابية . بدأهم بالصّحابي أسعد بن زرارة الأنصاري  
أول من جمع<sup>(٢)</sup> الجمعة بالمدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وختمهم بالصّحابية أم ورقة بنت حمزة بن عبد المطلب<sup>(٣)</sup> .

والصّحابي في نظر ابن حبان هو : كل من لقي رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، إذ العبرة باللقي<sup>(٤)</sup> واللقاء والرؤية بمعنى واحد - عنده - وهو تحقق  
اللقاء والمشاهدة والصّحبة ، قلت أو كثرت .

قال في ترجمة محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر ، الذي يقال لــــه  
"أبو عتيق" له رؤية من النّبي صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الأربعة في نسق  
واحد ، لهم من النّبي صلى الله عليه وسلم رؤية ، أبو قحافة ، وابنه أبو بكر  
وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ، وابنه أبو عتيق محمد بن عبد الرحمن ، وليس هذا  
لأحد من هذه الأمة غيرهم<sup>(٥)</sup> .

والتابعي عند ابن حبان هو من شافه أصحاب رسول الله صلى الله  
عليه وسلم أو أحدهم ، فلقاء<sup>(٦)</sup> الرجل لأحد الصّحابة رضوان الله عليهم يجعله  
من التابعين .

- 
- (١) الثقات (٣ : ١) .
  - (٢) الثقات (٣ : ١ : ٢) .
  - (٣) الثقات (٣ : ٤٦٦) .
  - (٤) الثقات (٤ : ٣) .
  - (٥) الثقات (٣ : ٢٦٦) .
  - (٦) الثقات (٤ : ٣) .

قال في ترجمة عكرمة بن عمار العجلي : (أدخلناه في هذه الطبقة - طبقة التابعين - لأنَّ له لقياً وسماعاً من الصحابي ، ومتى صح ذلك ، دخل في جملة التابعين ، سواء قلَّت روايته أو كثرت) <sup>(١)</sup> .

وقد يروى أنَّ رجلاً من الصحابة ، ويتحقق ابن حبان أنه من التابعين فإذا كان هذا عنده محتملاً ، ذكره في الصحابة ، وذكره في التابعين . ذكر فروة بن نوفل في الصحابة <sup>(٢)</sup> وروى له قوله (أتيت المدينة فسال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء بك ، قلت : جئت لتعلمنى كلمات إذا أخذت مضجعى ، قال : اقرأ "قل يا أيها الكافرون" فإنها براءة ممن الشرك ، ثم قال : القلب يعيل إلى أن هذه اللفظة ليست بمحفوظة ممن ذكر صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإننا نذكره في كتاب "التابعين" أيضا لأنَّ ذلك الموضع به أشبه) .

وذكره في التابعين <sup>(٣)</sup> وقال : (وقد قيل إنَّ له صحبة ، وقد ذكرناه فى الصحابة ، والقلب إلى أن تلك اللفظة ليست بمحفوظة أميل ، إنما قالها عبد العزيز بن مسلم القسملى عن أبى إسحاق) (وعبد العزيز بن مسلم القسملى ربما وهم فأفحش) <sup>(٤)</sup> .

وأتباع التابعين هم الذين لقوا التابعين ورأوهم ، وسمعوا منهم ورووا عنهم - إذ لا يذكر فى الثقات إلا الرواة - فكل من لقي تابعياً واحداً فهو من أتباعهم سواء قلَّت روايته أو كثرت . شريطة أن يكون هذا التابعى الذى ادعى السماع منه ثقة .

قال فى ترجمة إبراهيم بن سليمان الزيات <sup>(٥)</sup> : (هو الذى يروى عن عبد الحكم عن أنس بصحيفة ، لم ندخله فى أتباع التابعين ، لأنَّ عبد الحكم لاشيىء وأدخلناه فى هذه الطبقة - الرابعة - لأنَّ أقل ما يصح بينه وبين رسول الله

(١) الثقات (٥ : ٢٣٣) .

(٢) الثقات (٣ : ٣٣١) .

(٣) الثقات (٥ : ٢٩٧) .

(٤) الثقات (٣ : ٣٣١) .

(٥) الثقات (٨ : ١٢، ب، ١٣ أ) .

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَنْفُسٍ .

وقال في ترجمة سعيد بن أيوب الخزازي : ليس له عن تابعي سماع صحيح ، فلذلك أدخلناه في هذه الطبقة ، روايته عن زيد بن أسلم ، وأبي حازم إنما هي كتاب (١) .

وقد يذكر الراوي في التابعين وأتباعهم - بناء على ما يقال في سماع الراوي ممن فوقه .

قال في ترجمة توبة بن كيسان السنبري بعد أن روى له حديثاً فإن صح هذا - يعني سماعه من أنس - فهو من التابعين . وقد ذكره في التابعين (٢) أيضاً وقال : يروى عن أنس بن مالك .

وذكر شيبه بن نصح - في هذه الطبقة - وقال : قد ذكرناه في التابعين (٣) . وقال هناك : يروى عن أبيه ، وأبوه مولى أم سلمة ، وقد قيل إنه سمع أم سلمة وهو صغير ، ولذلك أدخله في التابعين .

وفي تبع أتباع التابعين ترى الشيء ذاته . قال في ترجمة عباس بن سفيان الدبوسي : ( يروى عن الفضيل بن عياض الحكايات ، ما أراه سمع من الفضيل ، وذلك أنه ربما أدخل بينه وبين الفضيل الحسن بن جعفر البخاري فإن صح سماعه من الفضيل ، فهو من هذه الطبقة ، وإلا فهو من الطبقة الخامسة ) ويشترط أيضاً أن يكون من لقيه من الطبقة الأعلى ثقة ، وإلا فهو ومالم يروسيان . قال في ترجمة غسان (٧) بن الفضل الشجري : كان راوياً لصبيح بن سعيد : لم ندخله في أتباع التابعين ، لأن صبيحا ليس بثقة . والعمدة في هذا الترتيب كله على حفظه ومعرفته . قال في ترجمة

- 
- ( ١ ) الثقات ( ٨ : ٤٧ أ ) .
  - ( ٢ ) الثقات ( ٦ : ١٢٠ ) .
  - ( ٣ ) الثقات ( ٤ : ٨٨ ) .
  - ( ٤ ) الثقات ( ٦ : ٤٤٤ ) .
  - ( ٥ ) الثقات ( ٤ : ٣٦٨ ) .
  - ( ٦ ) الثقات ( ٨ : ٩٥ أ ) .
  - ( ٧ ) الثقات ( ٨ : ٩٨ أ ) .

مفضل<sup>(١)</sup> بن مهلهل السَّعْدِي : (لست أحفظ له عن تابعي سماعا ، فلدذلك  
أدخلناه في هذه الطَّبقَة - الرَّابِعة - ولست أنكر أن يكون سمع من أبي  
خالد والأعمش) فلاحتمال قائم ولكن ذلك لم يتحقق لديه . وقال نحو ذلك  
في ترجمتي أيوب السَّخْتِيَانِي ، وثابت<sup>(٢)</sup> بين عجلان الأنصاري .  
وقال في ختام كتابه<sup>(٣)</sup> الثَّقَات : (قد أطمينا ما حضرنا من ذكر تبع  
أتباع التَّابعين ، على حسب ما من الله عز وجل به من التوفيق لذلك ولله  
الحمد .

على حسب ما ذكرنا من قبلهم من الطَّبقات الثلاث ، فربما قدم موت  
إنسان ذكرته في هذه الطَّبقَة ، وآخر تأخر موته ، وبينهما شبيه سنسنة  
أوافق أو أكثر .

وكُلُّ من كان بينه وبين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم رجل واحد  
أدخلناه في كتاب "التَّابعين" سواء تأخر موته أو تقدم .  
وكُلُّ من كان بينه وبين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم في اللقاة  
رجلان ، أدخلناه في كتاب "أتباع التَّابعين" بعد أن يكونوا ثقات .  
وكُلُّ من كان بينه وبين النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلَّم ثلاث أنفس فسي  
اللقى ، أدخلناه في كتاب "تبع الأتباع" .

ولم أعتبر برواية المدلسين ، ولا الضعفاء ، وربما ذكرت في هذه الطَّبقَة  
رجلابينه وبين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم رجلا ، أحدهما ضعيف ، فلم  
أدخله في كتاب "أتباع التَّابعين" ولكن أدخلته في هذه الطَّبقَة ، لأنَّ بينه  
وبين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم ثلاث أنفس ثقات ، ولم أعتبر بذلك  
الضعيف ، لأنَّ الواهي ومالم يرو ، سيان . وأدخلنا الشَّافعي رحمة الله عليه  
في هذه الطَّبقَة ، وذلك أنَّه لم ير أحدا من التَّابعين وأجل من عنده

(١) الثَّقَات (٨ : ١٣١ ب) .

(٢) الثَّقَات (٦ : ٥٣) .

(٣) الثَّقَات (٦ : ١٢٥) ونحوه قال في ترجمة عطاء السليمي (٧ : ٢٥٤) .

(٤) الثَّقَات (٨ : ١٤٩ أ) .

مالك، وابن علية، وهما من أتباع التابعين، فبينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث أنفس ثقات). ١. هـ.

### ( ٣ ) محتويات الكتاب

عنوان هذا الكتاب يشير إلى محتواه، فهو كتاب يتحدث عن ثقات الرواة من التابعين وأتباعهم وتبع الأتباع ممن نقلت عنهم الرواية، إضافة إلى الصحابة الرواة والصحابة عندهم<sup>(١)</sup> كلهم عدول (والله قد نزه أصحاب رسوله صلى الله عليه وسلم عن ثلب قاذح، وصان أقدارهم عن وقيعنة<sup>(٢)</sup> منتقص).

وعلى هذا فكل راوٍ مذكور في هذا الكتاب، فهو من الثقات العدول إذا استوفى الشرائط الخمس التي نص عليها ابن حبان في مقدمة الثقات<sup>(٣)</sup>.  
على أن ابن حبان رحمه الله تعالى، لم يقتصر على ذكر ثقات الرواة عنده، ولا اكتفى بذكر درجاتهم في سلم التوثيق المتعددة عنده ولا في درجات التضعيف المتباينة في الثقات أيضا.

وإنما أتحننا بكثير من الفوائد الأدبية والتاريخية والفقهية والعقدية والفضائل، ولم يغفل ذكر عدد غير قليل من نوادر الأحاديث بأسانيد لها مع بيان عللها - أحيانا - ورصد جانبها غير ضئيل لتتبع عورات أهل الرأي وذكر مثالهم، أضف إلى هذا كله اهتمامه بالجانب السياسي من التاريخ الإسلامي فمن فوائده الأدبية ما قاله (في الحكمة: لا يعاد الحديث مرتين)<sup>(٤)</sup>، وروى عن إسماعيل بن ثابت قال: (إن من السنة إذا حدثت القوم أن تحدثهم جميعا ولا تخص واحدا منهم بالحديث)<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) مقدمة الصحيح (١: ٩٠).
  - (٢) المجروحين (١: ٣٣).
  - (٣) الثقات (١: ١١) فما بعد.
  - (٤) الثقات (٨: ٦١/أ).
  - (٥) ماسبق (٨: ٧٢/أ).

والفوائد التاريخية كثيرة وعديدة ومتنوعة منها ما هو إسلامي خاص  
ومنها ما هو تاريخي فقد ذكر في كتابه الثقات أولاد عبد المطلب ومكانة كسب  
واحد منهم ، وما خلف من الأولاد <sup>(١)</sup> وذكر قصة عرض النبي صلى الله عليه وسلم  
نفسه على قبائل العرب ، وذكر قصة أبي بكر مع الشيباني <sup>(٢)</sup> النسابة ، كما ذكر  
قصة أم معبد ، وتكلم كلاما طيبا حول بيعة أبي بكر <sup>(٣)</sup> رضى الله عنه <sup>(٤)</sup>  
وأشار إلى بداية التاريخ الهجرى وأن الذى ابتدأه عمر رضى الله عنه <sup>(٥)</sup> .  
وذكر قصة أويس القرنى فى موضعين <sup>(٦)</sup> ومال إلى جهالته ، وعسى <sup>(٧)</sup>  
وجد حقيقة لشخصيته . وأشار إلى أن فتح سجستان كان سنة ثلاثين <sup>(٧)</sup> .  
ومن طرائف ما ذكر أن أبا الزناد عبد الله بن ذكوان هو ابن أخى  
أبى لؤلؤة قاتل عمر <sup>(٨)</sup> .  
ونص على أن كل من ورد من الفرس إلى اليمن كانوا يسمون من الأنبياء <sup>(٩)</sup> .  
وحول تصنيف الشافعى لكتاب الرسالة ، ذكر أن الذى حملها إلى  
عبد الرحمن بن مهدى ، هو الحارث بن شريح البقال ، قال : أنا حملت  
رسالة الشافعى إلى عبد الرحمن بن مهدى ، فجعل يتعجب ويقول : لو كان  
أقل لنفهم ، لو كان أقل لنفهم <sup>(١٠)</sup> .

- 
- ( ١ ) الثقات ( ٢ : ١٣٤ ) .
  - ( ٢ ) الثقات ( ١ : ٨٠ ) .
  - ( ٣ ) ماسبق ( ١ : ١٢٥ ) .
  - ( ٤ ) ماسبق ( ٢ : ١٥٦ ) .
  - ( ٥ ) ماسبق ( ٢ : ٢٠٦ ) .
  - ( ٦ ) ماسبق ( ٤ : ٦١ ، ٥٣ ) .
  - ( ٧ ) ماسبق ( ٤ : ٢٢٥ ) .
  - ( ٨ ) ماسبق ( ٧ : ٦ ) .
  - ( ٩ ) ماسبق ( ٧ : ٤٤٠ ) .
  - ( ١٠ ) ماسبق ( ٨ : ١٣٣ ) .

وكان حفياً بالإشارة إلى الزهد والخوف والورع، واقتناص الموعظة  
فقد روى عن أبي الصديق الناجي قوله :

( خرج سليمان - عليه السلام - ليستسقى ، فإذا نملة مستلقية على  
قفاها ، رافعة قوائمها تقول : يارب ، أنا خلق من خلقك ، لاغنى لنا عن  
سقيك ورزقك ، اللهم إن لم تسقنا وترزقنا هلكنا . فقال سليمان : ارجعوا  
فقد سقيتم بدعوة غيركم ) .<sup>(١)</sup>

وعن نصر الحاجب قال : قلت للأعمش : من هم السقطة ؟ قال : الذين  
يطلبون الدنيا بعمل الآخرة .<sup>(٢)</sup> وعن علي رضي الله عنه ( التوفيق خير قائد  
وحسن الخلق خير قرين ، والعقل خير صاحب والأدب خير ميراث . . . . .  
ولا وحشة أشد من العجب ، ولا ظهيرا أفضل من المشورة ) .<sup>(٣)</sup>

وعن حماد عن إبراهيم : ( جمع علي بن أبي طالب الدنيا بخمس  
كلمات . كان يقول : اللهم اني أسألك من الدنيا وما فيها ، ما أسد به  
لساني ، وأحصن به فرجي ، وأهدى منه أمانتي ، وأصل به رحمتي ، وأتجر فيه  
لآخرتي ) .<sup>(٤)</sup>

وروى عن الشعبي قوله : ( من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ) .<sup>(٥)</sup>  
كما رواه عن الفضيل بن عياض .<sup>(٦)</sup>

ومن الفوائد ما ذكره من أن أول جمعة جمعت بالمدينة أبو امامة  
أسعد بن زرارة رضي الله عنه ، وهم أربعون رجلاً في روضة يقال لها  
نقيع الخضات من حرة بني بياضة .<sup>(٧)</sup>

وروى عن الليث بن سعد قوله : أدركت أهل المدينة وهم يقولون  
قراءة نافع سنة .<sup>(٨)</sup>

( ١ ) الثقات ( ٨ : ٧٥ ب ) .

( ٢ ) ماسبق ( ٧ : ٥٣٨ ) .

( ٣ ) الثقات ( ٨ : ١٣١ أ ) .

( ٤ ) الموضوع السابق .

( ٥ ) ماسبق ( ٨ : ٤٢ أ ) .

( ٦ ) ماسبق ( ٨ : ٧٥ ب ) .

( ٧ ) الثقات ( ١ : ٩٨ ) .

( ٨ ) ماسبق ( ٧ : ٥٣٣ ) .

وفى أقل مدة الحيض والنفاس روى عن الأوزاعي قال : كانت عندنا  
 امرأة تحيض يوماً واحداً ثم تطهر، وتمكث فى نفاسها ثلاثاً ثم تطهر .  
 وروى عن الحسن البصرى أنه سئل عن رجل أقطع تزوج امرأة ولم  
 يعلمها ، قال : هى بالخيار إذا علمت .<sup>(١)</sup>

ولم يخل كتابه الثقات من فوائد فى العقائد والتوحيد ، فقد روى عن  
 إبراهيم النخعي قوله : كانوا يكرهون للمجوسى إذا أسلم ، أن يصلوا  
 بحذاء القنديل .<sup>(٢)</sup>

وروى عن ابن عباس قوله : يا غلام إياك وسب أصحاب النبى صلى الله  
 عليه وسلم ، فإن سبهم مفقرة ، وإياك والنظر فى النجوم فإنها تدعو إلى  
 الكهانة ، وإياك والتكذيب بالقدر فإنه يدعو إلى الزندقة .<sup>(٣)</sup>

وذكر فى ترجمة الإمام أحمد من الثقات أن القول بخلق القرآن كفر .  
 كما روى عن ابن سيرين أنه كان لا يرى أن الأجر على قدر الجهد . وإنصا  
 هو فضل الله ثم صحة العمل . وحسن القبول .<sup>(٤)</sup>

#### ( ٤ ) طبيعة تراجم كتاب الثقات

يفلب على تراجم هذا الكتاب الاختصار والتلخيص ، فغالب تراجمه  
 لا تزيد على ثلاثة أسطر<sup>(٥)</sup> وفى كثير من الأحيان ، لا تزيد الترجمة على  
 السطر الواحد ، كترجمة إياس بن عبد الله<sup>(٦)</sup> ، وإياس بن عمرو الأسلمى .<sup>(٧)</sup>

- 
- ( ١ ) الثقات ( ٨ : ٣٤ ب ) .  
 ( ٢ ) ماسبق ( ٨ : ٥٤ أ ) .  
 ( ٣ ) ماسبق ( ٨ : ١٤ أ ) .  
 ( ٤ ) ماسبق ( ٨ : ١٤ أ ) .  
 ( ٥ ) ماسبق ( ٨ : ١ ب ) .  
 ( ٦ ) مقدمة الثقات ( ١ : ١١ ) .  
 ( ٧ ) الثقات ما شئت من التراجم .  
 ( ٨ ) ماسبق ( ٤ : ٣٤ ) .  
 ( ٩ ) ماسبق ( ٤ : ٣٧ ) .



على أن في تراجمه ما يزيد على عشرة أسطر، كترجمة إبراهيم النخعي<sup>(١)</sup> وإسماعيل بن عبد الرحمن الأنصاري<sup>(٢)</sup> .

ويندر أن تصل ترجمة إلى عشرين سطرا، كترجمة عبد الله بن المبارك<sup>(٣)</sup> ومالك، والأوزاعي .

قال في أول التابعين<sup>(٤)</sup> : (إننا نذكر ما نعرف من أنسابهم وأقدارهم وأذكر عند كل شيخ منهم شيئا فوقه، وشيئا دونه، ليعتبر المتأمل للحفظ بهما، فيقيس من وراءهما طيهما) .

فهو يذكر اسم الرجل ونسبه إن كان من المشهورين معروف في النسب كالإمام<sup>(٥)</sup> الشافعي، والإمام<sup>(٦)</sup> أحمد وغيرهما، كما يذكر أشهر شيوخه وأشهر تلامذته كما هي فحوى النص .

وقد يذكر بعض صفات الرجل الخلقية، كما في ترجمة إياس بن معاوية ابن قرة<sup>(٧)</sup> . وأحيانا يشير إلى عيب خلقى فيه، كترجمة أسماء<sup>(٨)</sup> بن عبيد بن مخراق الضبي البصري، قال : كان مكفوا .

### ( ٥ ) أَلْفَاظُ التَّوْثِيقِ فِي الثَّقَاتِ

تعددت ألفاظ التوثيق في هذا الكتاب، واختلفت مدلولاتها عند ابن حبان، ويحسن أن أذكر بأنه لا يشترط في كلِّ راوثة عنده أن يذكره بلفظ من هذه الألفاظ، إذ مجرد وجوده في الثقات دليل على وثاقته عنده ولكن ألفاظ التوثيق هذه دلالة على أهلية هذا المزكي للرواية واتصافه

( ١ ) الثقات ( ٤ : ٨ ) .

( ٢ ) ماسبق ( ٤ : ١٨ ) .

( ٣ ) ماسبق ( ٧ : ٧ - ٨ : ٦٢ ، ٤٥٩ ) .

( ٤ ) ماسبق ( ٤ : ٣ ) .

( ٥ ) الثقات ( ٨ : ٣ ، ١ ) .

( ٦ ) ماسبق ( ٨ : ١٤ ) .

( ٧ ) ماسبق ( ٦ : ٦٤ ) .

( ٨ ) ماسبق ( ٦ : ٨٣ ) .

بالإتقان . والفرق كبير بين إدخال الراوى فى الثِّقات ، وبين أهليته للرواية عنه ، وسيأتى بسط هذا فى موضعه إن شاء الله .

ولعلَّ أسمى عبارات التوثيق عند ابن حبان ما قرظ به ترجمة إمام المحدثين أحمد بن حنبل رحمه الله قال ( كان حافظا ، متقنا ، ورعا ، فقيها لازما للورع الخفى ، مواظبا على العبادة الدائمة )<sup>(١)</sup> .

ومن ألفاظ التوثيق العالية عنده قوله : مستقيم الحديث ، كما فى ترجمة أحمد بن خالد المروزي ، وأحمد بن عمران بن الأحنس ، وعتاب بن شوذب ، ومجاعة بن الزبير العتكي .

ومنها قوله مستقيم الحديث جداً قالها فى ترجمة إسحاق بن إسماعيل الطالقاني ، وعبد بن سليمان الكلابي ، ومحمد بن هشام بن عروة بن الزبير . وقوله : من الحفاظ المتقين<sup>(٢)</sup> كترجمة زياد بن سعد الخراساني وأبي بكر بن عياش .

ومن هذه الألفاظ ، كان صدوقاً ، كما فى ترجمة محمد بن السائب التيمي ، ومقاتل بن حيان ، ولكنه قيده بما إذا كان دون مقاتل ثقة . ومنها : كان متقناً<sup>(٣)</sup> كترجمة حجاج الصواف ، وزفر بن الهذيل ، وقرة ابن خالد السدوسي .

ومنها : كان ورعاً<sup>(٤)</sup> فقيها فاضلاً كما فى ترجمة زيد بن ربيع الجزري وزيد بن أبي أنيسة الجزري أيضا . ومنها : كان من أفاضل أهل زمانه ، قالها فى ترجمة رجاء بن أبي سلمة الفلسطيني .

- 
- (١) الثِّقات (٨ : ٤ أ) .
  - (٢) تراجمهم على التوالي : (٨ : ١٣) ، (٧ : ٢٩٥ ، ٥١٧) .
  - (٣) تراجمهم : (٨ : ١٩ ب) ، (٧ : ١٦٤ ، ٤٢٤) .
  - (٤) تراجمهم : (٦ : ٣١٩) ، (٧ : ٦٦٩) .
  - (٥) ترجمتهما فى الثِّقات (٧ : ٣٨٨ ، ٥٠٨) .
  - (٦) تراجمهم فى الثِّقات (٦ : ٢٠٢ ، ٣٣٩) ، (٧ : ٣٤٢) .
  - (٧) ترجمتهما : (٦ : ٣١٤ ، ٣١٥) .
  - (٨) فى الثِّقات (٦ : ٣٠٥) .

وقد يقول : كان من خيار عباد الله ، كما في ترجمة يزيد بن جابر  
الدمشقي ، وعمر بن عبد الغفار الصنعاني .  
ويقول : كان ثقة كما في ترجمة نوفل بن الغرات .  
وعنده ألفاظ أخرى تأتي بعد هذه المراتب ، كقوله : مستقيم  
الحديث ربما اخطأ قالها في ترجمة يوسف بن أسباط .  
أو قوله : لم أرف في حديثه شيئاً ينكر كما في ترجمة يزيد أبو حبيب  
الراوي ، وقوله : لم أرف في حديثه إلا الاستقامة ، كما في ترجمة علي بن  
إسحاق البلخي ، وقوله : لم أرف في حديثه ما يحطه إلى المجروحين ، قال  
ذلك في ترجمة قصاب أبو عاصم ، وأحمد بن عبد الجبار العطاردي ، ومحمد بن  
عمرو البلخي وغيرهم .

#### ( ٦ ) الألفاظ المشعرة بالتضعيف في الثقات

يخطئ من يظن أن كل راو ذكره ابن حبان في الثقات ، يصلح  
للاحتجاج به ، أو أن ابن حبان نفسه يحتج بكل راو عنده .  
وهو قد ذكر في مقدمة ثقته أنه يحتج بهؤلاء الرواة إذا توافرت فيهم  
الشرائط التي ذكرها بيد أن النظرة الفاحصة توحى بأن في الثقات رجالاً  
ليسوا على شرط الوثاقة ، بل فيهم من لا يعرفهم ابن حبان كما سيأتي  
ولذلك فإنني عملت فهرساً للرواة الذين جرحهم تمهيداً لدراستهم فسي  
منهج ابن حبان في الجرح - إن قدر الله ذلك وشاء .  
ويكفي أن أعرض ههنا لبعض النماذج ، وأذكر بعض الشواهد ، حتى

- 
- ( ١ ) في الثقات ( ٧ : ٦١٩ ) ، ( ٨ : ٨١١ ب ) .  
( ٢ ) في الثقات ( ٧ : ٥٤١ ) .  
( ٣ ) في الثقات ( ٧ : ٦٣٨ ) .  
( ٤ ) في الثقات ( ٥ : ٥٤٦ ) .  
( ٥ ) في الثقات ( ٨ : ١٨٦ ) .  
( ٦ ) في الثقات ( ٧ : ٣٤٥ ) ، ( ٨ : ١٩ ) ، ( ١٣٢ : ١ ) .

لا نفع في كثرة التكرار، والإطالة .

- ربما قال في ترجمة راو : يروي المقاطيع، كما في ترجمة ثابت بن سعيد ، وسهيل بن راشد .
- أو قال : يروي المراسيل، كما في ترجمة جميل الحذاء، وحفص بن سليمان الأزدي .
- أو قال : يروي المراسيل والمقاطيع، كما في ترجمة علي بن بسلال ومحمد بن زياد الصنعاني .
- وقد يقول : يروي عن فلان<sup>(٤)</sup> ولم يره كما في ترجمة عبد الله بن عطية المكي ، وبشير بن مهاجر الغنوي .
- أو يقول : ربما وهم<sup>(٥)</sup> كما في ترجمة زياد بن أبي زياد الجصاص، أو ربما وهم فأفحش كما في ترجمة عبد العزيز بن مسلم القسطلي .
- أو يقول : بهم ويغرب<sup>(٧)</sup> كما في ترجمة صامت بن معاذ بن شعيب أو يخطئ<sup>(٨)</sup> بهم، كما في ترجمة حجاج بن فرافصة .

### ( ٧ ) أَلْفَاظُ التَّضْعِيفِ وَالتَّجْهِيلِ فِي الثِّقَاتِ

وهذه أيضا كثيرة ومتنوعة . فقد يقول : يخطئ<sup>(٩)</sup> كثيراً كما في ترجمة يزيد بن درهم العجمي وبشير بن المهاجر الغنوي ، وعبيد الله بن الأحنس وغيرهم .

- ( ١ ) الثِّقَات ( ٦ : ١٢٤ ، ٣٩٠ ) .
- ( ٢ ) مَاسِيق ( ٦ : ١٤٧ ، ١٩٧ ) .
- ( ٣ ) مَاسِيق ( ٧ : ٢٠٨ ، ٣٩٥ ) .
- ( ٤ ) مَاسِيق ( ٧ : ٤١ ) ، ( ٦ : ٩٨ ) .
- ( ٥ ) مَاسِيق ( ٦ : ٣٢٠ ) .
- ( ٦ ) مَاسِيق ( ٣ : ٣٣١ ) .
- ( ٧ ) مَاسِيق ( ٨ : ٥٧ ب ) .
- ( ٨ ) مَاسِيق ( ٦ : ٢٠٣ ) .
- ( ٩ ) الثِّقَات ( ٥ : ٥٣٨ ) ، ( ٦ : ٩٨ ) ، ( ٧ : ١٤٧ ) .

وقد يقول : ردىء الحفظ<sup>(١)</sup> كما فى ترجمة أيوب بن سهيل الرطلى .  
ويقول : فى روايته اضطراب<sup>(٢)</sup> كما فى ترجمة عكرمة بن عمار العجلسى  
وقد يقول : فى روايته مناكير<sup>(٣)</sup> كما فى ترجمة عمرو بن خليفة ، وعمران القصير .  
وقد يقول : لأدرى من هو<sup>(٤)</sup> كما فى ترجمة عطاء المدنى الراوى عن  
أبى هريرة ، ومروان الراوى عن ابن مسعود ، والحسن أبو عبد الله .  
وقد يقول : لست أعرفه<sup>(٥)</sup> ولا أعرف أباه كما فى ترجمة إبراهيم بن  
إسحاق الراوى عن ابن جريج .  
أو يقول : لأعلم له إلا راوياً واحداً<sup>(٦)</sup> ، كما فى ترجمة عكرمة مؤبى ابن  
عباس - آخر - وترجمة نصح بن سرجس ، ومحمد بن طوان .  
وقد يشير إلى أن هذا الراوى ، لم يرو إلا عن مجهول<sup>(٧)</sup> ، كما فى ترجمة  
ضمضم بن عبد الله القيسى ، وعبد الله بن محمد بن واقد الباهلى ، وقد يتشكك  
بمعرفة<sup>(٨)</sup> الراوى كقوله إن لم يكن فلانا فلا أدرى من هو ، كما فى ترجمة  
عمارة شيخ من بلحارث ، ومحمد بن أفلح ، وحبیب الأعور .  
والفاظ أخرى كثيرة .

#### ( ٨ ) الانتقادات التى وُجِّهت إلى الثقات

لقد وجّه كثير من الحفاظ انتقادات عديدة لثقات ابن حبان ومنهجه  
فيه ، أبرزها أنه يعتبر الراوى ثقة ، إذا كان معروف العين برواية اثنين عنه  
ولم يعلم عنه جرح ، إذا الناس على العدالة حتى يتبين منهم غير ذلك - عنده - .

- ( ١ ) الثقات ( ٨ : ٢١١ ب ) .
- ( ٢ ) ماسبق ( ٥ : ٢٣٣ ) .
- ( ٣ ) ماسبق ( ٧ : ٢٢٩ ، ٢٤٢ ) .
- ( ٤ ) ماسبق ( ٥ : ٢٠٧ ، ٤٢٥ ) ، ( ٦ : ١٧٠ ) .
- ( ٥ ) ماسبق ( ٨ : ١٢ أ ) .
- ( ٦ ) ماسبق ( ٥ : ٢٣٠ ) ، ( ٦ : ٤٤٥ ) ، ( ٧ : ٤١٠ ) .
- ( ٧ ) ماسبق ( ٦ : ٤٨٥ ) ، ( ٨ : ٦٥ ) .
- ( ٨ ) ماسبق ( ٥ : ٢٤٥ ، ٣٨٠ ) ، ( ٦ : ١٧٨ ) .

كما أنه حشر في "الثقات" أناسا من المجاهيل سواء ممن نص على جهالتهم، أو ممن نص غيره من الحفاظ على ذلك . وسيأتي تفصيل لذلك إن شاء الله .

كما انتقدوا عليه صنيعه في ترتيب الثقات نفسه ، فهو قد يذكر الراوى فى طبقتين ، كما فعل فى ترجمة فروة بن نوفل ، فقد ذكره فى الصحابة والتابعين .

(١) أما حين ذكره فى الصحابة فقد قال : عن فروة بن نوفل قال أتيت المدينة فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما جاء بك؟ قلت : جئت لتعلمنى كلمات إذا أخذت مضجعى ، قال : (اقترأ "يا أيها الكافرون" فإنها براءة من الشرك) وقال ابن حبان : القلب يميل إلى أن هذه اللفظة ليست بمحفوظة ، من ذكر صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإننا نذكره فى كتاب التابعين أيضا ، لأن ذلك الموضع به أشبهه وعبد العزيز القسطنطينى - راوى هذا الحديث عن فروة - ربما أوهم فأفحش) .  
وقال فى التابعين (٢) (وقد قيل إن له صحبة وقد ذكرناه فى الصحابة والقلب إلى أن تلك اللفظة ليست بمحفوظة أميل ، إنما قالها عبد العزيز بن مسلم القسطنطينى عن أبى إسحاق) .

وقد ذكر ابن حجر توقف ابن حبان فى الإصابة (٣) ، ورجح أن المقصود هو نوفل الدغلى ، وقال : (اتفق الحفاظ على أن عبد العزيز بن مسلم وهم فى روايته عن أبى إسحاق) .

فتوقف ابن حبان دلالة على تقوى وطم ، وليس فى ذكره إياه فى الطبقتين ضير مادام قد نيه إلى ذلك .

(٢) وذكر توبة بن كيسان العنبرى فى طبقة أتباع التابعين وقال بعد أن

(١) الثقات (٣: ٣٣١) .

(٢) ماسبق (٥: ٢٩٧) .

(٣) الإصابة (٣: ٢١٧) .

(٤) ماسبق (٦: ١٢٠) .

روى من طريقه خيرا :

(فإن صح هذا فهومن التابعين . وقد ذكرناه في التابعين

"يعنى إن صح سماعه الخبر من أنس" .

وقال في طبقة التابعين : يروى عن أنس بن مالك ، ولم يعقب .

فالرجل قد نبه على تشككه ، فما هو المأخذ عليه ؟ وفعل مشـ

ذلك في ترجمة شيبه بن نصاح بن سرجس ، فقد ذكره في التابعين وأتباعهم .

والذى يظهر من الأمثلة السابقة أنه لا يتوجه فيها إلى ابن حبان

نقد ، لأنه قد أوضح سبب ذكره إياهم في طبقتين . فإن وجد أناس ذكرهم

في طبقتين من غير تنبيه فهم قلة نادرة .

وقد يذكر رجالاً في الثقات ، ويذكرهم في المجروحين أيضاً ، وهذا

ما لا يليق بإمام في الجرح والتعديل .

وقد جمعت هؤلاء الرواة الذين ذكرهم في الكتابين ، وسأعرض لهم

تفصيلاً في باب لاحق إن شاء الله . أما الآن فإننى أذكر بعض هؤلاء الرواة

لنتعرف على تفسير ابن حبان لهذه الظاهرة ما أمكن .

(١) ترجم لهشام بن لاحق في الثقات فقال :

(هشام بن لاحق ، شيخ بصرى ، يروى عن عاصم الأحول عن أبي عثمان

النهدى ، نسخة رواها عنه أحمد بن هشام بن حزام ، فى القلب من بعضها

شىء) .

وقال فى المجروحين : (يروى عن عاصم الأحول ، روى عنه

العراقيون . منكر الحديث ، يروى عن الثقات ما لا يشبه حديث الأثبات

لا يجوز الاحتجاج به ، لما أكثر من المقلوبات عن أقوام ثقات) .

(٢) وترجم لمحرز بن عبد الله أبى رجاء الجزرى فى الثقات فقال :

(كان يدلّس عن مكحول وغيره ، يعتبر بحديثه ما بين السماع عن مكحول

وغیره) .

(١) الثقات (٤ : ٨٨) .

(٢) ما سبق (٤ : ٣٦٨) ، (٦ : ٤٤٤) .

(٣) الثقات (٣ : ١١٥) ، المجروحين (٣ : ٩٠ - ٩١) ، العلل المتناهية

لابن الجوزى (٢ : ١٨) .

(٤) ترتيب الثقات للهيثمى (٣ : ٥٧) ، المجروحين (٣ : ١٥٨) .

- وقال في المجروحين : ( لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد ) .  
 ( ٣ ) وترجم لمصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير في الثِّقات <sup>(١)</sup> فقال  
 ( وقد أدخلته في الضعفاء ، وهو ممن استخرت الله فيه ) .  
 ( ٤ ) وترجم لمسلم بن عطية الفقيمي في الثِّقات <sup>(٢)</sup> ، وسكت عليه . وقال فسي  
 المجروحين :

( منكر الحديث ، ينفرد عن عطاء وغيره من الثِّقات بما لا يشبهه  
 حديث الأثبات ، إذا نظر المتبحر في روايته عن الثِّقات ، علم أنها معمولة ) .  
 هذه بعض نماذج ممن ذكروهم في الثِّقات والمجروحين . ففي المثال  
 الأول كأنَّ ابن حبان ظهر له ما يقين من ضعف الرجل ، وفي المثال الثالث  
 نحوه ، أما في المثال الثاني ، فكان مترددا ثم جزم ، وفي المثال الرابع  
 لعله غفل كما قال ابن حجر .

---

( ١ ) الثِّقات ( ٧ : ٤٧٨ ) ، المجروحين ( ٣ : ٢٨ - ٢٩ ) ، وقارن بالميزان  
 ( ٤ : ١١٨ ) .  
 ( ٢ ) الثِّقات ( ٧ : ٤٤٤ ) ، المجروحين ( ٣ : ٩ ) .



المبحث الثالث : كتاب المجروحين

كتاب "المجروحين" من أهم كتب ابن حبان ، وأكثرها اعتمادا من قبل أئمة النقد في العصور التالية ، والحديث عن هذا الكتاب يطول وسيأتي في الأبواب التالية من هذه الرسالة ، إلا أنني أعرف به تعريفا عاما وأقتصر على بعض الشواهد الموضحة لبعض ما أطلق من أحكام .

( ١ ) عنوان الكتاب ونسبته إلى ابن حبان

أعتقد أن الحديث عن صحة نسبة هذا الكتاب إلى ابن حبان من فضول الكلام ، لأنني بينت سابقا أوجه التشابه في عدد من النقاط بين كتاب الثقات والمشاهير والمجروحين ، كما أشرت إلى عدد من المصنفات التي أشار إليها ابن حبان في "المجروحين" وأشار إليها في غيره من كتبه ، كما ذكرت عند تعريفى لكتاب الثقات أن عددا غير قليل من الرواة ذكروهم في الثقات وذكروهم في المجروحين ، وأن جمهرة منهم علق أمرهم على الإستخارة أشار إليهم هو بنفسه ، إضافة إلى التصريح بتصنيفه هذا الكتاب في غير موضع من كتبه . فقد قال في مقدمة الثقات :

( ولا سبب إلى معرفة صحة الأخبار وسقيمها إلا بمعرفة تاريخ من ذكر اسمه من المحدثين وكتبا أبيين فيه الضعفاء والمتروكين ، وأبدأ منهما بالثقات )<sup>(١)</sup> .

وقال في نهاية كتاب الثقات : ( وإنما نملى بعد هذا كتاب الضعفاء جعلنا الله ممن يكلف الجهد في حفظ السنن ونشرها وتمييز صحيحها من سقيمها ، والتفقه فيها . . )<sup>(٢)</sup> .

وقال في صحيحه<sup>(٣)</sup> : ( إسماعيل هذا ، هو إسماعيل بن عياش ، لسم

- ( ١ ) الثقات ( ١ : ١٠ ) .  
 ( ٢ ) ما سبق ( ٨ : ١٤٩ ) .  
 ( ٣ ) الصحيح ( ٧ : ١٥٨ ) .

نذكره في كتابنا هذا في هذا الموضوع، احتجاجاً منا به . واعتمادنا في هذا الخبر على منصور بن أبي مزاحم، لأنه سمعه من فليح وإسماعيل قد ذكرنا السبب في تركه في كتاب "المجروحين" أ. هـ

وإسماعيل بن عياش قد ذكره في المجروحين، وفصل سبب جرحه .  
وقد استفرخ الإمام الذهبي أحكام ابن حبان في كتابه هذا، في "ميزان الاعتدال" وأقره أو تعقبه - كما سيأتي - . كما استفرخه الإمام ابن حجر في لسان العيزان، والتهذيب . واعتمده - مع بعض الانتقادات - كل من جاء بعده من الحفاظ، حتى إن ابن الجوزي قد روى من طريق ابن حبان في العلل المتناهية أكثر من ستين حديثاً، ولما يضعف رأياً دون إشارة إلى قول ابن حبان فيه . ومع هذا فإنه لم يذكره في شيء من كتب التراجم والتاريخ التي صنّفها .

وذكره صاحب كشف الظنون<sup>(١)</sup> فقال (الضعفاء والمتروكون) من رواية الحديث، وضع له مقدمة قسم فيها الرواة إلى نحو من عشرين قسمًا ذكره البقاعي في حاشية شرح الألفية .

وأيا ما كان اسمه فهو دائر في فلك المجروحين والضعفاء والمتروكين ومضمونه هو . وقد يذكر أحياناً باسم كتاب "الجرح والتعديل" .

جاء في فهرس مخطوطات المكتبة الغربية بالجامع الكبير بصنعاء<sup>(٢)</sup>

بالفظة :

(كتاب الجرح والتعديل لمحمد بن حبان أبو حاتم التميمي، أوله مبتور، وأول الموجود منه زياد بن فخرى، وأنا شحب اللون، وسخ الثياب كثير الشعر، فقال من أين لحديثه الحديث؟ وآخره مبتور، وأول الموجود منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعودوا بالله من إماراة الصبيان قيل يارسول الله، وما إماراة الصبيان؟ قال: إن أطعمتموهم هلكتم، وإن عصيتموهم أهلكتم .

(١) كشف الظنون (١٠٨٧) .

(٢) (ص ٧٤) .

خط نسخي جيد . . . رتب أسماء العلماء على حروف المعجم مسجلا الاسم الأول بالخط الأحمر الكبير وسط المتن . ويعرف كتاب الجرح والتعديل لابن حبان باسم "التنقيح" . . . ولعل فيه قدر كراس نقص، وفي أعلاه كذلك) . ١ هـ

والواقع أن هذا الكتاب هو نفس "المجروحين" ولكن مفهرس المكتبة لم يتحقق من القراءة فقد جاء في المطبوع<sup>(١)</sup> مانصه : (فانحدرت إلى البصرة فلقيت زياد بن مخرق وأنا شحب اللون وسخ الثياب، كثير الشعر، فقال من أين ؟ فحدثته الحديث) .

وآخر الموجود هو بنصه أيضا في الجروحين<sup>(٢)</sup> . والنقص بمقـدار كراس من أوله وكراس من آخره فعلاً .

ومن الكتاب نسختان أخريان أولاهما في دار الكتب المصرية، وطبعت عليها طبعة حلب بتحقيق إبراهيم زايد، والأخرى بمكتبة أحمد الثالث<sup>(٣)</sup> باستانبول، وطبيها طبعت طبعة الهند بعناية عزيز بك القادري . وربما كان للكتاب نسخ أخرى لم أقف عليها بعد .

## ( ٢ ) طريقة تأليف الكتاب ومحتواه

لقد ابتدأ ابن حبان كتابه بمقدمة نفيسة بيّن فيها منهجه في الحكم على الرواة، وقسم أنواع جرح الضعفاء إلى عشرين نوعا كما جعل أنواع جرح الشُّقات ستة أنواع، ثم راح يسرد أسماء الضعفاء مرتبين على الحروف مراعيًا الحرف الأول من حروف المعجم فحسب .

- 
- ( ١ ) المجروحين ( ٢٨ : ١ ) .
  - ( ٢ ) ماسبق ( ١٢٢ : ٣ ) .
  - ( ٣ ) مخطوط دار الكتب المصرية تحت رقم ( ١٩٥٩٨ ب ) .
  - ( ٤ ) عنها صورة في مكتبة مركز البحث العلمي، وقد صورها لي المركز مشكورا لمعالجة السَّقَط والتحرير في المطبوع .

وليته إذ قسم المجروحين إلى عشرين نوعاً ، والثقات المضعفين إلى ستة أنواع ، رتب الرواة مصنفين على هذه الأنواع ، إذ كان في ذلك تصنيف موضوعي في تلك العصور القديمة . وكان هون على مطالع كتابه ودارسه بوقوفه على بغيته من أقرب طريق .

وإذا ذهبنا لاستقراء مقدمته وجدناه يبين سبب تأليفه هذا الكتاب وقد كان هذا السبب مكوناً من شقين :

الأول : لأنه ( لا يتهياً معرفة السقيم من الصحيح ، ولا استخراج الدخيل من الصريح إلا بمعرفة ضعفاء المحدثين والثقات . . . ) فكان هذا الكتاب لذكر (ضعفاء المحدثين وأضداد العدل من الماضين ممن أطلق عليهم أئمتنا القدح ، وصح عندنا فيهم الجرح ، وأذكر السبب الذي من أجله جرح ، والعلة التي بها قدح . . . ) (١) .

والثاني : بيان ما أغفله الأئمة السابقون فلم يوضحوا فيه سبب الجرح أولم يتوسعوا في ذلك أو كان في أحكامهم بعض قصور ، فقام ابن حبان بإكمال ذلك كله . (٢)

وتكلم في مقدمة هذه عن تاريخ طم الجرح والتعديلي ، وأول من نقب وقتش عن الرواة وعن حكم الجرح والتعديلي ، ومعرفة الضعفاء ممن الثقات ، والشرائط التي ينبغي توافرها فيمن يتصدى للفقه والاستنباط . والجرح أقسام عديدة ، وأنواع كثيرة ، منها المسقط ، ومنها غير المسقط ومنها ما يسقط في حال دون حال ، ومنها أنواع جرح تخص الضعفاء وأخرى تخص الثقات .

وقد جعل ابن حبان أنواع الجرح المسقط عشرين نوعاً ، وجعل أنواع الجرح غير المسقط ستة أنواع . فخص الأنواع الأولى بالضعفاء وخص الثانية بالثقات . (٣) (٤)

( ١ ) المجروحين ( ٤ : ١ ) .

( ٢ ) ما سبق ( ١٥ : ١ ) .

( ٣ ) المجروحين ( ٦٢ : ١ ) فما بعد .

( ٤ ) ما سبق ( ٩٠ : ١ ) فما بعد .

( أ ) أقسام جرح الضعفاء :

وقد رأيت بعد دراستي لهذا الكتاب أنّ الأنواع العشرين التي تخص الضعفاء يمكن توزيعها على ستة أقسام، تحت كل قسم منها نوع، أو أنواع عديدة من الجرح .

( ١ ) أما القسم الأول : فيتحدّث عن الوضع والموضوعات حالاً ومآلاً . وقد تحدّث عن هذا القسم في سبعة أنواع : الزنادقة<sup>(١)</sup>، والوضاعون<sup>(٢)</sup> جراً واستحلالاً، والوضاعون<sup>(٣)</sup> حسبة، والوضاعون لغرض دنوي، والقصاص<sup>(٤)</sup> والسؤال، ومن أدخل عليه<sup>(٥)</sup> الحديث فعرف فأصر، ومن كان يوضع لــــه الحديث<sup>(٦)</sup> وهو لا يعلم .

وهذه الأقسام السبعة تشتمل على أنواع أسباب وضع الحديث حالاً (بقصد الوضع) أو مآلاً بأن تحقق الوضع، وإن لم يرد المحدث ذلك إمسا ابتداءً كمن أخطأ ثم أصر، أو المغفل الذي يوضع له الحديث وهو لا يدري .

( ٢ ) القسم الثاني : من نسب إلى الكذب . وهؤلاء ستة أنواع : من كان يتلقن ولا يبالي<sup>(٨)</sup>، ومن كان يكذب لجهله بالعلم وهو لا يعلم<sup>(٩)</sup> أنه يكذب، والذين يحدّثون عن لم يروهم<sup>(١٠)</sup>، والذين يخلطون<sup>(١١)</sup> في الروايات ويقلبون الأخبار، والذين يحدّثون عن لقوهم بما لم يسمعوا منهم على غير وجه التدليس، والذين أخطأوا<sup>(١٢)</sup> فعرفوا فلم يرجعوا .

( ١ ) المجروحين ( ١ : ٦٢ - ٦٣ ) .

( ٢ ) ماسبق ( ١ : ٦٤ - ٦٥ ) .

( ٣ ) ماسبق ( ١ : ٦٤ ) .

( ٤ ) ماسبق ( ١ : ٦٥ - ٦٦ ) .

( ٥ ) ماسبق ( ١ : ٨٥ - ٨٦ ) .

( ٦ ) ماسبق ( ١ : ٧٨ ) .

( ٧ ) ماسبق ( ١ : ٧٧ - ٧٨ ) .

( ٨ ) ماسبق ( ١ : ٦٨ - ٦٩ ) .

( ٩ ) ماسبق ( ١ : ٧٠ ) .

( ١٠ ) ماسبق ( ١ : ٧١ ) .

( ١١ ) ماسبق ( ١ : ٧٣ - ٧٤ ) .

( ١٢ ) ماسبق ( ١ : ٧٤ ) .

( ١٣ ) ماسبق ( ١ : ٧٨ - ٧٩ ) .

- (٣) القسم الثالث : الفساق<sup>(١)</sup> والسفهاء ، فالفاسق لا يكون عدلا ، والعدالة شرط في الرواية .
- (٤) القسم الرابع : المبتدعون<sup>(٢)</sup> الدعاة إلى بدعتهم .
- (٥) القسم الخامس : المدلسون<sup>(٣)</sup> الضعفاء عن لم يروهم .
- (٦) القسم السادس : اختلال الضبط وفحش الغلط وتحت أنواع أربعة :  
الغفلة<sup>(٤)</sup> الشديدة وكثرة الوهم ، الاختلاط<sup>(٥)</sup> ، الخطأ<sup>(٦)</sup> الفاحش ، التحديس<sup>(٧)</sup>  
من الحفظ بعد ضياع الكتب .

(ب) جرح الثقات :

- وأقسام جرح الثقات أربعة يندرج تحتها ستة أنواع :
- (١) القسم الأول : الخطأ<sup>(٨)</sup> اليسير وهو الذي يجتنب معه انفراد الراوي .
- (٢) والقسم الثاني : التدليس . وهو ثلاثة أنواع : تدليس الشيوخ<sup>(٩)</sup>  
وتدليس التسوية ، وتدليس الإسقاط<sup>(١٠)</sup> .
- (٣) والقسم الثالث : الثقة الحافظ<sup>(١١)</sup> غير الفقيه إذا حدث من حفظه فربما
- أحال المعاني لعنايته بالأسانيد دون المتن .
- (٤) والقسم الرابع : الفقيه الثقة<sup>(١٢)</sup> المعنى بالمتون لاستخراج الأحكام

- 
- (١) المجروحين (١ : ٧٩-٨٠) .
- (٢) ماسبق (١ : ٧٩-٨٠) .
- (٣) ماسبق (١ : ٨٠-٨١) .
- (٤) ماسبق (١ : ٦٧) .
- (٥) ماسبق (١ : ٦٨) .
- (٦) ماسبق (١ : ٧٦-٧٧) .
- (٧) ماسبق (١ : ٧٥) .
- (٨) ماسبق (١ : ٩٠) .
- (٩) ماسبق (١ : ٩١) .
- (١٠) ماسبق (١ : ٩٤) .
- (١١) ماسبق (١ : ٩٢) .
- (١٢) ماسبق (١ : ٩٢) .
- (١٣) ماسبق (١ : ٩٣-٩٤) .

إذا حدث من حفظه ، لأنه لا يضبط الإسناد غالباً .  
هذه هي أنواع جرح الثقات والضعفاء ، وعليها بنى كتابه المجروحين  
هذا .

( ٣ ) أَلْفَاظُ الْجَرْحِ الْمُسْتَعْمَلَةُ فِي  
هَذَا الْكِتَابِ " الْمَجْرُوحِينَ "

لا مانع أن أقرر بأن اصطلاحات ابن حبان في أَلْفَاظِ الْجَرْحِ والتعديل فريدة متميزة وقل أن تجد إماماً آخر يشاركه في بعضها . ومن هنا كانت صعوبة دراسة مصطلحات ابن حبان . ولما كانت هذه الكلمات لمجرد العرض فإنني أضع بين يديك نماذج من هذه المصطلحات ، لتكون على ذكر من هذا حين دراستنا لمنهجه في الجرح والتعديل إن شاء الله .

( ١ ) مصطلحات ابن حبان عن الوضع :

دَجَّالٌ مِنَ الدَّجَائِلَةِ ، يَضَعُ الْحَدِيثَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صِرَاحاً ، وَقَسَّالٌ<sup>(١)</sup> كَانِ يَضَعُ الْحَدِيثَ عَلَى الثِّقَاتِ ، وَيَأْتِي بِمَا لِأَصْلِ لَهُ مِنَ الْأَثْبَاتِ ، لَا يَحْتَسِبُ كِتَابَةَ حَدِيثِهِ إِلَّا عَلَى جِهَةِ التَّعْجِبِ فَقَطْ<sup>(٢)</sup> . يَرَوِي عَنِ الثِّقَاتِ الْأَوَائِدِ وَالطَّامَاتِ<sup>(٣)</sup> . . . . . مِنْكَرِ الْحَدِيثِ جَدًّا يَأْتِي عَنِ الثِّقَاتِ بِالْأَشْيَاءِ الْمَوْضُوعَاتِ<sup>(٤)</sup> . . . . . وَعَدَدًا كَبِيرًا مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ .

( ٢ ) مصطلحاته عن الشذوذ :

يَرَوِي عَنْ فُلَانٍ مَا لَيْسَ مِنْ حَدِيثِهِ وَعَنْ غَيْرِهِ مِنَ الثِّقَاتِ مَا لَا يَشْبَهُ حَدِيثَ الْأَثْبَاتِ ، فَسَقَطَ الْاِحْتِجَاجُ بِهِ ، لَمَّا ظَهَرَ ذَلِكَ مِنْهُ . . . . . يَنْفَرِدُ عَنِ الثِّقَاتِ بِمَا لَا يَشْبَهُ حَدِيثَ الْأَثْبَاتِ ، فَلَمَّا فَحِشْتُمْ مَخَالَفَتَهُ الثِّقَاتِ صَارَ سَاقِطًا الْاِحْتِجَاجُ بِهِ . . . . . وَالْفَاظُ كَثِيرَةٌ أُخْرَى .

- 
- ( ١ ) المجروحين ( ١ : ١٣٤ ) .  
( ٢ ) ماسبق ( ١ : ١٣٥ ) .  
( ٣ ) ماسبق ( ١ : ١٤٠ ) .  
( ٤ ) ماسبق ( ١ : ١٣٧ ) .  
( ٥ ) ماسبق ( ٣ : ٨٣ ) .  
( ٦ ) ماسبق ( ٣ : ٩٤ ) .

(٣) اصطلاحات حول كثرة الخطأ :  
 كان ممن فحش خطوه حتى خرج عن حد الاحتجاج به . . . فاحش  
 الخطأ، يخطئ<sup>(١)</sup> فيكثر .

(٤) المختلطون وأصحاب الأوهام :  
 اختلط في آخر عمره حتى كان لا يدري<sup>(٢)</sup> ما يحدث به . . . كان صدوقاً  
 إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فكان يتقن<sup>(٣)</sup> ما تلقن . . . من خيار عباد الله  
 ممن قطعت العباداة عن مراعاة الحفظ . . . فكان يأتي بالشئ الذي لا أصل  
 له توهمًا ، فبطل الاحتجاج بأخباره<sup>(٤)</sup> .

(٥) المدلسون ومن يروى عن من لم يسمع منه :  
 يسرق الحديث ويسويه<sup>(٥)</sup> . . . يأتي عن الثقات بما لا يشبه حديثهم  
 الأثبات، إن لم يكن بالمتعمد لها فهو المدلس عن الكذابين . . . كان ممن  
 يحدث بما لم يسمع<sup>(٦)</sup> .

ومصطلحات عديدة جداً سخرى تصنيفها والحديث طيبها فيما يأتي  
 إن قدر الله ذلك وشاء .

- 
- (١) المجروحين (١٠٤:١) .  
 (٢) ما سبق الموضع نفسه .  
 (٣) ما سبق (١٠٠-٩٩:١) .  
 (٤) ما سبق (٨:٣) .  
 (٥) ما سبق (٩٩:٣) .  
 (٦) ما سبق (٢٣:٣) .  
 (٧) ما سبق (١٢٩:١) .  
 (٨) ما سبق (١١٥:١) .  
 (٩) ما سبق (٢٩:٣) .



## ( ٤ ) الانتقادات التي وجهت إلى المجروحين

لقد وجهت إلى كتاب المجروحين عدة انتقادات منها أنه يذكر الرجل في الثقات ويذكره في المجروحين ، وقد أشرت إلى ذلك عند الحديث على كتاب الثقات ، والتفصيل في موضعه اللاحق .

كما وجهت إلى ابن حبان تهمة (سعة المصطلحات وتداعيلها) وهذه التهمة عويصة ، والإجابة عليها تحتاج إلى طول نفس لا تتسع لهذه العجالة ، فلتركها إلى موضعها .

وقد شنع الحافظ الذهبي على ابن حبان في عدة مواضع من الميزان ،

- ( ١ ) فقال في ترجمة أفلح بن سعيد المدني ( م س ) :  
 ( ابن حبان ربما قصب الثقة ، حتى كأنه لا يدري ما يخرج من رأسه . )  
 ( ٢ ) وقال في ترجمة أيوب بن عبد السلام : ( إن ابن حبان صاحب تشويش وشغب ) .

( ٣ ) وقال في ترجمة سعيد بن عبد الرحمن الجمعي ( م د س ق ) : ( ابن حبان خساف قصاب ) .

( ٤ ) وقال في ترجمة سويد بن عمرو الكمي ( م ت س ق ) : ( وأما ابن حبان فإنه أسرف واجترأ ) .

( ٥ ) وقال في ترجمة عثمان بن عبد الرحمن الطرائفي ( د س ق ) : ( وأما ابن حبان فإنه يقع كعادته ) .

( ٦ ) وقال في ترجمة محمد بن الفضل السدوسي ( عارم ) ( ع ) : ( قسأل الدارقطني تغير بأخرة ، وما ظهر له بعد اختلاطه حديث منكره وهو ثقة ، قال الذهبي : فهذا قول حافظ العصر الذي لم يأت بمسند النسائي مثله ، فأين هذا القول من قول ابن حبان الخساف المشهور في عارم ؟ ) ( ١ )

( ١ ) انظر ميزان الاعتدال على التوالي ( ١ : ٢٧٤ ، ٢٩٠ ) ، ( ٢ : ٤٤٨ ) ، ( ٢٥٣ ) ، ( ٣ : ٤٥ ) ، ( ٤ : ٨ ) .

وللمحافظ ابن حجر تعقبات كثيرة على ابن حبان ، دافع فيها عن رجال البخارى الذين ضعفهم ابن حبان ، فمن ذلك :

( ١ ) فى ترجمة زياد بن عبد الله <sup>(١)</sup> بن الطفيل البكائى قال : أفرط ابن حبان فقال : لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد . قال ابن حجر : ليس له عند البخارى سوى حديث مقروناً .

( ٢ ) وفى ترجمة سالم بن مجلان الأقطس قال : أفرط ابن حبان فقال : كان مرجئاً يظلب الأخبار .

( ٣ ) وفى ترجمة يونس بن أبى الفرات قال : تكلم فيه ابن حبان بلا مستند . وقد أحصيت له أكثر من ثلاثين موضعاً ضعف فيها ابن حبان بحسن رجال البخارى ، وكان دافع ابن حجر قويا فى بعض الأحيان ، ولا يخرج حسن مراد ابن حبان من كلامه فى أكثرها .

وأما مقاله الذهبى فيحتاج إلى وقفات طويلة ، لن أتجاوزها  
إن شاء الله تعالى .

وقد بقيت مباحث كثيرة تتعلق بكتاب المجروحين أتركها إلى موضحها من الباب ، حتى لا يتكرر الكلام فى غير طائل .

( ١ ) هدى السارى (ص ٤٠٣) .

( ٢ ) ماسبق (ص ٤٠٤) : المجروحين (١ : ٣٤٢) .

( ٣ ) ماسبق (ص ٤٦٤) .